

البیوت

فی القُرْآنِ الْکَرِیمِ

تألیف
میر عدون جمعة حناوی الخلبوسی

إشراف
أ.د. درید حسن أحمد



ح) مكتبة دار الزمان، ١٤٢٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجلبوسي، سعدون جمعة حمادي

البيوت في القرآن الكريم - المدينة المنورة

٤٤٠ ص: ١٧×٢٤ سم

ردمك ٧ - ٠ - ٩٣٧٦ - ٩٩٦٠

١- القرآن - مباحث عامة أ- العنوان

٢٣/١٤٠٤

ديوي ٢٢٩

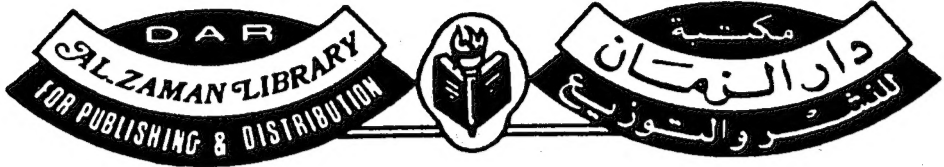
رقم الإيداع: ٢٣/١٤٠٤

ردمك: ٧ - ٠ - ٩٣٧٦ - ٩٩٦٠

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م



Medina Monawara - Al-Sittin Road - P.O. Box. 1556

TEL: 8366666 - FAX: 8383226

Kingdom of Saudi Arabia

المدينة المنورة - شارع الستين - ص.ب. ١٥٥٦

هاتف ٨٣٦٦٦٦٦ فاكس ٨٣٨٣٢٢٦

المملكة العربية السعودية

البيوت

في القرية الكريمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾

[سورة النور: ٣٦]

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ
جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾

[سورة النحل: ٨٠]

عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ:

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا النِّجَاةُ؟ قَالَ ﷺ:

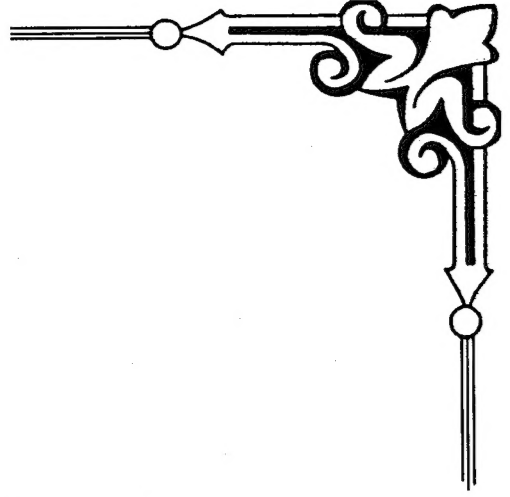
”أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلَيْسْ تَمَكَّ بَيْتَكَ، وَإِبْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ“

رواه الترمذي (٦٠٥/٤)

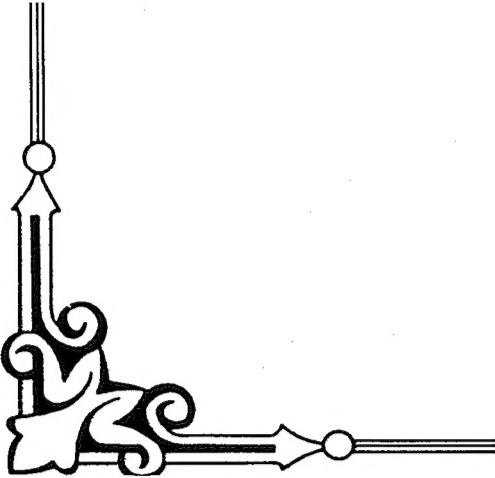
[كتاب الزهد]

باب ما جاء في حفظ اللسان

برقم (٢٤٠٦)



أصل هذا الكتاب
رسالة ماجستير تقدم بها المؤلف
إلى مجلس كلية اللغة العربية
وعلم القرآن لنيل درجة الماجستير
في علوم القرآن تخصص وتفسير



الإهداء

- إلى... مَنْ بَيْتُهُ فِي طَيِّبَةِ حَرَمٍ
واسمه قَسَمٌ مِنْ أَعْظَمِ الْقَسَمِ
سَيِّدِي وَسُنْدِي وَشَفِيعِي أَبِي الْقَاسِمِ مُحَمَّدٍ ﷺ
- إلى.. مَنْ بَذَرَ فِي حُبِّ الْعِلْمِ لِيَكُونَ هَذَا شَيْئاً مِنْ قَطَافِهِ
شَيْخِي الْجَلِيلِ خَلِيلِ مُحَمَّدِ الْفَيَاضِ
- إلى.. مَنْ لَهَمَا فِي قَلْبِي مَكَانَةً وَحِبّاً
﴿رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّنَاكَ صَغِيرًا﴾...
- ...والذي
- إلى.. مَنْ جَمَعَنِي وَإِيَاهُمْ مَنْزِلَ وَاحِدٍ.. إِخْوَتِي وَأَخَوَاتِي
- إلى.. مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ مِنَ الدُّنْيَا ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾
شَقِيقِي خَالِدٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - .
- إلى.. مَنْ أَعَانَتْنِي عَلَى إِنْجَازِ هَذَا الْبَحْثِ
فَحَمَلَتْ عَنِّي مَشَاغِلَ بَيْتِي.. زَوْجَتِي «أُمِّ مُحَمَّدٍ».
- إلى.. رِيحَانَتِي فِي الدُّنْيَا صَغِيرَتِي «مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ»
أَهْدِي ثَوَابَ هَذَا الْجُهْدِ الْمَتَوَاضِعِ رَاجِئاً الْقَبُولَ

شكر وتقدير

الشكر لله ﷻ بدءاً وختاماً، وله الحمد والفضل على ما أنعم وتكرم في تذليل كل صعب وتيسير كل عسير، فلا يسعني وأنا أنتهي من اعداد هذا البحث أن أذكر لأهل الفضل فضلهم، وأن أتقدم بالشكر الجزيل لهم، إمتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾^(١) واقتداءً بقول رسول الله ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»^(٢)، فكان لزاماً عليّ أن أتقدم بجزيل شكري وخالص تقديري إلى أستاذي المشرف الدكتور دريد حسن أحمد، لتفضله بقبول الاشراف على اعداد رسالتي، ولتوجيهاته وجهوده القيمة، التي كان لها الأثر الطيب في إخراج هذا البحث بالصورة التي خرج بها، فجزاه الله خير الجزاء وأثابه ما هو أهل له.

كما أتقدم بجزيل الشكر والامتنان لأساتذتي الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة، سائلاً المولى - ﷻ - أن أكون عند حسن الظن في الاستجابة لما يوجهون به من نقد وتقويم لإظهار هذا البحث بصورة أبهى وأجمل، فلهم مني بالغ التقدير والاحترام، كما يطيب لي أن أقدم خالص شكري وامتناني إلى كل من تصفح البحث وقرأه وأبدى توجيهاته وتصوياته، أخص منهم فضيلة الدكتور رشيد العبيدي والدكتور محمد صالح عطية والدكتور مشعان سعود العيساوي والدكتور مكّي حسين الكبيسي سدد الله خطاهم وأصلح بالهم.

وأبقى دوماً ذاكراً جميل أخي ورفيقي في الطلب الشيخ درة القراء أبي حفص عمر عبد عباس الذي طوقني بفضله، فكان نعم الرفيق والأخ المعين، فقد قضى وقتاً طويلاً معي صابراً محتسباً، فجزاه الله خير الجزاء وجمعني الله وإياه في الفردوس الأعلى إنه سميع الدعاء.

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣٧.

(٢) سنن الترمذي ٣٣٩/٤ [كتاب البر والصلة - باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك] برقم ١٩٥٥.

كما لا يفوتني أن أشكر أصحاب المكتبات العامة والخاصة والعاملين عليها لما أبدوه من تعاون وتسامح، وأجد نفسي مديناً بالفضل لمكتبة جامع الفياض ولأمينها الأخ عبد الفتاح ممدوح الكبيسي.

ولا يسعني في الوقت نفسه أن أتقدم بدعواتي الخالصات وثنائي الجميل لكل من مدّ لي يد العون أخص منهم شقيقي الشيخ محمد والأخ الشيخ محمود عبد العزيز والأخ يونس عبد الهادي والأخ محمود شمس الدين والأخ طالب رشيد والأخ ياسر عواد وإلى كل من أعانني ولو بشطر كلمة، وإلى كل محب ينتظر بكل لهفة وشوق أخبار نجاحي في مهمتي بالتفوق والقبول، إلى الجميع - وأسماؤهم في قلبي - كل ثناء وعرفان.

إلى كل أولئك جميعاً ابتهل إلى الله - ﷻ - أن يجزيهم خير الجزاء، وأن يغفر لهم ولوالديهم ولجمع المسلمين... آمين.

الباحث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي أعجز وصفه ألسنة الواصفين، وحجب عن معرفة إدراك كنه ذاته أفهام العارفين، وأوحى إلى إبراهيم خليله أن طهر بيتي للطائفين والعاكفين، وجعل حرمة حرمة ملاذاً للداخلين وملجأ للخائفين.

أحمده تعالى على نعمه سرأً وعلناً، وأخص منها ما ذكرها بقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾^(١)، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد عبده ورسوله الذي بأقواله وأفعاله إلى الله أرشدنا وعلى آله وأصحابه السادة الصادقين الأئمة، وسلم تسليمًا كثيرًا طيباً حسناً.

وبعد..

فإن القرآن هو الروح الذي يؤنس المؤمن في رحلته الشاقة في هذه الحياة، والنور الذي يضيء جوانب روحه والمعلم الذي يلقنه، والهادي الذي يبين له معالم الطريق.

وإنه من دواعي سروري وفخري أن أكون من طلاب القرآن وممن يسهم في خدمة هذه الشريعة الغراء في علومها الناصعة البهية، وهذا فضل من الله تبارك وتعالى عليّ بأن وفقني للبحث في هذا العلم الجليل ((علم التفسير))، فكم كنت مولعاً منذ الصغر للعيش في رحاب القرآن الكريم تلاوةً وتدبراً وتعلماً وتعليماً، وبفضل النصيح والارشاد اللذين أمدني بهما مرشدي وقودتي الشيخ خليل محمد الفياض - حفظه الله - وهو يرشدنا إلى التدبر في قراءة القرآن وفهم المعنى الذي نقوله وذلك في كل مجلس يجمعنا به ويأمرني بأن أتلو عليه القرآن، وإن هذا التدبر لا يكون إلا بعد أن نقف عند كل كلمة بل عند كل حرف ونتطلع إلى أسرارهِ وإعجازه وبلاغته ولغته وإعرابه ومعانيه.

وكان هذا دافعاً كبيراً لي أن أبحث في مصنفات علوم القرآن عن موضوع يلائم دراستي في قسم علوم القرآن، واستشرت أساتذتي ومشايخي الكرام.

فأرشدني الشيخ الدكتور مكي حسين الكبيسي - جزاه الله خيراً - إلى موضوع

(١) سورة النحل، الآية ٨٠.

البيوت في القرآن الكريم.

ونعم ما اختاره فهو موضوع مهم له مساس كبير في حياة الناس ابتداء من بيوت العبادة إلى بيوت السكن، فبيوت العبادة لا يخفى على أحد مكانتها وأهميتها، فهي أحب البقاع إلى الله تعالى، وكانت القدسية والفضيلة الكبرى لهذه البقاع في مكة المكرمة حيث بيت الله الحرام الذي كان له الذكر الأكبر في آيات الكتاب العزيز فهو قبلة المسلمين ومحط أنظارهم وإليه تهوي أفئدتهم لأداء فريضة ربهم.

وأما بيوت السكن فهي نواة المجتمع، فما المجتمع إلا مجموعة بيوت تعيش أفرادها فيها، فهو بمنزلة القلب من الجسد فإذا صلح القلب صلح الجسد كله وإذا فسد القلب فسد الجسد كله، وكذلك البيوت إذا صلحت صلح المجتمع وإذا فسدت فسد المجتمع.

فالبيوت على أنواعها ما هي إلا ركن يبنى الفرد ويقومه ويجعله فرداً صالحاً عند الله وعند عباد الله، فلأهمية هذا الموضوع عقدت العزم بعد التوكل على الله - سبحانه وتعالى - أن يكون موضوع البيوت هو محور بحثي في رسالة الماجستير.

وقد عمدت إلى أن تكون الدراسة تحليلية لما في هذه الطريقة من مزايا خاصة، فهي تكشف عن الأبعاد الفكرية واللغوية والبلاغية مما يزيد الدارس تعمقاً في فهم دقائق القرآن وأسراره.

والحقيقة أن هذه الطريقة في التفسير التي تعتمد على تناول الآيات ذات الموضوع الواحد، والهدف الواحد من الطرق المثلى التي تذاع للناس بقصد ارشادهم إلى ما تضمنه القرآن من أنواع الهداية ((فهي تمكن المفسر من علاج موضوعات عملية كثيرة، كل موضوع منها قائم بنفسه لا يتصل بسواه ولا يختلط بغيره، فيعرف الناس موضوعات القرآن بعناوينها الواضحة، ويعرفون صلة القرآن بحياتهم الواقعية: القرآن وأصول التشريع، القرآن والعلم، القرآن والأسرة، القرآن وأسلوب الاجتماع، القرآن والاقتصاد، القرآن والتضحية، والقرآن والبر، وهكذا... إلى آخر ما يمكن عرضه من موضوعات القرآن التي تعتبر بحق عمداً قوية في بناء الأمة ونهضتها...))^(١).

وحيث أنني لم أقف على رسالة علمية تناولت هذا الموضوع بدراسة تحليلية متخصصة يرجع الناس إليها في أمور دينهم ودنياهم، فكان هذا مع ما تقدم من أسباب اختياري لهذا الموضوع.

(١) من هدي القرآن: ٢٢٣، للامام الشيخ محمود شلتوت، مط دار الكاتب العربي - القاهرة.

منهج البحث

أما منهج البحث الذي اتبعته في هذه الرسالة فهو ما يأتي:

- (١)- جمعت الآيات التي جاء فيها لفظ (البيت) معرّفاً أو منكرّاً أو مضافاً، مفرداً أو مجموعاً، واقتصرت على الجذر (ب ي ت) حصراً، فإذا كانت الآية طويلة فإنني أقتصرت على ما يتعلق بما له علاقة بلفظة (البيت) في الآية الكريمة.
- (٢)- قسمت آيات الموضوع إلى عناوين، ليتيسر دراستها والبحث فيها.
- (٣)- قمت بوضع تمهيد لبعض الفصول والمباحث والمطالب لما أراه يحتاج إلى ذلك، وأغفلت عن بعضها.
- (٤)- الرجوع إلى المعاجم اللغوية وكتب المعاني والغريب والوجوه والنظائر، لبيان بعض الألفاظ التي تحتاج إلى توضيح.
- (٥)- اعتمدت على أمهات كتب التفسير ليتسنى لي معرفة معاني الآيات وبيان ما ورد في تفسيرها مما أثر عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين وأعلام المفسرين.
- (٦)- ذكرت أسباب النزول - التي تعين على فهم الآية - إن وجدت والناسخ والمنسوخ.
- (٧)- توضيح وجه الارتباط بين الآيات.
- (٨)- بيان وجوه الاعراب لبعض الألفاظ التي تغير في معنى الآية أو التي اختلف النحاة فيها.
- (٩)- بيان إختلاف القراء في بعض ألفاظ الآية وتوجيهها.
- (١٠)- الوقوف على وجوه الإعجاز والبلاغة واللطائف التي وردت في الآية.
- (١١)- محاولة التوفيق والجمع بين الآراء المختلفة وترجيح الأقرب منها بناءً على ما ورد من الأدلة.
- (١٢)- معرفة دور البيت في المجتمع من خلال ربط الآية القرآنية بالواقع، وبيان ضرورة الأخذ بمعاني الآيات ومدلولاتها في الوقت الحاضر.
- (١٣)- استنباط الأحكام والمسائل التي ترشد إليها الآية الكريمة، سواء كانت فقهية أو توجيهية، وتخريج المسائل الفقهية من مصادرها.

(١٤)- ختم تحليل الآية الكريمة أو الآيات بالمعنى العام لها بما استنبطته من خلال تفسير الآية.

(١٥)- نسبت الآيات القرآنية إلى سورها ذاكراً اسم السورة ورقمها، وقمت بتخريج الأحاديث النبوية من مصادرها الأصلية، ذاكراً اسم الكتاب ورقم الحديث والجزء والصفحة، وعزوت الأقوال إلى أصحابها من خلال توثيق الكلام بنصه من مصدره وميّزت تلك النصوص بعلامات التنصيص، فمثلاً القوس المزهر ﴿ 》 إشارة إلى آية قرآنية، والقوسين الصغيرين « » إشارة إلى حديث نبوي، وأما القوسان (()) فإشارة إلى النص المقتبس.

(١٦)- ترجمت لبعض الأعلام الغامضين الذين وردت أسماؤهم في الدراسة في ملحق خاص بهم، وعمدت إلى ذلك لكثرة الهوامش في كل صفحة.

صعوبات البحث

أما الصعوبات التي واجهتني في كتابة البحث فأذكرها عليها تكون شفيعة تقصيري وزللي وإلا فكل الصعوبات التي تواجه الباحثين لا تساوي شيئاً أمام جهد سلفنا الصالح الذين أفنوا حياتهم في خدمة الشريعة الإسلامية الغراء، فما نحن إلا متتورين بنورهم وسائرهم على آثارهم، ولعل من أهم المصاعب التي واجهتني وأنا أكتب هذه الرسالة ما يأتي:

(١)- الظروف الصعبة التي يمر بها بلدنا العزيز من جراء الحصار الظالم، عجل الله تعالى في خراب بيت من كان وراءه.

(٢)- صعوبة الحصول على المصادر الشرعية، سيما أن موضوع بحثي يحتاج إلى مصادر متنوعة من كتب التفسير، واللغة والاعراب، وكتب البلاغة والقراءات وأسباب النزول، وكتب الفقه والحديث والسيرة والتاريخ وغيرها، كما أن آياته موزعة ضمن أجزاء القرآن كلها إلا الجزء الثالث والعشرين والرابع والعشرين.

(٣)- اختلاف العلماء في وجهات نظرهم للحكم على الآية، مما يضطرني إلى أن أبحث في المسألة أياماً وربما شهراً كاملاً أتحرى وأبحث حتى أخرج برأي مناسب، حتى قال القاضي ابن العربي - رحمه الله - في آية من الآيات التي بحثتها: ((هذه

معضلة من الآيات لم أجد من يعرفها، ولعل الله أن يعين على علمها))^(١).

خطة البحث

لقد اقتضت ضرورة البحث تقسيمه على بابين سبقهما مقدمة وتمهيد، وأعقبهما خاتمة على الترتيب الآتي:

(١)- ذكرت في المقدمة أهمية البحث وسبب اختياري له ثم الصعوبات التي واجهتني، ثم بينت منهجي في الكتابة وخطة البحث.

(٢)- بينت في التمهيد تعريف (البيت) في اللغة والاصطلاح، ثم ذكرت الوجوه الواردة في القرآن الكريم له، ومن ثم الألفاظ المقاربة ووجوه القراءة عند القراء.

(٣)- خصصت الباب الأول بالحديث عن بيوت الله تعالى، مقسماً إياه على ثلاثة فصول وهي كالآتي:

الفصل الأول : بناء البيت الحرام. ويتضمن أربعة مباحث:

المبحث الأول : تعيين مكان البيت.

المبحث الثاني : أول البيوت.

المبحث الثالث : قصة إسكان أهل البيت.

المبحث الرابع : رفع قواعد البيت.

الفصل الثاني : الأمن في البيت الحرام، ويتضمن تمهيداً وثلاثة مباحث:

المبحث الأول : الأمن لمكان البيت.

المبحث الثاني : الأمن لسكان البيت.

المبحث الثالث : الأمن لقاصد البيت.

أما الفصل الثالث : العبادة في بيوت الله تعالى، ويتضمن ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : مظاهر العبادة.

المبحث الثاني : البدعة في العبادة.

(١) أحكام القرآن ١/ ٣٥٤، لأبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي (ت ٥٤٣هـ)، تح علي

محمد البجاوي، مط دار الجبل، بيروت - لبنان، ١٩٨٨م.

المبحث الثالث : الحج ومناسكه .

(٤)- أما الباب الثاني فقد جاء شاملاً لبيوت العالمين، وقد جعلته أربعة فصول،

وهي كالآتي :

الفصل الأول : بيوت الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، ويتضمن مبحثين :

المبحث الأول : بيت النبي - ﷺ - .

المبحث الثاني : بيوت بقية الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -

الفصل الثاني : بيوت الصالحين، وقسمته على أربعة مباحث :

المبحث الأول : نعمة البيوت .

المبحث الثاني : آداب البيوت .

المبحث الثالث : هجرة البيوت ابتغاء مرضات الله تعالى .

المبحث الرابع : إيثار بيوت الآخرة على بيوت الدنيا .

الفصل الثالث : بيوت الطالحين، وقد اشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول : بيوت الدنيا وهوانها على الله تعالى .

المبحث الثاني : بيوت ثمود .

المبحث الثالث : بيوت المنافقين .

المبحث الرابع : الانتقام من اليهود وتخريب بيوتهم .

الفصل الرابع : بيوت بقية المخلوقات، وخصصته بالحديث عن بيوت النحل

وبيت العنكبوت، وقد جعلته مبحثين :

المبحث الأول : بيوت النحل .

المبحث الثاني : بيت العنكبوت .

(٥)- أما الخاتمة فقد أوجزت فيها خلاصة البحث وأهم النتائج التي توصلت إليها

في بحثي، ثم تلا ذلك ملخص لأهم الأعلام الذين ورد ذكرهم أثناء البحث، ثم فهرست بالمصادر والمراجع التي اعتمدتها، وختمت ذلك بملخص الرسالة باللغة الانكليزية . هذا وإني قد بذلت جهدي في إعداد هذا البحث معتمداً على الطريقة التي اعتمدها الباحثون قبلي، وعملاً بالتوجيهات السديدة من أهل الاختصاص والخبرة،

معتمداً على أوثق المصادر القديمة والحديثة، متوخياً الأمانة فيما نقلت، فأرجو أن أكون قد وفقت في عملي، على أنني لا أدعي الكمال فيما قدمت إذ الكمال لله تعالى وحده، وحسبي أنني بذلت ما أمكنتني ذلك، فإن كان صواباً فذلك بتوفيق الله وفضله، وإن كان غير ذلك فمن نفسي، فأرجو في كلتا الحالتين أن لا أُحرم أجر النيّة في فعل الخير، فأسأل الله العظيم أن يكتب لهذا البحث المتواضع القبول، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وما توفيقني إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وصلّى الله على سيدنا محمد ما ذكره الذاكرون

وسها وغفل عن ذكره الغافلون وسلم تسليماً كثيراً.

الباحث

التمهيد

البيت

تعريف وبيان

البيت في اللغة:

عند التقصي والبحث في معاجم اللغة للفظ (بيت) نجد أنها عُرِّفت بتعاريف متقاربة معنًى وإن تغايرت لفظاً^(١).

ولعل ما أورده ابن فارس في كتابه (مقاييس اللغة) يكاد يتصدر تلك التعاريف، بما حواه من معنًى جامع شامل لهذه اللفظة، حيث قال - رحمه الله - : ((الباء، والياء، والتاء، أصل واحد، وهو المأوى والمآب، ومجمع الشمل، يقال: بيت وبيوت وأبيات، ومنه يقال لبيت الشَّعر بيت على التشبيه؛ لأنه مجمع الألفاظ والحروف والمعاني على شرط مخصوص وهو الوزن، وإياه أراد القائل:

(١) ينظر: العين: ١٣٨/٨، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، الكويت، ١٩٨٢م، وجمهرة اللغة: ١٩٩/٣، للشيخ أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ)، مط المعارف العثمانية - الهند، ط ١ - ١٣٤٥هـ، وتهذيب اللغة مادة (بات) ٣٣٣/١٤، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى (ت ٣٧٠هـ)، تح: علي حسن هلالى، مطابع سجل العرب القاهرة - مصر، ومجمل اللغة مادة (بيت) ١٣٩/١ - ١٤٠، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي (ت ٣٩٥هـ)، تح: زهير عبد المحسن سلطان، مط، مؤسسة الرسالة، ط ١ - ١٩٨٤م، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية مادة (بات) ١/٢٤٤، لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، تح: أحمد عبد الغفور عطار، مط دار الملايين - بيروت، ط ٢ - ١٩٧٩م، والمخصص: ١٢٧/٥، لأبي الحسن علي بن اسماعيل المعروف بابن سيدة (ت ٤٥٨هـ)، دار الفكر، ولسان العرب مادة (بيت) ١/٣٩٢ - ٣٩٣، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ)، تح: عبدالله علي الكبير وآخرين، مط دار المعارف - القاهرة، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي مادة (بات) ١/٣٩، للعلامة أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي (ت ٧٧٠هـ)، مط الخيرية بمصر، ط ١ - ١٣٠٥هـ، وتاج العروس من جواهر القاموس مادة (بيت) ١/٥٢٩ - ٥٣١، للسيد محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، مط الخيرية بمصر، ط ١ - ١٣٠٦هـ.

وَبَيَّتْ عَلَى ظَهْرِ الْمَطْيِ بَنِيَّتُهُ بِأَسْمَرَ مَشْقُوقِ الْخَيَاشِيمِ يَرْعُفُ
أراد بالأسمر: القلم))^(١).

وقيل: سمي بيتاً لأنه يبات فيه (يقام فيه) ليلاً، أما من جعله من المبيت الذي هو النوم، فقد ضيق واسعاً، وهذا ما لم يرتضه الفراهيدي إذ قال: ((البيتوتة: دخولك في الليل، تقول: بتّ أصنع كذا إذ كان بالليل وبالنهار ظللت، ومن فسر بات على النوم فقد أخطأ، ألا ترى أنك تقول: بتّ أراعي النجوم معناه: بتّ أنظر إليها، فكيف نام وهو ينظر إليها؟))^(٢).

وإلى هذا الفهم لمعنى البيت ذهب الزجاج حين قال: كل من أدركه الليل فقد بات نام أو لم ينم^(٣).

واستعملت لفظة (بيت) فيما سوى ذلك، فجاءت بمعنى (الشرف) يقال: بيت تميم في حنظلة، أي: شرفها، وجاءت بمعنى (القصر) ومنه قول جبريل - عليه السلام - لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - في خديجة - رضي الله عنها -: (وبشرها ببيت في الجنة) يعني: بشرها بقصر من لؤلؤة مجوّفة^(٤)، وبيت الرجل: أهله وعياله، وزوجته، وحيّه، والعرب تسمى ما يلتجأ إليه بيتاً، ولهذا سمّوا الأنساب بيوتاً، وقالوا: بيوتات العرب يريدون النسب^(٥)، وهو علم بالغلبة على الكعبة المشرفة وهي البيت الحرام والبيت العتيق، وبيت الله^(٦)، وجمع البيت أبيات وبيوت، وجمع الجمع أبايت وبيوتات وأباوات، وتصغيره بُيَيْت، ولا يقال: بويت^(٧).

(١) مقاييس اللغة مادة (بيت) ٣٢٤/١ - ٣٢٥، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، تحد: عبد السلام محمد هارون، مط، دار الكتب العلمية، إيران - قم.

(٢) العين ١٣٨/٨، وينظر: تهذيب اللغة مادة (بات) ٣٣٣/١٤، ومعجم متن اللغة مادة (بيت) ٣٦٤/١، للعلامة أحمد رضا، دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٩٥٨م.

(٣) ينظر: اللسان مادة (بيت) ٣٩٣/١، وتاج العروس مادة (بيت) ٥٣١/١.

(٤) ينظر: صحيح مسلم ١٨٨٧/٤ [كتاب فضائل الصحابة - باب فضائل خديجة - عليه السلام] برقم ٢٤٣٢، للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ)، تحد: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مط عيسى البابي الحلبي، ط ١ - ١٩٥٥م.

(٥) ينظر: معجم متن اللغة ٣٦٤/١، وتاج العروس ٥٣٠/١.

(٦) معجم متن اللغة ٣٦٤/١.

(٧) ينظر: الصحاح ٢٢٤/١، والقاموس المحيط ١٤٤/١، للعلامة مجد الدين محمد بن يعقوب =

تعريف (البيت) في الاصطلاح

لا خلاف بين ما عرّفه اللغويون من معنى للبيت وما اصطلاح عليه أهل التفسير، فهم يطلقونه على (مأوى الانسان ومسكنه) ومن تلك المعاني:

(١)- قال القاضي ابن العربي - رحمته -: ((إن كل ما علاك فأظلك فهو سقف، وكل ما أظلك فهو أرض، وكل ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار، فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت))^(١). قال القرطبي رحمته : ((وهذه حقيقة البيّة وإن لم يكن بها ساكن))^(٢).

(٢)- وحدّه البروسوي - رحمته - بقوله: ((اسم لمبنى مسقف مدخله من جانب واحد بُني للبيتوته))^(٣).

(٣)- وقال العلامة ابن عاشور - رحمته -: ((هو إسم جنس للمكان المتخذ مسكناً لواحد أو عدد من الناس في غرض من الأغراض، وهو مكان من الأرض يحيط به ما يميزه عن بقية بقعته من الأرض ليكون الساكن مستقلاً به لنفسه وللمن يتبعه، فيكون مستقراً له، وكثاً يكتنه من البرد والحر، وساتراً يستتر فيه عن الناس، ومحطاً لآثائه وشؤونه))^(٤).

ومن كل هذه المعاني وغيرها التي ذكرها العلماء يتبين صحة ما ذهبنا إليه من أنه لا فرق بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، فيكاد يكون المعنى واحداً على الرغم من اختلاف عبارات العلماء.

وجوه (البيت) في القرآن الكريم

الوجوه: (هي اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان)^(٥)، وقد وردت لفظة (البيت) مفرداً وجمعاً، ومن خلال البحث في كتب الوجوه والنظائر وجدت أن لفظة

= للفيروز آبادي (ت ٨١٧) مط دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨ م.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٦٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٣٢٥، لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١هـ)، مط، دار احياء التراث العربي - بيروت.

(٣) روح البيان ٨/ ٣٦٦، للشيخ اسماعيل حقي البروسوي (١١٣٧هـ)، مط عثمان بك - استانبول، ١٩٢٨ م.

(٤) التحرير والتنوير ١/ ٧٠٨، للعلامة محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر.

(٥) البرهان في علوم القرآن ١/ ١٠٢، للإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت ٧٤٥هـ)، تح: =

(البيت) جاءت في القرآن الكريم على ثلاثة عشر وجهاً وهي^(١):

(١)- المنازل: ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾^(٢) يعني: المنازل.

(٢)- المساجد: ومنه قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ﴾^(٣)، يعني: المساجد.

(٣)- السفينة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ دَخَلَ بَيْتَ مُؤْمِنَةٍ﴾^(٤)، يعني: سفيتي، ويقال: ديني.

(٤)- الكعبة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا﴾^(٥)، يعني: الكعبة.

(٥)- المنزل في الجنة: ومنه قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾^(٦)، يعني: منزلاً في الجنة.

(٦) الحُجَر: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾^(٧)، يعني: حجر كن.

= محمد أبو الفضل إبراهيم، مط دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي، ط ١ - ١٩٥٧م،
الانتقان في علوم القرآن ١/ ١٤١، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، مط دار
الندوة الجديدة، بيروت - لبنان.

(١) ينظر: قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: ٨١-٨٣، للحسن بن محمد الدامغاني (ت ٤٧٨هـ)، تح: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين - بيروت، ط ١ - ١٩٧٠م، ومنتخب قرة عيون النواظر في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: ٨٩، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، تح: محمد السيد الصفتاوي ود. فؤاد عبد المنعم أحمد الناشر منشأة المعارف - الاسكندرية ١٩٧٩م، ونزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: ١٧٢-١٧٤، لابن الجوزي، تح: عبد الكريم كاظم الراضي، وهي رسالة مقدمة إلى كلية الآداب في الجامعة المستنصرية من متطلبات درجة الدبلوم العالي المخطوطات ١٩٨٠م، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٢/ ١٩٦ - ١٩٧، لنجم الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ)، تح: محمد علي النجار، لجنة إحياء التراث الاسلامي - القاهرة، ١٣٨٥هـ.

(٢) سورة النور، الآية: ٢٧.

(٣) سورة النور، الآية: ٣٦.

(٤) سورة نوح، الآية: ٢٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٦) سورة التحريم، الآية: ١١.

(٧) سورة الأحزاب، الآية: ٣٤.

(٧)- السجون: ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ﴾^(١)، يعني: فاحبسوهم في السجون.

(٨)- العش: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾^(٢)، يعني: المساكن والأعشاش.

(٩)- الخيام والفساطيط: ومنه قوله تعالى: ﴿مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾^(٣)، يعني: الخيام.

(١٠)- الكهوف والغيران: ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَاُنَا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾^(٤)، يعني: كهوفاً وغيراناً.

(١١)- البيت بعينه: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(٥).

(١٢)- البيت الملك: ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾^(٦)، يعني: في ملكها وقبضتها.

(١٣)- الخانات: ومنه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ﴾^(٧)، يعني: الخانات.

الألفاظ المقاربة للفظة (البيت)

ورد معنى (البيت) في القرآن الكريم بألفاظ أخرى تلتقي مع البيت في بعض معانيها، وتفترق معه في أخرى، ويمكن الإشارة إليها على النحو الآتي:

[١]- المنزل:

المنزل لغة: موضع النزول^(٨)، ومكان نُزِّلَ: يُنْزَلُ فيه كثيراً، ووجدت القوم على

(١) سورة النساء، الآية: ١٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ٦٨.

(٣) سورة النحل، الآية: ٨٠.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٨٢.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٠٠.

(٦) سورة يوسف، الآية: ٢٣.

(٧) سورة النور، الآية: ٢٩.

(٨) معجم متن اللغة مادة (نزل) ٤٤٢/٥، المصباح مادة (نزل) ١٣٤/٢.

نَزَلَتْهُمْ أَي مَنَازِلِهِمْ^(١).

والمَنَزَل: هو اسم لما يشتمل على بيوت وصحن مسقف ومطبخ يسكنه الرجل بعياله^(٢)، وهو عند الفقهاء دون الدار وفوق البيت وأقله بيتان أو ثلاثة^(٣).

[٢]- الدار:

الدار لغة: المحل يجمع البناء والعُرْصَة، والموضع يحل به القوم، وهي أنثى وتذكر على التأويل^(٤).

والدار: اسم لما اشتمل على بيوت ومنازل، وصحن غير مسقف^(٥).

وجاءت لفظة (الدار) في القرآن الكريم بمعان مختلفة منها^(٦):

أ- المنزل: ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جُثُمِينَ﴾^(٧)، أي: في منازلهم.

ب- المدينة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ تَحُلْ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾^(٨)، أي: مدينتهم.

ج- الجنة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَنَعَم دَارُ الْمُتَّقِينَ * جَنَّاتٌ عَدْنٌ﴾^(٩).

(١) مقاييس اللغة مادة (نزل) ٤١٧/٥.

(٢) ينظر: الكليات ٤١٣/١، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني (ت ١٠٩٤هـ)، تح: عدنان درويش ومحمد المصري، مط الثقافة والارشاد القومي - دمشق، ١٩٨١م، ومحيط المحيط ١/١٤٥، للمعلم بطرس البستاني، مكتبة لبنان - بيروت، ١٢٨٦هـ - ١٨٧٠م، وجامع العلوم في اصطلاحات الفنون الملقب دستور العلماء ٩٨/٢، للقاضي: عبد النبي عبد الرسول الأحمدي نكري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ط ٢ - ١٩٧٥م.

(٣) المغرب في ترتيب المعرب ٢٩٧/٢، للإمام اللغوي أبي الفتح ناصر الدين المُطَرِّزي (ت ٦١٠هـ)، تح: محمود فاخوري، وعبد الحميد مختار، الناشر مكتبة أسامة بن زيد، حلب - سوريا، ط ١ - ١٩٧٠م.

(٤) معجم متن اللغة مادة (دور) ٤٧١/٢.

(٥) أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء: ٢١٧، للشيخ قاسم القانوني، (ت ٩٧٨هـ)، تح: د. أحمد عبد الرزاق الكبيسي، نشر دار الوفاء السعودية - جدة، ط ١ - ١٩٧٨م، الكليات ٤١٣/١، جامع العلوم ٩٨/٢.

(٦) ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ١٧٧.

(٧) سورة هود، الآية: ٦٧.

(٨) سورة الرعد، الآية: ٣١.

(٩) سورة النحل، الآية: ٣٠-٣١.

د- جهنم: ومنه قوله تعالى: ﴿ذَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ﴾^(١).

والفرق بين البيت والدار: إن الدار تشتمل على بيوت ومنازل فهي أشمل من البيت والمنزل^(٢).

وجوه القراءات

(البيوت) بصيغة الجمع قرئت في القرآن الكريم حيث كانت - سواء عرفت باللام، أم أضيفت، أم كانت منكرة - بقراءتين:

إحدهما: بضم الباء وبها قرأ: ورش والبصريان (أبو عمرو البصري ويعقوب) وأبو جعفر وحفص.

والثانية: بكسر الباء، وبها قرأ الباكون منهم: ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وقالون وشعبة وخلف العاشر^(٣).

فالحجة لمن ضم: أنه أتى بالكلام على الأصل، والحجة لمن كسر: أنه لما كان ثاني الكلمة ياء كرهوا الخروج من ضم إلى ياء، فكسروا أول الاسم لمجاورة الياء ولم يجمعوا بين ضميتين إحدهما على ياء^(٤).

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٨-٢٩.

(٢) ينظر: المبسوط ٨/١٦٠-١٦١، لشمس الدين أبي بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي (ت ٤٨٣هـ)، مط دار المعرفة بيروت، ط ٣-١٩٧٨م، وأنيس الفقهاء: ٢١٧، والكتليات ١/٤١٣.

(٣) ينظر: الكافي في القراءات السبع: ٨٥، لأبي عبدالله محمد بن شريح الأندلسي (ت ٤٧٦هـ)، تح: أحمد محمود عبد السميع، مط دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١ - ٢٠٠٠م، وإرشاد المبتدي إلى تذكرة المنتهي في القراءات العشر: ٢٣٩، للإمام أبي العز محمد بن الحسين بن بندار الواسطي (ت ٥٢١هـ)، تح: عمر حمدان الكبيسي، المكتبة الفيصلية - مكة المكرمة، ط ١ - ١٩٨٤م، وغاية الاختصار في قراءات العشرة أئمة الأمصار ٢/٤٢٦-٤٢٨، للإمام المقرئ أبي العلاء الحسن بن أحمد الهمداني (ت ٥٦٩هـ)، تح: د. أشرف محمد فؤاد طلعت، مط جدة، ط ١ - ١٩٩٤م، والكنز في القراءات العشر: ١٣٣، للإمام عبدالله بن عبد المؤمن الواسطي (ت ٧٤٠هـ)، تح: هناء الحمصي، مط دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١ - ١٩٩٨م.

(٤) ينظر: الحجة في القراءات السبع: ٩٣، للإمام أبي عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه (ت ٣٧٠هـ)، تح: د. عبد العال سالم مكرم، مط مؤسسة الرسالة، ط ٥ - ١٩٩٠م، والكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: ٢٨٥، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ)، تح: د. محيي الدين رمضان، مط مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط ٣ - ١٩٨٤م.

الباب الأول

بيوت الله تعالى

ويتضمن ثلاثة فصول:

الفصل الأول : بناء البيت الحرام.

الفصل الثاني : الأمن في البيت الحرام.

الفصل الثالث : العبادة في بيوت الله تعالى.

الفصل الأول

بناء البيت الحرام

ويتضمن أربعة مباحث:

المبحث الأول : تعيين مكان البيت.

المبحث الثاني : أول البيوت.

المبحث الثالث : قصة اسكان أهل البيت.

المبحث الرابع : رفع قواعد البيت.

المبحث الأول تعيين مكان البيت

إنَّ تحديد البقعة التي بُني عليها البيت، والتي أراد الله لإبراهيم - عليه السلام - أن ينزلها، وأن تتشرف بحمل قواعد ذلك البيت، هو ما تحدثنا عنه الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(١).

وسنحلل هذه الآية الكريمة من خلال النقاط الآتية:

أولاً: ﴿بَوَّأْنَا﴾ في اللغة والغريب والوجوه والنظائر

- (التبوّؤ) في اللغة: أن يعلم الرجل الرجل على المكان إذا أعجبه لينزله، وأبأه منزلاً، وبوأه إياه، وبوأه له وبوأه فيه، بمعنى: هبأه له وأنزله، ومكّن له فيه^(٢).

(التبوّؤ) في الغريب: يأتي بعدة معاني منها^(٣):

أ- مساواة الأجزاء في المكان، يقال: بوأت له مكاناً: سويته فتبوا.

ب- التهيؤ، يقال: بوأت الرمح: هيئت له مكاناً ثم قصدت الطعن به.

ج- الحلول والاقامة، يقال: تبوأ المكان: حله وأقام به^(٤).

- (التبوّؤ) في الوجوه والنظائر: يأتي على عدة معاني منها^(٥):

(١) سورة الحج، الآية: ٢٦.

(٢) لسان العرب مادة (بوأ) ٣٨٢/١.

(٣) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: ١٥٨، للعلامة الراغب الأصفهاني (ت ٤٢٥هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، مط الدار الشامية - بيروت، ط ١ - ١٩٩٦ م.

(٤) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٢٨٢/٢.

(٥) ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ٧٩-٨٠.

أ- استوجبوا، لقوله تعالى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ مِنْ غَضَبٍ﴾^(١) أي: استوجبوا غضباً على غضب.

ب- ينزل، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي: أنزلناه.

ج- توطن، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْلَعِدَ لِلْقِتَالِ﴾^(٢) أي: توطن.

د- ترجع، لقوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِإِيمِي وَإِنَّكَ﴾^(٣)، أي: ترجع.

ثانياً: معنى (التبؤ) عند المفسرين

ورد معنى (التبؤ) عند المفسرين في الآية الكريمة كما يأتي:

(١)- قال الماوردي: ((فيه وجهان أحدهما: وطنا له مكان البيت، حكاه ابن عيسى، والثاني: معناه عرّفناه مكان البيت بعلامة يستدل بها))^(٤).

(٢)- مرجعاً يرجع إليه للعمارة والعبادة^(٥).

(٣)- هيأناه له بالتحديد المضبوط^(٦)، وعرفناه إياه لبيّنه بأمرنا على قواعده الأصلية المندرسة حين أمرناه ببنائه، كما يهيأ المكان لمن يريد النزول فيه^(٧).

ثم إن المفسرين لم يغفلوا ذكر كيفية التبؤ حيث أنهم قالوا: بؤاه له وأراه إياه بسبب ربح تسمى الخجوج، كنست ما فوق الأساس حتى ظهر الأساس الأول الذي كان مندرساً فبناه إبراهيم واسماعيل عليهما السلام، وقيل: أرسل مزنة فاستقرت فوقه

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٩.

(٤) النكت والعيون ٧٤/٣، لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي (ت ٤٥٠هـ) تح، خضر محمد خضر، مط معهود - الكويت، ط ١ - ١٩٨٢م.

(٥) التفسير الكبير ٢٦/٢٣ للإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، مط البهية - مصر، ط ١ - ١٩٣٨م، محاسن التأويل ٤٣٣٤/١٢ لمحمد جمال الدين القاسمي، مط دار إحياء الكتب العربية ط ١ - ١٩٥٧م.

(٦) أولى ما قيل في آيات التنزيل ١٢٩/٥، لرشيد الخطيب الموصلي سنة الطبع ١٩٧٢م.

(٧) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٦١/٥، لمحمد الأمين بن محمد الشنقيطي، مط عالم الكتب - بيروت.

فكان ظلها على قدر مساحة البيت، فحفروا عن الأساس فظهر لهما فبنايه عليه^(١).

ثالثاً: البلاغة في الآية

(١)- جاء ذكر المكان في الآية مراداً به الساحة من الأرض وموضوع للكون فيه فهو فعل مشتق من الكون، فتبوّثته المكان إذن باتخاذ مباءة، أي: مقرأً يبنى فيه فوق بذكر (المكان) إيجاز في الكلام كأنه قيل: وإذ أعطيناه مكاناً ليتخذ فيه بيتاً. فقال: مكان البيت لأن هذا حكاية عن قصة معروفة لهم.

(٢)- يلمح من اقتران (ال) العهدية في البيت أنه معروف معهود عند نزول القرآن ولولا هذه النكتة لكان ذكر (مكان) حشواً كما أن في إضافة (البيت) إلى ضمير الجلالة تشريفاً للبيت^(٢).

(٣)- توجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه من الحوادث، مع أنها المقصودة بالذات للمبالغة في إيجاب ذكرها لما أن إيجاب ذكر الوقت إيجاب لذكر ما وقع فيه بالطريق البرهاني، ولأن الوقت مشتمل عليها فإذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عياناً^(٣).

رابعاً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى أن كثيراً من مشركي قريش صدّوا عن دين الله وعن دخول المسجد الحرام، وتوعد من أراد فيه بالحداد بالعذاب الأليم، أردف بتأنيبهم على ما يفعلون، فبين أنه ما كان ينبغي لهم ذلك فإن أباهم إبراهيم - عليه السلام - الذي يفخرون به ويتممون له هو الذي ابتناه وجعله مباءة للناس وأمره بتطهيره من الشرك للطائفين والمصلين^(٤).

(١) المصدر السابق ٦٢/٥.

(٢) التحرير والتنوير ١٧/٢٤٠-٢٤١.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ١/٦٤، لأبي السعود محمد العمادي، (ت ٩٥١هـ)، مط محمد علي صبيح، مصر.

(٤) تفسير المراغي ١٧/١٠٧، لأحمد مصطفى المراغي، مط مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ٣ ١٩٨٦، وينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٣/٣٦، لبرهان الدين أبي الحسن بن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، مط مكتبة ابن تيمية، القاهرة - ١٩٧٠م.

خامساً: الاعراب والقراءات

[١]- الاعراب:

أ- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ (إذ) اسم زمان مجرد عن الظرفية منصوب بفعل مقدر والتقدير: واذكر إذ بَوَّأْنَا، قوله: ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ في دخول اللام عليه أوجه ثلاثة: أحدهما: أن يحمل على معنى جعلنا لإبراهيم مكان البيت مُبَوَّأً. الثاني: أن تكون اللام متعلقة بالمصدر السابق وهو قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاةِ﴾^(١).

الثالث: أن تكون زائدة، وهذا قول الفراء^(٢).

ب- ﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا﴾ في (أَنْ) ثلاثة أوجه^(٣):

أحدهما: قال الكسائي: المعنى (بأن لا).

الثاني: أن تكون تفسيرية.

الثالث: أن تكون زائدة للتوكيد مثل: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾^(٤).

[٢]- القراءات:

قرأ عكرمة: (أَنْ لَا يُشْرِكَ) بياء الغيبة على نقل معنى القول الذي قيل له. قال أبو حاتم: ولا بد من نصب الكاف على هذه القراءة بمعنى: لثلا يشرك^(٥).

(١) سورة الحج، الآية: ٢٥.

(٢) إعراب القرآن ٩٤/٣، لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس (ت ٣٣٨هـ)، تح د. زهير غازي زاهد، مط عالم الكتب بيروت ط ٢ - ١٩٨٥م، وينظر: معاني القرآن ٢/٢٢٣، لأبي زكريا يحيى ابن زياد الفراء، (ت ٢٠٧هـ)، مط عالم الكتب بيروت، ط ٣، ١٩٨٣م، ومشكل إعراب القرآن ٢/٤٩١، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ)، تح د. حاتم صالح الضامن، منشورات وزارة الاعلام العراقية، ١٩٧٥م.

(٣) إملاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القرآن ٢/١٤٣، لأبي البقاء عبدالله بن الحسين العكبري، (ت ٦١٦هـ)، مط دار الكتب العلمية بيروت، ط ١ - ١٩٧٩م، وينظر: إعراب القرآن للنحاس ٩٤/٣، ومشكل إعراب القرآن ٢/٩١.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٩٦.

(٥) ينظر: مختصر في شواذ القراءات من كتاب البديع: ٩٥، لأبي عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه، (ت ٣٧٠هـ)، عني بنشره برجستراسر، مط دار الهجرة، والكشاف عن حقائق غوامض =

سادساً: الغاية من التبوءة

قوله تعالى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ مؤذن بكلام مقدر دل عليه بوأنا لإبراهيم مكان البيت والمعنى: وأمرناه ببناء البيت في ذلك المكان وبعد أن بناه قلنا: لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي، وبعد أن بين الله - تبارك وتعالى - لإبراهيم - ﷺ - مكان البيت وأرشدته لبنائه ذكر الغاية لهذه التبوءة وهي قوله: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا﴾، فللتوحيد أقيم هذا البيت منذ أول لحظة عرّف الله - تبارك وتعالى - مكانه لإبراهيم - ﷺ - وملكه أمره ليقمه على هذا الأساس، فمن أشرك فقد خالف الشرط الذي قد وضع عليه البيت، فكأنه هدم البيت، وأي ظلم أعظم من ذلك! وكيف لا يشترط ذلك والشرك نجاسة معنوية هي أشد من الحسية! ^(١) ولا شك أن (أن) مفسرة فكيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيراً للتبوءة؟ والجواب على ذلك: أنه تعالى لما قال جعلنا البيت مرجعاً لإبراهيم فكأنه قيل ما معنى كون البيت مرجعاً له؟ فأجيب عنه: بأن معناه أن يكون بقلبه موحداً لرب البيت عن الشريك والنظير وبقلبه مشتغلاً بتنظيف البيت من الأوثان والأصنام ^(٢).

سابعاً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة الفوائد الآتية:

- (١)- في الآية تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ^(٣).
- (٢)- اختصاص سيدنا إبراهيم - ﷺ - بالتبوءة دليل على تشريفه وتكريمه فلذا اقترنت اللام بإبراهيم - ﷺ - التي قيل عنها بأنها لام العلة مثل قولهم: شكرت لك، أي:

=الآقاويل في وجوه التأويل ١٥٢/٣، للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)،

مط دار الكتاب العربي - بيروت، والجامع لأحكام القرآن ٣٧/١٢.

- (١) ينظر: تبصير الرحمن وتيسير المنان ٤٥/٢، لعلي بن أحمد بن إبراهيم المهايمي (ت ٨٣٥هـ)، مط عالم الكتب - بيروت، ط ١٩٨٣م، والتحرير والتنوير ٢٤١/١٧، وفي ظلال القرآن ١٧/٥٩٣، سيد قطب، ط ٦.

- (٢) التفسير الكبير ٢٣/٢٧.

- (٣) تفسير القرآن العظيم ٣/٢١٥، لأبي الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، مط دار إحياء الكتب العربية - مصر.

شكرت لأجلك^(١).

(٣) - إن توجيه سيدنا إبراهيم - عليه السلام - لمعرفة مكان البيت هو تمهيد لتوجيه آخر وهو أمره له بأن يؤذن للناس بالحج لزيارة هذا البيت المقدس.

(٤) - وجوب بناء البيت وإعلائه كلما سقط وتهدم ووجوب تطهيره من كل ما يؤذي الطائفين والعاكفين في المسجد الحرام من الشرك والمعاصي وسائر الذنوب ومن الأقدار كالأبوال والدماء ونحوها^(٢).

ثامناً: المعنى العام

إنَّ الحقيقة الكبرى والحجة القاطعة لعناد الملحدين وتكبر المتكبرين، ولمن عبد غير الله وأشرك به من أهل قريش، وللذين يشوهون الحقائق، ويشترون بآيات الله ثمناً قليلاً من أهل الكتاب، هي نشأة هذا البيت في البقعة التي أسست من أول يوم على التوحيد الخالص لله، على يد سيدنا إبراهيم - عليه السلام - الذي يعترف بحقه وبفضله أهل الكتاب والمشركون، فالقرآن يرجع نشأة هذا البيت على يد سيدنا إبراهيم - عليه السلام - بتوجيه وإرشاد من ربه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾.

(١) روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني ١٧/١٤١، لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، مط دار إحياء التراث العربي بيروت - لبنان، التحرير والتنوير ٢٤٠/١٧.

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ٣/٤٧٣، لأبي بكر جابر الجزائري، مط مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ١-١٩٩٤م.

المبحث الثاني أول البيوت

إنَّ البيت الحرام له مزية كبيرة تميزه عن غيره من بيوت العبادة فهو أول بيت وضع لعبادة الله وتوحيده في الأرض فاستحق التقدم في الأولوية ويتضح لنا ذلك من خلال الآية الآتية: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(١).

وسنحلل الآية من خلال النقاط الآتية:

أولاً: تحليل الألفاظ

(١)- (الأول) في اللغة: الهمزة والواو واللام أصلان: ابتداء الأمر وانتهاءه فالأول: المتقدم وهو نقيض الآخر وهو اسم لابتداء الشيء، وجائز أن لا يكون بعده كسب آخر والمعنى: هذا ابتداء كسبي^(٢).

(الأول) في الغريب: هو الذي يترتب عليه غيره، ويستعمل على أوجه منها:

أ- المتقدم بالزمان كقولك: عبد الملك أولاً ثم المنصور.

ب- المتقدم بالرياسة في شيء، وكون غيره محتدياً به نحو: الأمير أولاً ثم الوزير.

ج- المتقدم بالنظام الصناعي، نحو أن يقال: الأساس أولاً ثم البناء^(٣).

(٢)- (وضع) في اللغة: ضد الرفع، وَضَعَهُ يَضَعُهُ وَضْعاً ومَوْضِعاً، ووضَعَ الشيء في المكان: أثبت فيه، ووضَعَ الباني الحجر توضعاً: انضد بعضه على بعض، ولما كان الشيء المرفوع بعيداً عن التناول، كان الموضوع هو قريب

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة مادة (أول) ١/١٥٨، اللسان مادة (أول) ٦/٤٧٤٧، المصباح مادة (أول) ١٨/١.

(٣) المفردات: ١٠٠.

التناول فأطلق الوضع لمعنى الإدناء للمتناول والتهيئة للانتفاع^(١).

(وضع) في الغريب: هو أعم من الحط، ووَضِعُ البيت: بناؤه، وفي قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾^(٢) فهو عبارة عن الإيجاد والخلق^(٣).

(٣) - (بَكَّة) في اللغة: البَك هو دق العنق، بَك الشيء يَبْكُه بَكًا: خَرَقَه أو فَرَقَه، وبَك الرجل صاحبه يَبْكُه بَكًا: زاحه أو زحمه.

فأما اشتقاقه في اللغة فيصلح أن يكون الاسم قد اشتق من بَك الناس بعضهم بعضاً في الطواف أي: دفع بعضهم بعضاً.

وقيل: (بَكَّة) موضع البيت، ومَكَّة سائر البلدة، وقيل: هما اسما البلدة، والباء والميم يتعاقبان^(٤).

و(بكة) في الغريب: هي مكة وجعله نحو: سبد رأسه وسمده وضربة لازب ولازم في كون الباء بدلاً من الميم، وسمي بذلك من التباك أي: الازدحام؛ لأن الناس يزدهمون فيه للطواف، وقيل سميت مَكَّة بَكَّة لأنها تبك أعناق الجابرة إذا الحدوا فيها بظلم^(٥).

(٤) - البلاغة

قوله تعالى: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّة﴾ أي: البيت الذي ببكة وفي ترك الموصوف من التفخيم ما لا يخفى ووصفه بالمصدر في قوله: (هدى) مبالغة لأنه سبب هدى^(٦).

(١) ينظر: تاج العروس مادة (وضع) ٥/٥٤٦، والتحرير والتنوير ١٢/٤.

(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٠.

(٣) ينظر: المفردات ١٣٩ - ١٤٠، وتحفة الأريب بما في القرآن من الغريب ٤٩، لأثير الدين محمد ابن يوسف أبي حيان (ت ٧٤٥هـ)، تح د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي، مط العاني - بغداد، ط ١٩٧٧م.

(٤) اللسان مادة (بك) ١/٣٣٥-٣٣٦، تاج العروس مادة (بك) ٧/١١١.

(٥) المفردات: ١٣٩-١٤٠، تحفة الأريب: ٤٩.

(٦) صفوة التفاسير ١/٢٢٠، لمحمد بن علي الصابوني، مط دار القرآن الكريم - بيروت، ط ٦-١٩٨٥م، وينظر: إرشاد العقل السليم ١/٢٥٣، والتحرير والتنوير ١٦/٤.

ثانياً: تحليل الألفاظ عند المفسرين

(الأول) المراد بالأولية أنه أول بيت وضعه الله سبحانه لعبادته في الأرض، مباركاً وهدى للعالمين، قال المحققون: الأول هو الفرد السابق، فإذا قال: أول عبد اشتريته فهو حر، فلو اشترى عبيدين في المرة الأولى لم يعتق أحداً منهما لأن الأول هو الفرد ثم لو اشترى في المرة الثانية عبداً واحداً لم يعتق لأن شرط الأول كونه سابقاً، فثبت أن الأول هو الفرد السابق. ومن هنا نفهم أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ لا يدل على أنه أول بيت خلقه الله تعالى ولا أنه أول بيت ظهر في الأرض، بل ظاهر الآية يدل على أنه أول بيت وضع وكونه موضوعاً للناس يقتضي كونه مشتركاً فيه بين جميع الناس فأما سائر البيوت فيكون كل واحد منها مختصاً بواحد من الناس فلا يكون شيء من البيوت موضوعاً للناس، وكون البيت مشتركاً فيه بين كل الناس لا يحصل إلا إذا كان البيت موضوعاً للطاعات والعبادات وقبلة للخلق والخيرات والعبادات فيدخل فيه كون هذا البيت قبلة للصلوات ومكاناً يزداد ثواب العبادات والطاعات فيه^(١).

(بَكَّة) قال جماعة: هي مكة نفسها، وهو قول الضحاك: والعرب تعاقب بين الباء والميم فتقول سبد رأسه وسمده، وقال الآخرون: بَكَّة موضع البيت في مكة، ومكة اسم البلد كله، وقال قتادة: بكَّ الناس بعضهم بعضاً: الرجال والنساء يصلي بعضهم بين يدي بعض لا يصلح ذلك إلا في مكة^(٢) وسبب إيراد (مَكَّة) بالباء في هذه الآية في حين قال في آية أخرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾^(٣)؛ ذلك أن الآية الأولى جاءت في سياق الحج فجاء بالاسم (بَكَّة) من لفظ البك الدال على الزحام لأنه بالحج يبكَّ الناس بعضهم بعضاً أي: يزحم بعضهم بعضاً وليس السياق كذلك في آية الفتح فجاء بالاسم المشهور لها وهو مكة بالميم، فوضع كل لفظ في السياق الذي يقتضيه والله أعلم^(٤).

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٧/٤، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، مط مصطفى الحلبي، ط ٢-١٩٥٤م، والتفسير الكبير ١٥١/٨-١٥٢.

(٢) ينظر: جامع البيان ١٠/٤، وبحر العلوم ١١١/٢-١١٢، لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي، (ت ٣٧٥هـ)، تح د. عبد الرحيم أحمد الزرقه، مط الارشاد - بغداد، ط ١-١٩٨٥م.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٤.

(٤) التعبير القرآني: ١٥٦، د. فاضل صالح السامرائي، جامعة بغداد، بيت الحكمة ١٩٨٧م.

ثالثاً: أسباب النزول

قال مجاهد: تفاخر المسلمون واليهود، فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء وفي الأرض المقدسة، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل فأنزل الله تعالى هذه الآية^(١).

رابعاً: مناسبة الآية

في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه:

(١)- إن المراد منه الجواب عن شبهة أخرى من شبه اليهود في إنكار نبوة محمد ﷺ - وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام لما حول القبلة إلى الكعبة طعن اليهود في نبوته، فقالوا: إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال وذلك لأنه وضع قبل الكعبة وهو أرض المحشر وبقلة جملة الأنبياء، وإذا كان كذلك كان تحويل القبلة منه إلى الكعبة باطلاً، فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ فبين تعالى أن الكعبة أفضل من بيت المقدس وأشرف، فكان جعلها قبلة أولى.

(٢)- إن المقصود من الآية المتقدمة بيان أن النسخ هل يجوز أم لا؟ فإن النبي ﷺ - استدل على جوازه بأن الأطعمة كانت مباحة لبني إسرائيل، ثم أن الله تعالى حرّم بعضها والقوم نازعوا رسول الله ﷺ - فيها، وأعظم الأمور التي أظهر رسول الله نسخها هو القبلة لا جرم ذكر الله تعالى في هذه الآية بيان ما لأجله حولت القبلة إلى الكعبة وهو كون الكعبة أفضل من غيرها.

(٣)- إنه تعالى لما قال في الآية المتقدمة: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢) وكان من أعظم شعائر ملة إبراهيم - ﷺ - الحج، ذكر في هذه الآية فضيلة البيت ليقع عليه إيجاب الحج^(٣).

(١) أسباب النزول ٧٦، لأبي الحسن بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ)، مط دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ١٩٨٠م.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٩٥.

(٣) ينظر: التفسير الكبير ١٥١/٨، والبحر المحيط ٥/٣، لمحمد بن يوسف أبي حيان، مط دار الفكر.

خامساً: الاعراب والقراءات

[١]- الاعراب:

﴿أَوَّلَ﴾ اسم إنَّ والخبر ﴿لَلَّذِي يَبْكُةَ﴾، و﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الجملة في موضع جر صفة لبيت^(١). ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى﴾ حالان من المضمر في موضع نصب ويجوز الرفع على هو مبارك ويجوز خفضه على النعت لبيت^(٢).

[٢]- القراءات:

قرأ الجمهور ﴿وُضِعَ﴾ مبنياً للمفعول وقرأ عكرمة وابن السميع مبنياً للفاعل، فاحتمل أن يعود على الله - ﷻ - واحتمل أن يعود على إبراهيم - عليه السلام - وهو الأظهر لتقدم ذكره، ولأنه مشهور بعمارته^(٣).

سادساً: الفضيلة والمنقبة لأولية البيت

إذا ثبت أنَّ المراد من هذه الأولوية زيادة الفضيلة والمنقبة، فنذكر هنا وجوه فضيلة البيت:

(١) - اتفقت الأمم على أنَّ باني هذا البيت هو الخليل - عليه السلام - وباني بيت المقدس سليمان - عليه السلام - ولا شك أنَّ الخليل أعظم درجة، وأكثر منقبة من سليمان - عليه السلام - فمن هذا الوجه يجب أن تكون الكعبة أشرف من بيت المقدس، وأنَّ الله تعالى أمر الخليل - عليه السلام - بعمارة هذا البيت فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ والمبلغ لهذا التكليف هو جبريل - عليه السلام - فلهذا قيل: ليس في العالم بناء أشرف من الكعبة، فالأمر: هو الملك الجليل، والمعلم: هو جبريل - عليه السلام -، والباني: هو الخليل - عليه السلام -، والمعاون: اسماعيل - عليه السلام -^(٤).

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/٣٩٥، إملاء ما من به الرحمن ١/١٤٣ - ١٤٤.

(٢) مشكل إعراب القرآن ١/١٦٨.

(٣) ينظر: الكشف ١/٣٨٦، والبحر المحيط ٦/٣، واللباب في علوم الكتاب ٥/٣٩٧، للإمام أبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي (ت ٨٨٠هـ)، تح عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض وآخرين، مط دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط ١ - ١٩٩٨م.

(٤) ينظر: التفسير الكبير ٨/١٥٤ - ١٥٥.

(٢)- الحجر الذي هو مقام إبراهيم الذي وضع إبراهيم -عليه السلام- قدمه عليه حين رفع القواعد من البيت، وغرقت رجله في الحجر كأنها من طين وهذا مما لا يقدر عليه إلا الله ولا يظهره إلا للأنبياء -عليهم السلام- ثم لما رفع إبراهيم قدمه عنه خلق فيه الصلابة الحجرية مرة أخرى ثم إن ذلك الأثر باق إلى اليوم^(١).

(٣)- وجود الحجر الأسود وهو من حجارة الكعبة وهو يمين الله في الأرض ويشهد لمن مسه^(٢)، ونبع ماء زمزم لهاجر أم اسماعيل بهمز جبريل -عليه السلام- الأرض بعقبه، وأن ماءها ينفع لما شرب له^(٣).

(٤)- إهلاك أصحاب الفيل وهم أبرهة الحبشي وجيشه، عندما توجهوا لهدم الكعبة المشرفة، فجعل الله كيدهم في نحركم ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ حِجَارًا مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾^(٤) وهذه آية باهرة دالة على شرف الكعبة ومكانتها عند الله سبحانه وتعالى^(٥).

(٥)- إن الله تعالى وضعها في واد غير ذي زرع، والحكمة في ذلك يمكن أن تعرف من وجوه:

أ- إن الله تعالى قطع رجاء أهل حرمه وسدنة بيته عمن سواه؛ حتى لا يتوكلوا إلا على الله تعالى.

ب- إنّه لا يسكنها أحد من الجبابرة والأكاسرة لأنهم ميالون إلى طيبات الدنيا فيبقى ذلك الموضع المنيف والمقام الشريف مطهرًا عن كون وجود أرباب الهمم الدنية.

ج- إنه فعل ذلك لثلا يقصدها أحد للتجارة بل يكون ذلك لمحض العبادة والزيارة فقط.

(١) التفسير الكبير ١٥٥/٨، وينظر: التسهيل لعلوم التنزيل ١١٤/١، لمحمد بن أحمد بن جزى الكلبي، (ت ٧٤١هـ) مط دار الفكر، والمححر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٢٢٤/٣، لأبي محمد بن عطية الأندلسي (٥٤٦هـ)، تح عبد الكريم إبراهيم الأنصاري وآخرين، مطبعة الدوحة، ١٩٨١م.

(٢) البحر المحيط ٧/٣.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١١٤/١، والمححر الوجيز ٢٢٥/٣.

(٤) سورة الفيل، الآية: ٣-٥.

(٥) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل ١١٤/١، والتفسير الكبير ١٥٥/٨، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٩-١٨/٣، لنظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري، مط الميمنية - مصر.

د- أظهر الله تعالى بذلك شرف الفقر حيث وضع أشرف البيوت في أقل المواضع نصيباً من الدنيا.

ه- كأنه قال لما لم أجعل الكعبة إلا في موضع خال عن جميع نعم الدنيا فكذا لا أجعل كعبة المعرفة إلا في كل قلب خال عن محبة الدنيا^(١).

سابعاً: معنى ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾

البركة لها معنيان أحدهما: النمو والتزايد، والثاني: البقاء والدوام، يقال: تبارك الله: تقدس وتنزه، والبركة شبه الحوض لثبوت الماء فيها، وبرك البعير إذا وضع صدره على الأرض وثبت واستقر^(٢).

قال الرازي: ((فإذا فسرت البركة بالتزايد والنمو فهذا البيت مبارك من وجوه:

أحدها: ان الطاعات إذا أتى بها في هذا البيت ازداد ثوابها، قال ﷺ: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»^(٣)، فهذا في الصلاة، وأما في الحج فقال عليه الصلاة والسلام: «من حج ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(٤). وفي حديث آخر: «والحج المبرور ليس له جزاء إلى الجنة»^(٥)، والمعلوم أنه لا أكثر بركة مما يجلب المغفرة والرحمة.

وثانيها: قال القفال: ويجوز أن يكون بركته ما ذكر في قوله تعالى: ﴿يُجَيِّئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٦) فيكون كقوله: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾^(٧).

(١) التفسير الكبير ١٥٦/٨، وغرائب القرآن ١٩/٣.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة مادة (برك) ٢٢٧/١-٢٣٠، واللسان مادة (برك) ١٦٥/١، والمصباح مادة (برك) ٢٦/١.

(٣) صحيح مسلم ١٠١٣/٢ [كتاب الحج - باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة] برقم ١٣٩٥.

(٤) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١٥٧/٤ [كتاب الحج - باب فضل الحج المبرور] برقم ١٥٢١، للإمام أبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، مط دار الفكر - بيروت، ط ١٩٩٦م.

(٥) صحيح مسلم ٩٨٣/٢ [كتاب الحج - باب فضل الحج والعمرة] برقم ١٣٤٩.

(٦) سورة القصص، الآية: ٥٧.

(٧) سورة الاسراء، الآية: ١.

ثالثها: ان العاقل يجب أن يستحضر في ذهنه أن الكعبة كالنقطة، ولتصور أن صفوف المتوجهين إليها في الصلوات كالدوائر المحيطة بالمركز، ولتأمل كم عدد الصفوف المحيطة بهذه الدوائر حال اشتغالهم بالصلاة، ولا شك أنه يحصل فيما بين هؤلاء المصلين أشخاص أرواحهم علوية، وقلوبهم قدسية، وأسرارهم نورانية، وضمائرهم ربانية، ثم ان تلك الأرواح الصافية إذا توجهت إلى كعبة المعرفة وأجسادهم توجهت إلى هذه الكعبة الحسية، فمن كان في الكعبة تتصل أنوار أرواح أولئك المتوجهين بنور روحه فتزداد الأنوار الإلهية في قلبه ويعظم لمعان الأضواء الروحانية في سره، وهذا بحر عظيم ومقام شريف، وهو ينبها على معنى كونه مباركاً.

وأما إن فسرنا البركة بالدوام، فهو أيضاً كذلك، لأنه لا تنفك الكعبة من الطائفين والعاكفين والركع السجود، وأيضاً الأرض كرة، وإذا كان كذلك فكل وقت يمكن أن يفرض فهو صبح لقوم، وظهر لثان، وعصر لثالث، ومغرب لرابع، وعشاء لخامس، ومتى كان الأمر كذلك لم تكن الكعبة منفكة قط عن توجه قوم إليها من طرف أطراف العالم لأداء فريضة الصلاة فكان الدوام حاصلًا من هذه الجهة، وأيضاً بقاء الكعبة على هذه الحالة ألوفاً من السنين دوام أيضاً فثبت كونه مباركاً من الوجهين^(١).

وأما قوله تعالى: ﴿وَهْدَىٰ لِلْعَلَمِينَ﴾ أي: هو بذاته مصدر هداية للعالمين؛ لأنه قبلتهم ومتعبدتهم وفي استقباله توجيه للقلوب والعقول إلى الخير وإلى ما يوصلهم إلى رضا الله وجنته^(٢).

ثامناً: هل أن الأولوية بحسب الزمان أم بحسب الشرف؟

قيل المراد بالأولوية: الأولوية بحسب الزمان، وقيل: بحسب الشرف، ويؤيد الأول ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أول بيت وضع للناس؟ فقال: «المسجد الحرام ثم بيت المقدس، ف قيل: كم بينهما؟ فقال:

(١) التفسير الكبير ٨/١٥٨-١٥٩، وينظر: غرائب القرآن ٣/٢٠-٢١، وروح المعاني ٥/٤.

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ٢/٢٤٨، للشيخ محمد سيد طنطاوي، مط السعادة - مصر، ط٦- ١٩٨٦م.

أربعون سنة»^(١) ^(٢). قالوا: وقد أشكل هذا الحديث على من يعرف المراد منه،^١ فقال: معلوم أن سليمان بن داود - عليه السلام - هو الذي بنى المسجد الأقصى، والذي بنى المسجد الحرام هو إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - وبينهما وبين سليمان أكثر من ألف سنة فكيف قال - عليه السلام -: أن بين بناء المسجدين أربعين سنة؟

والجواب: أن الوضع غير البناء فالذي أسس المسجد الأقصى ووضعه في الأرض بأمر الله هو سيدنا يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم وبين إبراهيم - عليه السلام - ويعقوب هذه المدة التي جاءت في الحديث، أما سليمان فلم يكن مؤسساً للمسجد الأقصى أو واضعاً له وإنما كان مجدداً فلا إشكال ولا منافاة^(٣).

والحقيقة أن الآية مثلما تدل على الأولوية للبيت الحرام بحسب الزمان فإنها تدل على أنه قد حاز الفضل والشرف من هذه المزية، قال ابن عاشور: ((وإنما كانت الأولوية موجبة التفضيل لأن مواضع العبادة لا تتفاضل من جهة العبادة، إذ هي في ذلك سواء، ولكنها تتفاضل بما يحف بذلك من طول أزمان التعبد فيها، وبنسبتها إلى بانيها وبحسن المقصد في ذلك وقد قال تعالى في مسجد قباء: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ﴾^(٤))).^(٥)

تاسعاً: ما يستفاد من الآية

نستشف من الآية الكريمة عدة فوائد وهي:

(١)- في الآية تنويه بفضل الكعبة وتقرير بأنها أول بيت قام لعبادة الله وهو مبارك وهدى للعالمين^(٦).

(٢)- في هذه الآية ترغيب في الحج إلى البيت الحرام بما أخبر عنه من المصلحة

(١) صحيح البخاري ٦٠/٧ [كتاب أحاديث الأنبياء] برقم ٣٣٦٦، صحيح مسلم ٣٧٠/١، [كتاب المساجد ومواضع الصلاة] برقم ٥٢٠.

(٢) روح المعاني ٤/٤.

(٣) التفسير الوسيط ٢/٢٤٧.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٨.

(٥) التحرير والتنوير ١٥/٤.

(٦) التفسير الحديث ٨/١٣٠، لمحمد عزة دروزة، مط دار إحياء التراث، ١٩٦٢م.

فيه، والبركة، ونمو الخير وزيادته مع اللطف في الهداية إلى التوحيد والديانة^(١).
(٣)- الرد على اعتراض أهل الكتاب على تحويل القبلة فبين أن الكعبة هي أول بيت وضع للناس في الأرض للعبادة، فالاعتراض عليه مستنكر ممن يدعون وراثته إبراهيم - ﷺ -^(٢).

(٤)- أضاف الله تعالى البيت مرة لنفسه ومرة إلى الناس فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ ووجه الجمع بينهما كأنه قال: البيت لي ولكن وضعته لا لأجل منفعتي فإني منزّه عن الحاجة ولكن وضعته لك ليكون قبلة لدعائك^(٣).

(٥)- مشروعية طلب البركة بزيارة البيت وحجه والطواف به والتعبد حوله^(٤).

عاشراً: المعنى العام

تمثل في هذه الآية الكريمة أفضلية البيت الحرام وشرفه على غيره من البيوت كما قررت الآية نفي شبهة ابتدعتها اليهود حيث ادّعوا فضل قبلتهم وأنها أحق بالاستقبال من الكعبة فجاء الرد في غاية من الإيجاز بأن الكعبة هي أول بيت وضع للعبادة فكان استقباله وجعله قبلة أولى، وقد مدح الله تبارك وتعالى هذا البيت بما منحه بكونه مباركاً كثير الخير لمن حجه أو اعتمره، أو اعتكف فيه، أو طاف حوله، وأنه هدى للعالمين، فهو القبلة الحق والهادي إلى سواء السبيل.

(١) أحكام القرآن ٢٠/٢ للإمام أبي بكر أحمد بن علي الجصاص، (ت ٣٧٠هـ) دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان.

(٢) في ظلال القرآن ٩/٤.

(٣) ينظر: التفسير الكبير ١٥٨/٨.

(٤) أيسر التفاسير ٣٥٠/١.

المبحث الثالث

قصة إسكان أهل البيت

سنحلل في هذا المبحث قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الشَّجَرِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^(١).

وستتعرف معاني هذه الآية ومقاصدها في النقاط الآتية:

أولاً: (الذرية) و(الوادي) و(تهوي) في اللغة والغريب والوجوه والنظائر

(١) - (الذرية) في اللغة: نسل الثقلين من الجن والإنس وقد تطلق على الآباء والأصول والجمع ذراري، قال الصاغاني: وفي اشتقاقها وجهان: (أحدهما) من الذرأ و(الثاني) أنها من الذر بمعنى: التفريق؛ لأن الله تعالى ذرهم في الأرض^(٢).

(الذرية) في الغريب: الصغار من الأولاد وإن كان قد يقع على الصغار والكبار معا في التعارف ويستعمل للواحد والجمع^(٣).

(الذرية) في الوجوه والنظائر: تأتي بعدة معان منها^(٤):

أ- الولد: لقوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾^(٥) يعني: الولد.

ب- الآباء: لقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ﴾^(٦)

يعني: آباءهم.

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٢) تاج العروس مادة (ذرأ) ١/ ٦٧.

(٣) المفردات: ٣٢٧.

(٤) ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر ١٧٩ - ١٨٠.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

(٦) سورة يس، الآية: ٤١.

ج- الخلق: لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾^(١) يعني: خلقنا.

د- السف: لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾^(٢).

(٢)- (الوادي) في اللغة: مشتق من ودي الشيء إذا سال، وهو كل منفرج بين جبال أو آكام يكون منفذاً للسيل^(٣).

(الوادي) في الغريب: أصله الموضع الذي يسيل فيه الماء، ويستعار الوادي للطريقة كالمذهب والأسلوب، فيقال: فلان في واد غير واديك^(٤).

(الوادي) في الوجوه والنظائر: ورد في القرآن بوجوه متعددة منها^(٥):

أ- مكة: لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾^(٦).

ب- الوادي: الذي سلكه سليمان - عليه السلام - وادي النمل، لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آتَوْنَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾^(٧).

ج- الوادي المقدس: وهو جانب الطور الأيمن لقوله تعالى: ﴿تُودِيكَ مِنَ شَطِئِ الْأَوْدِ الْأَيْمَنِ﴾^(٨).

د- الغي: لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾^(٩) أي: يمرحون.

(٣)- ﴿تَهَوَّى﴾ في اللغة: مضارع (هوى) بفتح الهاء والواو (هوى) بضم الهاء وكسر الواو أي: سقط إلى سفلى، وهوى الشيء يهوى هَوِيًّا وَهَوِيًّا - إذا خَرَّ من علوٍ إلى سفلى، وهَوِيَ بالكسر يَهْوِي هَوًى، أي: أحب^(١٠).

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٥.

(٣) المصباح المنير مادة (ودي) ١٦٣/٢.

(٤) المفردات: ٨٦٢.

(٥) ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ٤٨٤.

(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

(٧) سورة النمل، الآية: ١٨.

(٨) سورة القصص، الآية: ٣٠.

(٩) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٥.

(١٠) ينظر: الصحاح مادة (هوى) ٢٥٣٨/٦، وجمهرة اللغة ١٩٢/١.

﴿تَهَوَّى﴾ في الغريب: جاءت بمعنى الاسراع إلى الشيء شوقاً ونزاعاً، وقيل بمعنى: الانحطاط والانحدار^(١).

﴿تَهَوَّى﴾ في الوجوه والنظائر: جاءت بعدة معان منها^(٢):

أ- نزل: لقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾^(٣) يعني: القرآن إذا نزل.

ب- الشهوة: لقوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾^(٤).

ج- هلك: لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾^(٥) يعني: فقد هلك.

د- يذهب، لقوله تعالى: ﴿تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾^(٦) يعني: تذهب به الريح.

ثانياً: تحليل الألفاظ عند المفسرين

قوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي: بعض ذريتي وهو إسماعيل - عليه السلام - ومن والد منه^(٧)، وقيل: إسماعيل وأمه^(٨) ﴿يَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ وهو وادي مكة لا يصلح للزراع لكونه أرضاً حجرية لا تنبت شيئاً^(٩).

﴿الْمُحَرَّمِ﴾ وهو المحرم من استحلال حرمان الله فيه والاستخفاف بحقه، قاله قتاده^(١٠).

وفي الخازن: ((فإن قلت كيف قال: عند بيتك المحرم ولم يكن هناك بيت حيثئذ وإنما بناه إبراهيم بعد ذلك؟ قلت: يحتمل أن الله تعالى أوحى إليه وأعلمه أن له هناك بيتاً قد كان في سالف الزمان، وأنه سيعمر؛ فلذلك قال عند بيتك المحرم، وقيل:

(١) غرائب القرآن: ١٤٦/٦.

(٢) ينظر: الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ٣٢٥ - ٣٢٦، لمقاتل بن سليمان البلخي، (ت ١٥٠هـ) تح د. عبدالله محمود شحاته، مط المكنبة العربية، القاهرة - مصر، ١٩٧٥م، وإصلاح الوجوه والنظائر: ٤٧٩ - ٤٨٠.

(٣) سورة النجم، الآية: ١.

(٤) سورة النازعات، الآية: ٤٠.

(٥) سورة طه، الآية: ٨١.

(٦) سورة الحج، الآية: ٣١.

(٧) الكشف ٥٥٨/٢، التفسير الكبير ١٣٦/١٩.

(٨) جامع البيان ٢٣٢/١٣، الجامع لأحكام القرآن ٣٧١/٩.

(٩) حاشية الصاوي على الجلالين ٢٤٢/٢، للشيخ أحمد الصاوي، مط دار الكتب العربية.

(١٠) جامع البيان ٢٣٣/١٣.

يحتمل أن يكون المعنى عند بيتك الذي كان ثم رفع عند الطوفان، وقيل: يحتمل أن يكون المعنى عند بيتك الذي جرى في سابق علمك أنه سيحدث في هذا المكان^(١).
﴿فَجَعَلَ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾ الأفعدة جمع فؤاد: وهي القلوب، وفي الأفعدة وجهان: (أحدهما) أنها جمع فؤاد وهو القلب، و(الثاني) أن الأفعدة جمع وفد فكأنه قال: فاجعل وفوداً من الأمم تهوي إليهم^(٢)، وعن سعيد بن جبير: ولو قال: أفعدة الناس تهوي إليهم لحجه اليهود والنصارى والمجوس؛ ولكنه قال: ﴿أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾ فهم المسلمون، وبنحو ذلك قال ابن عباس ومجاهد^(٣) وخص الأفعدة بالذكر؛ لأن القلوب سلاطين الأعضاء فإذا حنت القلوب سعت لهم الأجسام قهراً^(٤).
﴿تَهْوَى إِلَيْهِمْ﴾ تسرع إليهم شوقاً ووداداً^(٥).

وقال السدي: معناه أمل قلوبهم إلى هذا الموضع، وعن ابن عباس رضي الله عنه: تحن إليهم لزيارة بيتك المحرم^(٦).

وقال الخازن: ((وفي هذا بيان أنّ حنين الناس إليهم إنما هو لطلب حج البيت لأعيانهم وفيه دعاء للمؤمنين بأن يرزقهم حج البيت، ودعاء لسكان مكة من ذريته بأنهم ينتفعون بمن يأتي إليهم من الناس لزيارة البيت، فقد جمع إبراهيم - عليه السلام - في هذا الدعاء من أمر الدين والدنيا ما ظهر بيانه وعمت بركته^(٧))).

ثالثاً: الالتفاتات البلاغية

وردت في الآية الكريمة بعض الالتفاتات البلاغية منها:

الاستعارة في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ﴾ قال الشريف

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل ٤/٤٩، لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم الخازن (ت ٧٢٥هـ)، مط مصطفى البابي الحلبي، ط ٢-١٩٥٥م.

(٢) النكت والعيون ٢/٣٥٠، الجامع لأحكام القرآن ٩/٣٧٣، وينظر: الصحاح للجوهري مادة (فأد) ٢/٥١٧.

(٣) جامع البيان ١٣/٢٣٣-٢٣٤، لباب التأويل ٤/٤٩.

(٤) ارشاد العقل السليم ٣/١٣١.

(٥) حاشية الصاوي ٢/٢٤٢.

(٦) معالم التنزيل ٤/٤٩، لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت ٥١٦هـ) مطبوع بهامش لباب التأويل، لباب التأويل ٤/٤٩.

(٧) لباب التأويل ٤/٤٩، وينظر: التفسير الكبير ١٩/١٣٧.

الرضي: ((وهذه من محاسن الاستعارة، وحقيقة الهوي النزول من علو إلى انخفاض كالهبوط والمراد به هاهنا المبالغة في صفة الأفتدة بالتزوع إلى المقيمين بذلك المكان، ولو قال سبحانه: تحن إليهم لم يكن فيه من الفائدة ما في قوله سبحانه: ﴿تَهْوَى إِلَيْهِمْ﴾ لأن الحنين قد يوصف به من هو مقيم في مكانه والهوي يفيد انزعاج الهاوي من مستقره))^(١).

(٢) - الإطناب في قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ حيث كرر مرتين في هذه الآية وكرر في الآيات التي قبلها وبعدها والغرض منه المبالغة في التضرع^(٢).

(٣) - في قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ أضيف الرب هنا إلى ضمير الجمع خلافاً لسابقه ﴿رَبِّ أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾^(٣) و﴿رَبِّ إِنَّا أَضَلَّلْنَا﴾^(٤)؛ لأن الدعاء المصدر به متعلق بذرية إبراهيم - عليه السلام -، فاشركهم معه في الدعاء^(٥).

(٤) - في قوله: ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ فإن كلمة (ذي) تدل على صاحب ما أضيفت إليه وتمكنه منه، فإذا قيل: ذو مال، فالمال ثابت له، وإذا أريد ضد ذلك قيل: غير ذي كذا، كقوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرِ ذِي عَوْجٍ﴾^(٦)، أي: لا يعتريه شيء من العوج، ولأجل هذا الاستعمال لم يقل بواد لا يزرع أو لا زرع به^(٧).

رابعاً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: لما دعا سيدنا إبراهيم - عليه السلام - بدرء المفسد الناشئة من نوعي الانسان والشیطان بأمن البلد وإيمانه، ذكر السبب الحامل له على تخصيصه بذلك مستجلباً للمصالح^(٨).

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٣٢، للشريف الرضي، تح د. علي محمود مقلد، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، ١٩٨٦ م.

(٢) صفوة التفاسير ٢٥٤/١.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٣٦.

(٥) إرشاد العقل السليم ١٣٠/٣.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٢٨.

(٧) التحرير والتنوير ١٣/٢٤١.

(٨) نظم الدرر ١٠/٤٢٦.

خامساً: الاعراب والقراءات

[١]- الاعراب:

قوله تعالى: ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ بمعنى بعض وهي في تأويل المفعول به، أي: أسكنت بعض ذريتي، ويجوز أن يكون المفعول محذوفاً، أي: ذرية من ذريتي، ويخرج على قول الأخفش أن تكون (من) زائدة، وهذا الرأي رده الألوسي^(١).

﴿عِنْدَ بَيْتِكَ﴾ يجوز أن يكون صفة لواد، وأن يكون بدلاً منه^(٢) أو ظرفاً لـ ﴿أَسْكَنْتُ﴾ كما يقال: صليت بمكة عند الركن، إذ المقصود إظهار كون ذلك الاسكان لمحض التقرب إلى الله تعالى والالتجاء إليه^(٣).

﴿لِيَقِيمُوا﴾ اللام لام كي وهي متعلقة بأسكنت.

﴿تَهْوَى﴾ مفعول ثانٍ لجعل^(٤).

[٢]- القراءات:

قريء قوله تعالى: ﴿أَفْتِدَةُ﴾ على وجوه:

أ- قرأ جمهور القراء: ﴿أَفْتِدَةُ﴾.

ب- قرأ هشام بخلف عنه: (أفتيدة) بياء بعد الهمزة^(٥) وخرَجَ ذلك الحلواني على الاشباع^(٦).

ج- وقرئ: (آفدة) بوزن عاقدة. وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون من القلب،

والثاني: أن يكون اسم فاعله من أفدت الرحلة إذا عجلت، أي: جماعة أو جماعات

(١) ينظر: إملاء ما من به الرحمن ٦٩/٢، وروح المعاني ٢٣٦/١٣.

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٦٩/٢.

(٣) روح المعاني ٢٣٧/١٣.

(٤) إملاء ما من به الرحمن ٦٩/٢.

(٥) ينظر: التيسير في القراءات السبع: ١٣٥، لأبي عمرو بن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ)، عني بتصحيحه أوتو هرتزل، مط الدولة، استانبول - تركيا، ١٩٣٠م، وغاية الاختصار في قراءات العشرة أئمة الأمصار ٥٣٤/٢، والنشر في القراءات العشر ٢٩٩/٢-٣٠٠، لأبي الخير محمد بن الجزري، (ت ٨٨٣هـ)، مط دار الكتب العلمية بدون تاريخ.

(٦) روح المعاني ٢٣٩/١٣.

يرتحلون إليهم ويعجلون نحوهم^(١).

د- وقرئ (أفدة) وفيه وجهان: أن تطرح الهمزة للتخفيف، وأن يكون من أفد^(٢).

ه- وقرأت أم الهيثم: (أفوده) بالواو المكسورة بدل الهمزة، وفي البحر المحيط قال صاحب اللوامح: وهو جمع وفد، والقراءة حسنة لكن لا أعرف هذه المرأة بل ذكرها أبو حاتم^(٣).

و- قرأ زيد بن علي رضي الله عنهما: (إفاده) على وزن إمارة ويظهر أن الهمزة بدل من الواو المكسورة فالوزن فعاله أي: فاجعل ذوي وفادة وهم الناس الذين يفيدون ويتنفع بهم^(٤).

وقرئ قوله تعالى: ﴿تَهْوِي﴾ على وجوه:

أ- قرأ العامة: ﴿تَهْوِي﴾ بكسر الواو من هَوَى يَهْوِي هُوِيًا، بمعنى تسرع وتطير شوقاً إليهم.

ب- قرأ علي بن أبي طالب - عليه السلام - وزيد بن علي ومحمد بن علي وجعفر بن مجاهد: (تهوى) بفتح الواو وبالألف بعدها من هَوِي يَهْوِي هَوِيً، بمعنى: أحب^(٥).

ج- قرأ مسلمة بن عبدالله: (تَهْوِي) بضم التاء وفتح الواو مبنية للمفعول من أهوى المنقولة من هوى اللازمة، أي: يسرع بها إليهم^(٦).

(١) الكشف ٥٥٩/٢، البحر المحيط ٤٣٢/٥.

(٢) الكشف ٥٥٩/٢.

(٣) البحر المحيط ٤٣٢/٥، روح المعاني ٢٤٠/١٣.

(٤) ينظر: الكشف ٥٥٩/٢، وروح المعاني ٢٤٠/١٣، وحاشية الشيخ زاده على البيضاوي ٢٦٢/٥، مطبوع بهامش أنوار التنزيل، طبعة حجرية، والفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ٥٢٩/٢، لسليمان بن عمر الشهير بالجمل (ت ١٢٠٤هـ)، مط عيسى البابي الحلبي، مصر.

(٥) المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها ٣٦٤/٢، لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ)، تح علي النجدي وآخرين، لجنة إحياء التراث - القاهرة. وينظر: الكشف ٥٥٩/٢، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٢٧٤-٢٧٥، لشهاب الدين أبي العباس بن يوسف أبي محمد بن إبراهيم المعروف بالسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ)، تح الشيخ علي محمد معوض وآخرين، مط دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١ - ١٩٩٤م.

(٦) البحر المحيط ٤٣٣/٥، الدر المصون ٢٧٥/٤.

سادساً: سبب الدعاء وزمانه

إن سبب هذا الاسكان هو أن هاجر كانت جارية لسارة فوهبتها لإبراهيم فولدت منه إسماعيل، فغارت سارة منهما لأنها لم تكن قد ولدت قط فناشدته الله أن يخرجهما من عندها فأمره الله تعالى بالوحي أن ينقلهما إلى أرض مكة^(١). وقد روى البخاري عن ابن عباس: ((أن أول من سعى بين الصفا والمروة أم اسماعيل، وأن أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم اسماعيل؛ اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك؛ ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم اسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾ وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود ثم جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليه، فنظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي - ﷺ -: «فذلك سعي الناس بينهما» فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه! تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث! فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفرور بعدما تغرف، قال ابن عباس قال - ﷺ -: «يرحم الله أم اسماعيل لو تركت

(١) الفتوحات الإلهية ٥٢٨/٢.

زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء، لكانت عيناً معيناً، فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة فإن ههنا بيت الله بينه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله))، وذكر الحديث بطوله^(١).

سابعاً: استجابة الله تبارك وتعالى لدعاء سيدنا إبراهيم - عليه السلام -

لا جرم أن الله عز وجل أجاب دعوة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فجعل المكان الذي أسكن ذريته فيه مكاناً آمناً يجبي إليه ثمرات كل شيء، كما أخبر بذلك تعالى فقال: ﴿وَأَوَّلَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الأعجوبة التي يريكمها الله بواد غير ذي زرع، وهي اجتماع البواكير - وهي أول الفاكهة - والفواكه المختلفة الأزمان الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد وليس ذلك من آياته بعجيب^(٢).

وقد وردت روايات عن ابن عباس: من أن الطائف كانت من أرض فلسطين فلما دعا إبراهيم - عليه السلام - بهذه الدعوة رفعها الله تعالى ووضعها حيث وضعها رزقاً للحرم، وفي رواية: أن جبريل - عليه السلام - اقتلعها فجاء وطاف بها حول البيت سبعا ولذا سميت الطائف ثم وضعها قريب مكة^(٣).

وعقب الآلوسي على ذلك فقال: ((والظاهر أن إبراهيم لم يكن مقصوده من هذا الدعاء نقل أرض منبئة من فلسطين أو قرية من قرى الشام وإنما مقصوده - عليه السلام - أن يرزقهم سبحانه من الثمرات وهو لا يتوقف على النقل فلينظر ما وجه الحكمة فيه، وأنا لست على يقين من صحته ولا أنكر والعياذ بالله فإن الله جلّ وعلا على كل شيء قدير وأنه سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد))^(٤).

أما إجابة قوله: ﴿فَأَجْعَلْ أَفْعَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ فقد حصلت بِجُرْهُم،

(١) صحيح البخاري ٤٥/٧ [كتاب بدء الخلق - باب يزفون النسلان] برقم ٣٣٦٤.

(٢) ينظر: الكشف ٥٦٠/٢، والسراج المنير في الاعانة على معرفة بعض معاني كلام الحكيم الخبير ١٥٣/٢، للإمام الخطيب الشربيني، مط الخيرية بدون تاريخ، روح المعاني ١٣/٢٤٠.

(٣) ينظر: البحر المحيط ٤٣٣/٥، وإرشاد العقل السليم ١٣١/٣.

(٤) روح المعاني ١٣/٢٤٠.

وذلك أنه لما جاء إبراهيم بإسماعيل - ﷺ - وأمه ووضعهما عند البيت وما جرى لهما هناك من خروج ماء زمزم حيث مكثوا فمرت بهم قبيلة من جرهم كانوا ذاهبين إلى الشام فعطشوا فرأوا الماء عندها فقالوا لها: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم^(١)، وفي البيضاوي أنهم لَمَّا أتوها قالوا لها: أشركينا في مائك نشرك في ألباننا ففعلت^(٢) فهذا بيان لأول آثار هذا الدعاء وقد استمر قصد الحجاج والعمار لهذا البيت كل عام إلى آخر الزمان^(٣).

ثامناً: فضيلة الصلاة في البيت الحرام

هي قول سيدنا إبراهيم: ﴿رَبَّنَا لِيَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فقد خص الصلاة من جملة الدين لفضلها في ذلك المكان وأجرها العظيم وهي عهد الله عند العباد، فقد قال - ﷺ -: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد من جاء بهن لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد، إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة»^(٤) (٥).

وفي تكرار النداء وتوسيطه إظهار لكمال العناية بإقامة الصلاة فإنها عماد الدين ولذا خصها بالدين من بين سائر الشعائر^(٦). فاللام هنا لام لكي أي: لكي يقيموا الصلاة ويصح أن تكون لام أمر فكأنه رغب إلى الله أن يوفقهم لإقامة الصلاة وقد تضمنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها، وقد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل من مسجد النبي - ﷺ -؟ فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة

(١) ينظر: لباب التأويل ٤/٤٨، والفتوحات الإلهية ٢/٥٢٩.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٤/٢٦٠، للإمام ناصر الدين البيضاوي، طبعة حجرية.

(٣) الفتوحات الإلهية ٢/٥٢٩.

(٤) سنن النسائي ١/٢٣٠ [كتاب الصلاة - باب المحافظة على الصلوات الخمس] برقم ٤٦١، للإمام الحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ)، تح عبد الفتاح أبي غدة، مط دار البشائر الإسلامية بيروت - لبنان، ط ٢-١٩٨٨م.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١١٢٤، التيسير في أحاديث التفسير ٣/٢٧٢، للشيخ محمد المكي الناصري، مطبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط ١-١٩٨٥م.

(٦) ارشاد العقل السليم ٣/١٣١، روح المعاني ١٣/٢٣٧.

في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد الرسول -ﷺ- بمائة صلاة واحتجوا بحديث عبدالله بن الزبير قال: قال رسول الله -ﷺ- «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»^(١) (٢).

تاسعاً: وجه تسمية البيت محرماً

ذكر المفسرون أسباباً لوجه تسمية البيت محرماً منها:

- (١)- لأن الله حرم التعرض له والتهاون به ولم يزل معظماً ممنعاً تهابه الجبابرة^(٣).
- (٢)- لأنه حرم عليه الطوفان أي: امتنع منه، كما سمي عتيقاً لأنه أعتق منه فلم يستعل عليه^(٤).
- (٣)- لأنه يحترم عنده ما لا يحترم عند غيره، ولأن الزائرين له محرمون على أنفسهم أشياء كانت مباحة لهم من قبل^(٥).
- (٤)- لأن الله حرم على عباده أن يقربوه بالدماء والأقذار وغيرها^(٦).

عاشراً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة دلالات منها:

- (١)- في دعائه -ﷺ- مراعاة لحسن الأدب والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة واستئصال الرحمة واستجلاب الرأفة ما لا يخفى^(٧).
- (٢)- لا يجوز لأحد أن يتعلق في طرح ولده وعياله بأرض مضیعة اتكالاً على العزيز الرحيم واقتداء بفعل سيدنا إبراهيم الخليل كما تقول غلاة الصوفية في حقيقة التوكل فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله بقوله في الحديث: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم^(٨)، كما

(١) سبق تخريجه. ص ٤٣ من الرسالة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٧١/٩.

(٣) البحر المحيط ٤٣٢/٥، أنوار التنزيل ٢٦٠/٤.

(٤) ينظر: المصدران السابقان.

(٥) لباب التأويل ٩٤/٤.

(٦) التفسير الكبير ١٣٦/١٩.

(٧) ارشاد العقل السليم ١٣١/٣، تفسير المراغي ١٦١/١٣.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ١١٢٤/٣، الجامع لأحكام القرآن ٣٧٠/٩.

أنهم محجوجون بما صح عن رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول»^(١).

(٣)- في قوله: ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ دليل على أن تحصيل منافع الدنيا إنما يكون ليستعان بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات^(٢).

حادي عشر: المعنى العام

تحكي الآية الكريمة قصة اسكان أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم - عليه السلام - في البلد الحرام حيث لا زرع فيه ولا ماء ولا شيء مما يبعث على الأمل في الحياة فيه، لحكمة أرادها الله بهذا البلد من عبادته سبحانه، أوضحها قوله جل شأنه ﴿لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ فما كان من سيدنا إبراهيم - عليه السلام - إلا أن امتثل للأمر الإلهي فجاء بابنه إسماعيل - عليه السلام - وهو رضيع عند أمه هاجر من الشام إلى مكة، وتركهما وديعة عند الله تبارك وتعالى الذي قدر لهم أن يكونوا أهلاً لهذا البيت الذي سبنى في هذه البقعة المباركة من البلد الحرام.

وحيث أنه تبارك وتعالى شاء أن يكون هذا الوادي قفراً لا زرع فيه ولا ضرع لانعدام الماء فيه فقد لجأ أبو الأنبياء - عليه السلام - إلى الله جل شأنه لاهجاً بالدعاء في أن يجعل قلوب الناس تهفو إلى هذا المكان وتألفه، وأن يرزق أهله من الثمرات ليعين أولئك الذين قصدوه للعبادة قائمين عاكفين على طاعة الله عند البيت الذي حرمه سبحانه، وجعل ما حوله حراماً آمناً فلا يتعرض لأحد من أهله فيه بسوء أو أذى.

(١) المستدرك على الصحيحين ٥٤٥/٤ برقم ٨٥٢٦، للإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم، (ت ٤٥٠هـ) تح مصطفى عبد القادر عطا، ط ١-١٩٩٠.

(٢) لباب التأويل ٤/٤٩، وينظر: التفسير الكبير ١٩/١٣٧، والسراج المنير ٢/١٥٣.

المبحث الرابع رفع قواعد البيت

بعد أن بين الله تبارك وتعالى لإبراهيم مكان البيت وأرشده إلى قواعده الأصلية المندرسة أمره بعد ذلك بالمباشرة برفع قواعده وإظهار شرفه ليكون مرجعاً له ولعقبه يرجعون إليه بالعبادة ويحجونه، وقد صور الحق تبارك وتعالى تنفيذ إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - لأمره بقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

وسنحلل هذه الآية من خلال النقاط الآتية:

أولاً: (الرفع) و(القواعد) في اللغة والغريب والوجوه والنظائر

(١) - (الرفع) في اللغة: ضد الوضع، رفعته فارتفع فهو نقيض الخفض في كل شيء^(٢).

(الرفع) في الغريب: يأتي بعدة معان منها:

أ- في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرها.

ب- في البناء إذا طولته.

ج- في المنزلة إذا شرفتها^(٣).

(الرفع) في الوجوه والنظائر: ورد بعدة معان منها^(٤):

أ- الحبس لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ﴾^(٥).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

(٢) اللسان مادة (رفع) ٣٠/١٦٩٠، وينظر: المصباح مادة (رفع) ١/١٢٥.

(٣) المفردات: ٣٦٠-٣٦١.

(٤) ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ٢٠٧.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٥٤.

- ب- التشدد في الكلام، لقوله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾^(١) أي: لا تشددوا أصواتكم فوق صوت النبي يعني: كلامكم عند كلامه.
- ج- القعود بعينه، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا﴾^(٢).
- د- العجز من النساء، لقوله تعالى: ﴿وَالْفَوَاحِشُ مِنَ النَّسَاءِ﴾ إذا انقطع حيضها وكبر سنها.

ثانياً: معنى (الرفع) و(القواعد) عند المفسرين

- (١)- ورد معنى (رفع القواعد) عند المفسرين في الآية الكريمة كما يأتي:
- أ- إبرازها عن الأرض بالبناء عليها. وتعبيره بالبناء عليها لأنه ينقلها من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع^(٣).
- ب- إطالتها إذا أريد بالقواعد جدران البيت، كما سموها بالأركان^(٤).
- ج- رفع مكانة البيت وإظهار شرفه^(٥).
- (٢)- وجاء معنى (القواعد) عند المفسرين في الآية كما يأتي:
- أ- الأساس: وهي صفة غالبية من القعود بمعنى الثبات، وأطلق عليها هذا اللفظ لأنها أشبهت القاعد في اللصوق بالأرض^(٦).
- ب- سافات البناء: فإن كل ساف قاعدة بما يبنى عليها^(٧)، والمراد برفعها رفع ما هو مبني فوقها لا رفعها في نفسها فإنها لم ترتفع، لكنها لما كانت متصلة بالبناء المرتفع فوقها صارت كأنها مرتفعة بارتفاعه كما يقال ارتفع البناء. ولا يقال ارتفع
-
- (١) سورة الحجرات، الآية: ٢.
- (٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
- (٣) الكشف ١/١٨٧، أنوار التنزيل ٢/١٩٩، ارشاد العقل السليم ١/١٢٤، التفسير الوسيط ١/٣٥٤.
- (٤) التحرير والتنوير ١/٧١٨.
- (٥) أنوار التنزيل ٢/١٩٩، ارشاد العقل السليم ١/١٢٤.
- (٦) الكشف ١/١٨٧، التفسير الكبير ٤/٦٣، أنوار التنزيل ٢/١٩٨ - ١٩٩، ومعه حاشية الشيخ زاده، التحرير والتنوير ١/٧١٨.
- (٧) المصادر السابقة.

أعالي البناء ولا أسافله^(١). وضُعِفَ هذا القول. قال الآلوسي: ((لأنَّ فيه صرف لفظ القواعد عن معناه المتبادر))^(٢).

ثالثاً: الوجوه الواردة في أصل القواعد

أورد الطبري في تفسيره الاختلاف في أصل القواعد فقال: ((اختلف أهل التأويل في القواعد التي رفعها إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - من البيت، أما أحدثا ذلك أم هي قواعد كانت له قبلهما، فقال قوم: هي قواعد بيت كان بناه آدم أبو البشر بأمر الله إياه لذلك، ثم درس مكانه وتعفى أثره بعده، حتى بوأه الله إبراهيم - عليهما السلام - فبناه... وقال آخرون: بل كان موضع البيت ربوة حمراء كهيئة القبة، وذلك أنَّ الله لما أراد خلق الأرض علا الماء زبدة حمراء أو بيضاء، وذلك في موضع البيت الحرام، ثم دحا الأرض من تحتها، فلم يزل ذلك كذلك، حتى بوأه الله إبراهيم فبناه على أساسه، وقالوا: أساسه على أركانٍ أربعة في الأرض السابعة))^(٣)، ثم ذكر الطبري جملة من الأدلة خلص من بعدها إلى القول: ((والصواب من القول في ذلك عندنا: أن يُقال: أنَّ الله تعالى ذكره أخبر عن إبراهيم خليله، أنه وابنه إسماعيل رفعوا القواعد من البيت الحرام، وجائز أن يكون ذلك كان القبة التي ذكرها عطاء مما أنشأه الله من زبد الماء، وجائز أن يكون كان ياقوتة أو درة أهبطة من السماء. وجائز أن يكون آدم بناه ثم انهدم، حتى رفع قواعد إبراهيم وإسماعيل ولا علم عندنا بأي ذلك كان من أي؛ لأن حقيقة ذلك لا تدرك إلا بخبر عن الله، وعن رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالنقل المستفيض ولا خبر بذلك تقوم به الحجة فيجب التسليم لها))^(٤).

وتُعقَّب الطبري بأن الأكثر من أهل الأخبار على أن هذا البيت كان موجوداً قبل إبراهيم - عليهما السلام - وهذا ما يشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ فإنَّ هذا صريح في أن تلك القواعد كانت موجودة فهدمت إلا أن إبراهيم - عليهما السلام -

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ١/ ١٤٢، لمحمد بن علي بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، مط دار المعرفة - بيروت - لبنان.

(٢) روح المعاني ١/ ٣٨٣.

(٣) جامع البيان ١/ ٥٤٦-٥٤٧.

(٤) جامع البيان ١/ ٥٤٩.

رفعها وعمرها^(١).

رابعاً: البلاغة في الآية

وردت في الآية الكريمة بعض الوجوه البلاغية منها:

(١)- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ورود التعبير بصيغة المضارع حكاية عن الماضي وذلك وجه معروف في محاسن البيان وهو استحضار الصورة الماضية وكأنها مشاهدة بالعيان فكأن السامع ينظر ويرى إلى البنيان وهو يرتفع والبناء هو إبراهيم وإسماعيل - ﷺ -^(٢).

قال ابن عاشور: ((فاستعماله هنا استعارة تبعية، شبه الماضي بالحال لشهرته ولتكرر الحديث عنه بينهم، فإنهم لحبهم إبراهيم وإجلالهم إياه لا يزالون يذكرون مناقبه وأعظمها بناء الكعبة، فشبّه الماضي لذلك بالحال))^(٣).

(٢)- إن في اختيار مادة الرفع دون مادة الاطالة معنى التشريف، وفي إثبات ذلك للقواعد كناية عن ثبوته للبيت^(٤).

(٣)- قوله تعالى: ﴿الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ ولم يقل (قواعد البيت) ليكون الكلام مبنياً على تبيين بعد إبهام ففيه تفخيم لشأن المبين^(٥).

(٤)- العدول عن ذكر القول إلى نطق المتكلم بما قاله المحكي عنه هو ضرب من استحضار الحالة قد مهد له الاخبار بالفعل المضارع في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾ حتى كان المتكلم هو صاحب القول وهذا ضرب من الايغال^(٦).

(٥)- جاء بضمير الفصل (انت) لكي يفيد قصرين للمبالغة في كمال الوصفين له تعالى

(١) ينظر: التفسير الكبير ٦٣/٤، وغرائب القرآن ٣٩٨/١.

(٢) صفوة التفاسير ٩٥/١. وينظر: التحرير والتنوير ٧١٨/١.

(٣) التحرير والتنوير ٧١٨/١.

(٤) التحرير والتنوير ٧١٨/١.

(٥) غرائب القرآن ٣٩٩/١، وينظر: الكشف ١٨٨/١، والتفسير الكبير ٦٤/٤، وإرشاد العقل السليم ١٢٤/١.

(٦) التحرير والتنوير ٧١٩/١، والايغال: هو ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها لزيادة المبالغة، ينظر: التعريفات: ٢٨.

بتنزيل سمع غيره وعلم غيره منزلة العدم^(١).

خامساً: مناسبة الآية

لما ذكر في الآيات السابقة ما عهد من أمر البيت ديناً ودنيا أتبعه ببنائه مشيراً إلى ما حباهم به من النعمة وما قابلوه به من كفرها، فذكرهم بأن الذي بنى البيت هو أبوهم إبراهيم بمعونة ابنه إسماعيل ليجذبهم إلى الاقتداء بسلفهم الصالح الذين يتمنون إليهم ويفاخرون بهم فقال عاطفاً على: ﴿وَإِذْ أُنْتَبِئَ﴾ تعديداً لوجوه النعم على العرب واستعطافاً إلى التوحيد^(٢).

سادساً: الاعراب والقراءات

[١]- الاعراب:

﴿مِنْ أَلْبَيْتٍ﴾ في موضع نصب على الحال من القواعد، أي: كائنة من البيت، ويجوز أن يكون في موضع نصب مفعولاً به بمعنى: رفعها عن أرض البيت.

﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ معطوف على إبراهيم والتقدير: يقولان ربنا، ويقولان هذه في موضع الحال^(٣).

[٢] القراءات:

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا نَقْبَلْ مِنَّا﴾ قرأها أبيّ وعبدالله بن مسعود -رضي الله عنهما-: (ويقولان ربنا تقبل منا). وهذه القراءة دليل على صحة مذهب البصريين في أن القول مقدر^(٤).

سابعاً: الأسرار في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا نَقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ورد في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا نَقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أسرار منها:

(١) التحرير والتنوير ١/١٧٩، وينظر: روح المعاني ١/٣٨٥.

(٢) نظم الدرر ٢/١٥٧.

(٣) إملأ ما من به الرحمن ١/٦٣.

(٤) ينظر: مختصر في شواذ القراءات ١٠، والمحتسب ١/١٠٨، والبحر المحيط ١/٣٨٨، ومعجم القراءات القرآنية مع مقدمة في القراءات وأشهر القراء ١/١١٤، للدكتور عبد العال سالم مكرم، والدكتور أحمد مختار عمر، مط جامعة الكويت، ط ٢-١٩٨٨م.

(١) - قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ في محل الحال بتقدير القول: أي: قائلين ربنا. وقرأ أبي وابن مسعود رضي الله عنهما: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ وَيَقُولَانِ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا) ^(١).

وقال آخرون: بل قائل ذلك القول إسماعيل ^(٢).

ورجح الطبري - رحمته الله - القول الأول، وهو الذي مال إليه أكثر المفسرين ^(٣).

(٢) - تصدير الدعاء بندائه - سبحانه - باسم الرب المضاف إلى ضميرهما مظهر من مظاهر خضوعهما واجلالهما لمقامه والخضوع له - سبحانه - ^(٤).

(٣) - استخدم لفظة ﴿تَقَبَّلْ﴾ مع أنه هناك فرق بين التقبل والقبول، فالتقبل: عبارة عن تكلف القبول وذلك حيث يكون العمل ناقصاً لا يستحق أن يقبل، فهذا إعراف منهما بالتقصير في العمل واعتراف بالعجز والانكسار فاختر ^(٥) ﴿تَقَبَّلْ﴾ هضماً وتواضعاً واستقصاراً ^(٥).

(٤) - ختما دعاءهما بذكر اسمين من أسمائه الحسنى، ليؤكد أن رجاءهما في استجابة دعائهما وثيق، وأن ما عملاه ابتغاء مرضاته جدير بالقبول لأن من كان سمياً عليمياً بنيات الداعين ورصد ضمائرهم، كان تفضله باستجابة دعاء المخلصين في طاعته غير بعيد ^(٦).

(٥) - تقديم صفة السمع على العلم وإن كان سؤال التقبل متأخراً عن العمل للمجاورة ولأنها ليست مثل العلم شمولاً ^(٧).

(٦) - ترك مفعول تقبل مع ذكره في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ﴾ ^(٨) ليعلم

(١) ينظر: جامع البيان ٥٤٩/١، الجامع لأحكام القرآن ١٢٦/٢.

(٢) جامع البيان ٥٤٩/١.

(٣) جامع البيان ٥٥٢/١، الجامع لأحكام القرآن ١٢٦/٢. إرشاد العقل السليم ١٢٥/١، روح المعاني ٣٨٤/١.

(٤) التفسير الوسيط ٣٥٤/١.

(٥) التفسير الكبير ٦٤/٤، غرائب القرآن ٣٩٩/١، حاشية الشيخ زاده ٢٠٢/٢.

(٦) التفسير الوسيط ٣٥٥/١، وينظر: البحر المحيط ٣٨٨/١.

(٧) روح المعاني ٣٨٥/١، وينظر: البحر المحيط ٣٨٨/١.

(٨) سورة إبراهيم، الآية: ٤٠.

الدعاء وغيره من القرب والطاعات التي من جملتها ما هما بصدده من البناء^(١).
 (٧)- نعمة الدعاء وسياق الدعاء وجوُّ الدعاء، كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة وتلك إحدى خصائص التعبير القرآني الجميل، رد المشهد الغائب الذاهب، حاضراً يسمع ويرى ويتحرك ويشخص، وتفيض منه الحياة، إنها خصيصة (التصوير الفني) بمعناه الصادق اللائق بالكتاب الخالد^(٢).

ثامناً: القول الراجح في رافع القواعد

اختلف أهل التأويل في الذي رفع القواعد، بعد إجماعهم على أن إبراهيم كان ممن رفعها، والاكثرون على أن إبراهيم وإسماعيل - ﷺ - اشتركا في رفعها، والدليل عليه عطف إسماعيل على إبراهيم ولا بد في ذلك العطف أن يكون في فعل من الأفعال التي سلف ذكرها وليس هناك إلا رفع القواعد فوجب أن يكون إسماعيل معطوفاً على إبراهيم^(٣).

ثم إن اشتراكهما في ذلك يحتمل وجهين: أن يشتركا في البناء ورفع الجدران، والثاني أن يكون أحدهما بانياً للبيت والآخر يرفع إليه الحجر والطين، وعلى كلا الوجهين تصح إضافة الرفع إليهما^(٤).

قال ابن عرفة: ((إنما فصل بين إسماعيل وإبراهيم ليظهر كمال المبالغة بينهما لأن إبراهيم هو متولي البناء وهو الذي يضع الحجر في الحائط وإسماعيل إنما كان يناوله خاصة))^(٥).

وقال بعضهم: بل الذي رفع قواعد البيت إبراهيم وحده وإسماعيل يومئذ طفل صغير وهذا قول مردود^(٦).

(١) ارشاد العقل السليم ١/١٢٥، محاسن التأويل ٢/٢٥٥.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن ١/١٥٨، والتصوير الفني ٥١، لسيد قطب، مط دار المعارف ١٩٥٩م.

(٣) ينظر: جامع البيان ١/٥٥٠، والتفسير الكبير ٤/٦٣.

(٤) التفسير الكبير ٤/٦٣.

(٥) تفسير ابن عرفة ١/٤١٨، لمحمد بن محمد بن عرفة الورغمي، (ت ٨٠٣هـ)، تحد. حسن المناعي، ط١- تونس، ١٩٨٦م، ارشاد العقل السليم ١/١٢٥، تفسير المنار ١/٤٦٩، للأستاذ محمد عبده، مط المنار - مصر، ط٤، ١٣٧٣هـ.

(٦) جامع البيان ١/٥٥١، التفسير الكبير ٤/٦٤، روح المعاني ١/٣٨٤.

تاسعاً: ما يستفاد من الآية

(١)- إثارة صيغة المضارع مع أن القصة ماضية استحضاراً لهذا الأمر ليقندي الناس به في اتیان الطاعات الشاقة مع الابتهاال في قبولها وليعلموا عظمة البيت المبني فيعظموه^(١).

(٢)- استحباب الدعاء بقبول الأعمال فإن كل مأمور بعبادة إذا فرغ منها وأداها فعليه أن يتضرع إلى الله ويبتهل ليتقبل منه ما عمل ولا يرده، كما لا ينبغي أن يجزم بأن عبادته متقبلة، ولولا ذلك لما كان لهذا التضرع فائدة^(٢).

(٣)- في الآية دليل على أن قبول الطاعة منهما والإثابة عليها ليس بواجب على الله كما تزعمه المعتزلة بل الواجب أن كل من أتى بطاعة مخلصاً عمله الله تعالى أن يتضرع ويبتهل ولو كان قبول العمل واجباً لما كان في هذا التضرع والابتهاال فائدة والآية حجة لنا عليهم^(٣).

(٤)- ليس في هذا العالم أشرف من الكعبة لأن الأمر بينائها الملك الجليل والمبلغ جبريل - عليه السلام - والبانى الخليل والمعين إسماعيل - عليه السلام -^(٤).

(٥)- إن بناء المساجد قربة^(٥)، وأن بناء بيوت الله من العبادات بل هو من العبادات الكبيرة والمحبوبة إلى الله تعالى^(٦). قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنَ ءَامَرَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ءَاخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾^(٧)، وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «من بنى مسجداً ولو كمحفص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة»^(٨).

(١) روح المعاني ٣٨٣/١.

(٢) الاكليل في استنباط التنزيل ٢٠، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، مط دار العهد الجديد، وينظر: تفسير المراغي ٢١٦/١.

(٣) حاشية الشيخ زاده ٢٠٢/٢.

(٤) الفتوحات الالهية ١٠٦/١.

(٥) الاكليل: ٢٠.

(٦) حسن البيان لتفسير القرآن ١٨٢/١، محمد طه الباليساني، مط دار الحرية بغداد، ١٩٨٨م.

(٧) سورة التوبة، الآية: ١٨.

(٨) مسند أحمد: ٢٠٨، برقم ٢١٥٧، للإمام الحافظ أبي عبدالله أحمد بن حنبل، (ت ٢٤١)، مط بيت الأفكار الدولية، ١٩٩٨م.

(٦) - فضل الإسهام بالنفس في بناء المساجد^(١).

عاشراً: المعنى العام

ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية بأن اختصَّ مكان البيت ليكون معبداً يعبد فيه وحده لا شريك له واختار إبراهيم وإسماعيل ليتشرفا برفع قواعد هذا البيت، فصور لنا ربنا هذا المشهد مشهد تنفيذ إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - للأمر الذي تلقاه الخليل من ربه بأحسن تصوير وكأته مشهود كما لو كانت الأعين تراه في هذه اللحظة وتسمعه.

حيث صدعا بالأمر ورفعا قواعد البيت ودعوا الله متضرعين إليه بأن يقبل منهما هذا العمل فهو السميع لدعائهما والعليم بنيتهما.

(١). أيسر التفاسير ١/ ١١٥.

الفصل الثاني

الأمن في البيت الحرام

ويتضمن تمهيداً وثلاثة مباحث:

- المبحث الأول : الأمن لمكان البيت.
- المبحث الثاني : الأمن لساكن البيت.
- المبحث الثالث : الأمن لقاصد البيت.

تمهيد

لا بد لنا قبل الدخول في هذا المبحث من تعرف ماهية (الأمن) في اللغة والاصطلاح، فالأمن كما ورد في قول ابن فارس: ((الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان: أحدهما الأمانة التي هي ضد الخيانة ومعناها سكون القلب، والآخر: التصديق والمعنيان متدانيان))^(١).

والأمن: ضد الخوف وهو من باب فهم وسلم^(٢)، يقال: أُمِنْتُ الرجلَ أَمْنًا وَأَمَنَةً وَأَمَانًا، وامتنى يُؤمِنني إيمانًا، والعرب تقول: رجل أَمَانٌ إذا كان أَمِينًا^(٣).

والأَمَنَةُ بالتحريك: أي: أَمْنًا ومنه ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾^(٤)، والله تعالى المؤمن لأنه آمن عباده من أن يظلمهم^(٥)، والبلد إطمأن به أهله فهو آمن وأمين^(٦).

(الأمن) في الغريب: أصل الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف، والأمن والأمانة والأمان في الأصل مصادر، ويجعل الأمان تارة إسمًا للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن، وتارة إسمًا لما يؤمن عليه الانسان.

وأمن: إنما يقال على وجهين:

أحدهما: التعدي بنفسه، يقال: أمنت، أي: جعلت له الأمن، ومنه قيل لله مؤمن، والثاني: غير متعد ومعناه: صار ذا أمن^(٧).

(١) مقاييس اللغة مادة (أمن) ١/١٣٣.

(٢) ينظر: الصحاح مادة (أمن) ٥/٢٠٧١، واللسان مادة (أمن) ١/١٤٠.

(٣) مقاييس اللغة مادة (أمن) ١/١٣٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٥) الصحاح مادة (أمن) ٥/٢٠٧١، الصحاح في اللغة والعلوم ١/٤٦، لعبدالله العلايلي، إعداد نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، مط دار الحضارة العربية بيروت، ط ١ - ١٩٧٤م.

(٦) معجم متن اللغة ١/٢٠٧.

(٧) المفردات: ٩٠-٩١.

وجاء الأمن في الاصطلاح موافقاً للمعنى اللغوي فلا يخرج معناه الاصطلاحي عن المعنى اللغوي^(١)، وقد مثل ابن عاشور الأمن بقوله: ((حفظ الناس من الأضرار فتشريد الدعار وحراسة البلاد وتمهيد السبل وإنارة الطرق أمن والانتصاف من الجناة والضرب على أيدي الظلمة وإرجاع الحقوق إلى أهلها أمن، فالأمن يفسر في كل حال بما يناسبه))^(٢).

(١) الموسوعة الفقهية ٣٧٠/٦، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مط الموسوعة الفقهية،

الكويت، ط ١-١٩٨٦م.

(٢) التحرير والتنوير ٧٠٩/١.

المبحث الأول الأمن لمكان البيت

تمهيد

إن من أهم العوامل الرئيسية لجعل الناس تأوي إلى مكان ما، هو أمن ذلك المكان من المكاره والمخاوف، وقد خصّ الله تبارك وتعالى بيته الحرام بأن جعله بقعة مباركة آمنة يأمن فيها الناس والحيوان والشجر أن ينالهم الأذى وأن يروّعهم العدوان، فمن الآيات الكريمة التي وردت في هذا الموضوع قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا أَلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَيِّفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(١).

وسنحلل هذه الآية من خلال النقاط الآتية:

أولاً: (الجعل) في اللغة والغريب

(١) - (الجعل) في اللغة: من جَعَلَ الشيء يجعله جَعْلًا وَمَجْعَلًا، واجتعلَّه: وضعه وصيّره، وجعلَّه: صنَّعه وخلقَه^(٢).

(الجعل) في الغريب:

الجعل لفظ عام في الأفعال كلها وهو أعم من فعل ووضع وسائر أخواتها ويتصرف على وجوه منها:

أ- يجري مجرى صار وطفق فلا يتعدى نحو جعل زيد يقول كذا.

ب- يجري مجرى أوجد، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾^(٣).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٢) اللسان مادة (جعل) ٦٣٧/١، وينظر: الصحاح مادة (جعل) ٤/١٦٥٦، والمصباح مادة (جعل) ٥٧/١.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١.

ج- الحكم بالشيء على الشيء حقاً كان أو باطلاً، فأما الحق نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجِئُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(١)، وأما الباطل نحو قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾^(٢).

د- في تصيير الشيء على حالة دون حالة نحو: ﴿جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾^(٣).

هـ- في إيجاد شيء من شيء وتكوينه منه، نحو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾^{(٤) (٥)}.

(الجعل) في الوجوه والنظائر^(٦):

الجعل: يضاف تارة إلى الله تعالى، وتارة إلى عباده، فإذا أضيف إلى الله تعالى فهو منقسم في حقه إلى قسمين:

أحدهما: بمعنى الخلق. ومنه قوله تعالى في الأنعام: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾^(٧) وهذا الأصل في الجعل. والثاني: بمعنى التصيير، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾^(٨) أما قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾^(٩) فقليل: معناه: قلناه، فيكون وجه ثالث محتمل وقال بعضهم: معناه بيناه.

(٢)- (المثابة) في اللغة: اسم مكان من ثاب يثوب بمعنى: عاد ورجع إلى موضعه الذي أفضى إليه.

والمثابة: الموضع الذي يُثاب إليه، أي: يرجع إليه مرة بعد أخرى، وثاب يثوب ثوباً وثوباً: إذا رجع، ومنه قيل للمنزل مثابة؛ لأنَّ أهله يتصرفون في أمورهم ثم

(١) سورة القصص، الآية: ٧.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٧.

(٣) سورة النحل، الآية: ٨١.

(٤) سورة النحل، الآية: ٧٢.

(٥) المفردات: ١٩٦ - ١٩٧.

(٦) نزهة الأعين النواظر: ١٩٢ - ١٩٣، وينظر: منتخب قرة عيون النواظر: ٨٩.

(٧) سورة الأنعام، الآية: ١.

(٨) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٩) سورة الزخرف، الآية: ٣.

يثوبون إليه^(١).

قال الأخفش: دخلت الهاء في (مثابة) لما كثر من يثوب إليه كما نقول (نسابة) و(سيارة) لمن يكثر ذلك منه^(٢) وقال غيره هي للتأنيث وليست للمبالغة كما يقال: مقام ومقامة وقيل لتأنيث البقعة^(٣).

(المثابة) في الغريب: أصل الثوب: رجوع الشيء إلى حالته الأولى التي كان عليها أو الحالة المقدرة المقصودة بالفكرة، فمن الرجوع إلى الحالة الأولى قولهم: ثاب فلان إلى داره وثابت إلي نفسي، وسمي مكان المستسقى على فم البئر مثابة، ومن الرجوع إلى الحالة المقدرة المقصودة بالفكرة الثوب، سمي ذلك لرجوع الغزل إلى الحالة التي قدرت له، وكذا ثواب العمل، والثواب: ما يرجع إلى الانسان من جزاء أعماله^(٤).

ثانياً: معنى ﴿جَعَلْنَا﴾ و﴿مَثَابَةً﴾ عند المفسرين

(١)- (جعلنا) بمعنى خلقنا أو صيرنا^(٥)

وذكر ابن عاشور: ((إن المراد من الجعل في الآية اما أن يكون الجعل التكويني لأن ذلك قدره الله وأوجد أسبابه فاستقر ذلك بين أهل الجاهلية وسيرهم إلى تعظيمه، واما أن يكون الجعل أن أمر الله إبراهيم بذلك فأبلغه إبراهيم ابنه إسماعيل وبثه في ذريته فتلحقه أعقابهم تلقي الأمور المسلمة))^(٦).

(٢)- لفظة (مثابة) ذكر المفسرون لها عدة معان منها:

أ- مجمعاً لهم، قاله قتاده^(٧).

(١) الصحاح مادة (ثوب) ٩٥/١، اللسان مادة (ثوب) ٥١٨/١، المصباح مادة (ثوب) ٤٩/١.

(٢) معاني القرآن للأخفش ٣٣٥/١، سعيد بن مسعدة البلخي المجاشعي تح د. عبد الأمير الورد، مط عالم الكتب بيروت، ط ١ - ١٩٨٥م، الفتوحات الالهية ١٠٣/١.

(٣) فتح القدير ١٣٨/١.

(٤) المفردات ١٧٩-١٨٠.

(٥) إرشاد العقل السليم ١٢٢/١، حاشية الصاوي ٥٣/١.

(٦) التحرير والتنوير ٧٠٩/١.

(٧) جامع البيان ٥٣٣/١، بحر العلوم ٤٧٥/١.

ب- معاذاً وملجأً، قاله ابن عباس - رضي الله عنه - (١).

ج- مرجعاً يثوب إليه أعيان الزوار أو أمثالهم، قاله مجاهد وسعيد بن جبير (٢).

د- موضع ثواب يثابون بحجه واعتماره، قاله عطاء (٣).

فعلى هذا إذا كان اللفظ محتملاً لما تأوله السلف من رجوع الناس إليه في كل عام، ومن قول من قال أنه لا ينصرف عنه أحد إلا وهو يحب العود إليه، فكل هذه المعاني التي تأولها السلف يحتملها لفظة المثابة من رجوع الناس إلى بيت الله الحرام في كل عام، وأنه لا ينصرف عنه أحد إلا وهو يتمنى العود إليه، ومن أنهم يحجون إليه ويعتَمرون فيثابون، والثواب مأخوذ من ثاب التي بمعنى رجع فكأن الذي يخرج المال وغيره يرجع إليه، فجائز أن يكون المراد ذلك كله (٤).

ثالثاً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها:

لما كان من إمامته - عليه السلام - إتباع الناس له في حج البيت الذي شرفه الله ببنائه، قال إثر ذلك ناعياً على أهل الكتاب مخالفته وترك دينه موطناً لأمر القبلة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ (٥).

رابعاً: الاعراب والقراءات

[١] - الاعراب:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾ إذ في موضع نصب على المفعول به، أي: اذكر و﴿جَعَلْ﴾ يجوز أن يكون بمعنى صير، ويجوز أن يكون بمعنى خلق أو صنع فيكون (مثابة) حالاً (واللناس) صفة لمثابة، ويجوز أن يتعلق بجعلنا ويكون التقدير: لأجل نفع الناس (٦)،

(١) إرشاد العقل السليم ١٠٤/١.

(٢) روح المعاني ٣٧٨/١.

(٣) النكت والعيون ١٥٥/١.

(٤) ينظر: أحكام القرآن ١١٩/١، لأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ) جمعه أحمد بن الحسين البيهقي، مط دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٧٥م، والجامع لأحكام القرآن ١١٠/١.

(٥) نظم الدرر: ١٥٢/٢.

(٦) إملاء ما من به الرحمن ٦١-٦٢، الدر المصون ٣٦٣/١.

وقوله ﴿وَأَمْنًا﴾ فيه وجهان أحدهما: أنه عطف على مثابة، والثاني: أنه معمول لفعل محذوف تقديره: وإذ جعلنا البيت مثابة فأجعلوه آمناً لا يتعدى فيه أحد على أحد^(١).

[٢]- القراءات:

قرأ الأعمش وطلحة: (مثابات) على الجمع لأنه مثابة كل واحد من الناس لا يختص به أحد منهم ﴿سَوَاءٌ أَلَعَكُفُ فِيهِ وَالْبَادُ﴾^(٢) فهو وإن كان واحداً بالذات إلا أنه متعدد باعتبار الاضافات، وقيل: إن الجمع بتنزيل تعدد الرجوع منزلة تعدد المحل أو باعتبار أن كل جزء منه مثابة^(٣).

خامساً: البلاغة

ذكر أهل العلم وجوهاً بلاغية في هذه الآية الكريمة منها:

(١)- أعيدت ﴿إِذْ﴾ للتنبيه على استقلال القصة وانها جديرة بأن تعد بنية أخرى^(٤).

(٢)- إيقاع المصدر موقع اسم الفاعل في قوله: ﴿وَأَمْنًا﴾ للمبالغة، والاسناد مجازي، أي: آمنا من دخله كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾^(٥) ^(٦).

سادساً: معنى الأمن في الآية الكريمة

الأمن: السلامة من الخوف، وأمن المكان: اطمئنان أهله به، وعدم خوفهم من أن ينالهم فيه مكروه، فاليمن، مأمّن، أي: موضع أمن، وأخير - سبحانه - بأنه جعله آمناً ليدل على كثرة ما يقع به من الأمن حتى صار كأنه نفس الأمن.

ثم لا شك أن قوله: ﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ خبر، فتارة نتركه على ظاهره

(١) الدر المصون ١/٣٦٣.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٥.

(٣) ينظر: مختصر في شواذ القراءات: ٩، والكشاف: ٩٣/١، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: ١٤٧، لأحمد بن عبد الغني الديمياطي (ت ١١١٧هـ)، مط دار: التدوة، بيروت، وروح المعاني ١/٣٧٨.

(٤) التحرير والتنوير ١/٧٠٨.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

(٦) صفوة التفاسير ١/٩٥، وينظر: حاشية الصاوي ١/٥٣.

ونقول: أنه خبر، وتارة نصرفه عن ظاهره ونقول: انه أمر.

أما القول الأول: فهو أن يكون المراد أنه تعالى جعل أهل الحرم آمنين من القحط والجذب على ما قاله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾^(١) وقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِبْنَ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢) ولا يمكن أن يكون المراد منه الاخبار عن عدم وقوع القتل في الحرم، لأننا نشاهد أن القتل الحرام قد يقع فيه، وأيضاً فالقتل المباح قد يوجد فيه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَنُوكُمْ فِيهِ فَيَن قَاتِلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ﴾^(٣) فأخبر عن وقوع القتل فيه^(٤).

والقول الثاني: أن نحمله على الأمر على سبيل التأويل. والمعنى: أن الله تعالى أمر الناس بأن يجعلوا ذلك الموضع آمناً من الغارة والقتل فكان البيت محترماً بحكم الله تعالى، وكانت الجاهلية متمسكة بتحريمه لا يهيجون على أحد التجأ إليه وكانوا يسمون قريشاً: أهل الله تعظيماً له، وكانوا يقتتلون ويعتدي بعضهم على بعض من حوله أما أهله فكانوا في أمان واطمئنان قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَفِّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

وقد أقرت تعاليم الإسلام هذه الحرمة للبيت الحرام على وجه لا يُضَيِّع حقاً ولا يعطل حدا وزادت في تكريمه وتشريفه بأن جعلت الحج إليه فريضة على كل قادر عليها^(٥).

ورويت الأخبار في تحريم مكة. قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله حرم مكة فلم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي وإنما أحلت لي ساعة من نهار»^(٦).

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وانه لم

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٧.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩١.

(٤) جامع البيان ٥٢/٤، الباب ١/٤٦١.

(٥) التفسير الوسيط ٢٤٩/١.

(٦) صحيح البخاري ٥٢٠/٤ [كتاب الحج - باب لا ينفر صيد الحرم] برقم ١٨٣٣.

يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكة ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلي خلّاه، فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر فإنه لقينهم وليوتهم فقال رسول الله -ﷺ-: «إلا الإذخر»^(١).

سابعاً: إقامة الحدود في الحرم المكي

إن من وجب عليه الحد والتجأ إلى الحرم يأمر الإمام بالتضييق عليه بما يؤدي إلى خروجه فإذا خرج أقيم عليه الحد في الحل فإن لم يخرج جاز قتله فيه هذا مذهب الإمام الشافعي -ﷺ-.

وعند الإمام أبي حنيفة -ﷺ- لا يُستوفى قصاص النفس في الحرم لكن يضيق على الجاني ولا يكلم ولا يطعم ولا يعامل حتى يخرج فيقتل

وعند الإمام أحمد -ﷺ- لا يُستوفى من الملتجئ قصاص مطلقاً ولو قصاص على الأطراف حتى يخرج واحتج الشافعي -ﷺ- بأنه -ﷺ- أمر عندما قتل عاصم بن ثابت بن الأفلح وخبيب بقتل أبي سفيان في داره بمكة غيلة أن قدر عليه، وهذا في الوقت الذي كانت مكة فيه محرمة، وذلك يدل على أنها لا تمنع أحداً من شيء وجب عليه، وانها إنما تمنع من أن ينصب الحرب عليها كما ينصب على غيرها، واحتج أبو حنيفة -ﷺ- بهذه الآية، والجواب عنه أن قوله: (وَأَمْنًا) ليس فيه بيان أنه جعله آمناً في هذا فيمكن أن يكون آمناً من القحط، وأن يكون آمناً من نصب الحروب، وأن يكون آمناً من إقامة الحدود، وليس اللفظ من باب العموم حتى يحمل على الكل بل حمّله على الأمن من القحط والآفات أولى؛ لأننا على هذا التفسير لا نحتاج إلى حمل لفظ الخبر على معنى الأمر، وفي سائر الوجوه نحتاج إلى ذلك فكان قول الشافعي -ﷺ- أولى^(٢).

(١) صحيح مسلم ٩٨٦/٢ - ٩٨٧. [كتاب الحج - باب تحريم مكة وصيدها] برقم ١٣٥٣، والإذخر: بكسر الهمزة، حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٣٣/١، للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير، (ت ٦٠٦هـ)، تح طاهر أحمد الراوي ومحمود محمد الطناحي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط ١-١٩٦٣م.

(٢) ينظر: التفسير الكبير ٥٢/٤، وتخريج الفروع على الأصول: ٣٣١-٣٣٢، للإمام شهاب الدين =

وانه لو لم يحم الحدة على الجنة في الحرم لعم الفساد وعظم الشر في حرم الله، وان أهل الحرم كغيرهم في الحاجة إلى صيانة نفوسهم وأموالهم وأعراضهم ولو لم يشرع الحدة في حق من ارتكب الجرائم في الحرم لتعطلت حدود الله وعم الضرر للحرم وأهله^(١).

ثامناً: اللطائف التفسيرية

وردت في الآية الكريمة بعض اللطائف منها:

(١)- البيت علم بالغلبة على الكعبة كما غلب النجم على الشيا واكتفى بذكر البيت مطلقاً لدخول الألف واللام عليه، إذ كانت تدخلان لتعريف المعهود أو الجنس، وقد علم المخاطبون أنه لم يرد به الجنس، فانصرف إلى المعهود عندهم وهو الكعبة^(٢).

(٢)- المراد بالبيت هنا الحرم كله لا الكعبة نفسها لأنه تعالى وصفه بكونه (أمناً) وهذا صفة جميع الحرم، لا صفة الكعبة فقط والدليل على أنه يجوز إطلاق البيت والمراد منه كل الحرم قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَدٌ بَلَّغَ الْكَعْبَةِ﴾^(٣) والمراد الحرم كله لا الكعبة نفسها لأنه لا يذبح في الكعبة ولا في المسجد الحرام، وكذلك قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾^(٤)، والمراد والله أعلم منعهم من الحج حضور مواضع النسك. وقال في آية أخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِّنَّا﴾، وقال الله تعالى في آية أخرى مخبراً عن إبراهيم - عليه السلام -: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾^(٥) فدل هذا على أنه وصف البيت بالأمن فاقضى جميع الحرم والسبب في أنه تعالى أطلق لفظ

= محمود بن أحمد الزنجاني (ت ٦٥٦هـ)، تح د. محمد أديب صالح، مط مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط ٤ - ١٩٨٢م، وأسباب اختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعية: ١٤٢ - ١٤٣، للدكتور مصطفى إبراهيم الزلمي، مط الدار العربية للطباعة - بغداد، ط ١ - ١٩٧٦م.

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد ٣/ ٤٤٨، لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تح شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط، مط مؤسسة الرسالة، ط ١٤ - ١٩٨٦م، محاسن التأويل ٤/ ٩٠٣.

(٢) التفسير الكبير ٤/ ٥٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

البيت وعنى به الحرم كله؛ أنّ حرمة الحرم لما كانت متعلقة بالبيت جاز أن يعبر عنه باسم البيت^(١).

الآية الثانية: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾^(٢).

سنحلل الآية من خلال النقاط الآتية:

أولاً: تحليل الألفاظ في اللغة والغريب والوجوه والنظائر

(١)- ﴿الْكَعْبَةُ﴾ في اللغة: البيت المربع، وجمعه كعاب، وكعب الانسان: هو العظم الناشز عند ملتقى الساق والقدم، ورجل عالي الكعب: يوصف بالشرف والظفر، وكعبت المرأة: نتأ ثديها فهي كاعب^(٣).

﴿الْكَعْبَةُ﴾ في الغريب: تأتي بعدة معان منها:

أ- البيت الذي يكون على هيئة في الترييع، وبها سميت الكعبة.

ب- الغرفة، تقول: فلان جالس في كعبته، أي: غرفته وبيته.

ج- امرأة كاعب: تكعّب ثدياها، والجمع كواعب، قال تعالى: ﴿وَكَوَاعِبَ أَرْبَابًا﴾^(٤) (٥).

(٢)- ﴿الْحَرَامُ﴾ في اللغة: نقيض الحلال، وجمعه حُرْم وقد حرم عليه الشيء حُرْمًا وحراماً والحرام ما حرمه الله، والبيت الحرام، أي: لا يحل انتهاكه^(٦).

﴿الْحَرَامُ﴾ في الغريب: الممنوع منه اما بتسخير إلهي، واما بشري، واما بمنع قهري واما بمنع من جهة العقل أو من جهة الشرع، أو من جهة من يرتسم أمره، والحرم: سمي بذلك لتحريم الله تعالى فيه كثيراً مما ليس بمحرم في غيره من المواضع^(٧).

(١) التفسير الكبير ٥٠/٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٧.

(٣) اللسان مادة (كعب) ٣٨٨٨/٥، والمصباح مادة (كعب) ٩٨/٢ - ٩٩.

(٤) سورة الواقعة، الآية: ٨٧.

(٥) المفردات: ٧١٢ - ٧١٣.

(٦) جمهرة اللغة ١٤٢/٢، واللسان مادة (حَرَمَ) ٨٤٤/٢ - ٨٤٥، والمصباح مادة (حَرَمَ) ٧٢/١.

(٧) المفردات: ٢٢٩ - ٢٣٠.

﴿الْحَرَامُ﴾ في الوجوه والنظائر: ورد في القرآن بوجوه متعددة منها^(١):

أ- المنع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ عَلَىٰ قَرِيَّةٍ أَهْلَکَهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^(٢).

ب- التحريم بعينه، ومنه قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾^(٣).

ج- محل التحريم، ومنه قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾^(٤).

(٣)- (القيام) في اللغة: نقيض الجلوس، قام يقوم قوماً وقياماً وقومة وقامة وأصل قياما: قوام لأنه من قام يقوم فقلبت الواو ياءً لأنكسار ما قبلها^(٥)، وقد وردت كلمة القيام في اللغة على معان منها:

أ- وردت بمعنى العماد ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ قَوْمٍ﴾^(٦) ^(٧).

ب- وبمعنى المحافظة والإصلاح ومنه قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَىٰ النِّسَاءِ﴾^(٨).

ج- وبمعنى الوقوف والثبات منه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَطْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾^(٩).

قال أهل اللغة والتفسير: قاموا هنا بمعنى وقفوا وثبتوا في مكانهم غير متقدمين ولا متأخرين^(١٠).

(القيام) في الغريب: القيام والقوام: إسم لما يقوم به الشيء وهو على أضراب منها:

أ- قيام بالشخص اما بتسخير أو اختيار فمن الأول قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّنْ

(١) ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر ١٢٥.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٥.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

(٥) المصباح مادة (قَوَّمَ) ٩١/٢، تاج العروس مادة (قوم) ٣٥/٩.

(٦) سورة النساء، الآية: ٥.

(٧) العين: ٢٣٣/٥.

(٨) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٩) سورة البقرة، الآية: ٢٠.

(١٠) ينظر: اللسان، مادة (قوم) ٣٧٨١/٥.

لَيْسَ أَوْ نَزَعْنَاهَا قَائِمَةً عَلَى أَصُولِهَا^(١)، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾^(٢).

ب- قيام للشيء هو المراعاة للشيء والحفظ له، مثل قوله تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾^(٣).

ج- قيام هو للعزم على الشيء مثل قوله تعالى: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾^(٤)، أي: يديمون فعلها ويحافظون عليها^(٥).

(القيام) في الوجوه والنظائر:

الأصل في القيام: انتصاب القامة من الأدمي وامتدادها إلى جهة العلو، والقومة: المرة الواحدة، وهذا قوام هذا أي: الذي يقوم به وهو يأتي على عدة معان منها^(٦):

أ- الاتمام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^(٧).

ب- أمتنا، ومنه قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا﴾.

ج- قائمين على أرجلهم، ومنه قوله تعالى: ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

د- الثابت من البنيان والأشخاص، ومنه قوله تعالى: ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾^(٨)، يعني ثابتاً.

هـ- المواظبة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾^(٩)، أي: مواظبا.

(١) سورة الحشر، الآية: ٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٣٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٣.

(٥) ينظر: المفردات: ٦٩٠.

(٦) إصلاح الوجوه والنظائر: ٣٩٣-٣٩٤، وينظر: نزهة الأعين النواظر: ٤٤٣ - ٤٤٤.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٤٣.

(٨) سورة هود، الآية: ١٠٠.

(٩) سورة آل عمران، الآية: ٧٥.

ثانياً: معنى ﴿قِيَمًا﴾ عند المفسرين

لقد ورد معنى (قيماً) عند المفسرين في الآية الكريمة كما يأتي:

- (١)- قال سعيد بن جبير: صلاحاً لدينهم^(١).
- (٢)- وعن ابن عباس قال: قيامها: أن يأمن من توجه إليها.
- (٣)- قوام أمرهم قاله السدي^(٢).
- (٤)- كونه آمناً لهم من الهلاك فما دام البيت يحج إليه الناس لم يهلكوا فإن هدم وترك الحج هلكوا. روي ذلك عن عطاء^(٣).
- (٥)- يعني في المناسك والمتعبدات: قاله الزجاج وغيره^(٤).

ويقول الطبري - رحمه الله -: ((وهذه الأقوال وأن اختلفت من قائلها الفاظها، فإن معانيها آيلة إلى أن القوام للشيء. هو الذي به صلاحه كالملك الأعظم قوام رعيته ومن في سلطانه لأنه مدير أمرهم وحاجز ظالمهم عن مظلومهم والدافع عنهم مكروه من بغاهم وعاداهم وكذلك كانت الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد قوام أمر العرب الذي كان به صلاحهم في الجاهلية وهي في الإسلام لأهله معالم حجهم ومناسكهم ومتوجههم لصلاتهم وقبلتهم التي باستقبالها يتم فرضهم))^(٥).

ثالثاً: البلاغة في الآية

وردت في الآية بعض الوجوه البلاغية منها:

- (١)- القيام في الأصل مصدر قام إذا استقل على رجليه، يستعار للنشاط، ويستعار من ذلك للتدبير والاصلاح لأن شأن من يعمل عملاً مهماً أن ينهض له.
- ومن هذا الاستعمال قيل للناظر في أمور شيء وتدبيره: هو قيم عليه أو قائم عليه، فالقيام هنا بمعنى: الإصلاح والنفع واثباته للكعبة من الأخبار بالمصدر للمبالغة وهو

(١) جامع البيان ٧/٧٧، أحكام القرآن لابن العربي ٢/٦٩٣.

(٢) جامع البيان ٧/٧٧.

(٣) روح المعاني ٧/٣٦.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٢/٦٩٣.

(٥) جامع البيان ٧/٧٧.

إسناد مجازي لأن الكعبة لما جعلها الله سبباً في احكام شريعة سابقة كان بها صلاح أهل مكة وغيرهم من العرب وقامت بها مصالحهم جعلت الكعبة هي القائمة لهم لأنها سبب القيام لهم^(١).

(٢)- عطف (الشهر الحرام) على الكعبة شبه عطف الخاص على العام باعتبار كون الكعبة أريد بها ما يشمل علائقها وتوابعها فإن الأشهر الحُرُم ما اكتسبت الحرمة إلا من حيث هي أشهر الحج والعمرة للكعبة^(٢).

رابعاً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: لما كان الاحرام وتحريم الصيد في البيت الحرام إنما هو لقصد تعظيم الكعبة بيّن الله تعالى حكمة ذلك وأنه كما جعل الحرم والاحرام سبباً لأمن الوحش والطير جعله سبباً لأمن الناس وسبباً لحصول السعادة دنيا وأخرى^(٣).

خامساً: الاعراب والقراءات

[١]- الاعراب:

﴿جَعَلَ﴾ إذا كان بمعنى صيّر فيتعدى إلى مفعولين أولهما ﴿الْكَعْبَةُ﴾ والثاني ﴿قَيْئَمًا﴾ ومن قال أنه بمعنى خلق جعله متعدياً إلى واحد وهو (الكعبة) وجعل (قياماً) منصوباً على الحال^(٤).

﴿أَلْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ عطف بيان على جهة المدح لأنه عرف بالتعظيم عندهم فصار في معنى المعظم أو لأنه وصف بالحرام المشعر بحرمة وعظمته وقيل: جيء به للتبيين لأنه كان لخشع بيت يسمونه الكعبة اليمانية، وجوز أن يكون بدلاً وأن يكون مفعولاً ثانياً لجعل^(٥).

(١) التحرير والتنوير: ٥٦/٧.

(٢) المصدر السابق ٥٨/٧.

(٣) نظم الدرر ٣٠٧/٦.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤٢/٢، إملاء ما من به الرحمن ٢٢٧/١، حاشية الشيخ زاده ٤٦٦/٣،

حاشية الصاوي ٢٦٧/١.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦١٤/٢، وروح المعاني ٣٥/٧.

[٢]- القراءات:

﴿قِيَمًا﴾ قرأ ابن عامر بغير ألف (قِيَمًا) على أنه مصدر كشيع ومعناه: المبالغة في كونه قائماً بإصلاح مهمات الناس كقوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾^(١) والباقون بالألف فهما لغتان إلا أن حجة من أثبت الألف أنه أراد أن الله جعل الأموال قِيَمًا لأُمُور عباده، أما حجة من حذفها فعلى أن الله تعالى جعل الأموال قيم لجميع المتلفات^(٢).

سادساً: حرمة مكة

اختلف في مكة هل كانت آمنة محرمة قبل دعوة إبراهيم - عليه السلام - أم أنها صارت كذلك بدعوته؟ فقال قوم: أنها كانت كذلك أبداً لقوله - عليه السلام -: «أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض»^(٣) وأيضاً قال إبراهيم: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ وهذا يقتضي أنها كانت محرمة قبل ذلك ثم إن إبراهيم - عليه السلام - أكد بهذا الدعاء، وقال آخرون: أنها إنما صارت حراماً أمناً بدعاء إبراهيم - عليه السلام -، وقبله كانت كسائر البلاد والدليل عليه قوله - عليه السلام -: «وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة»^(٤).

والقول الثالث: أنها كانت حراماً قبل الدعوة بوجه غير الوجه الذي صارت به حراماً بعد الدعوة.

فالأول: يمنع الله تعالى من الاستئصال، وبما جعل في النفوس من التعظيم.
والثاني: بالأمر على السنة الرسل^(٥)، والوجه الأول هو أظهر وأقوى كما رجحه ابن كثير^(٦) وأرجحه والله أعلم.

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦١.

(٢) ينظر: الحجة لابن خالويه: ١١٩، والكشف ٣٧٦/١، ومختصر لمذاهب القراء بالأمصار: ١١٧، لأبي عمرو الداني، تح أحمد محمد عبد السميع الشافعي، مط دار الكتب العلمية، ط ١ - ٢٠٠١ م.

(٣) سبق تخريجه في ص ٧٨-٧٩ من الرسالة.

(٤) صحيح مسلم ٩٩١/٢ [كتاب الحج - باب فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة] برقم ١٣٦٠.

(٥) ينظر: التفسير الكبير ٦٠-٦١/٤، لباب التأويل ١٠٨/١.

(٦) تفسير القرآن العظيم ١٧٣/١.

سابعاً: وجه تسمية بيت الله الحرام بالكعبة

روي عن عكرمة ومجاهد أنها سميت كعبة لتربيعها والعرب تسمي كل بيت مربع كعبة، وقيل: إنما سميت كعبة لارتفاعها من الأرض، يقال للجارية إذا نتأ ثديها وخرج كاعب وكعاب، والكعبة لما ارتفع ذكرها في الدنيا واشتهر أمرها في العالم سميت بهذا الاسم ولذلك فإنهم يقولون لمن عظم أمره فلان علا كعبه^(١).

وقد سماها بيتاً لأنها ذات سقف وجدار وهي حقيقة البيّنة وإن لم يكن بها ساكن^(٢).

ثامناً: الأسباب التي جعلت الكعبة قواماً لمصالح الناس

لجعل الكعبة قواماً لمصالح الناس أسباب أورد الامام الرازي منها:

(١)- ان أهل مكة كانوا محتاجين إلى حضور أهل الآفاق عندهم ليشتروا منهم ما يحتاجون إليه طول السنة، فإن مكة بلدة ضيقة لا ضرع فيها ولا زرع وقلما يوجد فيها ما يحتاجون إليه فالله تعالى جعل الكعبة معظمة في القلوب حتى صار أهل الدنيا راغبين في زيارتها فيسافرون إليها من كل فج لأجل التجارة ويأتون بجميع المطالب والمشتريات فصار ذلك سبباً لاسباغ النعم على أهل مكة.

(٢)- ان العرب كانوا يتقاتلون ويغيرون إلا في الحرم فكان أهل الحرم آمنين على أنفسهم وعلى أموالهم حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه أو ابنه في الحرم لا يتعرض له ولو جنى الرجل أعظم الجنايات ثم التجأ إلى الحرم لم يتعرض له ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

(٣)- ان أهل مكة صاروا بسبب الكعبة أهل الله وخاصته وسادة الخلق إلى يوم القيامة وكل أحد يتقرب إليهم يعظمهم.

(٤)- ان الله تعالى جعل الكعبة قواماً للناس في دينهم بسبب ما جعل فيها من المناسك العظيمة والطاعات الشريفة وجعل تلك المناسك سبباً لحط الخطيات أو رفع الدرجات وكثرة الكرامات.

(١) ينظر: التفسير الكبير ١٢/١٠٠، ومعاليم التنزيل ٩٦/٢، وإرشاد العقل السليم ٦١/٢.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٦٩٢/٢.

ولا يبعد حمل الآية على جميع هذه الوجوه وذلك لأن قوام المعيشة إما بكثرة المنافع وهو الوجه الأول وإما بدفع المضار وهو الوجه الثاني وإما بحصول الجاه والرياسة وهو الوجه الثالث وإما بحصول الدين وهو الوجه الرابع، فلما كانت الكعبة سبباً لحصول هذه الأقسام الأربعة وثبت أن قوام المعيشة ليس إلا بهذه الأربعة ثبت أن الكعبة سبباً لقوام الناس^(١).

تاسعاً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة المعاني الآتية:

(١)- التذكير بعظمة شأن الكعبة التي حرمت أرض الحرم لأجل تعظيمها فقد اتخذ العرب طواغيت وهي بيوت جعل لها سدنة وحجاباً وهدياً أكثروا منها، وعظمت كل قبيلة ما عندها أشد تعظيم وطافوا به فلم يبلغ شيء ما بلغ أمر الكعبة المشرفة ولا قارب ليحصل العلم بأنه سبحانه لا شيء مثله ولا شريك له^(٢).

(٢)- تذكير سكان البيت بنعمة الله العظيمة عليهم أن جعل لهم أمانة بسبب حرمة الكعبة وعلائقها وشعائرها^(٣).

(٣)- لقد أراد الله للكعبة - البيت الحرام - أن تكون مثابة أمن وسلام تقيم الناس وتقيهم الخوف والفرع، كذلك جعل الأشهر الحرم لتكون منطقة أمن في الزمان كالكعبة منطقة أمن في المكان ثم مد رواق الأمن خارج منطقة الزمان، والمكان فجعله حقاً للهدي - وهو النعم - الذي يطلق ليبلغ الكعبة في الحج والعمرة فلا يمسه أحد في الطريق بسوء كما جعله لما يقلد من الهدى معلناً احتماءً بالبيت العتيق.

وبعد فإنها ليست منطقة الأمان في الزمان والمكان وحدهما، وليس رواق الأمان الذي يشمل الحيوان والإنسان وحدهما، وإنما هي كذلك منطقة الأمان في الضمير البشري، إنها منطقة السلام والسماحة في ذلك المصطرع حتى ليتخرج المحرم أن يمد يده إلى الطير والحيوان وهما في غير هذه المنطقة حل للإنسان ولكنهما هنا في المثابة الآمنة، في الفترة الآمنة في النفس الآمنة إنها منطقة المران والتدريب للنفس

(١) التفسير الكبير ١٢/١٠٠، وينظر لباب التأويل ٩٧/٢.

(٢) ينظر: نظم الدرر ٦/٣٠٨ - ٣٠٩.

(٣) التحرير والتنوير ٥٤/٧.

البشرية لتصفو وترق وترف فتتصل بالملأ الأعلى وتتهياً للتعامل معه .
الا ما أحوج البشرية المفزعة، الوجلة، المتطاحنة، المتصارعة، إلى منطقة
المران التي جعلها الله للناس في هذا الدين وبينها للناس في هذا القرآن^(١).

عاشراً: المعنى العام

ذكر الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة أربعة أمور في سبب قيام الناس
وقوامهم فذكر الكعبة البيت الحرام ثم الشهر الحرام ومن ثم الهدى والقلائد وذلك
لأن مكة بلد لا ضرع فيه ولا زرع وفيه السلب والغارة والقتل والثأر، فاقتضت
الحكمة الإلهية ورحمة الله بعباده أن يكون هناك رادعاً يردعهم عن التجاوز ويحملهم
على التألف كالملك العادل قوام رعيته لأنه يدبر أمرهم ويردع ظالمهم ويرد قوياً عن
ضعيفهم ومسيئهم عن محسنهم، فكان ذلك بما أوقعه الله في قلوبهم من تعظيم البيت
الحرام فكل من قصده أو تقرب إليه صار آمناً من جميع الآفات والمكاره، فلما ذكر
سبحانه وتعالى أنه جعل الكعبة قياماً للناس ذكر بعدها الشهر الحرام والهدى والقلائد
لأن هذه الثلاثة إنما صارت سبباً لقوام الناس لإنتسابها إلى البيت الحرام فكان ذلك
دليلاً على عظمة هذا البيت وعلو شأنه .

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٧/٤٦-٤٧.

المبحث الثاني الأمن لساكن البيت

سنحلل في هذا المبحث قوله تعالى:

﴿لَيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(١).

وستتعرف معاني هذه الآية الكريمة من خلال النقاط الآتية:

أولاً: تحليل الألفاظ

(١)- (الرب) في اللغة: المصلح للشيء، والله جل ثناؤه الرب؛ لأنه مصلح أحوال خلقه، يقال: ربّ فلان ضيعته: إذا قام على إصلاحها^(٢).

(الرب) في الغريب: الرب في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالا إلى حد التمام، يقال: ربّه ورباه وربّيه. والرب مصدر مستعار للفاعل وهو اسم من أسماء الله - ﷻ -، ولا يقال الرب مطلقاً إلاّ الله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات، وبالإضافة يقال له ولغيره^(٣).

(٢)- (الخوف) في اللغة: الخاء والواو والفاء أصل واحد يدل على الذعر والفرع، يقال: خفت الشيء خوفاً وخيفة، والياء مبدلة من واو لمكان الكسرة، ويقال خاؤفني فلان فخفته، أي: كنت أشد خوفاً منه^(٤).

(الخوف) في الغريب: هو توقع مكروه عن اشارة مظنونة أو معلومة كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن اشارة مظنونة أو معلومة، ويضاد الخوف الأمن،

(١) سورة قريش، الآية: ٣-٤.

(٢) مقاييس اللغة مادة (رب) ٣٨١/٢ - ٣٨٢.

(٣) المفردات: ٣٣٦.

(٤) مقاييس اللغة مادة (خوف) ٢/٢٣٠، وينظر: الصحاح مادة (خوف) ٤/١٣٥٨ - ١٣٥٩.

ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية^(١).

(٣) - (الخوف) في الوجوه والنظائر: يأتي بعدة معان منها^(٢):

أ- القتل، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾^(٣) يعني: القتل.

ب- القتال، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾^(٤) يعني: القتال.

ج- العذاب، قال تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٥).

د- العلم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ﴾^(٦) أي: علمتم.

ثانياً: تحليل الألفاظ عند المفسرين

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أمروا أن يألّفوا عبادة ربّ هذا البيت كإلّفهم رحلة الشتاء والصيف، ويعني بالبيت الكعبة، قاله عكرمة وابن عباس.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ﴾ يعني: قريشاً أهل مكة بدعوة إبراهيم - عليه السلام - حيث قال: ﴿وَأَرْزُقَهُم مِّنَ الشَّعِيرِ﴾^(٧)، وقيل: بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما^(٨).

﴿وَوَاعَدْتُهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ قال ابن زيد: كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضها بعضاً فأمنت قريش من ذلك لمكان البيت.

وعن قتادة قال: كانوا يقولون: نحن من حرم الله فلا يعرض لهم أحد في

(١) المفردات: ٣٠٣.

(٢) ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ١٦٥-١٦٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٥.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ١٩.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٣٨.

(٦) سورة النساء، الآية: ٣٥.

(٧) جامع البيان ٣٠/٣٠٨.

(٨) فتح القدير ٥/٤٩٨، التحرير والتنوير ٤/٢٨٦.

الجاهلية يأمنون بذلك، وكان غيرهم من قبائل العرب إذا خرج أغير عليه^(١). وقال ابن عباس والضحاك وسفيان: من خوفهم من الجذام، وقال الأعمش: من خوف الحبشة من الفيل^(٢).

والصواب كما رجحه الطبري: بأن الخبر يعم كما عمّ جل ثناؤه^(٣).

ثالثاً: البلاغة في هذه الآية

ذكر أهل العلم في هذه الآية بعض الوجوه البلاغية منها:

أ- الإضافة للتكريم والتشريف ﴿رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ فإنه سبحانه وتعالى تارة يضيف نفسه إلى البيت وهو قوله: ﴿رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ وتارة يضيف البيت إلى نفسه فيقول: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾^(٤).

ب- تقدم ما حقه التأخير ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ﴾ والأصل (فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف)، فقدم الإيلاف تذكيراً بالنعمة^(٥).

ج- التنكير في لفظة ﴿جُوعٍ﴾ ولفظة ﴿خَوْفٍ﴾ لبيان شدتهما، أي: جوع شديد وخوف عظيم^(٦).

رابعاً: مناسبة الآية

ليُعلم أنّ الانعام على قسمين: (أحدهما) دفع الضرر، (الثاني) جلب النفع، والأول أهم وأقدم ولذلك قال: دفع الضرر عن النفس واجب أما جلب النفع فإنه غير واجب؛ فلهذا السبب بين الله تعالى نعمة دفع الضرر في سورة الفيل ونعمة جلب النفع في هذه السورة ولما تقرر أن الانعام لا بد وأن يقابل بالشكر والعبودية لا جرم أتبع ذكر النعمة بطلب العبودية فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾^(٧).

(١) جامع البيان ٣٠/٣٠٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٠٩.

(٣) ينظر: جامع البيان ٣٠/٣٠٩.

(٤) التفسير الكبير ٣٢/١٠٨، صفوة التفاسير ٣/٦٠٧.

(٥) صفوة التفاسير ٣/٦٠٧، وينظر: التحرير والتنوير ٣٠/٥٥٤.

(٦) الكشف ٤/٨٠٣، أنوار التنزيل ٩/٣٣٨.

(٧) التفسير الكبير ٣٢/١٠٧.

خامساً: الإعراب

﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ جزم باللام، واللام ساكنة تخفيفاً والأصل الكسر وعلامة الجزم حذف النون.

﴿رَبِّ هَذَا أَلْبَيْتِ﴾ نصب بإيقاع الفعل عليه، وهو مضاف إلى هذا، والبيت جر بالاضافة وذلك أن الأسماء المبهمة تنعت بما فيه الألف واللام.

﴿الَّذِي﴾ في موضع نصب نعت لرَبِّ ويجوز أن يكون في موضع رفع أي: هو الذي ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ صلة الذي ﴿وَأَمَّنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ داخل في الصلة^(١).

سادساً: المعاني في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَذَا أَلْبَيْتِ﴾

إنَّ تعريف (رَبِّ) بالاضافة إلى (هذا البيت) دون أن يقال: فليعبدوا الله، لما يوميء إليه لفظ (رَبِّ) من استحقاقه الافراد بالعبادة دون شريك للأيماء إلى أن البيت هو أصل نعمة الإيلاف بأن أمر إبراهيم ببناء البيت الحرام فكان سبباً لرفعة شأنهم بين العرب، قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ أَلْبَيْتَ الْحَرَامِ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ وذلك إدماج للتنويه بشأن البيت وفضله^(٢).

سابعاً: الأسباب التي تدعو قريش لعبادة الله تبارك وتعالى

لقد امتن الله تبارك وتعالى على قريش بنعم عديدة طلب منهم من خلالها أفراداً بالعبادة؛ لأن التوحيد مفتاح العبادات ومن هذه النعم:

(١)- نعمة الإيلاف وهي إيلافهم رحلتين رحلة إلى بصرى في الشام في الصيف ورحلة إلى اليمن في الشتاء وهما مصدر كسبهم ودخلت الفاء في قوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ لأجل ما في الكلام من معنى الشرط؛ لأن المعنى: إما لا فليعبدوه لإيلافهم، على معنى أن نعم الله تبارك وتعالى عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لشأن هذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة^(٣).

(١) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم: ١٩٩، لابن خالويه، مط دار الكتب المصرية، ١٩٤١م، وينظر: إعراب القرآن للنحاس ٢٩٤/٥.

(٢) التحرير والتنوير ٥٦٠/٣٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٠٨، أنوار التنزيل ٤٥٢/٢.

(٢)- نعمة الربوبية ولعل تخصيص لفظ الربّ تقرير لما قالوه لأبرهة: ((إن للبيت ربّاً سيحفظه))، ولو يعولوا في ذلك على الأصنام فلزمهم لاقرارهم أن لا يعبدوا سواه كأنه يقول لما عولتم في الحفظ عليّ فاصرفوا العبادة عن غيري^(١).

(٣)- نعمة البيت: لأنهم بالبيت شُرفوا على سائر العرب فذكر لهم ذلك تذكيراً لنعمته^(٢).

(٤)- الاطعام: فهم لم يكونوا أهل ضرع ولا زرع، إذ كانوا بواد غير ذي زرع، وقوله: ﴿مَنْ جُوعٌ﴾ فإن ﴿مَنْ﴾ هي معناها البدلية، أي: أطعمهم بدلاً من الجوع ومعنى البدلية ان حالة بلادهم تقتضي أن يكون أهلها في جوع فإطعامهم بدلاً من الجوع الذي تقتضيه البلاد، وجاء بلفظة ﴿أَطْعَمَهُمْ﴾ ولم يقل أشبعهم؛ لأن خير الطعام ما سدّ الجوعة ولأن الاطعام يزيل الجوع أما الاشباع فإنه يورث البطنة^(٣).

(٥)- الأمن: فلا يتعرض لهم أحد لا في سفرهم ولا في حضرهم لما ألقى الله في نفوس العرب من حرمة مكة وأهلها، وتلك دعوة إبراهيم - عليه السلام - ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وكما ذكرنا في دخول (من) التي معناها البدلية أي: آمنهم بدلاً من الخوف بحسب ما هم فيه من ضعف وبحسب حالة البيئة من حولهم أن يكونوا في خوف فجعل الله سبحانه لهم الأمن في الحرم عوضاً عن الخوف^(٤).

ثامناً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة الفوائد الآتية:

(١)- أمر قريش بتوحيد الله تعالى بالربوبية تذكيراً بنعمة أن الله مكن لهم السير في الأرض والتجارة ورحلتي الشتاء والصيف، فلا يخشون عادياً يعدو عليهم وبأنه آمنهم من المجاعات وآمنهم من المخاوف لما وقر في نفوس العرب من حرمتهم لأنهم سكان الحرم وعمار الكعبة^(٥).

(١) التفسير الكبير ١٠٨/٣٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠/٢٠٨، فتح القدير ٥/٤٩٨.

(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٥٦٠-٥٦١ وينظر: التفسير الكبير ١٠٨/٣٢-١٠٩.

(٤) ينظر: التفسير الكبير ٣٢/١٠٩، والتحرير والتنوير ٣٠/٥٦١، وفي ظلال القرآن ٣٠/٦٧٧.

(٥) التحرير والتنوير ٣٠/٥٥٤.

(٢)- من استجاب لهذا الأمر جمع الله تعالى له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة، ومن عصاه سلبهما منه كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (١) (٢).

(٣)- لقد كان من حجج قريش الرئيسة في إستمرارهم على الكفر قولهم الذي عرضته سورة القصص: ﴿وَقَالُوا إِن نَّبْتَغِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُخَطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُوهُ إِلَيْنَا يَمَتُّوا كُلَّ شَيْءٍ﴾ وقد اتبعت قريش الهدى فيما بعد فكيف كان واقع الحال؟ هل ازدادت مكة بعد الإسلام خوفاً أو فقراً أو ازدادت أمناً وغنى! وفي ذلك درس للذين يرفضون الإسلام خوفاً من عدو أو خشية من فقر (٣).

(٤)- وجوب الشكر على النعم وشكرها حمداً لله تعالى عليها والثناء عليه بها وصرفها في مرضاته.

(٥)- الاطعام من الجوع والتأمين من الخوف عليهما مدار كامل أجهزة الدولة (٤).

(٦)- إن النعمة التي خصَّ الله سبحانه بها قريشاً القيِّمة على بيت الله الحرام امتدت اليوم إلى القيمين على بيت الله الحرام أيضاً في هذا العصر، ففجَّر الله تعالى أرضهم النفط الذي درَّ عليهم أبواب الرزق الوفير ببركة الكعبة، وآمنهم الله سبحانه من أيَّ خوف، فمئات الملايين من المسلمين قلوبهم مع تلك الديار المقدسة، وهم يد واحدة على أي دولة تقصدهم بالأذى أو تعتدي عليهم (٥).

تاسعاً: المعنى العام

يتبين لنا من خلال هذه الآية مكانة البيت حيث أنه بسببه قد شرف أهله وأكرموا بنعمتين عظيمتين هما من أهم مقومات الحياة وهما نعمتا الأمن من الخوف والوقاية من الجوع اللتان من امتلاكهما مع نعمة العافية فكأنما حيزت له الدنيا فيقول رسول الله

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٥٣/٤، وينظر: روح القرآن - تفسير جزء عم: ١٨٠، لعفيف عبد الفتاح طبارة، مط دار العلم للملايين، ط ٣، ١٩٨٠ م.

(٢) سورة النحل، الآية ١١٢.

(٣) الأساس في التفسير ٦٦٩٦/١١، للشيخ سعيد حوى، مط دار السلام، ط ٢-١٩٨٩ م.

(٤) المصدر السابق.

(٥) روح القرآن الكريم: ١٨٠.

-عَلَيْهِ السَّلَامُ-: «من أصبح منكم معافى في جسده آمناً في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا»^(١)، فلذلك وجب عليهم أن يقابلوا نعم الله عليهم بالعبودية والخضوع التام لرب هذا البيت.

(١) سنن ابن ماجه ١٣٨٧/٢، [كتاب الزهد - باب القناعة] برقم ٤١٤١ للحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني، (ت ٢٧٣هـ)، تح محمد فؤاد عبد الباقي، مط دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، سنن الترمذي المطبوع باسم الجامع الصحيح ٥٧٤/٤ [كتاب الزهد - باب التوكل على الله] برقم ٢٣٤٦، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، تح أحمد محمد شاكر، مط مصطفى الحلبي، ط ٣ - ١٩٧٩م، قال عنه أبو عيسى: حديث حسن غريب.

المبحث الثالث الأمن لقاصد البيت

تمهيد

إنَّ الله تبارك وتعالى عندما أراد لهذه البقعة - البيت الحرام - أن تكون منطقة أمان يأمن العاكف فيها والباد تحقيقاً لدعوة أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم - عليه السلام - عندما سأل الله تعالى قائلاً: ﴿فَجَعَلْ أَفْنِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ فلا بد للبيت الحرام أن تكون من مزاياه التي تجعل الناس تهوي إليه أن يكون قاصده آمناً من كل سوء، وقد جاءت الآيات في هذا الجانب تحذر المؤمنين من التعرض لقاصدي بيته الحرام، فمن هذه الآيات الكريمة في هذا الموضوع ما يأتي:

الآية الأولى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهَرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْفَلَاحِيْدَ وَلَا ءَاقِنَ أَلْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾^(١).
وسنحلل الآية الكريمة من خلال النقاط الآتية:

أولاً: تحليل الألفاظ

(١) - الألفاظ في اللغة:

﴿تُحِلُّوْا﴾ فعل مضارع وماضيه أحلّ بمعنى حل له ما حرم عليه من حظورات الحج، وأحل إذا خرج من الشهور الحرم أو من عهد كان عليه، والحل بالكسر: الحلال، وهو ضد الحرام^(٢).

﴿شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال الزجاج: يعني بها جميع متعبدات الله التي أشعرها الله أي:

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٢) اللسان مادة (حلل) ٩٧٤/٢، ينظر: الصحاح مادة (حلل) ١٦٧٢/٤ - ١٦٧٣.

جعلها أعلاماً لنا، وهي كل ما كان من موقف أو مسعى أو ذبح، وإنما قيل شعائر لكل علم مما تعبد به؛ لأن قولهم شعرت به علمته، فلهذا سميت الأعلام التي هي متعبدات لله تعالى: شعائر^(١)، والشعائر: أعلام الحج وأفعاله^(٢).

﴿أَهْدَى﴾ ما يَهْدِي إلى الحرم من النعم، يثقل ويخفف الواحدة هديّة بالتثقيل والتخفيف أيضاً^(٣).

﴿الْقَلْبِدَ﴾ واحدة قلادة: وهو ما جعل في العنق يكون للانسان والفرس والكلب والبدنة التي تهدي ونحوها^(٤).

﴿ءَايَيْنَ﴾: الأم، بالفتح: القصد، يقال: أمّه وأُمِّه وتأمَّمه، إذا قصده^(٥).

(٢) - الألفاظ في الغريب:

قوله تعالى: ﴿تَحْلُوا﴾ عن حل العقدة استعير قولهم: حلّ الشيء حلّالاً، ورجل حلال ومحل: إذا خرج من الاحرام أو خرج من الحرم^(٦).

﴿سَعَايِرَ اللَّهِ﴾ يعني: أعلام الطاعة^(٧) واحداً شعيرة مثل الحرم يقول: لا تحلوه فتصطادوا فيه ولا الشهر الحرام فتقاتلوا فيه^(٨).

﴿أَهْدَى﴾ وهو ما أهدى إلى البيت يقول: لا تستحلوا حتى يبلغ محله أي: منحره وإشعار الهدى أن يقلد بنعل أو غير ذلك ويجلل ويطنن في شق سنامه الأيمن بحديدة ليعلم أنه هدي^(٩).

﴿الْقَلْبِدَ﴾ جمع قلادة وهي المفتولة التي تجعل في العنق من خيط أو فضة

(١) اللسان مادة (شعر) ٢٢٧٧/٤.

(٢) المصباح مادة (شعر) ١٦٨/١.

(٣) المصباح مادة (هدى) ١٥٣/٢.

(٤) اللسان مادة (قلد) ٣٧١٨/٥.

(٥) الصحاح مادة (أمم) ١٨٦٥/٥، واللسان مادة (أمم) ١٣٢/١.

(٦) المفردات: ٢٥١.

(٧) تحفة الأريب: ١٥٠.

(٨) نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن بهامش تبصير الرحمن وتيسير المنان ٤٢١/١، لأبي بكر

محمد بن عبد العزيز السجستاني، عالم الكتب - بيروت، ط ٢ - ١٩٨٣ م.

(٩) المصدر السابق ٤٢٢/١ - ٤٢٣.

وغيرهما وبها شبه كل ما يُتَطَوَّق وكل ما يحيط بشيء^(١).
﴿ءَاتَيْنَ﴾ الأم: القصد المستقيم وهو التوجه نحو مقصود^(٢).

ثانياً: تحليل الألفاظ عند المفسرين

﴿لَا تُحِلُّوْا﴾ من الاحلال الذي هو ضد التحريم، ومعنى عدم إحلالهم لشعائر الله: تقرير حرمتها عملاً واعتقاداً، والالتزام بها بالطريقة التي قررتها شريعة الله^(٣).
﴿شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ وهي حرم الله، قاله السدي، وعن ابن عباس أنها مناسك الحج. وأولى التأويلات كما رجحه ابن جرير قول عطاء: لا تحلوا حرمت الله، ولا تضيعوا فرائضه، فيدخل في ذلك معالم الله كلها في مناسك الحج وغير ذلك من حدوده وفرائضه وحلاله وحرامه.

﴿وَلَا أَلْشَّهَرَ الْحَرَامَ﴾ يعني: لا تستحلوا قتلاً فيه، قاله ابن عباس^(٤).

﴿وَلَا أَلْهَدَى﴾ أي: لا تحلوا الهدى الذي يهدى إلى البيت الحرام من الأنعام وذلك بأن تمنعوا بلوغه محله من بيت الله بأخذه غصباً وذبحه أو سرقة أو حبسه عند من أخذه^(٥).

﴿وَلَا ءَاتَيْنَ أَلْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ أي: لا تحلوا قتال قاصدي البيت الحرام لزيارته فتصدوهم عن ذلك بأي وجه كان^(٦).

ثالثاً: أسباب النزول

قال السدي: أقبل الخطم بن هند البكري^(٧)، ثم أحد بني قيس بن ثعلبة حتى أتى النبي - ﷺ - وحده، وخلف خيله خارجة من المدينة فدعاه فقال: إلام تدعو؟ فأخبره،

(١) المفردات: ٦٨٢.

(٢) المصدر السابق: ٨٧.

(٣) تفسير الوسيط ٢٢/٤.

(٤) ينظر: جامع البيان ٥٤/٦ - ٥٥.

(٥) تفسير المراغي ٤٤/٦.

(٦) المصدر السابق.

(٧) في أسباب النزول للواحيدي: إنها نزلت في الحُطَم واسمه شريح بن ضبيع الكندي: ١٢٦، والحُطَم قتل يوم اليمامة مرتداً، ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٤٣/٦.

وقد كان النبي -ﷺ- قال لأصحابه: «يدخل اليوم عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان»، فلما أخبره النبي -ﷺ- قال: انظروا لعلي أسلم، ولي من أشاوريه، فخرج من عنده، فقال رسول الله -ﷺ-: «لقد دخل بوجه كافر، وخرج بعقب غادر»، فمر بسرح المدينة فساقه، ثم أقبل من عام قابل حاجاً، قد قلد وأهدى، فأراد رسول الله -ﷺ- أن يبعث إليه، فنزلت هذه الآية، حتى بلغ ﴿وَلَا ءَامِنَ آلَبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ قال له ناس من أصحابه: يا رسول الله، خل بيننا وبينه فإنه صاحبنا، قال: «إنه قد قلد»، قالوا: إنما يا رسول الله هو شيء كنا نصنعه في الجاهلية، فأبى عليهم فنزلت هذه الآية.

وقال ابن زيد: نزلت هذه الآية عام الفتح، جاء ناس يؤمنون البيت من المشركين، يهلون بعمره، فقال المسلمون: يا رسول الله، إنما هؤلاء مشركون فلن ندعهم إلا أن نغير عليهم فنزل القرآن: ﴿وَلَا ءَامِنَ آلَبَيْتِ الْحَرَامِ﴾^(١).

والذي يتبين من أسباب النزول أن النهي عن العدوان على قاصدي زيارة بيت الله الحرام مختص بالمشركين وان هذا الحكم منسوخ كما سيتبين لنا فيما نسخ من الآية.

رابعاً: الناسخ والمنسوخ

قبل الخوض في معرفة الناسخ والمنسوخ في هذه الآية الكريمة لا بد أن نعرف من المقصود بآمي البيت الحرام؟

فقيل: هم المسلمون الذين يقصدون بيت الله للحج والزيارة، فلا يجوز منعهم بسبب خصام أو نزاع.

وقيل: هم المشركون، وهذا ما يؤيد سبب نزول الآية المتقدم فعلى الأول تكون الآية الكريمة محكمة ولا نسخ فيها، بل إنما هو توجيه عام من الله تعالى لعباده بعدم التعرض لمن قصد بيته الحرام من المؤمنين مهما حدث النزاع أو جرى الخلاف^(٢)، وأما أصحاب الوجه الثاني فقد اختلفوا فيما نسخ من هذه الآية - بعد اجماعهم على أن منها منسوخاً - على ثلاثة أقوال:

(١) جامع البيان ٥٨/٦ - ٥٩، الجامع لأحكام القرآن ٤٢/٦ - ٤٣، روح المعاني ٥٤/٦.

(٢) التفسير الوسيط ٣٥/٤ - ٣٦.

(١)- ان جميعها منسوخ، وهو قول الشعبي حين قال: لم ينسخ من المائدة إلا هذه الآية.
 (٢)- ان المنسوخ منها قوله تعالى: ﴿وَلَا الشَّهَرُ الْحَرَامَ وَلَا أَثْنَيْنِ أَلْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ وهذا قول ابن عباس وقتادة.

(٣)- ان المنسوخ منها ما كان في الجاهلية تتقلده من لحاء الشجر وهو قول مجاهد^(١).

والراجع من بين هذه الآراء ما رجحه الامام الطبري - رحمه الله - حيث قال: ((وأولى الأقوال في ذلك في الصحة قول من قال: نسخ الله من هذه الآية قوله: ﴿وَلَا الشَّهَرُ الْحَرَامَ وَلَا أَلْهَدَى وَلَا أَلْفَلَيْدَ وَلَا أَثْنَيْنِ أَلْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ لاجماع الجميع على أن الله أحل قتال أهل الشرك في الأشهر الحرم، وغيرها من شهور السنة كلها، وكذلك اجمعوا على أن المشرك لو قلد عتقه أو ذراعيه لحاء جميع أشجار الحرم لم يكن ذلك له أماناً من القتل إذا لم يكن تقدم له عقد ذمة من المسلمين أو أماناً^(٢).

خامساً: البلاغة في الآية

وردت في الآية الكريمة بعض الوجوه البلاغية منها:

(١)- قوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ استعار فيها لفظة (الشعيرة) وهي العلامة للمتعبادات التي تعبد الله بها العباد من الحلال والحرام^(٣).

(٢)- قوله تعالى: ﴿وَلَا أَلْفَلَيْدَ﴾ أي ذوات القلائد وهي من باب عطف الخاص على العام لأنها أشرف الهدى كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾^{(٤) (٥)}.

(٣)- تنكير (فضلاً، ورضواناً) للتفخيم^(٦).

(١) النكت والعيون ٤٤٢/١ - ٤٤٣، نواسخ القرآن ١٤٠ - ١٤١، للحافظ جمال الدين بن الجوزي، ط ١، ١٩٨٥م.

(٢) جامع البيان: ٦/٦١.

(٣) صفوة التفاسير ٣٣٠/١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٩٨.

(٥) الكشف ٦٠٢/١.

(٦) روح المعاني ٥٤/٦.

سادساً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: لما استثنى بعض ما أحل على سبيل الإبهام شرع في بيانه، ولما كان منه ما نهى عن التعرض له لا مطلقاً بل ما يبلغ محله بدأ به؛ لكونه في ذلك كالصيد، وقدم على ذلك عموم النهي عن انتهاك معالم الحج المنبه عليه بالاحرام أو عن كل محرم في كل مكان وزمان فقال مكرراً لندائهم تنوياً بشأنهم وتنبيهاً لعزائمهم وتذكيراً لهم بما ألزموه أنفسهم^(١).

أما مناسبتها لما بعدها: فلما أخبر بعلّة التعظيم لما أمر بتعظيمه من نظم أمور الناس ذكر علة ذلك الجعل فقال: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ليكشف فيه أشدهم وأفتكهم عن أضعفهم، وأمن فيه الطير والوحش فيؤدي ذلك من له عقل رصين وفكر متين إلى أن يعلم أنّ فاعل ذلك من العظمة ونفوذ الكلمة بحيث يستحق الاخلاص في العبادة وأن يمثل أمره في إحلال ما أحل وتحريم ما حرم^(٢).

سابعاً: الاعراب والقراءات

[١]- الاعراب:

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقْلَاتِيدَ﴾، أي: ولا ذوات القلائد لأنها جمع قلادة والمراد تحريم المقلدة لا القلادة، ﴿وَلَا آمِينَ﴾ أي: ولا قتال آمين أو أذى آمين.
﴿يَتَّبِعُونَ﴾ في موضع الحال من الضمير في آمين، ولا يجوز أن يكون صفة لآمين لأن اسم الفاعل إذا وصف لم يعمل في الاختيار^(٣).

[٢]- القراءات:

قرأ عبدالله بن مسعود ومن تبعه: (ولا آمي البيت الحرام) بحذف النون وإضافة إسم الفاعل إلى معموله وقرأ حميد بن قيس والأعرج: (تبتغون) بالتاء على خطاب

(١) نظم الدرر ٦/٧-٨.

(٢) نظم الدرر ٨/٦.

(٣) البيان في غريب إعراب القرآن ١/٢٨٣ لأبي البركات ابن الأنباري، تح: الدكتور طه عبد الحميد، مط: الكتاب العربي - القاهرة، ١٩٦٩م، إملاء ما من به الرحمن ١/٢٠٦، الباب ٧/١٧٨.

المؤمنين^(١).

ثامناً: معنى ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾

في تفسير (الفضل والرضوان) وجهان:

الوجه الأول: يبتغون فضلاً من ربهم بالتجارة المباحة لهم في حجههم، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾^(٢) قالوا: نزلت في تجاراتهم أيام الموسم، والمعنى: لا تمنعوهم وإنما قصدوا البيت لإصلاح معاشهم ومعادهم، فابتغاء الفضل للدنيا، وابتغاء الرضوان للآخرة، قال أهل العلم: إن المشركين كانوا يقصدون بحجهم ابتغاء رضوان الله وإن كان لا ينالون ذلك فلا يبعد أن يحصل لهم بسبب هذا القصد نوع من الحرمة وهو الأمن على أنفسهم وقيل: كان المشركون يلتمسون في حجههم ما يصلح لهم دنياهم ومعاشهم، وقيل: إبتغاء الفضل هو للمؤمنين والمشركين عامة وابتغاء الرضوان للمؤمنين خاصة ولذلك كانوا يحجون جميعاً.

والوجه الثاني: أن المراد بفضل الله الثواب وبالرضوان أن يرضى عنهم؛ وذلك لأن الكافر وإن كان لا ينال الفضل والرضوان لكنه يظن أنه بفعله طالب لهما فيجوز أن يوصف بذلك بناءً على ظنه، قال تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ﴾^(٣) وقال: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^{(٤) (٥)}.

تاسعاً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة الأحكام والمعاني الآتية:

(١)- ذكر الله سبحانه وتعالى صفة آمي بيت الله الحرام بأنهم يطلبون فضل الله ورضوانه فهؤلاء لا يتعرض لهم، أما من قصد المسجد الحرام ليلحد به أو ليشرك

(١) ينظر: مختصر في شواذ القراءات: ٣٠-٣١، والكشاف ١/٦٠٢، واللباب ٧/١٧٨، والإتحاف: ١٩٧، ونحو القراء الكوفيين: ٤٣، للسيدة خديجة أحمد مفتي، بإشراف الدكتور عبد الفتاح شلبي، مط المكتبة الفيصلية - مكة المكرمة، ط ١ - ١٩٨٥ م.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

(٣) سورة طه، الآية: ٩٧.

(٤) سورة الدخان، الآية: ٤٩.

(٥) الكشاف ١/٦٠٢، التفسير الكبير ١١/١٣٠، الجامع لأحكام القرآن ٦/٤٤، لباب التأويل ٢/٥.

عنده أو ليكفر به، فهذا يمنع ويتعرض له وقد حكى ابن جرير الاجماع على أن
المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان وإن أم البيت الحرام أو بيت المقدس^(١).

(٢)- نهى للمسلمين عن خرق حرمة شعائر الله والشهر الحرام والهدي والقلائد التي
تنذر قرايين لله^(٢).

(٣)- حرمة الاعتداء مطلقاً حتى على الكافر^(٣).

عاشراً: المعنى العام

في هذه الآية الكريمة يقيم الإسلام الضوابط في حياة أتباعه يقيمها ويحددها بما
فيه الخير والصلاح، والراحة والأمان لهم في الدنيا والآخرة فيشرع الأحكام التي
ينبغي أن لا تنتهك بأي وجه كان، فمنها عدم الاختلال بحرمة الحج وتقاليده التي منها
حرمة الأشهر الحرم وحرمة الهدى الذي يهدى إلى البيت من الأنعام مقلداً بالقلائد
وحرمة قاصدي البيت الحرام الذين يتغنون فضلاً من الله ورضواناً.

وقد اختلفت الآراء في نسخ هذه الأحكام جميعها أو بعضها أو عدم نسخها وعلى
كل حال فإننا نفهم من فحوى الآية وروحها أن الله تبارك وتعالى قد جعل هذه البقعة
منطقة أمان، يأمن فيها الانسان والحيوان والطير والشجر من الأذى والعدوان.

الآية الثانية:

﴿فِيهِ ءَايَاتٌ يَبَيِّنُ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾^(٤)

سنحلل هذه الآية من خلال النقاط الآتية:

أولاً: ﴿ءَايَاتٍ﴾ و﴿مَقَامٍ﴾ في اللغة والغريب والوجوه والنظائر

(١)- ﴿ءَايَاتٍ﴾ في اللغة: جمع آية: وهي العلامة، وهذه آية مأياة، كقولك علامة
معلمة^(٥).

(١) ينظر: الأساس ٣/ ١٣١٢.

(٢) التفسير الحديث ٧/ ١١.

(٣) أيسر التفاسير ١/ ٥٨٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

(٥) اللسان مادة (أيا) ١/ ١٨٥، وينظر: مقاييس اللغة مادة (أبي) ١/ ١٦٨.

(الآية) في الغريب: وهي العلامة الظاهرة والصحيح أن اشتقاقها من التأني الذي هو التثبت والاقامة على الشيء، يقال: تأني، أي: أرفق، أو من قولهم: أوى إليه، وقيل للبناء العالي آية، نحو: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَبْنُونَ﴾ (١) (٢).

(الآية) في الوجوه والنظائر: تأتي على وجهين (٣):

الوجه الأول: بمعنى عبرة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ (٤) يعني: عبرة.

الوجه الثاني: بمعنى علامة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمْ أَلَّا يَكُونُوا مِنَ النَّهَارِ﴾ (٥).

(٢) - (المقام) في اللغة: موضع القدمين، والمقام والمقامة: الموضع الذي تقيم فيه، وأما المقام والمقام فقد يكون كل واحد منهما بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضع القيام (٦).

(المقام) في الغريب: يكون مصدرًا، واسم مكان القيام وزمانه والإقامة في المكان: الثبات (٧).

(المقام) في الوجوه والنظائر: يأتي على عدة معان منها (٨):

أ- المساكن، فذلك قوله تعالى في الشعراء: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (٩) يعني: مساكن حسان.

ب- الإقامة، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ (١٠) يعني: مكثي فيكم.

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٢٨.

(٢) المفردات: ١٠١-١٠٢.

(٣) الأشباه والنظائر: ٣٠٠، الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: ٣٣٤.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٥٠.

(٥) سورة يس، الآية: ٣٧.

(٦) ينظر: العين ٢٣٢/٥، والصحاح مادة (قوم) ٢٠١٧/٥، واللسان مادة (قوم) ٣٧٨١/٥.

(٧) المفردات ٦٩١.

(٨) الوجوه والنظائر: ٣٥٣، إصلاح الوجوه: ٣٩٤.

(٩) سورة الشعراء، الآية: ٥٧.

(١٠) سورة يونس، الآية: ٧١.

ج- القيام بين يدي الله - ﷻ - يوم القيامة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾^(١).

د- المكان، فذلك قوله تعالى: ﴿أَنَا عَائِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ﴾^(٢) يعني: مكانك الذي أنت فيه حاضر.

ثانياً: معنى ﴿ءَايَتٍ﴾ و﴿مَقَامٍ﴾ عند المفسرين

ورد في معنى ﴿ءَايَتٍ﴾ عند المفسرين ما يأتي:

أ- علامات واضحات لا تلتبس على أحد^(٣).

ب- دلالات ظاهرة على أنه من بناء إبراهيم - ﷺ - وأن الله تعالى عظمه وشرفه^(٤)، ثم اختلفوا في قوله: ﴿فِيهِ ءَايَتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ ما هي هذه الآيات؟ قال بعضهم: مقام إبراهيم والمشعر الحرام ونحو ذلك وهو قول ابن عباس ومجاهد وقيل: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ وهذا قول الحسن - ﷺ - وقيل: هو مقام إبراهيم - ﷺ - وهو قول السدي.

وقد رجح ابن جرير بأن أولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قول من قال: الآيات البينات منهن مقام إبراهيم وهو قول قتادة ومجاهد^(٥).

فإن قال قائل: فهذا المقام من الآيات البينات، فما سائر الآيات التي من أجلها قيل: ﴿ءَايَتٍ بَيِّنَاتٍ﴾؟ قيل: منهن المقام، ومنهن الحجر، ومنهن الحطيم^(٦).
أما معنى ﴿مَقَامٍ﴾ فقد جاء فيه أقوال:

(١)- أنه لما ارتفع ببيان الكعبة، وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة، قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير^(٧).

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.

(٢) سورة النمل، الآية: ٣٩.

(٣) مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١/ ١٧١، لعبدالله أحمد بن محمود النسفي، مط دار إحياء الكتب العربية.

(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٨٣.

(٥) ينظر: جامع البيان ٤/ ١٠-١١.

(٦) المصدر السابق ١١/ ٤.

(٧) التفسير الكبير ٨/ ١٦٠، تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٨٤.

(٢)- هو الحجر الذي كانت زوجة إسماعيل - عليه السلام - وضعت تحت قدم إبراهيم - عليه السلام - حين غسلت رأسه، فوضع إبراهيم رجله عليه وهو راكب، فغسلت شقه، ثم دفعته من تحته وقد غابت رجله في الحجر، فوضعت تحت الشق الآخر، فغسلته فغابت رجله فيه، فجعله الله تعالى من شعائره، وهذا قول الحسن وقتادة والربيع بن أنس (١).

(٣)- إنه الحجر الذي قام إبراهيم - عليه السلام - عليه عند الآذان بالحج، قال القفال - رحمه الله -: ويجوز أن يكون إبراهيم قام على ذلك الحجر في المواضع كلها (٢).
وقال ابن عطية: ((والراجح عندي أن المقام وأمن الداخل جعلاً مثلاً مما في حرم الله من الآيات وخصاً بالذكر لعظمهما، وأنهما تقوم بهما الحجة على الكفار، إذ هم مدركون لهاتين الآيتين بحواسهم)) (٣).

ثالثاً: الوجوه الواردة في قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾

ذكر المفسرون لمعنى ﴿ءَامِنًا﴾ عدة وجوه منها:

(١)- قال الحسن وقتادة: كان الرجل في الجاهلية لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى حرم الله لم يتناول ولم يطلب، فأما في الإسلام فإنه لا يمنع من حدود الله، من سرق فيه قطع ومن زنا فيه أقيم عليه الحد ومن قتل فيه قتل.

(٢)- قيل: أراد من دخله عام عمرة القضاء مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان آمناً كما قال تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (٤) (٥).

(٣)- قال الضحاك: من حجه كان آمناً من الذنوب التي اكتسبها قبل ذلك (٦).

(٤)- قيل: من دخله معظماً له، متقرباً إلى الله - عز وجل - كان آمناً يوم القيامة من العذاب (٧).

(١) جامع البيان ٥٣٦/١، التفسير الكبير ٥٣/٤، مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١٧١/١.

(٢) التفسير الكبير ١٦٠/٨.

(٣) المحرر الوجيز ٢٢٤/٣.

(٤) سورة الفتح، الآية: ٢٧.

(٥) جامع البيان ١٢/٤، معالم التنزيل ٣٨٤/١.

(٦) التفسير الكبير ١٦٠/٨.

(٧) اللباب ٤١٠/٥.

(٥)- قيل: هو خبر بمعنى الأمر، تقديره: من دخله فأمنوه، كقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾^(١) أي: لا ترفثوا، ولا تفسقوا، ولا تجادلوا^(٢) ورجح الطبري - رحمه الله - قول الحسن وهو قول أكثر المفسرين^(٣)، ولعل هذا الرأي هو الأوجه والأرجح لثلاثي يصبح الحرم مركزاً لاجتماع الجناة والمجرمين ولثلاثي يختل الأمن لأن القاتل يقتل ثم يفر من وطنه ويأتي الحرم لأنه يعلم أنه يحيمه وبذلك تنتشر الجرائم وتكثر المفاسد والله أعلم^(٤).

رابعاً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى في الآية السابقة أولية البيت وأنه مبارك وهدى للعالمين جاءت هذه الآية لتبين العلامات والدلائل الظاهرة والواضحة التي تدل على شرف البيت ومكانته فهي مستأنفة لبيان وتفسير بركته وهذه^(٥).

خامساً: الاعراب والقراءات

[١]- الاعراب:

﴿فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ رفع بالابتداء أو بالصفة ﴿مَقَامٍ إِبْرَاهِيمَ﴾ في رفعه ثلاثة أوجه: قال الأخفش: أي منها مقام إبراهيم وحكي عن محمد بن يزيد قال: ﴿مَقَامٍ﴾ بدل من آيات، والقول الثالث: بمعنى هي مقام إبراهيم^(٦).
﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على المقام، أي: وفيه الآيات من دخله كان آمناً، ويجوز أن يكون ﴿مِنْ﴾ رفعاً بالابتداء والخبر ﴿كَانَ آمِنًا﴾^(٧).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٢) معالم التنزيل ١/٣٨٤، الجامع لأحكام القرآن ٤/١٤٠.

(٣) جامع البيان ٤/١٤، التفسير الكبير ٤/١٦٣، الجامع لأحكام القرآن ٤/١٤١، اللباب ٥/٤١٠.

(٤) ينظر: زاد المعاد ٣/٤٤٨، وروائع البيان ١/٤١٢، للشيخ محمد علي الصابوني، نشر مكتبة الغزالي، دمشق - سوريا، ط ٢ - ١٩٧٧م، ومحاسن التأويل ٤/٩٠٣.

(٥) التفسير الوسيط ٢/٢٤٨.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/٣٩٥-٣٩٦، مشكل إعراب القرآن ١/١٦٩.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/٣٩٥-٣٩٦، مشكل إعراب القرآن ١/١٦٩، إملاء ما من به الرحمن ١/١٤٤.

[٢]- القراءات :

قرأ ابن عباس وأبَيَّ ومجاهد وسعيد بن جبير: ﴿ءَايَمٌ بَيِّنَةٌ﴾ على التوحيد، وفيه دليل على أن مقام إبراهيم واقع وحده عطف بيان وقال أبو جعفر النحاس: من قرأ ﴿ءَايَمٌ بَيِّنَةٌ﴾ فقراءته أبين؛ لأنَّ الصفا والمروة من الآيات وغيرها كذلك^(١).

سادساً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة المعاني الآتية:

(١)- تقرير أفضلية الكعبة على مسجد بيت المقدس، وصلتها بإبراهيم - عليه السلام - حيث أشارت الآية دليلاً على ذلك إلى المقام المعروف بمقام إبراهيم في فناء الكعبة والذي عليه علامات ظاهرة تثبت ذلك^(٢).

(٢)- لما كانت الآية المذكورة بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ موجودة في جميع الحرم على أن المراد بقوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ جميع الحرم، ويدل عليه أيضاً دعوة إبراهيم حيث قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾^(٣).

(٣)- الأمن لداخل البيت، والعرب جميعاً قد اتفقوا على احترامه وتعظيمه، فمن دخله أمن على نفسه من الاعتداء والايذاء وأمن أن يسفك دمه أو تستباح حرماته ما دام فيه، وقد مضوا على ذلك الأجيال الطوال في الجاهلية على كثرة ما بينهم من الأحقاد والضغائن، واختلاف المنازع والأهواء وقد أقرَّ الاسلام هذا وكل ذلك بفضل دعوة إبراهيم - عليه السلام - : ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾^{(٤) (٥)}.

سابعاً: المعنى العام

بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة عظمة وشرف البيت الذي اختاره

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء ٢٢٧/١، ومختصر في شواذ القراءات: ٢٢، والكشاف ٣٨٨/١، والجامع لأحكام القرآن ١٣٩/٤، والبحر المحيط ٨/٣.

(٢) التفسير الحديث ١٣٠/٨.

(٣) لباب التأويل ٣٨٤/١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

(٥) تفسير المراغي ٨/٤.

ليكون قبلة للمسلمين ثم أكد شرف ذلك البيت بما حواه من علامات ودلائل واضحات على بناء إبراهيم له، فذكر من تلك العلامات مقام إبراهيم وأعقبه بفضيلة أسمى من فضائل هذا البيت وهي أن من دخله كان آمناً فهو مقر الأمان في الأرض لكل خائف وليس هذا لمكان آخر في الأرض، فهذه الآية الكريمة تنص على أشرفية هذا البيت وسموه على ما سواه، ومعالم الشرف والسمو فيه تظهر من وجود مقام إبراهيم فيه وبما يتمتع الداخل فيه من الأمان الذي لا يخص الإنسان وحده بل يعم الوحش والطير فكان سبباً لحصول السعادة في الدنيا والآخرة.

الفصل الثالث

العبادة في بيوت الله تعالى

ويتضمن ثلاثة مباحث:

المبحث الأول : مظاهر العبادة.

المبحث الثاني : البدعة في العبادة.

المبحث الثالث : الحج ومناسكه.

المبحث الأول مظاهر العبادة

ان العبادة في بيوت الله تعالى لها مزية خاصة وثواب أكثر من غير مكان، وتنوع هذه العبادة من طواف واعتكاف وقيام وركوع وسجود، وتظهير لمواضع العبادة ورفع شأنها واحترامها وهذا ما سنحاول تعرفه في هذا المبحث، وذلك من خلال الآيات الآتية:

الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾^(١).

وسنوضح الآية من خلال النقاط الآتية:

أولاً: تحليل الألفاظ

(١) - (الأذن) في اللغة: أذن له في الشيء إذناً: أباحه له، وأذنت له في كذا: أطلقت له فعله^(٢).

- (الأذن) في الغريب: من أذن له في الشيء: إعلام بإجازته له والرخصة فيه نحو: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٣) أي: بإرادته وأمره^(٤).

- (الأذن) في الوجوه والنظائر: يأتي على عدة وجوه منها^(٥):

(١) سورة النور، الآية: ٣٦-٣٧.

(٢) اللسان مادة (اذن) ١/١٥٢، المصباح مادة (اذن) ١/٧.

(٣) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٤) المفردات: ٧١.

(٥) ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ٢٧.

أ- السماع، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾^(١) أي: سمعت.

ب- الارادة، منه قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَاكِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٢) أي: بإرادة الله تعالى.

ج- الأمر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِشَيْءٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٣) أي: بأمر الله.

(٢)- (الغدو) في اللغة: نقيض الرواح، وقد غدا يغدو غدوًا، وقوله تعالى: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي بالغدوات، فعبّر بالفعل عن الوقت، كما يقال: أتيتك طلوع الشمس، أي وقت طلوع الشمس. والغدو هو سير أول النهار نقيض الرواح، وغدا غدوًا: ذهب غدوة وهي ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس^(٤).

(الغدو) في الغريب: الغدوة والغداة من أول النهار، وقول في القرآن الغدو بالآصال نحو قوله تعالى: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، وقول الغداة بالعشي، قال تعالى: ﴿بِالْغَدَوَقِ وَالْعَاشِي﴾^{(٥) (٦)}.

(٣)- (الآصال) في اللغة: الأصيل: العشي والجمع أصل وأصلان مثل بغير وبعران وآصال وأصائل كأنه جمع أصيلة، قال الزجاج: آصال جمع أصل، فهو على هذا جمع الجمع والأصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب^(٧).

(الآصال) في الغريب: أي العشايا، يقال للعشية، أصيل وأصيلة فجمع الأصيل أصل وأصال، وجمع الأصيلة: أصائل^(٨).

(١) سورة الانشقاق، الآية: ٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٣٨.

(٤) اللسان مادة (غدا) ٣٢٢١/٥، وينظر: المصباح مادة (غدا) ٤٩/٢.

(٥) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٦) المفردات: ٦٠٣.

(٧) ينظر: الصحاح مادة (أصل) ١٦٢٣/٤، واللسان مادة (أصل) ٨٩/١.

(٨) المفردات: ٧٨.

ثانياً: الوجوه الواردة عند المفسرين

وردت في الآية الكريمة عند المفسرين بعض الوجوه منها:

(١)- أقوال أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾.

أ- إنها صفة لمشكاة، أي مشكاة في بيوت وما بينهما اعتراض، وإنما جاء بيوت بصيغة الجمع مع أن (مشكاة) و(مصباح) مفردان لأن المراد بهما الجنس فتساوى الأفراد والجمع.

ب- إن الجار والمجرور متعلق بـ(يوقد) أي يوقد المصباح في بيوت^(١).

ج- إن الجملة غير مرتبطة بما قبلها وانها مستأنفة وان الجار والمجرور متعلق بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾، أي يسبح له رجال في بيوت وتقدير المجرور للاهتمام بتلك البيوت وللتشويق إلى متعلق المجرور وهو التسبيح وأصحابه ويكون قوله: (فيها) تأكيداً لقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ لزيادة الاهتمام بها^(٢)، واختار ابن عاشور أن يكون (في بيوت) خبراً مقدماً و(رجال) مبتدأ، والجملة مستأنفة استئنافاً بياناً ناشئاً عن قوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ فيسأل السائل في نفسه عن تعيين بعض ممن هداه الله لنوره فقليل: رجال في بيوت^(٣).

(٢)- اختلف في المراد بالبيوت هنا على خمسة أقوال:

أ- إنها المساجد المخصصة لله تعالى بالعبادة، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن^(٤).

ب- هي بيوت بيت المقدس، روي ذلك عن الحسن أيضاً.

ج- إنها المساجد الأربعة التي لم بينها إلا نبي: الكعبة وبيت أريحا ومسجد المدينة ومسجد قباء، قاله ابن بريده^(٥).

د- بيوت النبي ﷺ، قاله مجاهد.

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٢/٢٦٥، التحرير والتنوير ١٨/٢٤٥.

(٢) ينظر: فتح القدير ٤/٣٤، وروح المعاني ١٨/١٧٤، والتحرير والتنوير ١٨/٢٤٨.

(٣) التحرير والتنوير ١٨/٢٤٨.

(٤) جامع البيان ١٨/١٤٤، أحكام القرآن للجصاص ٣/٣٢٨.

(٥) التفسير الكبير ٣/٢٤، الجامع لأحكام القرآن ١٢/٢٦٥ - ٢٦٦، روح المعاني ١٨/١٧٤.

هـ- البيوت كلها، قاله عكرمة، وقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يقوي أنها المساجد^(١).

وأظهر الأقوال القول الأول وهو الذي قاله أكثر المفسرين^(٢).

(٣)- قوله تعالى: ﴿أَنْ تَرْفَعَ﴾ اختلف أهل التأويل في قوله: ﴿أَنْ تَرْفَعَ﴾، فقيل: معناه ترفع بالبناء كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾، قاله مجاهد، وقيل: إن تعظم بذكره لأنها مواضع الصلوات والذكر وهو قول الحسن^(٣). قال أبو بكر الجصاص: ((يجوز أن يكون المراد الأمرين جميعاً من رفعها بالبناء ومن تعظيمها جميعاً لأنها مبنية لذكر الله والصلوة))^(٤).

(٤)- قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي يتلى فيها كتابه، وقيل: هو التوحيد، وقيل: كل ذكر لله - ع - والأخير أولى^(٥).

واختلفوا في هذا التسبيح فالأكثر حملوه على نفس الصلاة كما ينبئ عنه تعيين الأوقات بقوله: ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ والأصل كالأصيل: العشى وهو من زوال الشمس إلى الصباح فيشمل الأوقات ما عدا الغداة وهي من أول النهار إلى الزوال ويطلقان على أول النهار وآخره فمنهم من حمّله على كل الصلوات الخمس ومنهم من حمّله على صلاتي الجمعة والعصر، ومنهم من حمّله على التسبيح الذي هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به في ذاته وفعله، واحتج عليه بأن الصلاة والزكاة قد عطفهما على ذلك حيث قال: ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَابِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ هذا هو الوجه الأظهر^(٦).

ثالثاً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: بعد أن ذكر - جلت آلاؤه - نوره لعباده وهدايته إياهم على

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٢ / ٢٦٥، وينظر: جامع البيان ١٨ / ١٤٥، وفتح القدير ٤ / ٣٤.

(٢) ينظر: جامع البيان ١٨ / ١٤٥، والتفسير الكبير ٢٤ / ٣، والجامع لأحكام القرآن ١٢ / ٢٦٦، وفتح القدير ٤ / ٣٤.

(٣) ينظر: جامع البيان ١٨ / ١٤٥، وأحكام القرآن للجصاص ٣ / ٣٢٨، والتفسير الكبير ٢٤ / ٣، ومعالم التنزيل ٥ / ٨٠.

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣ / ٣٢٨.

(٥) فتح القدير ٤ / ٣٤، وينظر: التفسير الكبير ٢٤ / ٤.

(٦) التفسير الكبير ٢٤ / ٤، روح المعاني ١٨ / ١٧٦.

أتم الوجوه بين هنا حال من حصلت لهم الهداية بذلك النور، وذكر بعض أعمالهم القلبية والحسية^(١).

رابعاً: الأعراب والقراءات

[١]- الإعراب:

قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ متعلق بـ(يسبح). وقوله: ﴿أَذِنَ اللَّهُ﴾ في محل جر صفة لبيوت، و(أن ترفع) على حذف الجر، أي: في أن ترفع^(٢). وقوله: ﴿يُسَبِّحُ﴾ بكسر الباء، والفاعل (رجال) وبالفتح على أن يكون القائم مقام الفاعل له أو فيها و(رجال) مرفوع بفعل محذوف، أي: المسيح رجال، وقيل التقدير: فيها رجال^(٣).

[٢]- القراءات:

قرأ الجمهور (يُسَبِّحُ) بضم الياء وكسر الباء وقرأ أبو بكر عن عاصم وابن عامر (يُسَبِّحُ له) بضم الياء وفتح الباء على ما لم يسم فاعله، فالحجة لمن فتح: انه جعله فعلاً لما لم يسم فاعله ورفع (الرجال) بالابتداء، والخبر (لا تُلْهِهِمْ) والحجة لمن كسر: انه جعله فعلاً للرجال فرفعهم به، وجعل ما بعدهم وصفاً لحالهم^(٤).

وليعلم أن القراءة بفتح الباء يحسن الوقوف فيها على قوله: (بالأصال) وأما على قراءة كسر الباء فلا ينبغي الوقف على قوله: (بالأصال)؛ لأن فاعل يسبح رجال والوقف دون الفاعل لا ينبغي^(٥)، وقرأ ابن وثاب وابن حيوة بالتاء الفوقية وكسر الموحدة (تسبح) فيكون الفاعل رجال، وإنما أنث الفعل لكون جمع التكسير يعامل

(١) تفسير المراغي ١٨/ ١١٠.

(٢) ينظر: الدر المصون ٥/ ٢٢٠، والجدول في إعراب القرآن وصفه وبيانه ١٨/ ٢٦٧، لمحمود صافي، مط النهضة - قم، ط١- ١٩٩١م.

(٣) ينظر: معاني القرآن وأعرابه ٤/ ٤٥، لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، (ت٣١١هـ)، تح د. عبد الجليل عبده شليبي، مط عالم الكتب بيروت، ط١- ١٩٨٨م، وإملاء ما من به الرحمن ٢/ ١٥٦.

(٤) ينظر: السبعة في القراءات: ٤٥٦، لابن مجاهد (ت٣٢٤هـ) تح د. شوقي ضيف، مط دار المعارف، مصر، والحجة لابن خالويه: ٢٦٢، والكافي في القراءات السبع: ١٦٧، ونحو القراء الكوفيين: ٣٠١.

(٥) ينظر: منار الهدى في بيان الوقف والابتداء: ٢٢٨، لأحمد بن محمد بن عبد الكريم الأشموني، مط مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٣٤م.

معاملة المؤمن في بعض الأحوال^(١).

خامساً: التعظيم لبيوت الله تعالى

فهم من تفسير الآية الكريمة أن المراد بالآذن الأمر وبالرفع التعظيم والبناء، فتعظيم البيوت ورفع بنائها هو بأمر الله تبارك وتعالى ويكون ذلك بشتى الأساليب وقد حث النبي - ﷺ - على هذا الأمر ورتب لفاعله الأجر العظيم ومن هديه - ﷺ - في هذا الجانب ما يأتي:

(١)- عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة»^(٢).

(٢)- في الصحيحين عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح»^(٣).

(٣)- أخرج ابن ماجه عن واثلة بن الأسقع - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم وإقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمروها»^(٤).

(٤)- وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: «أمر رسول الله - ﷺ - ببناء المساجد في الدور وأن تنظف وتطيب»^(٥).

(٥)- وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «إذا رأيتم من يبيع أو

(١) ينظر: مختصر في شواذ القراءات: ١٠٢، والكشاف ٢/٣٤٢، والدر المصون ٥/٢٢١، وفتح القدير ٤/٣٤.

(٢) البخاري ٢/١١٥ [كتاب الصلاة - باب من بنى مسجداً] برقم ٤٥٠، مسلم ١/٣٧٨ [كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب فضل بناء المساجد] برقم ٥٣٣.

(٣) البخاري ٢/٣٦٧ [كتاب الآذان - باب فضل من غدا إلى المسجد] برقم ٦٦٢، مسلم ١/٤٦٣ [كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة] برقم ٦٦٩.

(٤) سنن ابن ماجه ١/٢٤٧ [كتاب المساجد والجماعات - باب ما يكره في المساجد] برقم ٧٥٠، وهذه الرواية انفرد بها ابن ماجه.

(٥) سنن أبي داود ١/٣١٤ [كتاب الصلاة - باب اتخاذ المساجد في الدور] برقم ٤٥٥، سنن الترمذي ٢/٤٩٠ [كتاب الجمعة - باب ما ذكر من تطيب المساجد] برقم ٥٩٤.

يبتاع في المسجد فقولوا: لا أربح الله تجارتك وإذا رأيتم من ينشد فيه ضالة فقولوا لا ردّ الله عليك»^(١).

(٦)- وقد روى ابن ماجه من حديث ابن عمر مرفوعاً قال: ((خصال لا تنبغي في المسجد: لا يتخذ طريقاً، ولا يشهر فيه سلاح، ولا ينبض فيه بقوس، ولا ينشر فيه نبل، ولا يمر فيه بلحم نيء، ولا يضرب فيه حدّ، ولا يقتص فيه من أحد، ولا يتخذ سوقاً))^(٢).

وقد أمر الله تعالى أن ترفع حسياً بأن يستحكم أساسها وجدرانها وتعلّى إلى مستوى الأبنية القريبة منها أو تعلّى عليها في انظار أهل الطاعة، أو معنئ وقدرأ بصيانتها عن دخول الجنب والحائض والنفساء وعن وقوع الأقدار فيها ولا سيّما ما يخاف منها تلويثها، وعن دخول أصحاب الروائح الكريهة من الثوم والبصل والفجل وأمثالها ومن إدخال الصبيان غير المميزين والمجانين والنعال المتوسخة الرطبة أو اليابسة التي يخاف تنجيس المساجد وفروشها بها وعن اشتغالها بالمعاملات والملاهي والكلمات البذيئة، إلى غير ذلك مما لا يناسب مقامها^(٣).

سادساً: ما يستفاد من الآية

من أهم الفوائد المستنبطة من الآية الكريمة ما يأتي:

(١)- قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُ فِيهَا﴾، أي: المساجد وهذا تنويه بالمساجد وإيقاع الصلاة والذكر فيها كما في الحديث: «صلاة أحدكم في المسجد (أي الجماعة) تفضل صلاته في بيته بسبع وعشرين درجة»^(٤).

(١) سنن الترمذي ٦٠٢/٣ [كتاب البيوع - باب النهي عن الاستئثار في المسجد] برقم ١٣٢١، قال أبو عيسى حسن غريب.

(٢) سنن ابن ماجه ٢٤٧/١ [كتاب المساجد والجماعات - باب ما يكره في المساجد] برقم ٧٤٨.

(٣) ينظر: التيسير في أحاديث التفسير ٢٧٧-٢٧٨، ومواهب الرحمن في تفسير القرآن ٨٣/٦، للشيخ عبد الكريم محمد المدرس، مط دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٨م.

(٤) التحرير والتنوير ٢٤٨/١٨ والحديث أخرجه البخاري ٣٤٥/٢ [كتاب الآذان - باب فضل صلاة الجماعة] برقم ٦٤٥، ومسلم ٤٥٠/١ [كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب فضل صلاة الجماعة] برقم ٦٥٠.

(٢)- تطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة^(١).

(٣)- قوله تعالى: ﴿بِالْقُدُّوْ وَالْأَصَالِ﴾ فإفرادهما بالذكر لشرفهما وكونهما أشهر ما يقع فيه المباشرة للأعمال والاشتغال بالأشغال^(٢) وقد قال رسول الله - ﷺ -: «من صَلَّى البردين دخل الجنة»^(٣).

(٤)- الأمر بتعظيم المساجد وتنزيهاها عن اللغو والقاذورات^(٤).

سابعاً: المعنى العام

تضمنت الآية الكريمة الحديث عن العبادة في أحب البقاع إلى الله وجاء الاذن برفعها وذلك الرفع إنما هو الإقامة، وحيث أقيمت فهي مرفوعة على كل بنيان وإن علاها بناء، وذلك يعلم من تنكير لفظ البيوت في قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ انه جاء لتعظيم مقامها ورفع شأنها وتفخيم قدرها، فهي وإن ضاقت رقعة وقلت عدداً أعلى البيوت مقاماً وأرفعها عماداً، وكل بيوت غيرها ظل لها ومرفق من مرافقها وفي قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿تُرْفَعُ﴾، أي: أذن الله أن ترفع، وأذن الله أن يذكر فيها اسمه. وهذا بيان للغاية من رفعها وإقامتها، وانها إنما رفعت وأقيمت ليذكر فيها اسم الله فهي بيوت عبادة، وذكر الله.

وفي هذا الموطن يتصل العبد بربه ويقترب من مواقع رضاه ورحمته في هذه البيوت التي يقول عنها ابن عباس - رضي الله عنه -: المساجد بيوت الله في الأرض وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض^(٥).

الآية الثانية:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٧٢.

(٢) روح المعاني ١٨/ ١٧٦.

(٣) البخاري ٢/ ٢٤٥ [كتاب مواقيت الصلاة - باب فضل صلاة الفجر] برقم ٥٧٤، مسلم ١/ ٤٤٠ [كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب فضل صلاتي الصبح والعصر] برقم ٦٣٥.

(٤) الاكليل: ١٦٤، وينظر: التيسير في أحاديث التفسير ٤/ ٢٧٧.

(٥) ينظر: اللباب ١٤/ ٣٩٢، التفسير القرآني للقرآن ١٨/ ١٢٩٠، لعبد الكريم الخطيب، مط السنة المحمدية.

وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْنِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ^(١).
سنحلل هذه الآية من خلال النقاط الآتية:

أولاً: تحليل الألفاظ في اللغة والغريب والوجوه والنظائر

(١)- (مُصَلَّى) في اللغة: المصلى بصيغة اسم المفعول موضع الصلاة أو الدعاء والصلاة، وقيل: أصلها في اللغة الدعاء لقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾^(٢) أي: ادع لهم، و﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾^(٣) أي: دعاء، ثم سمي بها هذه الأفعال المشهورة لاشتغالها على الدعاء^(٣).

(٢)- (العهد) في اللغة: الوصية، ويقال: عهد إلي في كذا، أي: أوصاني ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰءَ آدَمَ﴾^(٤) يعني: الوصية والأمر^(٥).

(العهد) في الغريب: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وسمي الموثق الذي يلزم مراعاته عهداً، وعهد فلان إلى فلان بعهد: أي ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه^(٦).

أما (العهد) في الوجوه والنظائر: فيأتي في القرآن الكريم بمعان مختلفة منها^(٧):

أ- الأمانة، كقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾^(٨) يعني: الأمانة.

ب- الميثاق، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾^(٩).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٣) المصباح مادة (صلى) ١/١٨٤.

(٤) سورة يس، الآية: ٦٠.

(٥) اللسان مادة (عهد) ٤/٣١٤٨، ينظر: المصباح مادة (عهد) ٢/٤٤.

(٦) المفردات: ٥٩١.

(٧) ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ٣٣٦.

(٨) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٩) سورة البقرة، الآية: ٢٧.

ج- الأمر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ﴾^(١) يعني: أمرنا آدم.
 د- الحلف، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾^(٢) يعني: بالحلف
 إذا حلفتم.

(٣)- (الطائفين) في اللغة: جمع طائف، وطاف بالشيء يطوف طوفاً وطوفاً:
 استدار به، وقيل: طاف به حام حوله^(٣).

(الطائفين) في الغريب: الطوف: المشي حول الشيء، ومنه: الطائف لمن
 يدور حول البيوت حافظاً، يقال طاف به يطوف قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَدُنَّ
 مُخَلَّدُونَ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿أَن طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ أي: لقصاده الذين يطوفون
 به^(٥).

(الطائفين) في الوجوه والنظائر: جاءت بمعان متعددة في القرآن منها^(٦):
 أ- السعي: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾^(٧) يعني:
 يسعى بين الصفا والمروة.

ب- الجولان: ومنه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرِ آدَمَ﴾^(٨) أي: يجولون.

ج- الطواف بالكعبة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَن طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾ يعني: حول الكعبة.

د- الوسوسة: ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾^(٩)، أي: وسوسة.

(٤)- (العاكفين) في اللغة: عكف على الشيء عكوفاً وعكفاً، وعكفت الشيء
 أعكفهُ، وأعكفهُ: حبسته، ومنه الاعتكاف وهو افتعال لأنه حبس النفس عن

(١) سورة طه، الآية: ١١٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩١.

(٣) اللسان مادة (طوف) ٢٧٢٢/٤، المصباح مادة (طوف) ١٥/٢.

(٤) سورة الواقعة، الآية: ١٧.

(٥) المفردات: ٥٣١.

(٦) ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ٣٠١-٣٠٢.

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

(٨) سورة الرحمن، الآية: ٤٤.

(٩) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

التصرفات العادية، وعكفته عن حاجته: منعه، وعكف: لزم المكان، والعكوف: الإقامة في المسجد^(١).

(العاكفين) في الغريب: العكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له، ويقال: عكفته على كذا أي: حبسته عليه^(٢).

ثانياً: البلاغة في الآية

وردت في الآية بعض الأوجه البلاغية منها:

أ- إضافة البيت إلى ضمير الجلالة ﴿طَهَّرَا بَيْتِي﴾ للتشريف والتعظيم^(٣).

ب- قدم الركوع لتقدمه في الزمان في قوله: ﴿وَالرُّكُوعَ السُّجُودَ﴾ وجمعا جمع تكسير لتغير هيئة المفرد مع مقابلهما ما قبلهما من جمعي السلامة وفي ذلك تنويع في الفصاحة، وخالف بين وزني تكسيرهما للتنويع مع المخالفة في الهيئات وكان آخرهما على فعول لأجل كونه فاصلة، والفواصل قبل وبعد آخرها حرف قبله حرف مد ولين^(٤).

ج- عطف أحد الوصفين على الآخر في قوله: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ لتباين ما بينهما ولم تعطف إحدى الصفتين على الأخرى في قوله: ﴿وَالرُّكُوعَ السُّجُودَ﴾ لأن المراد بهما شيء واحد وهو الصلاة إذ لو عطف لتوهم أن كلا منهما عبادة على حيالها^(٥).

د- في الآية تقديم وتأخير بحسب الكثرة والقلة ففي هذه الآية ورد الترتيب متدرجاً من القلة إلى الكثرة، فالطائفون أقل من العاكفين لأن الطواف لا يكون إلاّ

(١) اللسان مادة (عكف) ٣٠٥٨/٤، المصباح مادة (عكف) ٣٩/٢.

(٢) المفردات: ٥٧٩.

(٣) معالم التنزيل ١٨٠/١، الجامع لأحكام القرآن ١١٤/٢، نيل المرام من تفسير آيات الأحكام: ٣١، لمحمد صديق حسن خان، ط ٢ - ١٩٦٣ م.

(٤) روح المعاني ٣٨١/١.

(٥) ينظر: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ٢٩٧، لكمال الدين عبد الواحد عبد الكريم الزملكاني (ت ٦٥١هـ)، تع د. أحمد مطلوب وغيره، مط العاني بغداد، ط ١ - ١٩٧٤ م، والدر المصون ٣٦٦/١، والفتوحات الإلهية ١٠٥/١.

حول الكعبة والعكوف يكون في المساجد عموماً، والعاكفون أقل من الراكعين لأن الركوع - أي الصلاة - تكون في كل أرض طاهرة، أما العكوف فلا يكون إلا في المساجد والراكعون أقل من الساجدين، وذلك لأن لكل ركعة سجدتين ثم إن كل راع لا بد أن يسجد، وقد يكون سجود ليس له ركوع كسجود التلاوة وسجود الشكر، فهو هنا تدرج من القلة إلى الكثرة، ولهذا التدرج سبب اقتضاه المقام، فإن الكلام على بيت الله الحرام، فالطائفون هم ألصق المذكورين للبيت؛ لأنهم يطوفون حوله فبدأ بهم ثم تدرج إلى العاكفين في هذا البيت، أو في بيوت الله عموماً، ثم الركع السجود الذين يتوجهون إلى هذا البيت في ركوعهم وسجودهم في كل الأرض^(١).

ثالثاً: القول الراجح في مقام إبراهيم

اتفق المحققون^(٢) على أن المقام هو موضع الحجر الذي قام عليه سيدنا إبراهيم - عليه السلام - ويدل عليه وجوه:

(١)- ما روى جابر - رضي الله عنه - أنه عليه الصلاة والسلام استلم الركن فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ: ﴿وَأَنذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين^(٣)، فقراءة هذه اللفظة عند ذلك الموضع تدل على أن المراد من هذه اللفظة هو ذلك الموضع^(٤).

(٢)- ما روى الإمام مسلم عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن أبيه قال: ((وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم، وفي الحجاب، وفي أسارى بدر))^(٥).

(٣)- إن هذا الاسم في العرف مختص بذلك الموضع، والدليل عليه أن سائلاً لو سأل المكي بمكة عن مقام إبراهيم، لم يجبه، ولم تفهم منه إلا هذا الموضع.

(١) ينظر: التعبير القرآني: ٥٥.

(٢) ينظر: جامع البيان ١/٥٣٧، والتفسير الكبير ٤/٥٤، والجامع لأحكام القرآن ٢/١١٣، وتفسير القرآن العظيم ١/١٧٠.

(٣) مسلم ٢/٨٨٧ [كتاب الحج - باب حجة النبي ﷺ] برقم ١٢١٨، وهذا جزء من حديث طويل.

(٤) أحكام القرآن للجصاص ١/٧٥، التفسير الكبير ٤/٥٤، اللباب ٢/٢٦٤.

(٥) مسلم ٤/١٨٦٥ [كتاب فضائل الصحابة - باب من فضائل عمر] برقم ٢٣٩٩.

(٤)- إن الحجر صار تحت قدميه في رطوبة الطين حتى غاصت فيه رجلا إبراهيم - ﷺ - وذلك من أظهر الدلائل على وحدانية الله تعالى ومعجزة إبراهيم - ﷺ - فكان اختصاصه بإبراهيم أولى من اختصاص غيره به، فكان إطلاق هذا الاسم عليه أولى.

(٥)- ليس للصلاة تعلق بالحرم ولا بسائر المواضع إلا بهذا الموضع فوجب أن يكون مقام إبراهيم هو هذا الموضع (١).

رابعاً: الوجوه الواردة في (مُصَلَّى - طَهَّر - الطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ)

(١)- الوجوه التي وردت في قوله: (مُصَلَّى)

ورد معنى (مُصَلَّى) عند المفسرين في الآية الكريمة كما يأتي:

أ- قال فيه مجاهد مدعى، وجعله من الصلاة إذ هي الدعاء لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ (٢).

ب- وقال الحسن: قبلة.

ج- أمروا أن يصلُّوا عنده، قاله قتادة والسدي، وهذا هو الذي يقتضيه سائر اللفظ وهو الذي عليه أهل التحقيق لأن لفظ الصلاة إذا أطلق يعقل منه الصلاة المفعولة بركوع وسجود، ولأن حملها على الصلاة المعهودة أولى لأنها جامعة لسائر المعاني التي فسروا الآية بها (٣).

(٢)- الوجوه التي وردت في قوله: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي﴾ معنى (عهدنا) وصينا أو أمرنا أو أوصينا، وقلنا، والذي عليه المحققون أن العهد إذا تعدى (إلى) يكون بمعنى التوصية. ويتجاوز به عن الأمر (٤).

وذكر المفسرون في قوله: ﴿طَهَّرَا بَيْتِي﴾ عدة وجوه منها:

(١) أحكام القرآن للجصاص ١/٧٥، الباب ٢/٦٤٦، وينظر: تفسير القرآن العظيم ١/١٦٩-١٧٠.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

(٣) جامع البيان ١/٥٣٧-٥٣٨، أحكام القرآن للجصاص ١/٧٥، التفسير الكبير ٤/٥٤، الجامع لأحكام القرآن ٢/١١٣.

(٤) روح المعاني ١/٣٨٠.

أ- أمرهما أن يطهرا من الأذى والنجس ولا يصيبه من ذلك شيء، قاله الحسن البصري^(١).

ب- ابنياء وطهرا من الشرك وأسسائه على التقوى كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ﴾^(٢).

ج- نظفا بيتي من الأوثان والشرك والمعاصي ليقتهي الناس بكما في ذلك^(٣).
قال أبو بكر الجصاص: ((وجميع ما ذكر يحتمله اللفظ غير منافية فيكون معناه ابنياء على تقوى الله وطهرا مع ذلك من الفرث والدم ومن الأوثان أن تجعل فيه أو تقربه))^(٤).

(٣)- الوجوه التي وردت في ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِفِينَ﴾

ورد معنى ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِفِينَ﴾ عند المفسرين كما يأتي:

أ- الطائفون هم الغرباء الذين يأتون البيت الحرام من غربة، قاله سعيد بن جبیر، والعاكفون هم الجالسون في البيت الحرام من غير طواف ولا صلاة، قاله عطاء.
ب- الطائفون هم الذين يطوفون بالبيت غرباء كانوا أو من أهله، وهو قول عطاء، والعاكفون هم المعتكفون المجاورون، وقيل: أهل الحرم وقيل: المصلون، وهو قول مجاهد وقتادة وابن عباس^(٥).

ورجح الإمام الطبري قولي عطاء في الطائفين والعاكفين^(٦).

خامساً: أسباب النزول

روى البخاري عن عمر - رضي الله عنه - قال: وافقت ربي في ثلاث. قلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وقلت يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجبن

(١) تفسير القرآن العظيم ١/١٧١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٩.

(٣) التفسير الكبير ٤/٥٧.

(٤) أحكام القرآن للجصاص ١/٧٥.

(٥) جامع البيان ١/٥٣٩-٥٤٠؛ وينظر: أحكام القرآن للجصاص ١/٧٦، ومعالم التنزيل ١/١٠٨.

(٦) جامع البيان ١/٥٤٠.

فنزلت آية الحجاب. واجتمع على رسول الله - ﷺ - نساؤه في الغيرة، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن فنزلت كذلك^(١).

سادساً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: لما كان التقدير: فثاب الناس إليه ائتماً ببانيه وآمنوا بدعوته، وفيه عطف على قوله: (واتخذوا) فيكون المعنى على قراءة الأمر: فثوبوا إليه أيها الناس ائتماً به، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًى^(٢).

سابعاً: الإعراب والقراءات

[١] - الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا﴾ يقرأ على لفظ الخبر والمعطوف عليه محذوف تقديره: فثابوا واتخذوا ويقرأ على لفظ الأمر فيكون على هذا مستأنفاً.

﴿مِنْ مَّقَامٍ﴾ يجوز أن يكون (من) للتبويض، أي: بعض مقام إبراهيم مصلًى، ويجوز أن تكون (من) بمعنى في، ويجوز أن تكون زائدة على مذهب الأخفش ورجح صاحب حاشية الجمل والألوسي الوجه الأول، والمقام هنا مكان القيام وهو يصلح للزمان والمصدر أيضاً^(٣).

﴿مُصَلًى﴾ مفعول اتخذوا وهو اسم مكان، ويجوز أن يكون مصدراً وفيه حذف مضاف تقديره: مكان مصلًى. أي مكان صلاة^(٤).

﴿أَنْ طَهَّرَا﴾ يجوز في (أن) وجهان: أنها تفسيرية وهو الأقرب لوجود ضابطها وهو أن تتقدمها جملة فيها معنى القول دون حروفه وصحة حلول أي محلها والثاني أنها مصدرية^(٥).

(١) لباب النقول في أسباب النزول: ٢٠، لجلال الدين السيوطي، مط الملاح - دمشق، ط ١، والحديث أخرجه البخاري ٦٣/٢ [كتاب الصلاة - باب ما جاء في القبلة] رقم ٤٠٢.

(٢) نظم الدرر ١٥٣/٢.

(٣) إملاء ما من به الرحمن ٦٢/١، الفتوحات الإلهية ١٠٤/١، روح المعاني ٣٨٠/١.

(٤) إملاء ما من به الرحمن ٦٢/١، الدر المصون ٣٦٥/١.

(٥) الصاوي ٥٤/١.

﴿السُّجُودِ﴾ جمع ساجد، قيل: هو مصدر وفيه حذف مضاف أي: الركع ذوو السجود^(١).

[٢]- القراءات:

قرأ نافع وابن عامر (واتخذوا) بفتح الخاء على أنه فعل ماضٍ، وهو حينئذٍ معطوف على (جعلنا) أي: واتخذ الناس من مكان إبراهيم الذي عرف به وأسكن ذريته عنده وهو الكعبة قبله يصلون إليها^(٢).

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي (بيتي) بإسكان الياء والباقون بفتحها^(٣).

ثامناً: وجه مناسبة الآية مع آية الحج

إن وجه المناسبة بين الآيتين يتضح لنا فيما يأتي:

(١)- إن توجيه الأمر هنا إلى إبراهيم وإسماعيل بقوله: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي﴾ لا ينافي ما في سورة الحج من تخصيصه بإبراهيم - ﷺ - فإن ذلك واقع قبل بناء البيت كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ وكان إسماعيل حينئذٍ بمعزل من مثابة الخطاب والظاهر أن هذا بعد بلوغه مبلغ الأمر والنهي، وتمام البناء بمباشرته كما ينبئ عنه إirاده أثر حكاية جعله (مثابة)^(٤).

(٢)- ذكر الله تعالى أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له إما بطواف أو صلاة، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة: قيامها وركوعها وسجودها ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ذكره بقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ أَلْعَنَكُفُ فِيهِ وَالْبَادُ﴾^(٥) وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين واكتفى بذكر الركوع والسجود عن القيام

(١) إملأ ما من به الرحمن ١/٦٢.

(٢) ينظر: الحجة لابن خالويه: ٨٧، والحجة في علل القراءات السبع ١٧١/٢، لأبي علي الحسن ابن أحمد الفارسي، (ت ٣٧٧هـ) تح علي النجدي وآخرين، مط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢ ط - ١٩٨٣، والكشف عن وجوه القراءات السبع ١/٢٦٣، والتبصرة في القراءات: ١٥٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١١٤/٢، غيث النفع في القراءات السبع: ٤٨، لولي الدين علي النور الصفافسي، مط دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط ١ - ١٩٩٩م.

(٤) روح المعاني ١/٣٨١.

(٥) سورة الحج، الآية: ٢٥.

لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع وسجود إلا بعد قيام^(١).

تاسعاً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة بعض الأحكام منها:

(١)- فعل الطواف في البيت هو قرابة إلى الله تعالى ويستحق فاعله الثواب وأنه للغرباء أفضل من الصلاة^(٢).

(٢)- جواز الاعتكاف في البيت وبحضرته بقصد العبادة ويدخل فيها مدارس العلوم الدينية وما يساعد على فهمها^(٣).

(٣)- جواز الصلاة في البيت فرضاً كان أو نفلاً إذ لم تفرق الآية بين شيء منها وهو خلاف قول مالك في امتناعه من جواز فعل الصلاة المفروضة في البيت.

(٤)- تقديم الطواف على الصلاة، لفعل النبي - ﷺ -^(٤)، واتفاق أهل العلم^(٥).

(٥)- في قوله: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي﴾ دخل فيه بالمعنى جميع بيوته تعالى، فيكون حكمها حكمه في التطهير والنظافة. وإنما خص الكعبة بالذكر لأنه لم يكن هناك غيرها^(٦).

(٦)- الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له.

(١) تفسير القرآن العظيم ٧٢/١.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٧٦/١، الجامع لأحكام القرآن ١١٦/٢.

(٣) التفسير الوسيط ٣٥١/١، وينظر: التفسير الكبير ٥٨/٤.

(٤) ينظر: حديث جابر المتقدم، ص ١٢٢ من هذه الرسالة.

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٧٦-٧٧، وينظر: المغني في فقه الامام أحمد بن حنبل الشيباني

١٨٢/٣ للإمام موفق الدين أبي محمد بن قدامة (ت ٦٢٠هـ)، مط دار الفكر، بيروت - لبنان،

ط ١٩٨٥-١م، والقوانين الفقهية: ١٣١، للإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن جزيء

الكلبي (ت ٧٤١هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، ط ١٩٨٩م، ومغني المحتاج إلى معرفة

معاني ألفاظ المنهاج ٤٨٤/١ للشيخ محمد الخطيب الشربيني (ت ٩٧٧هـ)، مط مصطفى الحلبي

١٩٥٨م، وحاشية رد المحتار على الدر المختار ٤٩٢/٢ وما بعدها، لمحمد أمين الشهير بابن

عابدين (ت ١٢٥٢هـ)، مط مصطفى البابي الحلبي - مصر، ط ٣ - ١٩٦٦م. والفقه الإسلامي

وأدلتها ٢٢٠٣/٣ - ٢٢٠٤، للدكتور وهبة الزحيلي، مط دار الفكر دمشق، ط ٤ - ١٩٩٧م.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١١٤/٢.

(٧) - الرد على من لا يحج البيت من أهل الكتابين اليهود والنصارى لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وإسماعيل - ﷺ - ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة، وللاعتكاف والصلاة عنده، وهم لا يفعلون شيئاً من ذلك فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرع الله تعالى له (١).

عاشراً: المعنى العام

ورد في هذه الآية الكريمة بشأن مقام سيدنا إبراهيم - ﷺ - ونصت على أنه آية من آيات الله البينات، وهو الحجر الذي قام عليه أبو الأنبياء - ﷺ - أثناء بنائه البيت مع ابنه إسماعيل - ﷺ - - وحيث أن هذا المقام آية من آياته البينات سبحانه وتعالى، فقد أمر الناس أن يتخذوا من هذا المقام مكاناً للصلاة فيه، فكانت الصلاة عنده أفضل من سواها لشرف المكان الذي أديت فيه.

وتضمنت الآية الكريمة عهداً من الله تبارك وتعالى لكل من إبراهيم وإسماعيل - ﷺ - في تطهير هذا البيت وصيانته من كل ما لا يليق به من رجس معنوي كالشرك بالله أو حسي كعبادة الأصنام واللغو والرفث والتنازع فيه، وذلك ليخلص هذا الحرم للغرض الذي من أجله اصطفى الله هذا المكان ألا وهو عبادته سبحانه وحده لا شريك له.

والحاصل من ذلك كله أن المراد تهيئة هذه البقعة تهيئة تتناسب مع أداء العبادات والشعائر كالطواف والسعي والاعتكاف فلا يجد الطائعون من القائمين والعاكفين ما يشغلهم عن شيء من ذلك.

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٧٢.

المبحث الثاني البدعة في العبادة

تمهيد

أصل البدعة: أنها كل ما حدث من غير أن يكون له مثال سابق، ولذلك فإن من أسمائه الحسنی سبحانه وتعالى: البديع، أي الخالق للأشياء على غير مثال سابق، ومنه يتبين أن معنى قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) أي: الخالق لهما من غير أن يكون هناك مثال سابق لهما.

والبدعة في الشرع تقابل السنة، فهي مذمومة، والتحقيق في ذلك - كما يرى الإمام ابن حجر - ﷺ - أنها إن كانت مما يندرج تحت مستحسن في الشرع فهي حسنة، وإن كانت مما يندرج تحت مستقبح في الشرع فهي مستقبحة، وإلا فهي من قسم المباح، وقد تنقسم إلى الأقسام الخمسة^(٢)، وقد عاب القرآن على أهل الجاهلية ما أحدثوه من اللعب واللهو في عبادتهم وهذا ما سجلته الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(٣).

وسنوضح الآية من خلال النقاط الآتية:

أولاً: ﴿مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ في اللغة والغريب

(١) - ﴿مُكَاءً﴾ في اللغة: المكاء مخفف: الصفير، وقد مكأ الإنسان يمكو مكاءً أي: صفر بفيه، قال بعضهم: هو أن يجمع بين أصابع يديه ثم يدخلها في

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٧.

(٢) ينظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٥٦/٥ - ١٥٧.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٥.

فيه ثم يصفر فيها^(١).

(مكاء) في الغريب: مَكَا الطير يَمَكُو مكاءً: صَفَرَ، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ تنبيهاً على أن ذلك منهم جار مجرى مكاء الطير في قلة الغناء، والمُكَاءُ: طائر^(٢).

(٢)- (تصدية) في اللغة: الصدى: الصوت وهو ما يجيبك من صوت الجبل ونحوه مثل صوتك، قال ابن عرفة: التصدية من الصدى، وهو الصوت الذي يردده عليك الجبل.

والتصدية: ضربك يداً على يد لتسمع ذلك إنساناً، وهو من قوله: ﴿مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ فالتصدية التصفيق باليدين^(٣).

ثانياً: أقوال المفسرين في ﴿مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ في الآية

ذكر المفسرون في ﴿مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ عدة أقوال منها:

(١)- قال ابن عباس: كانت قریش يطوفون بالبيت عراة يصفرون ويصفقون^(٤).

(٢)- قال مجاهد: كانوا يعارضون النبي - ﷺ - في الطواف ويستهزؤون به ويصفرون ويخلطون عليه طوافه وصلاته، ومثله قال مقاتل^(٥).

(٣)- عن قتادة قال: كنا نحدث أن المكاء: التصفيق بالأيدي، والتصدية صياح كانوا يعارضون به القرآن^(٦) وقد رجح الرازي قول ابن عباس - ﷺ - حيث أن المكاء والتصدية نوع عبادة لهم^(٧).

فإن قيل: كيف سماها صلاة والمكاء والتصدية ليسا من جنس الصلاة؟

(١) العين ٤١٨/٥، اللسان مادة (مكاء) ٤٢٥١/٦.

(٢) المفردات: ٧٧٣.

(٣) مقاييس اللغة مادة (صدى) ٣/٣٤١، اللسان مادة (صدى) ٤/٢٤٢١.

(٤) جامع البيان ٩/٢٤١، معالم التنزيل ٣/٣٠.

(٥) التفسير الكبير ١٥/١٦٠، لباب التأويل ٣/٣٠.

(٦) جامع البيان ٩/٢٤٢.

(٧) ينظر: التفسير الكبير ١٥/١٦٠.

فالجواب: أنهم كانوا يعتقدون المكاء والتصدية صلاة فخرج ذلك على حسب معتقدهم وفيه وجه آخر وهو أن من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له فهو كقول العرب: من كان السخاء عيبه فلا عيب له^(١).

ثالثاً: البلاغة

وردت في الآية الكريمة بعض الوجوه البلاغية منها:

(١)- في هذه الآية تعبير رائع في أسلوب القرآن حيث عبر عن وضع المشركين المكاء والتصدية (التصفير والتصفيق) موضع الصلاة التي ينبغي أن تؤدى عند البيت فكانوا كالأنعام التي لا تفقه معنى العبادة، ولا تعرف حرمة بيوت الله، وهو على حد قول القائل: (تحية بينهم ضرب وجيع)^(٢).

(٢)- إن إطلاق الصلاة على المكاء والتصدية مجاز مرسل^(٣).

رابعاً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: الآية فيها قصد التعقيب على ما سبقها، فهي معطوفة على جملة ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٤) فمضمونها سبب ثان لاستحقاقهم العذاب، وموقعها عقب جملة ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَ﴾^(٥) يجعلها كالدليل المقرر لانتفاء ولايتهم للمسجد الحرام لأن من كان يفعل مثل هذا عند مسجد الله لم يكن من المتقين، فكان حقيقاً بسلب ولاية المسجد عنه، فعطفت الجملة باعتبارها سبباً للعذاب^(٥).

خامساً: الإعراب والقراءات

[١]- الإعراب:

قوله تعالى: ﴿مُكَّاءٌ﴾ منصوب لأنه خبر كان ﴿وَتَصَدِيَةٌ﴾ معطوف على مكاء^(٦). وجملة: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ في محل جزم جواب شرط مقدر، أي: إن كانت

(١) لباب التأويل ٣/ ٣١.

(٢) صفوة التفسير ١/ ٥٠٥.

(٣) التحرير والتنوير ٩/ ٣٣٩.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٤.

(٥) التحرير والتنوير ٩/ ٣٣٨.

(٦) البيان في إعراب غريب القرآن ١/ ٣٨٧.

هذه طبيعة صلاتكم فذوقوا العذاب^(١).

[٢]- القراءات:

قوله تعالى: ﴿مُكَّاءٌ وَتَصْدِيَةٌ﴾.

قرأ سيدنا علي - عليه السلام - والأعمش قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَّاءٌ وَتَصْدِيَةٌ﴾ بنصب (صلاتهم) ورفع (مكاء) وهي على تقديم خبر كان على اسمها، ووجهه أنهم وضعوا المكاء والتصدية موضع الصلاة، وقرأ ابن عباس - عليه السلام -: (الا مكا) بالقصر^(٢).

سادساً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة بعض الفوائد منها:

(١)- بيان عظم اثم من يصد عن المسجد الحرام للعبادة الشرعية فيه.

(٢)- كراهية الصغير والتصفيق في التبع^(٣).

(٣)- إن الله تعالى لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابهم أمر بل أمروا بالعدول عنه إلى التسييح لئلا يتشبهوا بالنساء فكيف إذا فعلوا لا حاجة وقرنوا به أنواعاً من المعاصي قولاً وفعل^(٤).

سابعاً: المعنى العام

في هذه الآية بين الله تعالى حال المشركين الذين ابتدعوا أشياء ما أنزل الله بها من سلطان حيث أنهم اشتروا الضلالة بالهدى واستبدلوا الطاعة باللغو والصد عن سبيل الله تعالى في أشرف مكان فهم مستحقون لعذاب الله تعالى؛ لأنهم ليسوا أولياء لهذا البيت وإن كانوا يصلون عنده صلاتهم فما هذه بصلاة إنما كانت صغيراً وتصفيقاً وليس فيها خضوع ولا خشوع، فقد كانت صلاتهم وكان طوافهم من قبيل اللغو واللعب وهي بدعة ابتدعوها لا يقبلها الله تعالى منهم فإنه لم يشرعها لهم لذا فقد استوجبوا عذابه جزاءً على كفرهم وبما اقترفوه من المعاصي والآثام.

(١) الجدول في إعراب القرآن ٢١٤/٥.

(٢) ينظر: مختصر في شواذ القراءات: ٤٩، والدر المصون ٤١١/٣.

(٣) أيسر التفاسير ٣٠٥/٢، وينظر: محاسن التأويل ٢٩٩٠/٨.

(٤) محاسن التأويل ٢٩٩٠/٨.

المبحث الثالث

الحج ومناسكه

الحج هو أحد أركان الإسلام، وله ارتباط وثيق بدين أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وقد حث الإسلام على هذه الفريضة تعظيماً للبيت الحرام بكثرة زائريه، تلبية لنداء خليل الرحمن عندما أذن للناس بالحج وقد وعده الله بأن يأتيه الناس رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق، وسأتكلم عن هذه الفريضة وبعض مناسكها من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول

تقرير فريضة الحج

في هذا المطلب سنحلل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

وستتعرف معاني هذه الآية من خلال النقاط الآتية:

أولاً: تحليل المفردات

(١) - (الحج) لغة: القصد، وحج إلينا فلان، أي: قدم، وقد حج بنو فلان فلاناً: إذا أطالوا الاختلاف إليه، والحج هذا أصله ثم قصر استعماله في الشرع على قصد الكعبة للحج أو العمرة^(٢).

(الحج) في الغريب: أصل الحج القصد للزيارة، وخص في تعاريف الشرع

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

(٢) اللسان مادة (حجج) ٧٧٨/٢، المصباح مادة (حج) ٦٧/١.

بقصد بيت الله تعالى إقامة للنسك، فحجّ والحجّ، فالحجّ مصدر والحجّ اسم^(١).

(٢)- (الاستطاعة) في اللغة: الإطاقة، إلا أن الاستطاعة للإنسان خاصة والإطاقة عامة، يقال: الجمل مطيق لحمله ولا يقال مستطيع، فهذا الفرق بينهما، والاستطاعة القدرة على الشيء وهي مشتقة من الطوع كأنها كانت في الأصل الاستطواع، فلما سقطت الواو جعلت الهاء بدلاً منها^(٢).

(الاستطاعة) في الغريب: استفالة من الطوع، وذلك وجود ما يصير به الفعل متأثراً وهي عند المحققين اسم للمعاني التي بها يتمكن الإنسان مما يريد من إحداث الفعل وهي أربعة أشياء: بنية مخصوصة للفاعل، وتصور للفعل ومادة قابلة لتأثيره وآلة إن كان الفعل آلياً كالكتابة، والاستطاعة أخص من القدرة^(٣).

(الاستطاعة) في الوجوه والنظائر: جاءت على وجهين^(٤):

فوجه منها: يعني السعة في المال، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ

الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ يعني من وجد سعة في المال على أن يحج به. والوجه الثاني: يعني الطاقة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ

النِّسَاءِ﴾^(٥) يعني لن تطيقوا أن تعدلوا بين النساء في الحب.

ثانياً: معنى (الحج) و(الاستطاعة) عند المفسرين

(١)- (الحج) في اصطلاح الشرع: هو قصد موضع مخصوص (وهو البيت الحرام وعرفة) في وقت مخصوص (وهو أشهر الحج) للقيام بأعمال مخصوصة وهي الوقوف بعرفة والطواف والسعي عند جمهور العلماء بشرائط مخصوصة^(٦).

(١) المفردات ٢١٨، نزهة القلوب ٢٠٩/١-٢١٠.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة مادة (طوع) ٤١٣/٣، واللسان مادة (طوع) ٢٧٢٠-٢٧٢١.

(٣) المفردات: ٥٣٠.

(٤) ينظر: الأشباه والنظائر: ١٥٩، ومنتخب قرة عيون النواظر: ٢٩.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٢٩.

(٦) ينظر: التعريفات: ٥٠، لأبي الحسن علي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦هـ) مط دار الشؤون =

يقول ابن كثير: هذه آية وجوب الحج عند الجمهور^(١)، وقيل: بل هي قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾^(٢) والأول أظهر وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع وعن أبي هريرة قال: خطبنا رسول الله - ﷺ - فقال: «أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا» فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً فقال رسول الله - ﷺ -: «لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم، ثم قال: ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»^(٣).

وحديث رسول الله عن ابن عمر: قال: قال النبي - ﷺ -: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت»^(٤).

(٢)- (الاستطاعة): استطاعة السبيل إلى الشيء عبارة عن إمكان الوصول إليه، قال تعالى: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾^(٥) وقال: ﴿هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾^(٦).

وذكر المفسرون وجوه في معنى الاستطاعة منها:

أ- صحة البدن، وإمكان المشي إذا لم يجد ما يركبه، قاله عكرمة.

ب- قال عطاء: من وجد شيئاً يبلغه فقد استطاع إليه سبيلاً^(٧).

=الثقافية العامة، العراق - بغداد، وفتح القدير ١٢٠/٢ بتصرف، للإمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي المعروف بابن الهمام الحنفي (ت ٨٦١هـ)، مط الأميرية بولاق - مصر ١٣١٧هـ.

(١) تفسير القرآن العظيم ٣٨٥/١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٣) مسلم ٩٧٥/٢، [كتاب الحج - باب فرض الحج والعمرة] برقم ١٣٣٧.

(٤) مسلم ٤٥/١ [كتاب الايمان - باب أركان الإسلام ودعائمه] برقم ١٦.

(٥) سورة غافر، الآية: ١١.

(٦) سورة الشورى، الآية: ٤٤.

(٧) جامع البيان ١٧/٤-١٨، الكشف ٣٩٠/١، المحرر الوجيز ٢٣٣/٣.

ج- الزاد والراحلة، وهو ما قاله أكثر المفسرين، لما روي عن ابن عمر قال: قام رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال: ما السبيل؟ قال: «الزاد والراحلة»^(١) وقد روي هذا الحديث بعدة طرق من حديث أنس وعبدالله بن عباس وابن مسعود وعائشة كلها مرفوعة^(٢).

ومجموع هذه الروايات يدفع ما أورده الطبري - وتبعه فيه الرازي - من أن هذه الروايات في أسانيدھا نظر.

قال الطبري: ((فأما الأخبار التي رويت عن رسول الله - ﷺ - في ذلك بأنه الزاد والراحلة فإنها أخبار في أسانيدھا نظر لا يجوز الاحتجاج بمثلها في الدين))^(٣) والواقع أن ما أورده ابن جرير الطبري - ﷺ - لا يخلو من تجوّر، بمعنى أنه ليس كل أسانيدھا معلولاً، بل إن موضع الطعن هو إبراهيم بن يزيد الخوزي، فقد ذكر الترمذي - ﷺ - : أن أهل العلم يأخذون بهذا الحديث ويعلمون به ثم ذكر أن إبراهيم بن يزيد ضعيف في حفظه ليس غير، قال - ﷺ - : ((هذا حديث حسن، والعمل عليه عند أهل العلم، أن الرجل إذا ملك زاداً أو راحلة وجب عليه الحج وإبراهيم هو ابن يزيد الخوزي المكي، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه))^(٤).

وقد ذكر ابن كثير أن إبراهيم بن يزيد لم يتكلم فيه أهل العلم إلا من جهة ضبطه وفي هذه الرواية فقط دون غيرها ثم أورد له من المتابعات^(٥)، فالحديث لا ينزل عن مرتبة الحسن وبذلك يصلح للاحتجاج.

ثالثاً: البلاغة في الآية

وردت في الآية الكريمة بعض الوجوه البلاغية منها:

- (١) البخاري ٧١/١ [كتاب الايمان - باب بني الإسلام على خمس برقم ٨، مسلم ٤٥/١ [كتاب الايمان - باب أركان الإسلام ودعائمه] برقم ١٦.
- (٢) ينظر: جامع البيان ١٦/٤-١٨، تفسير القرآن العظيم ٣٨٦/١.
- (٣) جامع البيان: ١٨/٤.
- (٤) سنن الترمذي ١٦٨/٣ [كتاب الحج - باب ما جاء في إيجاب الزاد والراحلة] برقم ٨١٣.
- (٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم ٣٨٥/١-٣٨٦.

(١)- اشتملت الآية على ضربين من التأكيد: أحدهما: أن الإبدال تنثية للمراد وتكرير له، والثاني: أن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الاجمال إيراد في صورتين مختلفتين^(١).

(٢)- وضع لفظ ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ مكان من لم يحجج تأكيداً لوجوبه وتشديداً على تاركه^(٢).

(٣)- اجتمع في هذه الآية الكريمة من فنون الاعتبار ما لا مزيد عليه وهي قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ﴾ حيث أوثرت صيغة الخبر الدالة على التحقيق وأبرزت في صورة الجملة الاسمية الدالة على الثبات والاستمرار على وجه يفيد أنه حق واجب لله سبحانه في ذم الناس^(٣).

(٤)- في قوله: ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ولم يقل عنه؛ لأن المستغني عن كل العالمين أولى أن يكون مستغنياً عن ذلك الإنسان الواحد وعن طاعته فكان ذلك أدل على السخط^(٤).

رابعاً: أسباب النزول

روي عن سفيان بن عيينة عن أبي نجیح عن عكرمة: لما نزلت ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾^(٥) قالت اليهود: فنحن مسلمون، فقال الله تعالى لنيه فحجهم فقال لهم النبي - ﷺ -: «حجوا» فقالوا: لم يكتب علينا وأبوا أن يحجوا، قال الله جل ثناؤه: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٦).

(١) الكشف ١/٣٩٠، التفسير الكبير ٨/١٦٦، محاسن التأويل ٤/٩٠٩.

(٢) إرشاد العقل السليم ١/٢٥٥، وينظر: التفسير الكبير ٨/١٦٦ ومحاسن التأويل ٤/٩٠٩.

(٣) إرشاد العقل السليم ١/٢٥٥.

(٤) الكشف ١/٩١، التفسير الكبير ٨/١٦٦.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

(٦) تفسير سفيان بن عيينة: ٢٢٥، جمع وتحقيق أحمد صالح محاري، مط المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط ١ - ١٩٨٣م، أحكام القرآن للشافعي ١/١١١، والحديث أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٤/٣٩٤ [كتاب الحج، باب إثبات فرض الحج]، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، دار الفكر - بيروت.

خامساً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: لما أوضح سبحانه وتعالى براءتهم من إبراهيم - ﷺ - لمخالفتهم إياه بعد دعواهم بهتاناً أنه على دينهم، وكانت المخالفة في الواجب أدل قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾^(١).

سادساً: الإعراب والقراءات

[١]- الإعراب:

(حج البيت) مصدر يقرأ بالفتح والكسر وهما لغتان، وقيل: الكسر اسم المصدر، وهو مبتدأ وخبره ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ والله يتعلق بالاستقرار في على تقديره استقر الله على الناس، ويجوز أن يكون الخبر لله وعلى الناس متعلق به إما حالاً وإما مفعولاً، ولا يجوز أن يكون (الله) حالاً لأن العامل في الحال على هذا يكون معنى، والحال لا يتقدم على العامل المعنوي^(٢).

(من) في موضع خفض على بدل البعض من الكل، هذا قول أكثر النحويين.

وأجاز الكسائي أن تكون (من) في موضع رفع، و(استطاع) شرط والجواب محذوف، أي: من استطاع إليه سبيلاً فعليه الحج^(٣).

[٢]- القراءات:

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة: (حج البيت) بفتح الحاء والباقون بكسرها، وقيل: الفتح لغة الحجاز، والكسر لغة نجد وهما واحد في المعنى. وقيل: هما جائزان مطلقاً في اللغة، مثل رَطَل، ورِطَل، وبَزَر وبِزَر وقيل: المكسورة اسم للعمل والمفتوحة مصدر^(٤).

(١) نظم الدرر: ٨/٥.

(٢) إعراب القرآن ٣٩٦/١، إملاء ما من به الرحمن ١٤٤/١.

(٣) إعراب القرآن ٣٩٦/١، مشكل إعراب القرآن ١٦٩/١، إملاء ما من به الرحمن ١٤٤/١.

(٤) ينظر: السبعة: ٢١٤، والحجة لأبي علي الفارسي ٣٨٠-٣٨١ والروضة في القراءات الاحدى عشرة: ٤٨٤، لأبي علي الحسن بن محمد المالكي، (ت ٤٣٨هـ)، تح مصطفى عدنان محمد سلمان، وهي أطروحة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية الآداب في الجامعة المستنصرية بإشراف =

سابعاً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة بعض الفوائد منها:

(١)- ذكر الله سبحانه وتعالى الحج بأبلغ ألفاظ الوجوب، تأكيداً لحقه وتعظيماً لحرمة وتقوية لفرضه فأتى بلام الإيجاب والإلزام، ثم أكد بقوله تعالى: (على) التي هي من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب، فإذا قال العربي: لفلان على كذا، فقد وكده وأوجهه^(١).

(٢)- ان الله تبارك وتعالى اختار البيت الحرام لفريضة الحج ذلك أنه قبله أهل التوحيد وهو أول المساحد على الإطلاق كما انه يقابل البيت المعمور في السماء فالبيت العتيق مطاف أهل الأرض والبيت المعمور مطاف أهل السماء^(٢).

(٣)- ان فيها إحياء بأن الناس جميعاً مطالبون بالإقرار بهذا الدين وتأدية فرائضه وشعائره والاتجاه والحج إلى بيت الله الذي يتوجه إليه المؤمنون، هذا وإلا فهو الكفر^(٣).

(٤)- يدل ظاهر الآية الكريمة على أن الحج لا يجب إلا مرة واحدة في العمر وهو رأي الجمهور إذ ليس في الآية ما يوجب التكرار^(٤).

(٥)- وجوب الحج على الفور لمن لم يكن له مانع يمنعه لقوله - ﷺ -: «من أراد الحج فليتعجل فإنه قد يمرض المريض وتضل الضالة وتعرض الحاجة»^(٥) (٦).

(٦)- في الآية رد على اليهود لما زعموا أنهم على ملة إبراهيم - ﷺ - فإن كانوا صادقين فليحجوا البيت الذي بناه إبراهيم ودعا الناس إليه^(٧).

=الأستاذ الدكتور نيهان ياسين الدليمي ١٩٩٩م، وحجة القراءات: ١٧٠، لأبي زرعة عبد الرحمن محمد بن زنجلة، تح سعيد الأفغاني، مط مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط ٤-١٩٨٤م.

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٢٨٤/١، الجامع لأحكام القرآن ١٤٢/٤ نيل المرام: ١٢٦.

(٢) روائع البيان ٤٠٩/١.

(٣) في ظلال القرآن ١٤/٤.

(٤) روائع البيان ٤١٥/١.

(٥) سنن ابن ماجه ٩٦٢/٢، [كتاب المناسك - باب الخروج إلى الحج] برقم ٢٨٨٣.

(٦) أيسر التفاسير ٣٥٠/١.

(٧) التسهيل لعلوم التنزيل ١١٤/١.

ثامناً: المعنى العام

تعد هذه الآية الكريمة هي الأصل في إثبات فرضية الحج، خامس الأركان التي يقوم عليها الإسلام، والحج حق واجب لله تعالى في رقاب الناس متى كانوا مستطيعين قادرين على أداء هذه الفريضة.

وقد أشارت الآية الكريمة في نهايتها إلى خطورة ترك هذه الفريضة مع الاستطاعة والقدرة عليها، بأن الله غني عن كل من كفر به سبحانه، وفي هذا من التغليظ والتهويل لأمر ترك فريضة الحج ما لا يخفى.

وإن فرض الله تبارك وتعالى حج هذا البيت على الناس لهو برهان ساطع ودليل قاطع على شرف هذا البيت وأحقيته بأن يكون قبلة للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها.

المطلب الثاني الطواف بالبيت

في هذا المطلب سنحلل قوله تعالى: ﴿وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾^(٢).

وستتعرف معاني الآيتين الكريمتين من خلال النقاط الآتية:

أولاً: معنى ﴿الْعَتِيقِ﴾ و﴿الْمَعْمُورِ﴾ في اللغة والغريب

(١)- (العتيق) في اللغة: الكريم الرائع من كل شيء، وهو القديم من كل شيء حتى قالوا: رجل عتيق أي: قديم، والبيت العتيق بمكة لقدمه؛ لأنه أول بيت وضع للناس^(٣).

(العتيق) في الغريب: المتقدم في الزمان والمكان أو الرتبة ولذلك قيل للقديم: عتيق، وللكريم عتيق، ولمن خلا عن الرق: عتيق، قال تعالى: ﴿وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ قيل: وصفه بذلك لأنه لم يزل معتقاً أن تسومه الجابرة صغاراً^(٤).

(٢)- (المعمور) في اللغة: عمر الرجل ماله وبيته يعمره عمارة وعموراً وعمراً: لزمه، ويقال لساكن البيت: عامر، والجمع عمار، والمعمور: المخدوم^(٥).

(المعمور) في الغريب: العمارة: نقيض الخراب: يقال: عمر أرضه: يعمرها عمارة. قال تعالى: ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٦) يقال: عمرته فعمر فهو

(١) سورة الحج، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الطور، الآية: ٤.

(٣) الصحاح مادة (عتق) ١٥٢١/٤.

(٤) ينظر: المفردات: ٥٤٥.

(٥) اللسان مادة (عمر) ٣١٠١/٤.

(٦) سورة التوبة، الآية: ١٩.

معمور^(١).

ثانياً: المراد من الطواف بهذه الآية الكريمة

مراحل الطواف للحج ثلاث:

(١)- طواف القدوم: وهو واجب عند المالكية وسنة في بقية المذاهب، روت عائشة - رضي الله عنها - : «أن رسول الله - ﷺ - أول شيء بدأ به حين قدم مكة أنه توضأ ثم طاف بالبيت»^(٢).

ويسقط عن المراهق وعن المكي وعن كل من يحرم بالحج من مكة.

(٢)- طواف الوداع: وهو مستحب عند المالكية وواجب عند بقية المذاهب، روي أن رسول الله - ﷺ - «أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض»^{(٣) (٤)}.

(٣)- طواف الإفاضة: وهو واجب لا يسقط بوجه من الوجوه، وهو الذي يكون بعد عرفة وسمي طواف الزيارة، وهذا هو الطواف المفترض في كتاب الله عز وجل وهو الذي يحل به الحاج من احرامه كله، وذهب الطبري إلى أنه لا خلاف بين أهل التأويل في ذلك^(٥).

ثالثاً: معنى (العتيق) عند المفسرين

ورد معنى (العتيق) عند المفسرين بعدة وجوه منها:

- (١)- القديم لأنه أول بيت وضع للناس. قاله الحسن، وابن زيد^(٦).
- (٢)- قال ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وقتادة: سمي عتيقاً لأن الله أعتقه من أيدي

(١) المفردات: ٥٨٦.

(٢) مسلم ٩٠٧/٢، [كتاب الحج - باب ما يلزم من طاف بالبيت وسعى] برقم ١٢٣٥.

(٣) البخاري ٤١٦/٤، [كتاب الحج - باب طواف الوداع] برقم ١٧٥٥.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٢/٥٠-٥١ وينظر: معالم التنزيل ١٥/٥، والأساس ٣٥٥٧/٧.

(٥) ينظر: جامع البيان ١٧/١٥٢، وأحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢٨٤، والمغني لابن قدامة ٣/٢٢٨، وبلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الامام مالك ١/٢٧٣ لأحمد بن محمد الصاوي، مط مصطفى الحلبي، الطبعة الأخيرة ١٩٥٢م. والفقہ الإسلامي وأدلته ٣/٢٢٧٢.

(٦) جامع البيان ١٧/١٥١، معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣/٤٢٤، التفسير الكبير ٢٣/٣٠.

الجبابة أن يصلوا إلى تخريبه فلم يظهر عليه جبار قط^(١) أخرج الترمذي عن ابن الزبير قال: قال رسول الله - ﷺ -: «إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار»^(٢).

فإن قيل فقد تسلط الحجاج عليه فالجواب: أنه ما قصد التسلط على البيت وإنما تحصن به عبدالله بن الزبير فاحتال لآخراجه ثم بناه^(٣).

(٣)- أنه أعتق من الغرق في زمن نوح، قاله عكرمة.

(٤)- وقيل: فعيل بمعنى مفعول أي معتق رقاب المذنبين^(٤).

(٥)- إنه لم يملكه أحد من الناس، قاله مجاهد^(٥).

(٦)- بمعنى الجيد من قولهم: عتاق الخيل وعتاق الطير، ذكره ابن جبير^(٦).

وقد رجح الإمام الطبري القول الأول؛ لأن أغلب معانيه عليه في الظاهر ثم عقب بقوله غير أن الذي روي عن ابن الزبير أولى بالصحة إن كان صحيحاً^(٧)، وحيث أنا نجد الإمام الترمذي - ﷺ - قد صحح حديث ابن الزبير فالذي يبدو لي رجحان هذا القول والله أعلم.

رابعاً: المراد بالبيت المعمور

ذكر الرازي - ﷺ - في (البيت المعمور) وجوهاً منها:

(١)- هو بيت في السماء العليا عند العرش ووصفه بالعمارة لكثرة الطائفين به من الملائكة ويؤيد هذا القول ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال في حديث الإسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة: «ثم رفع بي إلى البيت المعمور وإذا

(١) ينظر: جامع البيان ١٧/١٥١، ومعالم التنزيل ١٥/٥.

(٢) سنن الترمذي ٥/٣٢٤ [كتاب تفسير القرآن - باب من سورة الحج] برقم ٣١٧٠، قال أبو عيسى حديث حسن صحيح.

(٣) التفسير الكبير ٢٣/٣٠، وينظر: إرشاد العقل السليم ٤/٢١.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٣/٤٢٤، روح المعاني ١٧/١٤٧.

(٥) جامع البيان ١٧/١٥١، التسهيل لعلوم التنزيل ٣/٤٠، الكشف ٣/١٥٣.

(٦) الكشف ٣/١٥٣، روح المعاني ١٧/١٤٧.

(٧) ينظر: جامع البيان ١٧/١٥١.

هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم^(١) يعني: يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم.

(٢)- هو بيت الله الحرام وهو معمور بالحجاج الطائفين به العاكفين قال الحسن: يعمره الله كل سنة بستمائة ألف، فإن عجز الناس عن ذلك أتمه الله بالملائكة.

(٣)- البيت المعمور اللام فيه لتعريف الجنس كأنه يقسم بالبيوت المعمورة والعمائر المشهورة^(٢).

وأولى الوجوه والله أعلم الوجه الأول روي في الصحيحين.

خامساً: الإعراب

(اللام) لام الأمر، و﴿يَالْبَيْتِ﴾ متعلق ب﴿وَلَيَطُوفُوا﴾.

(العتيق) صفة مشبهة من عتق يعتق باب نصر، وزنه فاعيل^(٣).

سادساً: ما يستفاد من الآيتين

أفادت الآيتان الكريمتان الفوائد الآتية:

(١)- مشروعية الطواف.

(٢)- تخصيص ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ بالقسم به يدل على أنه ذو أمر عظيم^(٤).

(٣)- استدلال الآية على أن الطواف لا يجوز داخل البيت ولا في شيء من هوائه^(٥).

(٤)- في التعبير عن الطواف (بالتطوف) إشارة إلى الإكثار منه، وأنه أكثر من طواف واحد^(٦).

(١) البخاري ٤٤٥/٦ [كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة عليهم السلام] برقم ٣٢٠٧، مسلم ١٥٠/١، [كتاب الإيمان - باب الاسراء برسول الله ﷺ] برقم ١٦٤.

(٢) التفسير الكبير ٢٣٩/٢٨، وينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٧/٥٩-٦٠.

(٣) الجدول في إعراب القرآن ١١٣/٩.

(٤) إرشاد العقل السليم ١٠٩/٥.

(٥) الاكليل: ١٥٤.

(٦) التفسير القرآني للقرآن ١٧/١٠٢٧.

سابعاً: المعنى العام

حيث جرت سنة الله تبارك وتعالى في عباده أن يؤدوا التحية الشرعية عند دخول كل مسجد، وذلك لأداء الصلاة المشروعة لهذا الغرض وحيث أن البيت الحرام أسمى البيوت عند الله تعالى، وأعلاها مقاماً ومنزلة، فقد شاء سبحانه أن يجعل تحية هذا البيت خاصة به لا تتأتى فيما سواه من البيوت، ألا وهي الطواف بالكعبة المشرفة، فهو عمل لا يمكن تصور أدائه شرعاً إلا في هذا البيت، وفي تخصيص البيت الحرام بهذا من الفضل والشرف ما لا يخفى.

وتضمنت الآية الحث على الإكثار من الطواف أفاده قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾، وذلك إرشاد من الله تبارك وتعالى إلى عظيم ما يغنمه الطائفون من أجر عظيم وثواب جزيل، ولهذه المزية نعت سبحانه البيت بكونه بيتاً معموراً وذلك لكثرة من يعمره من الناس، والملائكة الكرام، بالطواف حوله، والعكوف عنده، والصلاة في رحابه.

المطلب الثالث

الهدى الذي يهدى للبيت

سنحلل في هذا المطلب قوله تعالى: ﴿لَكَرَّ فِيهَا مَنَفْعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْقَتِيقِ﴾^(١).

وستعرف معاني الآية الجليلة من خلال النقاط الآتية:

أولاً: معنى ﴿مَحَلُّهَا﴾ في اللغة والغريب

(١)- (محلها) في اللغة: قال الأزهري: ويكون المَحَلُّ الموضع الذي يُحَلُّ به ويكون مصدراً وكلاهما بفتح الحاء؛ لأنهما من حَلَّ يُحَلُّ فأما المحل بكسر الحاء فهو من حَلَّ يَحِلُّ أي: وَجَبَ يَجِبُ، قال الله - جل وعز -: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾^(٢): أي الموضع الذي يَحِلُّ فيه نحره والمصدر من هذا بالفتح أيضاً، والمكان بالكسر، قال ابن الأثير: وهو بكسر الحاء يقع على الموضع والزمان^(٣).

(٢)- (محلها) في الغريب: أصل الحَلَّ: حل العقدة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾^(٤) وحللت: نزلت، أصله من حَلَّ الأحمال عند النزول، ثم جرد استعماله للنزول، والمحلة: مكان النزول، ومن الحلول أَحَلَّت الشاة: نزل اللبن في ضرعها^(٥).

(١) سورة الحج، الآية: ٣٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٣) تهذيب اللغة: ٤٣٦/٣، وينظر: اللسان مادة (حلل) ٩٧٢/٢-٩٧٣.

(٤) سورة طه، الآية: ٢٧.

(٥) المفردات: ٢٥١.

ثانياً: تحليل الألفاظ عند المفسرين

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ معناه: البدن أو النعم المهداة أو مطلقاً^(١) والأولى أن تحمل الشعائر على الهدى الذي فيه منافع إلى وقت النحر وهو قول جمهور المفسرين، وعلى هذا فإن المنافع تفسر حيثئذ بالدر والنسل والأوبار وركوب ظهورها^(٢).

﴿إِلَّا أَجَلَ مُسَكًى﴾ إلى أن تنحر، وبه قال عطاء، أو انقضاء أيام الحج التي ينسك عندها^(٣).

﴿ثُمَّ مَحَلَّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي وقت حلول نحرها بانتهاكم بها إلى البيت العتيق، أي إلى فنائه وهو الحرم كما قال تعالى: ﴿هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ﴾^(٤) إذ البيت وما قاربه لا يذكي فيه^(٥).

ثالثاً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى في الآيات السابقة تعظيم ما يهدي إلى بيت الله الحرام، وأن تعظيمها من تقوى القلوب الذي يدل على الإخلاص، فإن قال قائل: ما الحكمة في أنه تعالى بالغ في تعظيم ذبح الحيوانات هذه المبالغة؟ فالجواب: هو هذه الآية الكريمة ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾^(٦) الآية.

رابعاً: الإعراب

(لكم) متعلق بخبر مقدم (فيها) متعلق بحال من المنافع (إلى أجل) متعلق بنعت لمنافع تقديره مؤخرة أو مؤجلة (إلى البيت) متعلق بخبر محذوف للمبتدأ ﴿مَحَلَّهَا﴾، وجملة: (لكم فيها منافع) لا محل لها استئنافية أو تعليلية وجملة: ﴿مَحَلَّهَا إِلَى

(١) نظم الدرر ٤٦/١٣.

(٢) التفسير الكبير ٣٣/٢٣، وينظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٢٨٦، وروح المعاني ١٧/١٥٠.

(٣) جامع البيان ١٧/١٥٨-١٥٩.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

(٥) ينظر: التفسير الكبير ٣٣/٣٤، وفوائد في مشكل القرآن: ١٩٢، لعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ) تح د. سيد رضوان علي، مط دار الشروق جده، ط ٢-١٩٨٢م.

(٦) التفسير الكبير ٢٣/٣٢-٣٣.

الْبَيْتِ ﴿ لا محل لها معطوفة على الاستئنافية (١) .

خامساً: ما يستفاد من الآية

يستفاد من الآية الكريمة ما يأتي:

(١) - جواز الانتفاع بالبدن - الهدايا - بركوبها وشرب لبنها والحمل عليها إلى غاية نحرها بالحرم (٢)، وفي الصحيحين عن أبي هريرة ((أن رسول الله - ﷺ - رأى رجلاً يسوق بدنه قال: اركبها قال: إنها بدنة فقال: اركبها قال: إنها بدنة قال: اركبها ويلك في الثانية أو الثالثة)) (٣).

(٢) - عموم الآية يقتضي أن يكون محل سائر الهدايا الحرم ولا يجزئ في غيره إذ لم تفرق بين شيء منها (٤).

سادساً: المعنى العام

إن من معالم الحج وشعائره إهداء الهدى إلى البيت الحرام وهو ما يهدى إلى الحرم من النعم (الإبل والبقر والغنم)، فقد ورد أن رسول الله - ﷺ - أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب (٥)، وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطي فيتصدق بلحومها وبجلالها ويعتقد أن طاعة الله في التقرب بها وإهدائها إلى بيته المعظم وأمر عظيم لا بد أن يقام به ويسارع فيه، وبعد أن ذكر الله تبارك وتعالى في الآيات السابقة أمر الهدى الذي يهدى للبيت الحرام من أن يذكروا اسم الله عليه وأن يأكلوا منها ويطعموا البائس الفقير، قفى على ذلك بيان أن في هذه الهدايا منافع من الدر والصوف والنسل إلى أجل مسمى وهو أن تنحر ثم تؤكل ويتصدق بلحمها، ويبيّن أن مكان حل نحرها عند البيت العتيق أي عند الحرم جميعه،

(١) الجدول في إعراب القرآن ١١٣/٩.

(٢) أيسر التفاسير ٤٧٣/٣.

(٣) البخاري ٣٥٣/٤ [كتاب الحج - باب ركوب البدن] برقم ١٦٨٩، مسلم ٩٦٠/٢ [كتاب الحج - باب جواز ركوب البدنة] برقم ١٣٢٢.

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٢٤٣/٣.

(٥) مسند الإمام أحمد ٢٢٨، برقم ٢٤٢٨.

إذ إن الحرم كله في حكم البيت الحرام^(١) وهذه المناسك والشعائر ما هي إلا رموز تعبيرية عن التوجه إلى رب البيت وطاعته فهي التي تذكر المسلمين بعهد إبراهيم - ﷺ - وطاعته وإنابته وتوجهه إلى الله فهي سلسلة لعبادة قديمة وهذه الأنعام التي تتخذ هديا ينحر في نهاية الإحرام يجوز لصحابها الانتفاع بها إن كان في حاجة إليها يركبها، أو في حاجة إلى ألبانها يشربها حتى تبلغ محلها - أي مكان حلها - وهو البيت العتيق ثم تنحر هناك ليؤكل منها ويطعم البائس والفقير.

(١) تفسير المراغي ١٧/١٠٩.

المطلب الرابع السعي بين الصفا والمروة

سنحلل في هذا المطلب قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾^(١).

وستتعرف معاني الآية الكريمة ومقاصدها في النقاط الآتية :

أولاً: تحليل الألفاظ

(١)- (الصفا) في اللغة: الحجارة ويقال للحجارة الملس الواحدة صفاة مثل حصى حصاة، ومنه الصفا موضع بمكة^(٢)، قال ابن سيده: الصفا الحجر الصلد الضخم الذي لا يثبت شيئاً^(٣).

(الصفا) في الغريب: أصل الصفاء: خلوص الشيء من الشوب، ومنه: الصفا للحجارة الصافية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ وذلك اسم لموضع مخصوص^(٤).

(٢)- (المروة) في اللغة: المرو: الحجارة البيض الواحدة مروة وسمي بالواحدة الجبل المعروف بمكة^(٥) وهي حجارة بيض براق، وقيل: هي التي يقدح منها النار، ومروة المسعى التي تذكر مع الصفا وهي أحد رأسيه اللذين

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

(٢) المصباح مادة (صفو) ١/١٨٣.

(٣) اللسان مادة (صفا) ٤/٢٤٦٩.

(٤) المفردات: ٤٨٧-٤٨٨.

(٥) المصباح مادة (مرا) ٢/١١٨.

ينتهي السعي إليهما^(١).

(٣) - (اعتمر) في اللغة: أصله من الزيارة، والعمرة مأخوذة من الاعتمار، قال الزجاج: معنى العمرة في العمل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة فقط، وتسمى بالحج الأصغر^(٢).

(٤) - (الجناح) في اللغة: الميل إلى الإثم، وقيل: هو الإثم عامة، وسمي بذلك لميله عن الحق وقيل في قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، أي: لا إثم عليكم ولا تضيق^(٣).

(الجناح) في الغريب: الحرج والاثم من قولهم: جنح لكذا أي: مال إليه كأن صاحبه مال إلى الباطل أو لأن الناس يميلون إلى صاحبه بالمطالبة^(٤).

(الجناح) في الوجوه والنظائر: يأتي في القرآن على عدة معان منها^(٥):

أ- الجانب: ومنه قوله تعالى: ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾^(٦).

ب- الجناح بعينه: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾^(٧).

ج- الإثم: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾^(٨).

د- اليد: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾^(٩) عبارة عن اليد.

هـ- الميل: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾^(١٠).

(١) اللسان مادة (مرا) ٦/٤١٨٨.

(٢) اللسان مادة (عمر) ٤/٣١٠٢، وينظر: المصباح مادة (عمر) ٢/٤١.

(٣) اللسان مادة (جنح) ١/٦٩٨، وينظر: مقاييس اللغة مادة (جنح) ١/٤٨٤.

(٤) غرائب القرآن ٢/٥٦.

(٥) إصلاح الوجوه والنظائر: ١٠٩.

(٦) سورة الاسراء، الآية: ٢٤.

(٧) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٨) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

(٩) سورة القصص، الآية: ٣٢.

(١٠) سورة الأنفال، الآية: ٦١.

ثانياً: البلاغة في الآية

وردت في الآية بعض الوجوه البلاغية منها:

أ- قوله تعالى: ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي من شعائر دين الله ففيه إيجاز بالحذف^(١).

ب- قوله تعالى: ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ عبر عن ذلك بالشكر مبالغة في الإحسان على العباد فأطلق الشكر وأراد به الجزاء بطريق المجاز^(٢)، قال ابن عاشور: ((والأظهر عندي أن (شاكراً) هنا استعارة تمثيلية شبه شأن الله في جزاء العبد على الطاعة بحال الشاكر لمن أسدى إليه نعمة وفائدة هذا التشبيه تمثيل تعجيل الثواب وتحقيقه لأن حال المحسن إليه أن يبادر بشكر النعمة))^(٣).

ثالثاً: تحليل الألفاظ عند المفسرين

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَصْفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ هما الجبلان المسميان بهذين الاسمين اللذان في حرمه دون سائر الصفا والمروة، ولذلك أدخل فيهما الألف واللام ليعلم عباده أنه عنى بذلك الجبلين المعروفين بهذين الاسمين دون سائر الصفا والمرو^(٤).

وقيل سمي (الصفا) لأنه جلس عليه آدم - ﷺ - صفي الله تعالى، وسمي (المروة) لأنه جلست عليه امرأته حواء^(٥).

﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ من أعلام طاعته، فاما أن نحمل الشعائر على العبادات أو على النسك، أو نحملها على مواضع العبادات والنسك فلا يستقيم ظاهر الكلام إلا إذا حملنا الشعائر على مواضع العبادات والنسك؛ لأن هذين الجبلين يمكن أن يكونا موضعين للعبادات والمناسك^(٦).

﴿أَوْ أَعْتَمَرَ﴾ أي زار، قال القفال: والأشبه بالعمرة إذا أضيف إلى البيت أن

(١) صفوة التفاسير ١٠٩/١.

(٢) إرشاد العقل السليم ١٤٠/١.

(٣) التحرير والتنوير ٦٥/٢.

(٤) جامع البيان ٤٤/٢.

(٥) روح المعاني ٢٥/٢.

(٦) ينظر: التفسير الكبير ١٧٧/٤-١٧٨.

يكون بمعنى الزيارة؛ لأن المعتمر يطوف بالبيت، وبالصفا والمروة ثم ينصرف كالزائر^(١).

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ أي لا إثم عليكم ولا حرج ولا تضيق في السعي بين الصفا والمروة، قال ابن العربي: ((وتحقيق القول فيه أن قول القائل: لا جناح عليك أن تفعل: إباحة الفعل وقوله: لا جناح عليك ألا تفعل إباحة لترك الفعل، فلما سمع عروة - رضي الله عنه - قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قال: هذا دليل على أن ترك الطواف جائز، ثم رأى الشريعة مطبقة على أن الطواف لا رخصة في تركه، فطلب الجمع بين هذين المتعارضين فقالت له عائشة - رضي الله عنها -: ليس قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ دليل على ترك الطواف، إنما يكون الدليل على تركه لو كان (فلا جناح عليه ألا يطوف) فلم يأت هذا اللفظ لإباحة ترك الطواف، ولا فيه دليل عليه وإنما جاء لإفادة إباحة الطواف لمن كان يتحرج منه في الجاهلية أو لمن كان يطوف به في الجاهلية قصداً للأصنام التي كانت فيه، فأعلمهم الله تعالى أن الطواف ليس بمحذور إذا لم يقصد الطائف قصداً باطلاً^(٢).

﴿يَطَّوَّفُ﴾ أصلها يتطوف فأبدلت التاء طاء، وأدغمت في الطاء فصارت ﴿يَطَّوَّفُ﴾ والتطوف بالشيء كالطواف به، ومعناه: الإلمام بالشيء، وقد فسر النبي - صلى الله عليه وسلم - الطواف بالنسبة للكعبة بالدوران حولها سبعة أشواط، وفسره بالنسبة للصفا والمروة بالسعي بينهما سبعة أشواط كذلك^(٣).

رابعاً: أسباب النزول

وردت في سبب نزول هذه الآية آثار منها:

(١) - عن عائشة - رضي الله عنها - أن عروة بن الزبير قال لها: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فما أرى على أحد شيئاً أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة: بشئ ما قلت يا ابن أختي، إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت (فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما)

(١) الباب في علوم الكتاب ٣/٩٥.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤٧/١، وينظر: روائع البيان ١/١٣٥.

(٣) ينظر: التفسير الوسيط ١/٤١٧-٤١٨، وتفسير المنار ٢/٤٥.

ولكنها إنما نزلت لأن الأنصار قبل أن يُسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفاء والمروة فسألوا عن ذلك رسول الله - ﷺ - فقالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قالت عائشة: ثم قد سن رسول الله - ﷺ - الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما^(١).

(٢) - عن أنس - رضي الله عنه - أنه سئل عن الصفا والمروة فقال: ((كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾))^(٢).

(٣) - وقال عمرو بن حبشي: سألت ابن عمر عن هذه الآية فقال: انطلق إلى ابن عباس فسله فإنه أعلم من بقى بما أنزل على محمد - ﷺ - ، فأتيته فسألته، فقال: كان على الصفا صنم على صورة رجل يقال له أساف، وعلى المروة صنم على صورة امرأة تدعى نائلة، زعم أهل الكتاب أنهما زنيا في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين، ووضعهما على الصفا والمروة ليعتبر بهما، فلما طالت المدة عبدا من دون الله تعالى، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بينهما مسحوا الوثنيين، فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام كره المسلمون الطواف لأجل الصنمين، فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٣).

خامساً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها ان الله تعالى بين أنه إنما حول القبلة إلى الكعبة، ليتم انعامه على محمد - ﷺ - وأمه بإحياء شرائع إبراهيم - عليه السلام - ودينه، وكان السعي بين الصفا والمروة من شعائر إبراهيم على ما ذكر في قصة بناء الكعبة، وسعي هاجر بين الجبلين، فلما كان الأمر كذلك ذكر الله تعالى هذا الحكم عقيب تلك الآية. والأمر الآخر: أنه تعالى لما قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ إلى قوله

(١) ينظر: لباب النقول: ٢٢، وتفسير القرآن العظيم ١/١٩٨-١٩٩.

(٢) لباب النقول: ٢٢-٢٣، والحديث أخرجه البخاري [كتاب تفسير القرآن - باب قوله: إن الصفا والمروة من شعائر الله] برقم ٤٤٩٦.

(٣) أسباب النزول: ٢٨، العجائب في بيان الأسباب: ٢٩٥، لابن حجر العسقلاني، تح عبد الحكيم الأنيس، وهي أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية العلوم الإسلامية جامعة بغداد، بإشراف الأستاذ الدكتور محيي هلال السرحان ١٩٩٥م. والحديث لم أهدت إليه بهذا اللفظ.

تعالى: ﴿وَشِيرِ الصَّابِرِينَ﴾ قال: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ وإنما جعلهما كذلك لأنهما من آثار هاجر واسماعيل - عليهما السلام - مما جرى عليهما من البلوى، واستدلوا بذلك على أن من صبر على البلوى لا بد وأن يصل إلى أعظم الدرجات وأعلى المقامات^(١)، كما أنه لما أثنى سبحانه وتعالى على الصابرين وكان الحج من الأعمال الشاقة المفنية للمال والبدن وهو أحد أركان الإسلام ناسب ذلك ذكر هذه الآية بعد ذلك^(٢).

سادساً: الإعراب والقراءات

[١]- الإعراب:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا﴾ اسم إن وفي الكلام حذف مضاف تقديره: إن سعي الصفا، ﴿وَالْمَرْوَةَ﴾ معطوف على الصفا، ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ خبر إن، ﴿فَمَنْ﴾ في موضع رفع بالابتداء وهي شرطية، و﴿حَجَّ﴾ في محل جزم فعل الشرط، وجواب الشرط ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾^(٣).

[٢]- القراءات:

أ- قرأ ابن عباس وأبي وابن مسعود وأنس وعطاء وغيرهم: (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ إِلَّا يَطُوفُ بِهِمَا)^(٤)، وقد رد الإمام القرطبي هذه القراءة فقال: ((إن ذلك خلاف ما في المصحف ولا يترك ما قد ثبت في المصحف إلى قراءة لا يدرى أصحت أم لا، وكان عطاء يكثر الإرسال عن ابن عباس من غير سماع، والرواية في هذا عن أنس قد قيل أنها ليست بالمضبوطة أو تكون لا زائدة للتوكيد...))^(٥).

ب- قرأ حمزة والكسائي ويعقوب والأعمش ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ بالياء مجزوماً على أنه فعل مضارع إلا أن التاء أدغمت في الطاء لتقاربهما؛ حيث تقاربا هنا مخرجاً^(٦).

(١) التفسير الكبير ١٧٦/٤.

(٢) البحر المحيط ٤٥٦/١.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢٧٣/١، وينظر: إملاء ما من به الرحمن ٧٠/١ والجدول في إعراب القرآن ٣١٦/١.

(٤) ينظر: مختصر في شواذ القراءات: ١١، والمحتسب ١١٦/١، والكشاف ٢٠٨/١، والتفسير الكبير ١٨١/٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٨٢/١.

(٦) ينظر: السبعة: ١٧٢، والحجة لابن خالويه ٩٠، والحجة لابن زنجلة: ١١٨، والدقائق =

سابعاً: مشروعية السعي بين الصفا والمروة

اختلف الفقهاء في السعي بين الصفا والمروة فقال الشافعي وابن حنبل: بأنه ركن وهو المشهور من مذهب مالك، وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والشعبي ليس بركن ويقوم الدم مقامه، وذكر القرطبي - رحمه الله - أنه قول لمالك، وقيل: أنه تطوع (سنة) لا يجب بتركه شيء وهو مذهب ابن عباس وأنس - رضي الله عنه - ورواية عن الإمام أحمد.

والصحيح ما ذهب إليه أصحاب القول الأول وحثهم في ذلك حديث جابر انطويل وفيه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ثم خرج من باب الصفا، وهو يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ثم قال: «نبدأ بما بدأ الله به»^(١) وفي رواية النسائي: «فابدأوا بما بدأ الله به»^(٢).

وأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - الصحابة بأن يقتدوا به - صلى الله عليه وسلم - فقال: «لِتَأْخُذُوا عَنِّي نَسِيَكُكُمْ»^(٣) والاقْتِدَاءُ بالرسول - صلى الله عليه وسلم - واجب فدل على أنه ركن^(٤).

ثامناً: دلالة الآية وما يستفاد منها

إن الدارس للآية الكريمة يجد أن الآية دلت وأفادت القواعد الآتية:

(١)- دلت الآية الكريمة على أن السعي قربة لله تبارك وتعالى؛ لأن الشعائر هي معالم الطاعات والقرب^(٥).

=المحكمة في شرح المقدمة الجزرية: ٧٠، لتركيا بن محمد الأنصاري، (ت ٩٢٦هـ) تح الدكتور نسيب نشاوي، مط دار المكتبي دمشق - سوريا، ط ٢ - ١٩٩٨م.

(١) سنن أبي داود ٤٥٥/٢ [كتاب المناسك - باب صفة حجة النبي ﷺ] برقم ١٩٠٥، الترمذي ٢٠٧/٣ [كتاب الحج - باب ما جاء إنه يبدأ بالصفا قبل المروة] برقم ٨٦٢.

(٢) سنن انسائي ٢٣٦/٥ [كتاب الحج - باب القول بعد ركعتي الطواف] برقم ٢٩٦٢.

(٣) مسلم ٩٤٣/٢ [كتاب الحج - باب استحباب رمي جمرة العقبة] برقم ١٢٩٧.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤٨/١، وينظر: المغني ١٩٢/٣ - وما بعدها، وفتح القدير، لابن الهمام ١٢١/٢، ومغني المحتاج ٥١٣/١، وبلغة السالك ٢٧٣/١، والإمام الشعبي فقيهاً: ٢٦٧، للسيد حمدي فهد محمد الكبيسي، وهي أطروحة ماجستير مقدمة إلى كلية العلوم الإسلامية - جامعة بغداد، بإشراف الأستاذ المساعد فرج توفيق الوليد، ١٩٩٠م.

(٥) أحكام القرآن للخصاص ٩٨/١.

(٢)- السعي بين الصفا والمروة إحياء لحادثة تاريخية وقعت لأم إسماعيل - ﷺ - ، وقد روى المفسرون روايات تفيد أن هذا الطواف متصل بأولية سكنى إسماعيل وأمه - ﷺ - في وادي مكة حيث عطش الصبي فأخذت تركض بحثاً عن الماء بين الصفا والمروة حتى فجر الله لها زمزم^(١).

(٣)- وجوب السعي بين الصفا والمروة لكل من طاف بالبيت حاجاً أو معتمراً^(٢).

(٤)- تمسح المشركين بالأصنام في الجاهلية عند السعي لا يمنع المؤمنين من السعي بينهما ومن هنا فلا حرج في الصلاة في كنيسة حولت مسجداً ولا يضر كونها كانت معبداً للكفار^(٣).

(٥)- الترغيب في فعل الخيرات من غير الواجبات؛ وذلك من سائر النوافل كالطواف والصلاة والصيام والصدقات والرباط والجهاد^(٤).

تاسعاً: المعنى العام

في هذه الآية الكريمة بين الله تبارك وتعالى للمؤمنين بأن الصفا والمروة من علامات دين الله، التي جعلها لعباده معلماً ومشعراً يؤدون العبادة عندها، من دعاء وذكر وسائر أنواع القربات، وان هذه العبادة هي منسك من مناسك الحج، ينبغي أن لا يفرط فيها وقد أمر الله تعالى خليله إبراهيم - ﷺ - بها حين سأله أن يريه مناسك الحج، فهي إذاً من المناسك التي كان عليها إبراهيم - ﷺ - ، الذي أحى النبي - ﷺ - ملته، وجعلت الصلاة إلى قبلته، فالذي يقصد البيت الحرام للحج أو الزيارة لا يتخرج من الطواف بين الصفا والمروة، إذ لا إثم عليه ولا حرج فهو إنما يسعى لله تعالى وطلباً لثوابه، أما الكفار الذين كانوا يطوفون بينهما فإنهم كانوا يطوفون بهما كفرأً، وختمت بشكر الله عز وجل للمحسنين وأن من تطوع بالحج والعمرة بعد الفريضة أو سائر العبادات فإن الله تعالى لا يضيع أجر المحسنين.

(١) أخرجه البخاري ٤٦/٧ [كتاب بدء الخلق - باب يزفون النسلان في المشي] برقم ٣٣٦٤، وهذا جزء من حديث طويل، وينظر: التفسير الحديث ٢٥٨/٧.

(٢) روائع البيان ١٤٢/١.

(٣) روائع البيان ١٤٢/١، أيسر التفاسير ١٣٧/١.

(٤) أيسر التفاسير ١٣٧/١.

الباب الثاني

بيوت العالمين

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول : بيوت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

الفصل الثاني : بيوت الصالحين.

الفصل الثالث : بيوت الطالحين.

الفصل الرابع : بيوت بقية المخلوقات.

الفصل الأول

بيوت الأنبياء ﷺ

وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول : بيوت النبي - ﷺ -

المبحث الثاني : بيوت بقية الأنبياء - ﷺ - وأقوامهم.

تمهيد

إن بيوت الأنبياء - صلوات ربي وسلامه عليهم - هي البيوت النموذجية لكل بيوت المسلمين التي يتكون منها المجتمع في الأمة المسلمة، فهي البيوت المطهرة من الأرجاس والأدناس وفي رحابها تنزل الآيات بواسطة وحي السماء، وهي مأوى أهل الصلاح ومرجعهم في أمورهم كلها، ولهذا وغيره كانت عناية القرآن الكريم جليلة واضحة في إظهار مقومات هذه البيوت ومن ثم دعوة الناس إلى التأسى والتزام هذه المقومات، وهذا ما سنتعرفه من خلال المبحثين الآتيين:

المبحث الأول

بيت النبي - ﷺ -

وفيه أربعة مطالب:

- المطلب الأول: خروج النبي - ﷺ - من بيته للجهاد.
- المطلب الثاني: أمهات المؤمنين في بيت النبي - ﷺ -
- المطلب الثالث: مفهوم أهل البيت.
- المطلب الرابع: الأدب مع بيت النبي - ﷺ -

المطلب الأول

خروج النبي - ﷺ - من بيته للجهاد

سنحلل في هذا المطلب قوله تعالى:

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾^(١).

وستتعرف تحليل الآية في النقاط الآتية:

أولاً - أسباب نزول الآية

عن أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله: - ﷺ - ونحن بالمدينة، وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت فقال: «ما ترون فيها لعل الله يغنمناها ويسلمنا»، فخرجنا فسرنا يوماً أو يومين فقال: «ما ترون فيهم؟» فقلنا يا رسول الله، ما لنا طاقة بقتال القوم إنما أخرجنا للغير، فقال المقداد: لا تقولوا كما قال قوم موسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾^(٢) فأنزل الله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾^(٣).

ثانياً - الوجوه الواردة في (الكاف) في هذه الآية

اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ فقالوا إنه يقتضي تشبيه شيء بهذا الإخراج وذكروا فيه وجوهاً:

(١) - لما رأى النبي - ﷺ - كثرة المشركين وقلة المسلمين يوم بدر قال: «من قتل قتيلاً فله سلبه ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا، فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات، وأما الشباب فسارعوا إلى القتل، والغنائم، فقالت المشيخة للشبان: كنا رداءً لكم، لو

(١) سورة الأنفال، الآية: ٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٢٨٧، لباب النقول: ١١٤، والحديث أخرجه نحوه البخاري ١٣ / ٨ [كتاب المغازي - باب قوله تعالى: ﴿إِذَا تَسَيَّعْتُمْ رَيْبَكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ﴾] برقم ٣٩٥٢.

انهزمتهم لفتنم إلينا فلا تذهبوا بالمغنم ونبقى، فأبى الفتیان وقالوا جعله -ﷺ- لنا فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(١)،^(٢) وأيضاً حين خرج الرسول -ﷺ- إلى القتال يوم بدر كانوا كارهين لتلك المقاتلة^(٣)، فالجامع بين الحالتين أن كلاً كان فيه كراهة لبعض المؤمنين بحسب الصورة الظاهرية، وفي الواقع ونفس الأمر خير ومصلحة للعموم في كل؛ لأن الأول ترتب عليه إصلاح ذات البين والثاني ترتب عليه عز الإسلام والمسلمين^(٤).

(٢)- أن يكون التقدير بأن الأنفال ثابتة لله وإن كرهوا، كما ثبت الحكم بإخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون^(٥).

(٣)- قال الأخفش: يجوز أن تكون على قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾^(٦)، ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾^(٧).

(٤)- إن الكاف لها تعلق بما بعدها، وهو قوله تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ والتقدير: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم يكرهون القتال فهم يجادلونك فيه، قاله مجاهد^(٨).

وقد ذكر المفسرون وجوهاً كثيرة بلغت العشرين، وممن استقصاها ابن عادل، قال ابن عاشور: ((وهي لا تخلوا من تكلف، وبعضها متحد المعنى وبعضها مختلفه))^(٩).

واختار أكثر المفسرين الوجه الأول، منهم الزمخشري وهو قول الفراء وقد شرحه ابن عطية بنحو ما تقدم من الألفاظ^(١٠).

(١) سورة الأنفال، الآية: ١.

(٢) سنن أبي داود ٧٠/٢، [كتاب الجهاد - باب في النفل] برقم ٢٣٦٠.

(٣) ينظر: التفسير الكبير ١٥/١٢٥، واللباب في علوم الكتاب ٩/٤٥٢.

(٤) حاشية الصاوي على الجلالين ١٠١/٢-١٠٢.

(٥) الكشف ١٩٧/٢، إرشاد العقل السليم ٢٢٧/٢.

(٦) سورة الأنفال، الآية: ٤.

(٧) معاني القرآن للأخفش ٥٤١/٢.

(٨) ينظر: جامع البيان ٩/١٨١، وتفسير القرآن العظيم ٢/٢٨٧.

(٩) التحرير والتنوير ٩/٢٦٤.

(١٠) ينظر: معاني القرآن للفراء ١/٤٠٣، والكشاف ٢/١٩٧، والمححر الوجيز ٦/٢١٩، والتفسير =

ثالثاً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: لما كان ترك الدنيا شديداً على النفس، وترك النزاع بعد الانتساب فيه أشد، شرع يذكر لهم ما كانوا له كارهين ففعله بهم، وأمرهم به لعلمه بالعواقب، فحمدوا أثره ليكون أدعى لتسليمهم لأمره وازدجارهم بزجره، فشبه حال كراحتهم لترك مرادهم في الأنفال بحال كراحتهم لخروجهم معه، ثم بحال كراحتهم للقاء الجيش دون العير، ثم انهم رأوا أحسن العاقبة في كلا الأمرين فقال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ (١).

رابعاً: الوجوه البلاغية

من أهم الوجوه البلاغية التي ذكرها أهل العلم في هذه الآية هي:

- (١)- في الآية تشبيه حال بحال أو قصة بقصة فالمشبه قسم الغنائم عموماً والمشبه به الخروج لقتال ذي الشوكة وفي كل كان فيه كراهة لبعض المؤمنين في بادئ الأمر فكانت النتيجة فيها خير كثير في كلا الأمرين، فالتشبيه تمثيلي (٢).
- (٢)- تأكيد خبر كراهية فريق من المؤمنين بأن ولام الابتداء مستعمل في التعجب من شأنهم بتنزيل السامع غير المنكر لوقوع الخبر منزلة المنكر؛ لأن وقوع ذلك مما شأنه أن لا يقع، إذ كان الشأن اتباع ما يحبه الرسول - ﷺ - أو التفويض إليه، وما كان لهم أن يكرهوا لقاء العدو، ويستلزم هذا التنزيل التعجب من حال المخبر عنهم بهذه الكراهية فيكون تأكيد الخبر كناية عن التعجب من المخبر عنهم (٣).

خامساً: أوجه الاعراب

في موضع الكاف أوجه منها:

- (١)- صفة لمصدر محذوف، ثم في ذلك المصدر أوجه مقدرة منها:
أ- ثابتة لله ثبوتاً كما أخرجك.

= الكبير ١٥/١٢٥، واللباب ٨/٤٥٢، وروح المعاني ١٠/١٦٩.

- (١) نظم الدرر ٨/٢٢٢-٢٢٣.
- (٢) ينظر: حاشية الصاوي ٢/١٠١، والتحرير والتنوير ٩/٢٦٣-٢٦٤.
- (٣) التحرير والتنوير ٩/٢٦٦-٢٦٧.

ب- وأصلحوا ذات بينكم إصلاحاً كما أخرجك، وفي هذا رجوع من خطاب الجمع إلى الواحد.

ج- أطيعوا الله طاعة كما أخرجك.

د- يتوكلون توكلأً كما أخرجك.

هـ- أولئك هم المؤمنون حقاً مثلما أخرجك، وهو هنا صفة لحق.

و- يجادلونك جدالاً كما أخرجك.

ز- وهم كارهون كراهية كما أخرجك.

(٢)- كون الكاف بمعنى الواو التي للقسم، وهو بعيد و(ما) هنا مصدرية و(بالحق) حال و﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾ الواو فيها واو الحال^(١).

سادساً: استجابة النبي -ﷺ- لأمر الله في خروجه من بيته

إن خروج رسول الله -ﷺ- من بيته الذي هو في المدينة أو المدينة نفسها كان بأمر من الله، وكان رسول الله -ﷺ- سابقاً لتنفيذ أمر الله وقد ذكر صاحب كتاب الانتصاف عن جده أن المراد من قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ ((تشبيه اختصاصه عليه الصلاة والسلام بالأنفال وتفويض أمرها إلى حكمه من حيث الإثابة والجزاء، بإخراجه من بيته مطيعاً لله تعالى سامعاً لأمره راضياً بحكمه على كراهة المؤمنين لذلك في الطاعة، فشبّه الله تعالى ثوابه بهذه المزية بطاعته المرضية، فكما بلغت طاعته للغاية في نوع الطاعات فكذلك بلغت إثابة الله له الغاية في جنس المثوبات))^(٢).

والحقيقة أن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ لا تقدح ولا تقلل من شأن الصحابة فإن خروج الصحابة مع النبي -ﷺ- في بداية الأمر لأجل أن يغنموا القافلة فلم يكن في خروجهم كراهة وإنما عرضت لهم الكراهة بعد الخروج قريب بدر حيث أشار عليهم النبي -ﷺ- بقتال قريش فكره المسلمون القتال لا عصياناً

(١) ينظر: إملاء ما من به الرحمن ٣/٢، البحر المحيط ٤/٤٥٩-٤٦٣، والدر المصون ٣/٣٩٤-٣٩٦.

(٢) الانتصاف ٢/١٩٧، للإمام أحمد بن المنير الاسكندري، مطبوع بهامش الكشف.

بل بالطبع حيث خرجوا من غير استعداد للقتال لا بعدد ولا بعدة وإنما كان خروجهم لأخذ الغنيمة، فقلوه: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾ حال مقدرة لأن الكراهة لم تقارن الخروج، وإن كراهية القتال حاصلة لبعضهم لا لكلهم، فكراهتهم إما لعدم الاستعداد للقتال أو للميل للغنيمة أو للنفرة الطبيعية عنه، وهذا مما لا يدخل تحت القدرة والاختيار^(١).

سابعاً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة بعض الفوائد منها:

- (١)- يلمح من الآية مشهد سر من أسرار النبوة وصلة الله تعالى بنبيه^(٢).
- (٢)- إن الخيرَ فيما اختاره الله في الأنفال وغير الأنفال، وإن الناس لا يعلمون إلا ما بين أيديهم والغيب عنهم محجوب^(٣).
- (٣)- دلت الآية على شجاعة الرسول -ﷺ- وامثاله لأمر ربه في خروجه من بيته للقتال والمنازلة، وهذا عكس ما عليه المنافقون الذين يهابون الخروج للقتال ويحبون الخلود في البيوت والاحتماء بها.

ثامناً: المعنى العام

في هذه الآية الكريمة يشبه الله تعالى خروج النبي -ﷺ- للقاء أعدائه من المشركين، وقد كان فريق من المؤمنين كارهين ذلك لعدم إستعدادهم للقتال وقلة عددهم وأنهم فضلوا أن يظفروا بالغير ليغنموا الأموال شبهها بقصة توزيع الأنفال على كره من بعضهم، وقد كان نتيجة هذين الحالين إصلاح شأن المؤمنين وعزهم، وأراد أن يعلمهم الله أن هذا الأمر العظيم إنما تم بتدبير الله وقدره في كل خطوة وفي كل حركة ليقتضي من ورائه أمراً كان مفعولاً.

(١) ينظر: الفتوحات الالهية ٢/٢٢٦، وروح المعاني ٩/١٧٠.

(٢) التفسير الحديث ٨/١٢.

(٣) في ظلال القرآن ٩/٨٠٩.

المطلب الثاني

أمهات المؤمنين في بيت النبي - ﷺ -

تمهيد

إن من النعم العظيمة التي أكرم الله بها أمهات المؤمنين^(١) أن جعلهن أزواجاً

(١) وهن النساء اللاتي عقد عليهن رسول الله ﷺ ودخل بهن. والمتفق عليه دخوله بهن إحدى عشرة امرأة: ست من قريش، وأربع من سائر العرب، وواحدة من بني إسرائيل هي صفية. ومات عنده ﷺ منهن ثنتان: خديجة، وزينب بنت خزيمة، ومات ﷺ عن تسع دخل بهن باتفاق. ينظر: الجامع لأحكام القرآن ١٤/١٦٤-١٦٩، والفتوحات الالهية ٣/٤٣٢، وزاد المعاد ١١٤/١.

وأمهات المؤمنين هن على الترتيب كما يأتي:

- (١)- خديجة بنت خويلد: توفيت في مكة قبل الهجرة بثلاث سنوات.
- (٢)- سودة بنت زمعة: (ت ٥٤هـ).
- (٣)- عائشة بنت أبي بكر الصديق: (ت ٥٨هـ).
- (٤)- حفصة بنت عمر بن الخطاب: (ت ٤١هـ).
- (٥)- زينب بنت خزيمة: (ت ٤هـ).
- (٦)- أم سلمة، واسمها: هند بنت أبي أمية: (ت ٦٢هـ).
- (٧)- زينب بنت جحش: (ت ٢٠هـ).
- (٨)- جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية: (ت ٥٦هـ).
- (٩)- أم حبيبة، واسمها: رملة بنت أبي سفيان: (ت ٤٤هـ).
- (١٠)- صفية بنت حيي بن أخطب: (ت ٥٠هـ).
- (١١)- ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية: (ت ٦١هـ).

فرحم الله أمهات المؤمنين ورضي الله عنهن وأرضاهن، وأعلى في جنات الفردوس مأواهن، وجمعنا بهن في بحبوحة جنته ومستقر رحمته مع سيدنا رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ينظر: تراجمهن في المصادر الآتية: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٤/٢٦٠، ٣٤٥ لابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ)، مطبوع بهامش الاصابة، مط دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصورة عن الطبعة المصرية الأولى ١٣٢٨هـ، وزاد المعاد ١/١٠٥، وأسد =

لرسول الله - ﷺ - ورفع منزلتهن بقوله: ﴿يَلَسَّاءَ أَلَيْبِي لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ أَلَسَّاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾^(١)، وكيف لا يكون هذا شأنهن ووحى السماء ينزل في بيوتهن بآيات الله والحكمة، وهُنَّ القدوة لكل النساء وقد جاءت الآيات في هذا الموضوع تحت على أن تكون بيوت النبي - ﷺ - محاطة بسياج منيع من الحشمة والوقار ومن هذه الآيات التي ستكون موضوع بحثنا هذا هي قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾^(٢).

وسنوضح هاتين الآيتين من خلال النقاط الآتية:

أولاً: تحليل الألفاظ في اللغة والغريب

(١) - (القرّ) في اللغة والغريب

لغة: قرّ الشيء قرّاً من باب ضرب، استقر بالمكان والاسم القرار^(٣).

وقرّ بالمكان واستقرّ، وهو قارٌّ: مستقرٌّ، وقرّ به القرار، وهو في مقرّه ومستقرّه^(٤).

(القرّ) في الغريب: قرّ في مكانه يقرّ قراراً: إذا ثبت ثبوتاً جامداً، وأصله من القرّ، وهو البرد وهو يقتضي السكون، والحر يقتضي الحركة، وقوله: ﴿وَقَرْنَ فِي

= الغابة في معرفة الصحابة ١٨٨/٧، ٣٤٠ لغز الدين بن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، دار الشعب، والعبر في خبر من غير ٣١/١، ٤٠ للحافظ الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تح أبو هاجر محمد السعيد بن بيسوني، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، والاصابة في تمييز الصحابة ٢٥٧/٤، ٢٩٨، ٣٠٧، ٣٠٩، ٣٣٠، ٣٣٧، ٣٩٧ لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، دار إحياء التراث العربي بيروت، مصورة عن الطبعة المصرية الأولى ١٣٢٨هـ، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب ٣١/١، لابن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣ - ٣٤.

(٣) المصباح المنير مادة (قر): ٧٨.

(٤) أساس البلاغة: ٣٦١، لجار الله الزمخشري، تح عبد الرحيم محمود، مط دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ١٩٥٣م.

بُيُوتِكُنَّ ﴿١﴾ أصله أقرن في بيوتكن فحذفت الراء والقيت فتحتها على ما قبلها نحو قوله: ﴿فَطَلَنْتُمْ فَكَهُونَ﴾ ﴿٢﴾ (١) (٢).

(٢)- (التبرج) في اللغة والغريب والوجوه والنظائر

(التبرج) في اللغة: وهو من البرج: كل ما ظهر وارتفع فقد برج، وإنما قيل للبرج بروج لظهورها وارتفاعها، والتبرج: إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال، وتبرجت المرأة: أظهرت وجهها وأبدت محاسن جيدها (٣).

(التبرج) في الغريب: هو من البرج وجمعه بروج وهي القصور، ويقال ثوب مبرج: صورت عليه بروج، واعتبر حسنه، فقيل: تبرجت المرأة أي: تشبهت به في إظهار المحاسن (٤).

(التبرج) في الوجوه والنظائر: يأتي على ثلاثة أوجه (٥):

أ- النجم: ومنه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (٦) أي: ذات النجوم.

ب- القصور العالية: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ (٧) يعني: القصور العالية.

ج- التوسع: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ أي: لا تتوسعن في المشي.

(٣)- ﴿الرَّجَسَ﴾ في اللغة والغريب

﴿الرَّجَسَ﴾ في اللغة: قيل للشيء القذر، وقد يعبر به عن الحرام والفعل القبيح والعذاب واللعنة والكفر، قال الزجاج: الرجس في اللغة اسم لكل ما استقذر من عمل (٨).

(١) سورة الواقعة، الآية: ٦٥.

(٢) المفردات: ٢٦٢.

(٣) ينظر: مقاييس اللغة مادة (برج) ٢٣٨/١، واللسان مادة (برج) ٢٤٣/١.

(٤) ينظر: المفردات: ١١٥.

(٥) ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ٦٦.

(٦) سورة البروج، الآية: ١.

(٧) سورة النساء، الآية: ٧٨.

(٨) اللسان مادة (رجس) ١٥٩٠/٣، تاج العروس مادة (رجس) ١٥٩/٤-١٦٠.

﴿الرَّجَسَ﴾ في الغريب: الشيء القذر، يقال: رجل رجس، ورجال أرجاس، والرجس يكون على أربعة أوجه: إما من حيث الطبع، وإما من جهة العقل، وإما من جهة الشرع، وإما من كل ذلك كالميتة، فإن الميتة تعاف طبعاً وعقلاً وشرعاً، وقيل: الرجس: التّن، وقيل: العذاب^(١).

(٤) - (الأهل) في اللغة والغريب والوجوه والنظائر

(الاهل) في اللغة: هم أهل الرجل وأهل الدار، وذكر ابن سيدة: أن أهل الرجل عشيرته وذوو قريبه، وأهل البيت: سكّانه، وأهل الرجل: أخص الناس به، وكانوا يسمون أهل مكة أهل الله تعظيماً لهم كما يقال بيت الله ويجوز أن يكون أراد أهل بيت الله لأنهم كانوا سكان بيت الله^(٢).

(الأهل) في الغريب: أهل الرجل: من يجمعه وإياهم نسب أو دين أو ما يجري مجراهما في صناعة وبيت وبلد، وأهل الرجل في الأصل: من يجمعه وإياهم مسكن واحد ثم تجوز به فليل أهل الرجل: لمن يجمعه وإياهم نسب، وتعرف في أسرة النبي - ﷺ - مطلقاً إذا قيل: أهل البيت لقول - ﷺ -: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾^(٣) وعبر بأهل الرجل عن امرأته^(٤).

أما (الأهل) في الوجوه والنظائر: فيأتي على عدة معان منها^(٥):

أ- ساكن القرى: ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾^(٦) يعني: ساكن القرى.

ب- الأصحاب: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(٧) يعني: أصحابها.

ج- القوم والعشيرة: ومنه قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ

(١) المفردات: ٣٤٢.

(٢) ينظر: اللسان مادة (أهل) ١٦٣/١-١٦٤، وتاج العروس مادة (أهل) ٢١٧/٤.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٤) المفردات: ٩٦.

(٥) ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ٥٦.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٩٧.

(٧) سورة النساء، الآية: ٥٨.

أَهْلَهَا^(١) يعني: من قومه وعشيرته ومن قومها وعشيرتها.

د- الزوجة والأولاد: ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾^(٢) أي: بزوجته وولدها.

ثانياً: تحليل الألفاظ عند المفسرين

(١)- تحليل قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾

ذكر المفسرون عدة وجوه في معنى ﴿وَقَرْنَ﴾ منها:

(١)- إقررن أي: إلزمن بيوتكن من قولهم قررت بالمكان أقرت قراراً^(٣).

(٢)- إنه أمر من الوقار كقولهم من الوعد عدن ومن الوصل صلن، أي: كن أهل وقار وسكون^(٤).

(٣)- ما ذكره أبو الفتح الهمداني في كتاب التبيان قال: قار يقار إذا اجتمع ومنه القارة لاجتماعها فالمعنى إجمعن أنفسكن في البيوت^(٥).

(٤)- إنه من قَرَرْتُ به عيناً أقرتُ، والمعنى: وأقررن به عيناً في بيوتكن، ذكره النحاس وقال هذا وجه حسن، وقد رده القرطبي، وقال عنه الشوكاني: ((ليس بحسن ولا هو معنى الآية))^(٦).

(٢)- تحليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْرَحْنَ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾

ذكر المفسرون عدة أقوال في التبرج منها:

(١)- قال قتادة: ﴿وَلَا تَبْرَحْنَ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾: أي: إذا خرجتن من بيوتكن قال: كانت لهن مشية تكسر وتغنج، يعني بذلك الجاهلية الأولى فنهاهن الله عن ذلك.

(٢)- عن أبي نجيع أنه قال: التبخر.

(١) سورة النساء، الآية: ٣٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٢٩.

(٣) معالم التنزيل ٢٥٨/٥، تفسير الجلالين: ٥٥٧، لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي، مط دار إحياء التراث العربي بيروت.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣٤٢/٢، معالم التنزيل ٢٥٨/٥.

(٥) روح المعاني ٦/٢٢، وينظر: الكشف ٥٣٧/٣.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٤/١٧٨-١٧٩، فتح القدير: ٢٧٨/٤.

(٣)- وقيل: إظهار الزينة وإبراز المرأة محاسنها للرجال^(١).

واختلفوا في الجاهلية الأولى على أقوال منها:

(١)- قال الشعبي: هي ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام^(٢).

(٢)- قال عكرمة والحكم بن عيينة: هي ما بين آدم ونوح - ﷺ -^(٣).

(٣)- قال الكلبي: كان ذلك في زمن نمرود الجبار، وكانت المرأة تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشي وسط الطريق ليس عليها شيء غيره وتعرض نفسها على الرجال^(٤).

(٤)- وقيل: الجاهلية الأولى جاهلية الكفر، والجاهلية الأخرى الفسوق في الإسلام^(٥). قال الطبري مرجحاً: ((وأولى الأقوال عندي بالصواب: أن الله تعالى ذكره نهى نساء النبي - ﷺ - أن يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وجائز أن يكون ذلك ما بين آدم وعيسى فيكون معنى ذلك: ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى التي قبل الإسلام))^(٦).

في حين أثار القاضي ابن العربي أنها جاهلية واحدة وإنما كانت قبل الإسلام ولذا وصفت بالأولى قال - ﷺ - ((الذي عندي أنها جاهلية واحدة وهي قبل الإسلام وإنما وصفت بالأولى لأنها صفتها التي ليس لها نعت غيرها))^(٧).

(٣)- تحليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾

ذكر المفسرون عدة أقوال في ﴿الرِّجْسِ﴾ منها:

(١) جامع البيان ٤/٢٢، وينظر: أحكام القرآن للجصاص ٣/٣٦٠، ومعالم التنزيل ٥/٢٥٨.

(٢) الوجيز في تفسير القرآن العزيز ٢/١٨٣، للإمام أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨هـ)، مطبوع بهامش التفسير المنير لمعالم التنزيل، زاد المسير في علم التفسير ٦/٣٨٠، للإمام ابن الجوزي، مط المكتب الإسلامي، دمشق، ط ١-١٩٦٨م.

(٣) روح المعاني ٨/٢٢.

(٤) معالم التنزيل ٥/٢٥٨، وينظر: لباب التأويل ٥/٢٥٨.

(٥) إرشاد العقل السليم ٤/٢١١.

(٦) جامع البيان ٤/٢٢.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٥٣٧، وينظر: التفسير المنير لمعالم التنزيل المسفر عن وجوه محاسن التأويل ٢/١٨٣، للعلامة محمد نوي الجاوي، مط دار الفكر، ١٩٨٠م.

- (١)- الإثم الذي نهى الله النساء عنه، قاله مقاتل .
- (٢)- عمل الشيطان وما ليس لله فيه رضا، قاله ابن عباس .
- (٣)- السوء، قاله قتادة .
- (٤)- الشك، قاله مجاهد^(١) .
- (٥)- الأفعال الخبيثة والأخلاق الذميمة، فالأفعال الخبيثة كالفواحش ما ظهر منها وما بطن، والأخلاق الذميمة كالشح، والبخل والحسد وقطع الرحم^(٢) .
- وعمم الآلوسي الأقوال كلها بأن تكون معنى للرجس فقال: ((والمراد به هنا ما يعم كل ذلك ولا يخفى عليك ما في بعض هذه الأقوال من الضعف))^(٣) .
- (٤)- تحليل قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُمْسِكُ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ لفظ (الذكر) يحتمل ثلاثة معان:
- (١)- أي: أذكرن النعمة إذ جعلكن الله في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة^(٤) .
- (٢)- أذكرن آيات الله وأقدرن قدرها، وتفكرن وتدبرن بها، ومن كان هذا حاله ينبغي أن تحسن أفعاله .
- (٣)- الحفظ والقراءة بالألسنة، فكأنه يقول: احفظن أوامر الله تعالى ونواهيه وذلك هو الذي يتلى في بيوتكن من آيات الله^(٥) .

ثالثاً: أسباب النزول

- ذكرت في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ روايات كثيرة أورد الواحدي بعضاً منها:
- (١)- عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: نزلت في خمسة في النبي - ﷺ - وعلي وفاطمة والحسن والحسين - رضي الله عنهم .

(١) معالم التنزيل ٢٥٩/٥، وينظر: لباب التأويل ٢٥٩/٥، وروح المعاني ١٢/٢٢ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١٥٣٧/٣ .

(٣) روح المعاني ١٢/٢٢ .

(٤) جامع البيان ٩/٢٢ تفسير القرآن العظيم ٤٨٦/٣ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٨٤/١٤، التحرير والتنوير ١٨/٢٢ .

- (٢)- وعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: نزلت هذه الآية في نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - .
- (٣)- عن عكرمة - رضي الله عنه - قال: ليس الذي يذهبون إليه إنما هي أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - (١).

والذي يبدو أن هذه الروايات من قبيل التفسير وليست من أسباب النزول ومع هذا فالرواية الأولى كثر المقال في سندها وذلك من جهة عطية العوفي فهو قد روى عن أبي سعيد الخدري أحاديث فلما مات جعل يجالس الكلبي فإذا قال الكلبي قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كذا فيحفظه وكناه أبا سعيد وروى عنه، فإذا قيل: من حدثك بهذا؟ قال: حدثني أبو سعيد، فيتوهمون أنه يريد أبا سعيد الخدري وإنما أراد هو الكلبي، وعطية هذا ضعفه النسائي وأبو حاتم، وتحدث الإمام أحمد عنه وعن روايته عن أبي سعيد فقال: ضعيف الحديث، ومع هذا الجرح فقد وثقه ابن سعد، وابن معين حين سئل عنه قال: كيف حديث عطية؟ قال: صالح (٢).

وأما الرواية الثانية والثالثة فهما تتعارضان بشكل ظاهر مع الرواية الأولى ولا بد لرفع هذا التعارض أن نقول أن الروايات بمجموعها من قبيل التفسير، وهذا ما أشار إليه الإمام السيوطي بقوله: ((كثيراً ما يذكر المفسرون لنزول الآية أسباباً متعددة، وطريق الاعتماد في ذلك أن تنظر إلى العبارة الواقعة فإن عبر أحدهم بقوله نزلت في كذا والآخر نزلت في كذا، وذكر أمراً آخر فقد تقدم أن هذا يراد به التفسير لا ذكر سبب النزول، فلا منافاة بين قولهما إذا كان اللفظ يتناولهما كما بيته في كتابي (الاتقان) وحيثنذ فحق مثل هذا أن لا يورد في تصانيف أسباب النزول)) (٣).

(١) أسباب النزول للواحدي: ٢٤٠.

(٢) ينظر: التاريخ الكبير ٨/٧، للإمام البخاري، مط دار الفكر العلمية، بيروت - لبنان، والجرح والتعديل ٦/٣٨٢-٣٨٣ لأبي محمد بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧هـ)، مط مجلس دار المعارف العثمانية - الهند، ط ١-١٩٥٣م، والمجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين ٢/١٧٦-١٧٧، للإمام محمد بن حبان بن أحمد البستي (ت ٣٥٤هـ)، تح محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب - ١٩٧٥م، وميزان الاعتدال في نقد الرجال ٣/٧٩-٨٠، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت ٧٤٨هـ). تح علي محمد البجاوي، مط دار المعرفة، بيروت - لبنان، وتهذيب التهذيب ٧/٢٢٤-٢٢٦، لابن حجر العسقلاني مط دار المعارف العثمانية - الهند، ط ١-١٣٦٦هـ.

(٣) لباب النقول: ٥.

رابعاً: البلاغة في الآيتين

وردت في الآيتين بعض الوجوه البلاغية نذكر منها ما يأتي:

(١)- التشبيه البليغ في قوله: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أي: كتبرج أهل الجاهلية حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فصار بليغاً^(١).

(٢)- الرجس أصله القذر الذي يلوث الأبدان واستعير هنا للذنوب والنقائص الدينية لأنها تجعل عرض الإنسان في الدنيا والآخرة مردوئاً مكروهاً كالجسم الملوث بالقذر، كما استعير الاذهاب للانجاء والأبعاد^(٢).

(٣)- في التعبير بالفعل المضارع دلالة على تجدد الإرادة واستمرارها^(٣).

(٤)- التعرض للتلاوة في البيوت دون النزول فيها مع أنها الأنسب؛ لكونها مهبط الوحي لعمومها لجميع الآيات ووقوعها في كل البيوت وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير بخلاف النزول، وقيل: إن ذلك لرعاية الحكمة بناءً على أن المراد بها السنة فإنها لم تنزل نزول القرآن^(٤).

(٥)- عدم تعيين التالي لتعم تلاوة جبريل وتلاوة النبي ﷺ وتلاوتهن وتلاوة غيرهن تعليمًا وتعلمًا^(٥).

(٦)- موقع (إنما) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ يفيد وصل ما بعدها بما قبلها لأن حرف (إن) جزء من (إنما) وحرف (إن) من شأنه أن يغني غناء فاء التسبب فالكلام هو تعليل لما تضمنته الآيات السابقة من أمر ونهي لأهيات المؤمنين^(٦).

(١) صفة التفاسير ٥٢٥/٢.

(٢) التحرير والتنوير ١٤/٢٢-١٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) روح المعاني ٢١/٢٢.

(٥) إرشاد العقل السليم ٢١١/٤.

(٦) التحرير والتنوير ١٤/٢٢.

خامساً: المناسبة للآيتين

الآية الأولى:

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

مناسبة الآية الكريمة لما قبلها: لما ذكر سبحانه وتعالى ما لنساء النبي - ﷺ - من الفضل حيث لو استقصيت أمة النساء جماعة جماعة لن توجد فيهن جماعة تساوي في الفضل نساء النبي - ﷺ - لما خصهن الله به من قربة بقرب رسول الله - ﷺ - ونزول الوحي الذي بينه وبين الله في بيوتهن.

فنهاهن عن الاسترسال مع سجية النساء في رخامة الصوت، وأمرهن بضده فقال: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

فلما تقدم اليهن في القول وقدمه لعمومه، أتبعه الفعل فقال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾^(١).

الآية الثانية:

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

مناسبة الآية الكريمة لما قبلها: لما كانت هذه الآيات قد نهت عن الرذائل فكانت عنها أشرف الفضائل، قال مبيناً أن ذلك إنما هو لتشريف أهل النبي - ﷺ - لتزيد الرغبة في ذلك مؤكداً دفعاً لوهم من يتوهم أن ذلك لهوان أو غير ذلك من نقصان وحرمان^(٢).

(١) نظم الدرر ٣٤٣/١٥-٣٤٤.

(٢) نظم الدرر ٣٤٦/١٥.

سادساً: الاعراب والقراءات

[١]- الاعراب

قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ﴾ الواو عاطفة . وقرن: فعل أمر مبني على السكون والنون فاعل .
وقوله: ﴿وَلَا تَبْرَحْنَ﴾ لا ناهية جازمة، و﴿تَبْرَحْنَ﴾ مضارع مبني على السكون
في محل جزم وقوله ﴿تَبْرَحْنَ﴾ مفعول مطلق منصوب^(١). وقوله: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي: يا
أهل البيت، ويجوز أن ينتصب على التخصيص والمدح: أي: أعني أو أخص^(٢).

[٢]- القراءات

قرأ الجمهور ﴿وَقَرْنَ﴾ بكسر القاف، وقرأ نافع وعاصم بفتحها، فأما القراءة
الأولى فتحتمل وجهين: أحدهما أن يكون من الوقار، والوجه الثاني وهو قول
المبرد، أن يكون من القرار، وأما قراءة أهل المدينة وعاصم فعلى لغة العرب: قررت
في المكان إذا أقمت فيه^(٣).

وقرأ ابن أبي عبله (وأقررن) بألف وصل وراءين الأولى مكسورة وهو من قررت
به عينا، والمعنى: وأقررن به عينا في بيوتكن، وهو وجه حسن كما قاله القرطبي^(٤).

سابعاً: ذم خروج المرأة من بيتها متبرجة

إن قضية المرأة في العصر الحديث عرضت على نحو جديد يحمل شعار الدفاع
عن حقوق المرأة المهضومة ورد حريتها المسلوبة وضرورة مساواتها بالرجل في كل
ما يتمتع به من حرية الرواح والمجيء والعمل والسلوك، وضرورة خروجها من سجن
البيت وقيوده.

وكان المنادون - في هذا العرض الجديد لقضية المرأة تحت هذا الشعار

(١) الجدول في إعراب القرآن ١٥٩/١١.

(٢) ينظر معاني القرآن وإعراجه ٢٢٦/٤، وإملاء ما من به الرحمن ١٩٣/٢.

(٣) ينظر السبعة: ٥٢١-٥٢٢، والحجة لابن خالويه: ٢٩٠، والروضة في القراءات: ٧١٣،
والتيسير: ١٧٩، والجامع لأحكام القرآن ١٧٨/١٤، والنشر ٣٤٨/٢، والبدور الزاهرة في
القراءات العشر المتواترة: ٢٥٥ لعبد الفتاح القاضي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط١-
١٩٨١ م.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٧٩/١٤، البحر المحيط ٣٢٠/٧.

الجديد - أناساً مردوا على حب الفاحشة والسطو على الأعراض وهتك الحرمات وبرعوا في المكر والخداع وإثارة الغرائز والشهوات... وقد نجحوا في حملتهم الماكرة حتى آل الأمر في دول الغرب إلى تفكك العائلة وشيوع الفاحشة وكثرة اللقطاء... هذا ما حدث في بلاد الغرب أما في بلاد المسلمين فإن الأمر لم يصل إلى ما وصل إليه في بلاد الغرب إلا أن ما وقع هناك بدأت أوائل شروعه تقع في بلاد المسلمين وأن الضحايا من المسلمات كثيرات وأن البيت المسلم بدأ يتضعع ويتصدع وينذر بالسقوط^(١).

ولقد نزلت الآيات القرآنية في بيت النبوة، مصدر العلم والمعرفة، ومنبع الحكمة وأساس الهداية، لتكون آداباً إلهية لنساء النبي -ﷺ-، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك، وكلها تهدف إلى بعد المرأة عن منطقة الخطر، واجتنابها الطرق التي تؤدي بها إلى الوقوع في المعصية، ونساء النبي -ﷺ- أولى الناس بالبعد التام عن هذا كله، لأنهن في مركز القيادة وفي بيت النبوة وهن أمهات المؤمنين، فأمرهن الله أن يقرن في بيوتهن، وأن يقمن بها فلا يرحنها إلا لضرورة.

والشرع حينما أمر نساء النبي بأن يقرن في بيوتهن لم يحرم عليهن الخروج للحاجة مطلقاً، ولكن المهم إذا خرجن فلا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى فذلك خير لهن. فيالله من النساء البارزات، الكاسيات، العاريات، المائلات المميلات، المتبرجات الكاشفات عن سيقانهن ونحورهن، بل الكاشفات عن كل شيء، الصابغات وجوههن بالأصباغ التي يندى لها وجه المروءة، والويل ثم الويل لتلك الشعور المكشوفة، والسيقان والنحور الظاهرة.

فالبيت هو مملكة المرأة، وهو مهد الطفولة، ومصنع الرجولة، وسكن الرجل ومستراحه، وفيه يقضي نصف وقته ليسترخ، وفي البيت متسع لنشاط المرأة وفيه ما يستنفد حيويتها، وهو في أشد الحاجة لها وإشرافها، حتى تخرج لنا جيلاً جديداً، وتبعث لنا بأزواج وإخوة يعرفون وطنهم وحقه، ودينهم وواجبه^(٢).

(١) المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية ١/٥-٦، للدكتور عبد الكريم زيدان، مط مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١-١٩٩٣ م.

(٢) ينظر: التفسير الواضح ٢٢/٣-٥، للشيخ محمد محمود حجازي، مط الاستقلال الكبرى، ط ٣-١٩٦٣ م.

ويقول سيد قطب - رَحِمَهُ اللهُ - في قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾: ((ليس معنى هذا الأمر ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقاً؛ إنما هي إيماء لطيفة إلى أن يكون البيت هو الأصل في حياتهن، وهو المقر، وما عداه استثناءً طارئاً لا ينقلن فيه ولا يستقررن، إنما الحاجة تقضي وبقدرها))^(١).

وقد جاء التحذير على لسان الصادق المصدوق سيدنا محمد - رَحِمَهُ اللهُ - شديد اللهجة، ليهول من أمر خروج المرأة من بيتها متبرجة ومتعطرة، فعن أبي موسى عن النبي - رَحِمَهُ اللهُ - قال: «إذا استعطرت المرأة فمرت على القوم ليجدوا ريحها فهي كذا وكذا»، قال: قولاً شديداً وجاء في شرح هذا الحديث: إذا استعطرت المرأة أي: إذا استعملت العطر وهو الطيب الذي يظهر ريحه ليجدوا ريحها أي: لأجل أن يشموا ريح عطرها، فهي كذا وكذا كناية عن كونها زانية^(٢).

وأخرج أبو داود عن أبي هريرة - رَحِمَهُ اللهُ - أنه لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب ينفح ولذيلها إعصار، فقال: يا أمة الجبار، جئت من المسجد؟ قالت: نعم قال: وله تطيب؟ قالت: نعم، قال: إني سمعت جبي أبا القاسم - رَحِمَهُ اللهُ - يقول: «لا تقبل صلاة لامرأة تطيب لهذا المسجد حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة»^(٣).

فهذه النواهي وهذا الزجر الشديد للنساء ليس تعنيفاً ولا تحقيراً لشأنهن، بل كل ذلك أدوية نافعة يصلح الله تعالى بها أمراض القلب، ويقول ابن تيمية: ((إن العقوبات الشرعية كلها أدوية نافعة يصلح الله بها مرض القلب، وهي من رحمة الله بعباده ورأفته بهم، الداخلة في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٤). فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرأفة يجدها بالمريض فهو الذي أعان على عذابه وهلاكه وإن كان لا يريد إلا الخير، إذ هو في ذلك جاهل أحقق كما يفعله بعض النساء والرجال الجاهل بمرضاهم وبمن يربونه من أولادهم وغلمانهم وغيرهم في ترك

(١) في ظلال القرآن ٥٨٢/٢٢.

(٢) سنن أبي داود ٤٠١/٤ [كتاب الترجل - باب ما جاء في المرأة تتطيب للخروج] برقم ٤١٧٣، وعون المعبود شرح سنن أبي داود ٢٣٠/١١، لمحمد أشرف بن أمير بن حيدر العظيم آباد، (ت ١٣٢٣هـ)، مط دار الفكر - بيروت.

(٣) سنن أبي داود ٤٠١/٤ [كتاب الترجل - باب ما جاء في المرأة تتطيب للخروج] برقم ٩٦٢١.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

تأديهم وعقوبتهم على ما يأتونه من الشر ويتركونه من الخير رافة بهم، فيكون ذلك سبب فسادهم وعداوتهم وهلاكهم»^(١).

ثامناً: شبهة وردها

لقد أمر الله تعالى نساء النبي - ﷺ - بالقرار في بيوتهن وهذا لا يعني عدم خروجهن بالمرة وإنما عدم الاكثار من الخروج على غير ضرورة، فهناك أمور وضرورات ملزمة للخروج، وقد جاءت الروايات متواترة أن نساء النبي - ﷺ - كن يخرجن في الحاجات والضرورات في حياة النبي - ﷺ - وبعده، ولقد روى الشيخان عن سودة أم المؤمنين - رضي الله عنها - حديثاً جاء فيه أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رآها خارجة فقال لها: (يا سودة، أما والله لا تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين فأخبرت النبي بذلك فقال لها: «إن الله قد أذن لكن أن تخرجن لحاجتك»^(٢).

وجه الشبهة: هو أن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - خالفت أمر الله جل وعلا وأمر رسوله - ﷺ - عندما خرجت تقود الجيوش، وتباشر الحروب وتقتحم مآزق الحرب والضرب فيما لم يفرض عليها ولا يجوز لها.

الجواب على الشبهة:

يرد على هذا القول ابن العربي بقوله: ((تعلق الرافضة - لعنهم الله - بهذه الآية على أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - إذ قالوا: إنها خالفت أمر رسول الله - ﷺ - ... قالوا: ولقد حصر عثمان، فلما رأت ذلك أمرت برواحلها فقربت لتخرج إلى مكة؛ فقال لها مروان: أقيمي هنا يا أم المؤمنين وردي هؤلاء الرعاع؛ فإن الإصلاح بين الناس خير من حجك.

وقال علماؤنا - رحمة الله عليهم -: إن عائشة كانت نذرت الحج قبل الفتنة فلم تر التخلف عن نذرها، ولو خرجت عن تلك الثائرة لكان صواباً لها، وأما خروجها إلى حرب الجمل فما خرجت لحرب ولكن تعلق الناس بها وشكوا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتهارج الناس ورجوا بركتها وطمعوا في الاستحياء منها إذا وقفت إلى

(١) تفسير سورة النور: ٣٦-٣٧، أحمد بن تيمية، مط الدار السلفية، الهند ط-١٩٨٧م.

(٢) البخاري ١٣٦/١ [كتاب الوضوء - باب خروج النساء إلى البراز] برقم ١٤٧ ومسلم ١٧٠٩/٤ [كتاب السلام - باب إباحة الخروج للنساء] برقم ٢١٧٠.

الخلق وظنت هي ذلك فخرجت مقتدية بالله في قوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾^(١)، والأمر بالإصلاح خاطب الله به جميع الناس من ذكر وأنثى، حر أو عبد فلم يرد الله تعالى بسابق قضائه ونافذ حكمه أن يقع إصلاح لكن جرت مطاعنات وجراحات حتى كاد يفنى الفريقان، فعمد بعضهم إلى الجمل فعقره، فلما سقط الجمل لجنبه أدرك محمد بن أبي بكر عائشة - عليها السلام - فاحتملها إلى البصرة وخرجت في ثلاثين امرأة قرنهن علي - عليه السلام - بها حتى أوصلوها إلى المدينة برة تقية مجتهدة مصيبة مثابة فيما تأولت مأجورة فيما فعلت إذ كل مجتهد في الأحكام مصيب^(٢).

تاسعاً: ما يستفاد من الآيتين

أفادت الآيتان الكريمتان الكثير من الفوائد والأحكام بينها أهل العلم، يمكن أن نوجز منها ما يأتي:

(١)- في الآية أمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لנساء النبي - عليه السلام - فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى، هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء، كيف والشرعية طافحة بلزوم النساء بيوتهن والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة^(٣).

(٢)- في الآية وصية للنساء أن يصرفن عنايتهن الخاصة واهتمامهن الزائد إلى تدبير بيوتهن، إذ لا تتحقق سعادة البيت والأسرة على الوجه الأكمل إلا بالاستقرار، والتعاون والوقار، وعدم التعرض لمخالطة الأشرار^(٤).

(٣)- قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ دليل على جواز قبول خبر الواحد من الرجال والنساء في الدين^(٥).

(١) سورة الحجرات، الآية: ٩.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٥٣٥-١٥٣٦.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/٣٦٠، الجامع لأحكام القرآن ١٤/١٧٩.

(٤) ينظر: التيسير في أحاديث التفسير ٥/١٢٥-١٢٦.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٥٣٨، وينظر: البحر المحيط ٤/٢٢٩-٢٣٠، للإمام بدر الدين

محمد بن عبدالله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحرير الشيخ عبد القادر عبدالله العاني، الدكتور عمر سليمان الأشقر وآخرين، مط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط ١-١٩٨٨.

(٤)- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾، هذه آية بيّنة وحجة نيرة على كون نساء النبي -ﷺ- من أهل بيته قاضية ببطلان رأي من خص أهل البيت بفاطمة وعلي وابنهما - رضوان الله عليهم أجمعين-^(١).

(٥)- قوله تعالى: ﴿وَيُطَهِّرُكُمْ تَطْهِيراً﴾ أكدته إشارة إلى الزيادة في التطهير بسبب التكليف، فالعبادة والتقوى سبب للطهارة وهي الخلوص من دنس المعاصي، فمن ادعى الطهارة مع ارتكابه المعاصي فهو ضال كذاب^(٢).

(٦)- التعبير عن بيت رسول الله -ﷺ- بـ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ تكريم وتشريف واختصاص عظيم، فهو يسميهم بدون وصف للبيت ولا إضافة، كأنما هذا البيت هو البيت الواحد في هذا العالم المستحق لهذه الصفة، فإذا قيل: ﴿أَلْبَيْتِ﴾ فقد عرف وحدد ووصف، ومثل هذا قيل عن الكعبة بيت الله فسميت البيت والبيت الحرام^(٣).

عاشراً: المعنى العام

إن البيت هو مثابة المرأة الذي تجد فيه نفسها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى غير مشوهة ولا منحرفة ولا ملوثة ولا مكدورة في غير وظيفتها التي هيأها الله لها بالفطرة.

فلذلك أمر الله نساء النبي -ﷺ- بالقرار في هذه المثابة؛ لأنهن أولى الناس بالطهر والعفاف والبعد عن الرذيلة، فجاء الخطاب لهن أولاً؛ لأنهن في مركز القيادة وفي بيت النبوة وإليهن تتوجه الأنظار للاقتداء، فقرارهن في بيوتهن عبادة، وأن نزول الوحي فيها وتردد النبي -ﷺ- في خلالها يكسبها حرمة، وقد جاءت السنة النبوية المطهرة لتضع النقاط على الحروف، والكلمات على السطور، فقد قال رسول الله -ﷺ-: «المرأة عورة فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان»^(٤).

وبعد أن أمر الله أمهات المؤمنين بالقرار في بيوتهن، نهاهن عن التبرج وإبداء ما

(١) إرشاد العقل السليم ٢١١/٤.

(٢) حاشية الصاوي ٢٣٠/٣.

(٣) في ظلال القرآن ٥٨٥/٢٢.

(٤) سنن الترمذي ٤٦٧/٣ [كتاب الرضاع - باب ما جاء في الدخول على المغيبات] برقم ١١٧٣، قال عنه أبو عيسى حديث حسن غريب.

يحسن إخفاؤه فإذا خرجن في الشارع لضرورة، فليكن ذلك بأدب واحتشام، وبعد عن التبرج الممقوت الذي كان يفعل في الجاهلية الأولى، من الإماء وبعض الساقطات، ومن ثم أمرهن بالصلاة المطهرة للنفس، المقومة للشخص، والموصلة بالله، وبالزكاة المنظمة للمجتمع، المطهرة له من أدران الحسد والحقد، والباعثة على التعاون، وأمرهن بطاعة الله ورسوله في كل شيء، ومن ثم ذكر السبب في هذه الأوامر والنواهي على وجه عام إنما هو إرادة الله لأن يذهب عنكم يا آل بيت النبي الرجز والدنس ويطهركم من كل ما يشينكم تطهيراً.

وهذه البيوت التي بوأهن الله إياها لها خصوصيات ومميزات تكسبها الرفع والمنزلة العظيمة فهي مهبط الوحي وفيها يتلى القرآن وفيها الحكمة والموعظة الحسنة التي ينطق بها سيد الخلق رسول الله ﷺ - فما على أمهات المؤمنين إلا أن يشكرن هذه النعم ويعملن بذلك كله، فإن الله كان لطيفاً بعباده خبيراً بهم، فكل ما أمر به وحث عليه فهو في منتهى الحكمة، ﴿الرَّحْمَنُ فَسَكَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ (١) (٢).

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٩.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن ٥٨٢/٢٢، والتفسير الواضح ٢٢/٤-٦.

المطلب الثالث

مفهوم أهل البيت

نرى القرآن الكريم قد تحدث عن أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - وبين أحكامهن فكان من تلك الأحكام، هو إعلان التطهير لهن، وإذهاب الرجس عنهن، نصّت على ذلك آية الأحزاب، ولما لهذه الآية من دلالات سياقية دارت حولها الاختلافات، فنسبها بعضهم إلى الانفصال، وأنها غير متصلة بما قبلها، بل هي مقحمة هنا، مريداً من خلال ذلك اختصاصها بسيدتنا فاطمة، وسيدنا علي والحسن والحسين - عليهم السلام - والذي حملهم على ذلك أن سياق الآية جاء بلفظة ﴿عَنكُمْ﴾ وهو لجماعة المذكرين، ولم يقل: (عنكن) كما هو الحال فيما سبق ولحق، فلو كان في أمهات المؤمنين لقال: (عنكن) كما مضى من الآيات^(١)، ولم يقتصروا على هذا الدليل بل شفعوا ذلك بما ورد من روايات لا تخلو من نظر في أسانيدھا، كما نص على ذلك الحافظ ابن كثير^(٢).

أما البعض الآخر فقد جعل الآية خاصة بأمهات المؤمنين معتمداً فيما ذهب إليه عما أسلفنا الحديث عنه في أسباب النزول وبيان انتقاد هذه الروايات^(٣).

أما أصحاب الرأي الثالث: فقد جاء قولهم متوسطاً شاملاً لما مضى فقالوا: هي في أزواجه وأقاربه من أهل بيته، وهذا الأخير ما عليه الجمهور من المفسرين

(١) ينظر: معالم التنزيل ٢٥٩/٥، ومجمع البيان في تفسير القرآن ٣٥٦-٣٥٧/٢٢، لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، تصحيح هاشم الرسولي، مط دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، والجامع لأحكام القرآن ١٨٢/١٤-١٨٣، ولباب التأويل ٢٥٩/٥، وروح المعاني ١٤/٢٢، والميزان في تفسير القرآن ٣٢٧/٢٢ لمحمد حسين الطباطبائي مط دار الكتب الإسلامية، طهران، ط ٣ - ١٣٩٣هـ.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم ٤٨٦/٣.

(٣) ينظر: معالم التنزيل ٢٥٩/٥، ومجمع البيان ٣٥٦-٣٥٧/٢٢، والجامع لأحكام القرآن ١٨٢/٤-١٨٣، ولباب التأويل ٢٥٩/٥.

والمحدثين^(١).

إلا أن الذي يهمنا من هذا كله هو معرفة السبب الجالب للاختلاف حيث أنهم اختلفوا في لفظة ﴿أَلَيْتَ﴾ في الآية أهو بيت النسب أم السكن؟

قال الألوسي - رحمه الله -: ((والظاهر أن المراد به بيت الطين والخشب لا بيت القرابة والنسب، وهو بيت السكنى))^(٢)، ثم أردف ذلك بنقله عن المحققين من أن كونه بيت السكن لا يصلح دليلاً على القصد، قال - رحمه الله -: ((قال بعض المحققين: المراد بالبيت بيت السكنى وأهله على ما يقتضيه سياق الآية وسباقها، والأخبار التي لا تحصى كثرة، ويشهد له العرف من له مزيد اختصاص به إما بالسكنى فيه مع القيام بمصالحه وتدير شأنه، والاهتمام بأمره، وعدم كون الساكن في معرض التبديل والتحول بحكم العادة الجارية مع بيع وهبة كالأزواج، أو بالسكنى فيه كذلك بدون ملاحظة القيام بالمصالح كالأولاد، أو بقرابة من صاحبه تقضى بحسب العادة بالتردد إليه والجلوس فيه من غير طلب من صاحبه بذلك أو بعدم المنع من ذلك، فالأولاد الذين لا يسكنونه وكأولادهم وإن نزلوا وكالأعمام وأولاد الأعمام وعلى هذا، يحصل الجمع بين الأخبار))^(٣).

ويتبين مما نقله الألوسي عن المحققين أنه لا بد من إعمال الأدلة كلها حيث لا داعي إلى التخصيص، إذ إن في الاختصاص خروجاً عن الصواب قال الشوكاني: ((فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين فقد أعمل ما يجب إعماله وأهمل ما لا يجوز إهماله))^(٤).

وإن من أهم ما اعتمد عليه أهل التفسير في ترجيح آرائهم هو تفسير القرآن بالقرآن، وهذا من أحسن طرق التفسير^(٥)، فإذا دل موضع من القرآن على المراد

(١) ينظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١٨٣/٢، ومعالم التنزيل ٢٥٩/٥، والتفسير الكبير ٢٥/٢٠٩، والجامع لأحكام القرآن ١٨٣/٤.

(٢) روح المعاني ١٣/٢٢.

(٣) روح المعاني ١٥/٢٢.

(٤) فتح القدير ٢٨٠/٤.

(٥) البرهان في علوم القرآن ١٧٥/٢.

بموضع آخر حمل عليه ورجح القول بذلك على غيره من الأقوال^(١).

وعلى هذا فإن لفظتي ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ لم تردا في القرآن الكريم بهذه الصيغة إلا في موضعين: الأول في سورة هود ﴿أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمُ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾^(٢) والمخاطب هنا زوجة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهذا يفسر المراد من قوله تعالى في الموضع الثاني: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ بأن المراد بالمخاطب أزواجه - عليه السلام - لأن لفظة ﴿الْبَيْتِ﴾ لم تأت معرفة ومضافة للفظ (الأهل) إلا فيها، وقد جاء لفظ البيت غير معرف في موضع واحد فقط في قوله: ﴿هَلْ أَذْكَؤُاْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾^(٣) في قصة موسى - عليه السلام - وأريد به المرضعة^(٤).

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن معنى ﴿الْبَيْتِ﴾ في الآية الكريمة أريد به مساكن النبي - عليه السلام - التي فيها أزواجه المطهرات إذ أنه - عليه الصلاة والسلام - ليس له بيت يسكنه سوى مساكنهن.

(١) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل ٩/١.

(٢) سورة هود، الآية: ٧٣.

(٣) سورة القصص، الآية: ١٢.

(٤) ينظر: أضواء البيان ٥٧٨/٦.

المطلب الرابع

الأدب مع بيت النبي - ﷺ -

تمهيد

كانت الجاهلية لها عادات وتقاليد في دخول البيوت، فقد كان الناس يدخلون البيوت بلا إذن من أصحابها، وعندما بزغ نور الإسلام وتعاليمه، وأحكامه، كانت بيوت النبي - ﷺ - معرضة لأن تشهد هذه الحالة، حيث أنها أصبحت مهبط الوحي والعلم والحكمة، وكان بعضهم يدخل عندما يرى أن هناك طعاماً يعد، فيجلس في انتظار نضج هذا الطعام ليأكل منه بدون سابق دعوة، وربما يجلس البعض منهم للحديث والسمر في تلك البيوت، غير شاعر بما يسببه من إزعاج لأهل ذلك البيت، روي: نزل الوحي بتعاليم تنظم علاقة المسلمين ببيوت نبيهم - ﷺ - ونسائه - أمهات المؤمنين -، في حياته وبعد وفاته، وهذا ما أخبر عنه تعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَقْسِنِينَ لِلْحَدِيثِ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجُجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ (١).

وسنحلل الآية الكريمة من خلال النقاط الآتية:

أولاً: تحليل المفردات

(١) - ﴿إِنَّهُ﴾ في اللغة: أنى الشيء يأتي أنيا وإنى وأنى، وهو أنى: حان وأدرك، وبلغ الشيء إناه أي: غايته، وقوله: ﴿غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾ أي: غير منتظرين نضجه

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

وإدراكه وبلوغه، يقال: أنى يأتي إذا نضج^(١).

﴿إِنَّهُ﴾ في الغريب: بلوغ وقته^(٢).

(٢)- (المتاع) في اللغة: كل ما يستمتع به الإنسان في حوائجه من أمتعة البيت ونحوه من كل شيء، والمتاع هو المنفعة وما تمتعت به من عروض الدنيا قليلها وكثيرها^(٣).

(المتاع) في الغريب: يقال لما ينتفع به في البيت قال تعالى: ﴿أَبِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهَا﴾^(٤) وكل ما ينتفع به على وجه ما فهو متاع ومتمعة^(٥).

(المتاع) في الوجوه والنظائر: ورد بمعان مختلفة في القرآن الكريم منها^(٦):

أ- البلاغ: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْعٌ إِلَى حِينٍ﴾^(٧) يعني: بلاغ إلى منتهى الآجال.

ب- المنافع: ومنه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ﴾^(٨) يعني: منافع لكم من الحر والبرد.

ج- عدة المطلقة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٩) يعني:

متعتهن سوى المهر على قدر ميسرته.

(٣)- (الحجاب) في اللغة: الستر، وحجب الشيء يحجبه حجباً وحجاباً، وحجبه:

ستره، وامرأة محجوبة: قد سترت بستر، والحجب: المنع، ومنه قيل للستر حجاب؛ لأنه يمنع المشاهدة، وقيل للبواب حاجب؛ لأنه يمنع من الدخول، والأصل في الحجاب كل ما حال بين شيئين^(١٠).

(١) اللسان مادة (أنى) ١/١٦١، وينظر المصباح مادة (أنى) ١/١٧.

(٢) تفسير غريب القرآن: ٣٥٢، لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، (ت ٢٧٦هـ)، تح السيد أحمد الصقر، مط دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ١٩٧٨م، تحفة الأريب: ٤١.

(٣) العين ٢/٨٣، اللسان مادة (متاع) ٦/٤١٢٩.

(٤) سورة الرعد، الآية: ١٧.

(٥) المفردات: ٧٥٧.

(٦) إصلاح الوجوه والنظائر: ٤٢٧-٤٢٨.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٣٦.

(٨) سورة النور، الآية: ٢٩.

(٩) سورة البقرة، الآية: ٢٤١.

(١٠) اللسان مادة (حجب) ٢/٧٧٧، ينظر: المصباح مادة (حجب) ١/٦٦.

(الحجاب) في الغريب: المنع من الوصول، وحجاب الجوف: ما يحجب عن الفؤاد، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ﴾^(١) أي: من حيث لا يراه مكلمه ومبلغه^(٢).

(الحجاب) في الوجوه والنظائر: يأتي في القرآن الكريم على عدة وجوه منها^(٣):

أ- الجبل: ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾^(٤) يعني: بالجبل.

ب- الساتر: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾^(٥) يعني: الساتر.

ج- السور: ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾^(٦) أي: سور.

ثانياً: تحليل الألفاظ عند المفسرين

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ هذا نهى عام لكل مؤمن أن يدخل بيوت رسول الله - ﷺ - إلا بإذن منه، وقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي: لا تدخلوها في حال من الأحوال إلا حال كونكم مأذوناً لكم^(٧).

﴿إِلَى طَعَامٍ﴾ متعلق بيؤذن يتضمن معنى الدعاء، أي: إلا أن يؤذن لكم مدعوين إلى طعام^(٨).

﴿غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾ غير متظرين إدراكه ووقت نضجه^(٩).

﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ استدراك من النهي عن الدخول بغير إذن وفيه دلالة على أن المراد بالإذن إلى الطعام الدعوة إليه، والعادة أنه إذا قيل لمن كان يعتاد

(١) سورة الشورى، الآية: ٥١.

(٢) المفردات: ٢١٩-٢٢٠.

(٣) ينظر إصلاح الوجوه: ١١٧.

(٤) سورة ص، الآية: ٣٢.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٤٦.

(٧) إرشاد العقل السليم ٢١٧/٤.

(٨) فتح القدير ٢٩٧/٤.

(٩) معالم التنزيل ٢٧٢-٢٧٣.

دخول دار من غير إذن لا تدخلها إلا بإذن يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلاً لا بالدعاء ولا بغير الدعاء، فقال: لا تفعلوا مثل ما يفعله المستكفون بل كونوا طائعين سامعين إذا قيل لكم لا تدخلوا لا تدخلوا وإذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا^(١).

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ أي: فإذا أكلتم الطعام ففرقوا ولا تلبثوا، والفاء للتعقيب بلا مهلة للدلالة على أنه ينبغي أن يكون دخولهم بعد الإذن والدعوة على وجه يعقبه الشروع في الأكل بلا فصل^(٢).

﴿وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي: لحديث بعضكم بعضاً، أو لحديث أهل البيت. ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ الضمير لنساء النبي - ﷺ - والمتاع هو الشيء الذي يتمتع به من الماعون وغيره فإذا طلبتم منهن فليكن من وراء ستر، ويلحق بذلك ما هو أولى بالحكم من سؤال عن الدين أو عن القرآن، وقد كانوا يسألون عائشة - رضي الله عنها - عن مسائل الدين^(٣). (ذلكم) أي: ما ذكر من عدم الدخول بغير إذن وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع من وراء حجاب. ﴿أَطَهِّرْ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبَهُنَّ﴾ أكثر تطهيراً من الخواطر الشيطانية^(٤).

ثالثاً: البلاغة

من أهم الوجوه البلاغية التي ذكرها أهل العلم لهذه الآية هي:

(١) - صيغ ﴿يُؤْذَى﴾ بصيغة المضارع دون اسم الفاعل لقصد إفادة أذى متكرر، والتكرير كناية عن الشدة^(٥).

(٢) - التعبير بعدم الاستحياء في قوله ﴿فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِّ﴾ للمشاكلة^(٦).

(٣) - الطباق بين (ادخلوا... وانتشروا) وبين (تبدوا... وتخفوا)^(٧).

(١) التفسير الكبير ٢٦/٢٢٤.

(٢) روح المعاني ٢٢/٧٠.

(٣) التحرير والتنوير ٢٢/٩٠.

(٤) إرشاد العقل السليم ٤/٢١٧.

(٥) التحرير والتنوير ٢٢/٨٦.

(٦) فتح القدير ٤/٢٩٨، روح المعاني ٢٢/٧١.

(٧) صفوة التفاسير ٢/٥٤٠.

رابعاً: أسباب النزول

ذكر ابن كثير وكثير من المفسرين بأنها آية الحجاب^(١)، وقال القرطبي: أنها نزلت في الثقلاء^(٢)، وقد روى المفسرون ورواة الحديث في نزول هذه الآية روايات كثيرة منها:

(١)- ذكر جمهور المفسرين أن سبب نزولها أن رسول الله -ﷺ- لما تزوج زينب بنت جحش - امرأة زيد- أولم عليها، فدعا الناس فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله -ﷺ- وزوجته مولية وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسول الله -ﷺ- قال أنس: فما أدري أنا أخبرت النبي -ﷺ- أن القوم قد خرجوا أو أخبر، قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب^(٣)، وهذا الحديث مروي بألفاظ عدة وطرقه كثيرة في الصحاح وغيرها.

(٢)- روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- إنها نزلت في أناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله -ﷺ- فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يدرك ثم يأكلون ولا يخرجون^(٤).

(٣)- قالت عائشة -رضي الله عنها- وجماعة: سببها أن عمر -رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت^(٥)

(٤)- روى عن ابن عمر -رضي الله عنهما- في الصحيح قال: قال عمر -رضي الله عنه- (وافقت ربي في ثلاث: في مقام إبراهيم وفي الحجاب وفي أسارى بدر)^(٦). وصحح القرطبي هذه الروايات، وقال ما عدا هذا فواه لا يقوم شيء منها على ساق^(٧).

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٠٣/٣، وينظر: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١٨٨/٢، ومعالم التنزيل ٢٧٣/٥، والجامع لأحكام القرآن ٢٢٣/١٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٢٣/١٤.

(٣) المحرر الوجيز ١٠١/١٢، الجامع لأحكام القرآن ٢٢٤/١٤، روح المعاني ٦٧/٢٢، والحديث أخرجه مسلم ١٠٤٨/٢ [كتاب النكاح - باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب] برقم ١٤٢٨.

(٤) ذكره البغوي بدون إسناد في معالم التنزيل ٢٧٢/٥، الجامع لأحكام القرآن ٢٢٤/١٤.

(٥) الحديث: سبق تخريجه، ينظر: ص ١٢٦ من الرسالة.

(٦) الحديث سبق تخريجه ص ١٢٤ من الرسالة.

(٧) أسباب النزول للواحدي: ٢٤٣، الجامع لأحكام القرآن ٢٢٤/١٤.

(٥) - عن عائشة - رضي الله عنها - : أن أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصب وهو صعيد أفيح، وكان عمر رضي الله عنه يقول للنبي - صلى الله عليه وسلم - : أحجب نساءك فلم يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة ليلة من الليالي عشاء وكانت امرأة طويلة، فناداها عمر بصوته الأعلى قد عرفناك يا سودة، حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله الحجاب^(١). وتعقب ابن كثير هذه الرواية وقال: ((المشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب كما رواه البخاري، ومسلم من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها فرآها عمر بن الخطاب فقال: يا سودة، أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين...))^(٢).

(٦) - ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه - : أن عمر - رضي الله عنه - أمر نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - بالحجاب، فقالت زينب بنت جحش: يا ابن الخطاب، إنك تغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا، فأنزل الله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾^(٣) وهذه الرواية ردها ابن العربي والقرطبي وذكر أنها باطلة، لأن الحجاب نزل يوم البناء بزینب كما تبين^(٤).

(٧) - وذكر السيوطي في أسباب النزول عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: دخل رجل على النبي - صلى الله عليه وسلم - فأطال الجلوس، فخرج النبي - صلى الله عليه وسلم - ثلاث مرات ليخرج فلم يفعل فدخل عمر - رضي الله عنه - فرأى الكراهية في وجهه، فقال للرجل: لعلك آذيت النبي - صلى الله عليه وسلم -، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : «لقد قمت ثلاثاً لكي يتبعني فلم يفعل»، فقال له عمر - رضي الله عنه - : يا رسول الله، لو اتخذت حجاباً فإن نساءك لسن كسائر النساء وذلك أظهر لقلوبهن، فتزلت آية الحجاب، وذكر قول الحافظ ابن حجر: أنه يمكن الجمع بأن ذلك وقع قبل قصة زينب فلقربه منها أطلق نزول آية الحجاب بهذا

(١) معالم التنزيل ٥/٢٧٣، أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٥٧٤، والحديث أخرجه مسلم ٤/١٧٠٩ [كتاب السلام - باب إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الانسان] برقم ٢١٧٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/٥٠٥، والحديث أخرجه البخاري ١٠/٤٢٢ [كتاب النكاح - باب خروج النساء لحوائجهن] برقم ٥٢٣٧.

(٣) جامع البيان ٢٢/٤٠.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٥٧٤، الجامع لأحكام القرآن ١٤/٢٢٤.

السبب ولا مانع من تعدد الأسباب^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ ذكر الطبري أنها نزلت في قول رجل كان يدخل قبل الحجاب، قال: لئن مات محمد لأتزوجن امرأة من نسائه سماها، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية ولم يذكر الطبري من هو الرجل ومن هي المقصودة منهن^(٢). وقال الجصاص: ((روى معمر عن قتادة أن رجلاً قال: لو قبض النبي -ﷺ- لتزوجت عائشة فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾^(٣)). وذكر البغوي عن مقاتل بن سليمان أن الرجل الذي قال هو طلحة بن عبيد الله -رضي الله عنه-^(٤) وجمع القرطبي هذه الأقوال ونقل قول ابن عباس أن رجلاً من سادات قريش من العشرة الذين كانوا مع رسول الله -ﷺ- على حراء قال في نفسه: لو توفي رسول الله -ﷺ- لتزوجت عائشة وهي بنت عمي، فقال القرطبي: ((قال شيخنا الإمام أبو العباس: وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة وحاشاهم عن مثله، والكذب في نقله! وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجاهل، يروى أن رجلاً من المنافقين قال حين تزوج رسول الله -ﷺ- أم سلمة بعد أبي سلمة، وحفصة بعد خنيس بن حذافة -رضي الله عنه-: ما بال محمد يتزوج نساءنا! والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه: فنزلت الآية في هذا))^(٥).

والحقيقة أن هذا الكلام لا يصح أن يقوله إلا منافق ليس في قلبه ذرة حب لرسول الله -ﷺ- ولا يمكن أن يقوله أحد من الصحابة الذين كانوا يقدمون حب رسول الله -ﷺ- على آبائهم وأبنائهم وزوجاتهم فكيف يصدر هذا القول من صحابي جليل هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وهو طلحة بن عبيد الله -رضي الله عنه- فهذه الروايات مردودة وقد تكون من الافتراءات التي نسبت إلى ابن عباس -رضي الله عنه- وغيره من الرواة للنيل من مكانة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

(١) لباب النقول: ١٩٥-١٩٦.

(٢) ينظر: جامع البيان ٤٠/٢٢.

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/٣٧٠.

(٤) معالم التنزيل ٥/٢٧٣، وتظهر هذه الروايات في الكشف ٣/٥٥٦، وتفسير القرآن العظيم

٥٠٦/٣، وروح المعاني ٢٢/٧٤.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٤/٢٢٨-٢٢٩.

خامساً: مناسبة الآية

بعد أن ذكر حال النبي -ﷺ- مع أمته بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾^(١) أردف ذلك بيان حال المؤمنين مع النبي -ﷺ- إرشاداً لما يجب عليهم نحوه من الاحترام والتعظيم في خلوته وفي الملاء، فأبان أنه يجب عدم إزعاجه إذا كان في الخلوة بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ وأنه يجب إجلاله إذا كان في الملاء بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾^{(٢) (٣)}.

سادساً: الاعراب والقراءات

[١]- الاعراب:

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ هو في موضع الحال، أي: لا تدخلوا إلا مأذوناً لكم و﴿إِلَى﴾ تتعلق بـيؤذن لأن معناها تدعوا، ﴿غَيْرِ نَظِيرِينَ إِنَّهُ﴾ نصب على الحال أي: لا تدخلوا في هذه الحال، ولا يجوز في ﴿غَيْرِ﴾ الخفض على النعت للطعام؛ لأنه لو كان نعتاً لم يكن بد من إظهار الفاعلين لأنه حينئذ يكون جارياً على غير ما هو له فيجب أن يبرز ضمير الفاعل فيكون غير ناظرين أنتم، وهذا مذهب البصريين، أما الكوفيون فلا بأس بحذف الفاعل عندهم إذا لم يقع لبس كما هو الحال هنا^(٤).

﴿وَلَا مُسْتَفْسِدِينَ لِحَدِيثٍ﴾ هو معطوف على ناظرين، واللام تعليلية أو اللام المقوية^(٥).

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أن وما بعدها في تأويل مصدر اسم كان، والتقدير: وما كان لكم إيذاء رسول الله، وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْ تَنكِحُوا﴾ لأنه عطف عليه^(٦).

(١) سورة الفتح، الآية: ٨.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

(٣) المراغي ٢٨/٢٢، وينظر: التفسير الكبير ٢٥/٢٢٣.

(٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٤/٢٣٤، وإعراب القرآن، للنحاس ٣/٣٢٢، وإملاء ما من به الرحمن ٢/١٩٤.

(٥) إملاء ما من به الرحمن ٢/١٩٤، روح المعاني ٢٢/٧٠.

(٦) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٤/٢٣٤، ومشكل إعراب القرآن ٢/٥٨٢.

[٢] - القراءات :

﴿غَيْرَ نَظِيرَيْنِ إِنَّهُ﴾ قرأ ابن أبي عبة ﴿غَيْرِ﴾ بالكسر، وقد سبق توجيهها في الاعراب^(١).

وقرأ حمزة والكسائي، وخلف وهشام بالامالة الكبرى وورش بخُلف عنه بالامالة الصغرى في ﴿إِنَّهُ﴾ بناء على أنه مصدر أنى الطعام إذا أدرك^(٢)، وقرأها الأعمش (إناءه)^(٣).

سابعاً: وجه تسمية هذه الآية بآية الثقل

معنى الثقل كما قال ابن عاشور: ((هو إدخال أحد القلق والغم على غيره من جراء عمل لفائدة العامل، أو لعدم الشعور بما يلحق غيره من الحرج من جراء ذلك العمل، وهو من مساوئ الخلق؛ لأنه إن كان عن عمد كان ضرراً بالناس، وهو منهي عنه؛ لأنه من الأذى وهو ذريعة للتباغض عند نفاذ صبر المضرور فإن النفوس متفاوتة في مقدار تحمل الأذى... وإن كان إدخاله الغم على غيره من غباوة وقلة تفطن له فإنه مذموم في ذاته وهو يصل إلى حد يكون الشعور به بديهاً))^(٤).

وقد اتفق الفقهاء^(٥) على أنه لا يجوز دخول البيوت إلا بإذن، ولا يجوز تناول طعام الإنسان إلا بإذن صريح أو ضمني لقوله -ﷺ- «لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا عَنِ طَيْبِ نَفْسِهِ»^(٦).

فهذه الآية على ما ذهب إليه الجل من المفسرين خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام

(١) الكشف ٥٥٤/٣، الجامع لأحكام القرآن ٢٢٦/١٤، روح المعاني ٧٠/٢٢.

(٢) ينظر: الروضة في القراءات: ٧١٥، والكشف ١٩٩/٢، والتيسير: ١٧٩، والاقناع في القراءات السبع ٧٣٧/٢، لأبي جعفر أحمد بن علي الأنصاري المعروف بابن الباذش (ت ٥٤٠هـ) تح د. عبد الحميد قطامش، مط دار الفكر دمشق - سوريا، ط ١-١٤٠٣هـ، والبدور الزاهرة: ٢٥٦.

(٣) البحر المحيط ٢٤٦/٧، روح المعاني ٧٠/٢٢.

(٤) التحرير والتنوير ٨٤-٨٥/٢٢.

(٥) زوائد البيان ٣٥٠/٢، وينظر: الموسوعة الفقهية ١٤٤/٣ وما بعدها.

(٦) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٢٩٥/٣ [باب الخطب في الحج]، لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، (ت ٨٠٧هـ)، تحرير الحافظ العراقي والحافظ ابن حجر، الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط ٢ - ١٩٨٢م.

النبي -ﷺ- فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه فهي مخصوصة بهم وبأمثالهم ممن يفعل مثل فعلهم في المستقبل فالنهي مخصوص بمن دخل بغير دعوة وجلس منتظراً للطعام من غير حاجة فلا تفيد النهي عن الدخول بإذن لغير طعام ولا عن الجلوس واللبث بعد الطعام لمهم آخر ولو اعتبر الخطاب عاما لكان الدخول واللبث المذكوران منهيًا عنهما ولا قائل به^(١). وقال اسماعيل بن أبي حكيم: وهذا أدب أدب الله به الثقلاء. وقال ابن أبي عائشة في كتاب الثعلبي: حسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم^(٢).

ومعاملة الناس النبي -ﷺ- بهذا الخلق أشد بعداً عن الأدب لأن للنبي -ﷺ- أوقاتاً لا تخلو منها عن الاشتغال بصلاح الأمة ويجب أن لا يشغل أحد أوقاته إلا بأذنه ولذلك قال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾^(٣).

والظاهر في هذه الآية حرمة اللبث على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم إذا كان في ذلك أذى لرب البيت وليس ما ذكر مختصاً بما إذا كان اللبث في بيت النبي -ﷺ-، ومن هنا كان الثقل مدموماً عند الناس قبيح الفعل عند الأكياس.

ويقول الآلوسي: ((وعندي كالثقل المذكور من يدعى في وقت معين مع جماعة فيتأخر عن ذلك الوقت من غير عذر شرعي بل لمحض أن ينتظر ويظهر بين الحاضرين مزيد جلالته وأن صاحب البيت لا يسعه تقديم الطعام للحاضرين قبل حضوره مخافة منه أو احتراماً له أو لنحو ذلك فيتأذى لذلك الحاضرون أو صاحب البيت وقد رأينا من هذا الصنف كثيراً نسأل الله العافية إن فضله سبحانه كان كبيراً))^(٤).

ثامناً: ملكية البيوت للنبي -ﷺ-

إن اضافه البيوت للنبي -ﷺ- على معنى لام الملك لأن تلك البيوت ملك له ملكها بالعطية من الذين كانت ساحة المسجد ملكاً لهم من الانصار، وبالفهيء لقبور

(١) روح المعاني ٧٠/٢٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٢٤/١٤.

(٣) التحرير والتنوير ٨٥/٢٢.

(٤) روح المعاني ٧١/٢٢.

المشركين التي كانت ثمة، فإن المدينة فتحت بكلمة الإسلام فأصبحت داراً للمسلمين^(١).

فقوله تعالى: ﴿يُوتَ النَّبِيُّ﴾ دليل على أن البيت للرجل ويحكم له به فإن الله تعالى اضافهُ إليه، فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ قلنا: إضافة البيوت إلى النبي -ﷺ- إضافة ملك، وإضافة البيوت إلى الأزواج إضافة محل، بدليل أنه جعل الإذن للنبي -ﷺ- والإذن إنما يكون للمالك^(٢).

وقد اختلف العلماء في بيوت النبي -ﷺ- التي كان يسكن فيها نساؤه هل هن ملك لهن أم لا؟

فقال طائفة: كانت ملكاً لهن بدليل أنهن سكنن فيها بعد موت النبي -ﷺ- إلى وفاتهن؛ وذلك أن النبي -ﷺ- وهب لهن ذلك في حياته وقالت عائشة -رضي الله عنها-: لم يكن ذلك هبة وإنما كان إسكاناً كما يسكن الرجل أهله، وتمادى سكانهن بها إلى الموت لأحد وجهين: إما لأن عدتهن لم تنقض إلا بموتهن، وإما لأن النبي -ﷺ- استثنى ذلك لهن مدة حياتهن، كما استثنى نفقاتهن بقوله: «ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة»^(٣) فجعلها النبي -ﷺ- صدقة بعد نفقة العيال، والسكنى من جملة النفقات فإذا متن رجعت مساكنهن إلى أصلها من بيت المال كرجوع نفقاتهن، والدليل القاطع لذلك أن ورثتهن لم يرثوا عنهن شيئاً من ذلك ولو كانت المساكن ملكاً لهن لورث ذلك ورثتهن عنهن فلما ردت منازلهن بعد موتهن في المسجد الذي تعم منفعته جميع المسلمين دل ذلك على أن سكانهن إنما كانت متاعاً لهن إلى الممات ثم رجعت إلى أصلها في منافع المسلمين^(٤).

تاسعاً: خصوصية حكم الآية ببيوت النبي -ﷺ-

يتبين لنا من نص الآية الكريمة أنها في صدد بيوت النبي -ﷺ- وزوجاته

(١) التحرير والتنوير ٨٤/٢٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٢٥/١٤.

(٣) البخاري ٦٥/٦ [كتاب الوصايا - باب نفقة الموقوف] برقم ٢٧٧٦، مسلم ١٣٨٢/٣، [كتاب الجهاد والسير - باب قول النبي ﷺ (لا نورث ما تركنا فهو صدقة)] برقم ١٧٦٠.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ١٥٧٥-١٥٧٦/٣.

بخاصته، كما أن من الواضح منها أن الحجاب المذكور فيها لا يعني نقاب الوجه وإنما يعني ستار الباب أو حجابهُ وأن الأمر بسؤالهن من وراء حجاب إذا أريد سؤالهن متاعاً مستتبع للأدب الذي ترشد إليه الآية بعدم الدخول لبيوت النبي - ﷺ - إلا بإذن ودعوة إلى طعام وعدم إطالة المكث للسمر والحديث.

أما ما يتعلق بسائر المسلمين والمسلمات في صدد الدخول على بيوت بعضهم وتناول الطعام فسيأتي الحديث عنها في بابها، والمتبادر أن حالة بيوت النبي - ﷺ - التي لم تكن إلا حجرات في طرف الساحة المسورة التي اتخذ النبي - ﷺ - قسماً منها للصلاة والاجتماع بالناس هي التي اقتضت هذا النهي، ومع ذلك فإن ما تأمر به الآية من عدم الدخول إلا بعد الإذن وعدم إطالة المكث بقصد السمر بدون رضا أهل البيت وارتياحهم هي آداب رفيعة يصح أن يتأدب بها المسلمون جميعاً^(١).

قال أبو بكر الجصاص: ((وهذا الحكم وإن نزل خاصاً في النبي - ﷺ - وأزواجه فالمعنى عام فيه وفي غيره إذ كنا مأمورين باتباعه والافتداء به إلا ما خصه الله به دون أمته))^(٢).

عاشراً: معالجة القرآن الكريم لبعض المخالفات في البيوت

لقد تضمنت هذه الآية أمرين مهمين أولهما: الآداب العامة عند الطعام والجلوس له، وثانيهما: الحجاب وعدم الاختلاط، وقد نزلت هذه الآية في بيت النبي - ﷺ - ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذه آداب ينبغي أن يتخلق بها المسلمون لما فيها من الحكم الاجتماعية والمزايا العمرانية.

فالأمر الأول وهو آداب الطعام والجلوس له، فنهى عن الدخول إلى البيوت إذا كانت هناك دعوة من أصحابها إلا إذا علم أن الطعام قد تم نضجه، وانتهى إعدادهُ، إذ قبل ذلك يكون أهل البيت في شغل وقد تلبس النساء ثياب البذلة والعمل، فلا يحسن رؤيتهن وهنّ على تلك الحال وربما يبدو من إحداهن ما لا يحل النظر إليه^(٣)، وكذلك المكث والجلوس بعد تناول الطعام فإنه مخالف لآداب الإسلام لما فيه من

(١) ينظر: التفسير الحديث ٨/ ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٧٠.

(٣) ينظر: تفسير المراغي ٢٢/ ٢٩.

الإثقال على أهل المنزل سيما إذا كانت الدار ليس فيها سوى بيت واحد، اللهم إلا إذا كان الجلوس بإذن صاحب الدار أو أمره، أو كان جلوساً يسيراً تعارفه الناس لا يصل إلى حد الإثقال المذموم^(١).

فما أحوج المسلمين اليوم إلى هذا الأدب الذي يجافيه الكثيرون، فإن المدعوين إلى الطعام يتخلفون بعده بل إنهم ليتخلفون على المائدة ويطول بهم الحديث وأهل البيت الذين يحتفظون ببقية من أمر الإسلام بالاحتجاب متأذون محتبسون، والأضياف ماضون في حديثهم وفي سمرهم لا يشعرون، وفي الأدب الاسلامي غناء وكفاء لكل حالة لو كنا نأخذ بهذا الأدب الالهي القويم^(٢).

أما الأمر الآخر الذي دعت إليه الآية الكريمة فهو أمر الحجاب إذ الآية الكريمة وإن كانت وردت في شأن بيوت النبي - ﷺ - خاصة تعظيماً وتشريفاً له - ﷺ - لكن الأحكام فيها عامة تعم جميع المؤمنين.

فالقرآن يعالج أمر الحجاب مبتدئاً بأمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - اللاتي هن أظهر النساء وأعفهن حتى يدرك ويفهم الذين يدعون إلى الاختلاط بأن هذا الأمر في غاية الخطورة وإلا فما سبب الحوادث التي تطلعننا بها جرائدنا في كل يوم وما نسمع عن الخيانات والقتل والطلاق؟! أليس مرجعها كلها إلى ضعف الوازع الديني وإلى الاختلاط في البيوت وعدم التقيد بالحجاب الشرعي؟^(٣).

فلا يقل أحد غير ما قاله الله - ﷻ - لا يقل أحد أن الاختلاط وإزالة الحجب، والترخص في الحديث، واللقاء، والجلوس، والمشاركة بين الجنسين أظهر للقلوب، وأعف للضمائر وأعون في تصريف الغريزة المكبوتة... إلى آخر ما يقوله نفر من خلق الله الضعاف المهازيل الجهال المحجوبين، لا يقل أحد شيئاً من هذا والله يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يقول هذا عن نساء النبي - ﷺ - الطاهرات أمهات المؤمنين - رضي الله

(١) روائع البيان ٣٥١/٢.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن ٦٠٨/٢٢.

(٣) التفسير الواضح ٢١/٢٢.

عنهن - وعن رجال الصدر الأول من الصحابة ممن لا تتناول إليهن وإليهم الأعناق -
ﷺ - (١).

حادي عشر: ما يستفاد من الآية من أحكام وآداب

من أهم الأحكام والآداب التي تؤخذ من هذه الآية هي:

(١) - تضمين (الإذن) معنى (الدعوة) لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا﴾
الإشعار بأنه لا ينبغي أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة، وإن وجد صريح الإذن
بالدخول، حتى لا يكون الإنسان طفيلياً يحضر الوليمة بدون سابق دعوة وهو الذي
تسميه العرب الضيفن (٢).

(٢) - الأمر في قوله: ﴿فَادْخُلُوا﴾ للندب؛ لأن إجابة الدعوة سنة، فعلى المسلم أن
يكون متواضعاً غير متعال، لا يمتنع على أخيه المسلم إذا دعاه، قال رسول الله - ﷺ -:
«إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرساً كان أو غيره» (٣).

(٣) - إلزام الخروج من المنزل عند انقضاء المقصود من الأكل، والدليل على ذلك أن
الدخول حرام، وإنما جاز لأجل الأكل، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح وعاد
التحريم إلى أصله، وفي الصحيح عن رسول الله - ﷺ -: «لو دعيت إلى ذراع لأجبت،
ولو أهدي إلي كراع لقبلت، فإذا فرغتم من الذي دعيت إليه فخففوا عن أهل المنزل
وانتشروا في الأرض» (٤).

(٤) - في هذه الآية دليل على أن طعام الوليمة ملك للمضيف وليس ملكاً للمدعوين
لأنهم إنما أذن لهم في الأكل منه خاصة ولم يملكوه، فلذلك لا يجوز لأحد رفع شيء
من ذلك الطعام معه (٥).

(١) في ظلال القرآن ٢٢/٦٠٨.

(٢) روائع البيان ٢/٣٤٥، وينظر: تفسير القرآن العظيم ٣/٥٠٥.

(٣) ينظر: المغني ٧/٢١٦، ونيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح متقى الأخبار ٥/١٧٨ -
١٨٠، للإمام الشوكاني، مط دار الفكر العلمية، بيروت - لبنان، وتأملات في سورة الأحزاب:
٤٤٩، للدكتور حسن باجودة، مط الصفا نادي مكة الثقافي، ١٤٠٣هـ، والحديث أخرجه مسلم
١٠٥٢/٢ [كتاب النكاح - باب الأمر بإجابة الداعي إلى الدعوة] برقم ١٤٢٩.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٤/٢٢٦، وينظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٥٧٨، والحديث
أخرجه البخاري ٥/٥١٣ [كتاب الهبة وفضلها - باب القليل من الهبة] برقم ٢٥٦٢.

(٥) التحرير والتنوير ٢٢/٨٥، وينظر الجامع لأحكام القرآن ١٤/٢٢٧.

(٥)- قوله تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ إشارة إلى ما يدعو الذين يدخلون بيوت النبي -ﷺ- وإطالة المكث فيها إنما هو الأنس بالرسول والاستماع لحديثه، وهذا وإن كان مما يحبب للمسلم إلا أن هذا ليس مكانه حيث جعلت البيوت للسكن والراحة^(١).

(٦)- في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ هذا يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته^(٢). وفيه إشارة دقيقة إلى أن ما بين العين والقلب من صلة وثيقة، فالعين طريق الهوى، والنظرة بريد الشهوة، فإذا لم تر العين لا يشتهي القلب، فالقلب عند عدم الرؤية أظهر، وعدم الفتنة حينئذ أظهر^(٣).

(٧)- حرمة نكاح أزواج النبي -ﷺ- من بعده حرمة أبدية، وهذا من خصائصه -ﷺ- فقد خصص بأحكام وشرف بمعالم ومعان لم يشاركه فيها أحد، تمييزاً لشرفه وتنبهها على مرتبته -ﷺ-^(٤).

(٨)- حرمة إيذاء الرسول -ﷺ- بالأقوال أو الأفعال، والتأدب معه في جميع الأحوال^(٥).

ثاني عشر: المعنى العام

الخطاب في هذه الآية موجه إلى المؤمنين ينهاهم فيه عن دخول بيوت النبي -ﷺ- إلا بدعوة إلى طعام على أن لا يأتوا قبل إيدانهم بنضجه، فإذا نضج الطعام ودعوا فليدخلوا، وإذا أكلوا فليبادروا إلى الخروج ولا يمكثوا مستأنسين بالحديث كما فعل بعضهم في وليمة زينب بنت جحش -رضي الله عنها-.

وجاءت الآية لتنبههم على أن ذلك التصرف كان يثقل على النبي -ﷺ- ويؤذيه

(١) ينظر: التفسير القرآني للقرآن ٧٤٦/٢٢.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١٥٧٩/٣، التفسير الواضح ٢٢/٢٢، فتح البيان في مقاصد القرآن ٤٠٢/٧، لصديق حسن خان (ت ١٣٠٧هـ) مط العاصمة، القاهرة.

(٣) روائع البيان ٣٤٧/٢.

(٤) ينظر: أحكام القرآن للشافعي ١٦٧/١، وأحكام القرآن لابن العربي ١٥٧٩/٣.

(٥) روائع البيان ٣٥٣/٢.

وأي إيذاء أكبر من بقاء عامة الناس في بيت الزوجية! الذي هو حق لها وسكن للزوج مع زوجته، ولكنه - ﷺ - كان يستحي منهم فلا يصارحهم، والله لا يستحي من الحق ولذلك فهو ينهاهم وينبههم على ما يقتضي أن يتحلّوا فيه من الأدب في هذا الباب. وبعد ذلك ينظم القرآن علاقة المسلمين ببيوت النبي - ﷺ - وبنسائه - أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - في حياته وبعد وفاته، فإذا ما كان لأحدهم حاجة ما عند نساء النبي - ﷺ - فعليهم أن يسألوهنّ عنها من وراء ستر، فهذا الأدب هو أظهر لقلوبهم وقلوبهنّ فما على المسلمين إلا أن يلتزموا هذه الآداب ولا يؤذوا رسول الله - ﷺ - بمخالفتها.

وفي ختام هذه الآية يقرر حرمة تزوج نساء النبي - ﷺ - من بعده حرمة أبدية فهن - رضي الله عنهن - بمنزلة أمهاتهم، فإنّ إثم ذلك عند الله عظيم، وعليهم أن يذكروا دائماً أن الله عليم بكل شيء سواء أظهره أم أخفوه في صدورهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (١) (٢).

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.

(٢) ينظر: التفسير الحديث ٨/ ٢٨١.

المبحث الثاني

بيوت بقية الأنبياء ﷺ

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: بيت سيدنا نوح وسيدنا لوط - ﷺ - .

المطلب الثاني: بيوت سيدنا موسى وسيدنا هارون - ﷺ - وقومهما.

المطلب الأول

بيت سيدنا نوح وسيدنا لوط عليهما الصلاة والسلام

سنحلل في هذا المبحث الآيات الآتية:

- (١) - قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَارًا﴾^(١).
- (٢) - قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٢).

وستعرف معاني الآيات في النقاط الآتية:

أولاً: معنى (الإيمان) و(الإسلام)

- (١) - معنى (الإيمان) في اللغة: التصديق، وهو مصدر آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن، واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق^(٣) وفي الشرع: هو الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان، قيل: من شهد وعمل ولم يعتقد فهو منافق، ومن شهد ولم يعمل واعتقد فهو فاسق، ومن أخلّ بالشهادة فهو كافر^(٤).

(الإيمان) في الغريب: وهو يستعمل تارة اسماً للشيعة التي جاء بها سيدنا محمد - ﷺ - وعلى ذلك: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ﴾^(٥) ويوصف به كل من دخل في شريعته مقراً بالله وبنبوته، وتارة يستعمل على سبيل المدح، ويراد به

(١) سورة نوح، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٣٥ - ٣٦.

(٣) اللسان مادة (أمن) ١/١٤١.

(٤) التعريفات: ٢٨.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٦٩.

إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيق بالقلب وإقرار باللسان، وعمل بحسب ذلك بالجوارح^(١).

(الإيمان) في الوجوه والنظائر: يأتي بعدة معاني منها^(٢):

أ- التصديق في السر والعلانية، فذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾^(٣).

ب- الإقرار باللسان من غير تصديق، فذلك قوله تعالى في السورة التي يذكر فيها المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغَىٰ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٤) أي: أقروا باللسان بالعلانية ثم كفروا في السر ولم يصدقوا النبي - ﷺ -.

ج- التوحيد، فذلك قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِلَٰهَيْنِ﴾^(٥) يعني: التوحيد.

د- الإيمان في شرك، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾^(٦) يعني: مشركي العرب وإيمانهم.

(١)- (الإسلام) في اللغة: هو الإنقياد وإظهار الخضوع والقبول لما أتى به سيدنا محمد - ﷺ -، وبه يحقن الدم، وأن كل ما يكون الإقرار به باللسان من غير ما واطأ القلب فهو إسلام، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان، وهذا مذهب الشافعي، وأما مذهب أبي حنيفة فلا فرق بينهما^(٧).

(الإسلام) في الغريب: الدخول في السلم، وهو أن يسلم كل واحد منهما أن يناله من ألم صاحبه، وهو في الشرع على ضربين:

أحدهما: دون الإيمان، وهو الاعتراف باللسان، وإياه قصد بقوله: ﴿قَالَتِ

(١) المفردات: ٩١.

(٢) الأشباه والنظائر: ١٣٧ - ١٣٨، وينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ١٤٧.

(٣) سورة البينة، الآية: ٧.

(٤) سورة المنافقون، الآية: ٣.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٥.

(٦) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

(٧) ينظر: التهذيب مادة (سلم) ٤٥٢/١٢، والتعريفات: ٢٠، واللسان مادة (سلم) ٢٠٨٠/٣.

الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا^(١).

والثاني: فوق الإيمان، وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب، ووفاء بالفعل واستسلام لله في جميع ما قضى وقدر، كما ذكر عن إبراهيم - عليه السلام - في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) (٣).

(الإسلام) في الوجوه والنظائر: يأتي على وجهين^(٤):

فوجه منهما بمعنى الإخلاص، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني أخلصت لرب العالمين.

والوجه الثاني: يعني الإقرار، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾^(٥) يعني أقر بالعبودية.

ثانياً: تحليل الألفاظ عند المفسرين

قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَعْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي﴾ أبوه لمك بن متوشلخ بن خنوع وهو إدريس وأمه شمخي بنت أنوش، وحكى الماوردي في اسم أمه منجل^(٦).

وكانا مؤمنين ولولا ذلك لم يجز الدعاء لهما بالمغفرة^(٧)، وقيل: هما آدم وحواء وقال سعيد بن جبير: أراد بالديه أباه وجده^(٨). وقال عطاء: لم يكن بين نوح وآدم - عليه السلام - من آبائه كافر وكان بينه وبين آدم عشرة آباء^(٩).

﴿وَلَمَنْ دَخَلَ بَيْتَكَ مُؤْمِنًا﴾ قيل بيته: المسجد وقيل: السفينة، وقيل: شريعته سماها بيتاً استعارة وهذا بعيد وقيل: داره وهذا أرجح لأنه الحقيقة^(١٠).

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٣١.

(٣) المفردات: ٤٢٣.

(٤) الأشباه والنظائر: ١٣٦.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٨٣.

(٦) النكت والعيون ٣١٦/٤، الجامع لأحكام القرآن ٣١٣/١٨.

(٧) روح المعاني ٨٠/٢٩.

(٨) فتح القدير ٣٠٢/٥.

(٩) التفسير الكبير ١٤٦/٣، إرشاد العقل السليم ١٩٩/٥، حاشية الصاوي ١١٤/٤.

(١٠) التسهيل لعلوم التنزيل ١٥١/٤، وينظر: روح المعاني ٨١/٢٩.

وقوله: ﴿مُؤْمِنًا﴾ بهذا القيد خرجت امرأته وابنه كنعان ولكن لم يجزم عليه السلام بخروجه إلا بعد ما قيل له: إنه ليس من أهلك^(١).

﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ عامة إلى يوم القيامة، قاله الضحاك، وقال الكلبي: من أمة محمد - ﷺ - وقيل من قومه، والأول أظهر^(٢).

﴿نَبَارًا﴾ هلاكاً، وقيل: الخسران، حكاهما السدي، وقيل: الدمار والمعنى واحد^(٣)، قال الآلوسي: ((والأول أظهر))^(٤).

﴿فَمَا وَحَدَّنَا فِيهَا﴾ أي: في قرى قوم لوط وإضمارها بغير ذكر لشهرتها.

﴿غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي: غير أهل بيت، يقال: بيت شريف ويراد به أهله.

﴿مَنْ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال مجاهد: هم لوط وابنتاه، وعن سعيد بن جبير قال: كانوا ثلاثة عشر^(٥).

قال قتادة: لو كان فيها أكثر من ذلك لأنجاهم؛ ليعلموا أن الإيمان محفوظ لا ضيعة على أهله عند الله^(٦).

ثالثاً: المناسبة للآيتين

(١) - مناسبة الآية الأولى

قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتَ مُؤْمِنًا وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾.

مناسبة الآية لما قبلها: بعد أن ذكر مقالة سيدنا نوح - ﷺ - وشكواه إليه، وبما جازى قومه من الغرق والعذاب وأنهم لم يجدوا من يدفعهما عنهم، وبعد أن ذكر دعاء سيدنا نوح - ﷺ - على قومه بأن لا يُبقي من الكافرين من يسكن داراً أو يدور في الأرض؛ لأن كل واحد من ساكني هذه الديار كان يتوارث عن أبيه وجده العداوة

(١) إرشاد العقل السليم ١٩٩/٥، فتح القدير ٣٠٢/٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٣١٤/١٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) روح المعاني ٨١/٢٩.

(٥) إرشاد العقل السليم ١٠٣/٥، روح البيان ١٦٤/٩-١٦٥، روح المعاني ١٤/٢٧.

(٦) جامع البيان ٢/٢٧، الكشف ٤٠٢/٤ - ٤٠٣.

لسيدنا نوح - عليه السلام - ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على تلك العداوة، وبعد أن يؤس من هدايتهم وبعد أن أعلمه الله بقوله: ﴿أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾^(١) دعا عليهم بالهلاك، ولما دعا على أعداء الله تعالى دعا أيضاً لأوليائه^(٢).

(٢) - مناسبة الآية الثانية

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. مناسبة الآية لما قبلها: لما أراد الله تبارك وتعالى أن يهلك المجرمين المفسدين - الذين تجاوزوا الحدود ولم يقنعوا بما أبيع لهم ولم تنفعهم الموعظة ولا الإرشاد - وذلك بأن يرسل عليهم حجارة من طين مسومة للمفسدين، مَيَّرَ الله تبارك وتعالى عنهم المؤمنين فلم يشملهم بعذابه بل إنه أمرهم بالخروج من القرى التي سينزل بها عقابه فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَحَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣).

رابعاً: الإعراب والقراءات

[١] - الإعراب

﴿وَحَدَّنَا﴾ بمعنى علمنا لأن (وجد) من أخوات (ظن) فمفعوله الأول قوله: ﴿مَنْ الْمُسْلِمِينَ﴾ و(من) مزيدة لتأكيد النفي. وقوله: (فيها) في محل المفعول الثاني^(٤). ويجوز أن يعود الضمير في قوله (فيها) على القرية، أي: تركنا في القرية علامة، كالحجارة أو الماء الممتن، ويجوز أن يعود على إلا هلاكة المفهومة من السياق^(٥).

[٢] - القراءات

قرأ عامة القراء: ﴿وَلَوْلَدَى﴾ بفتح الدال على أنه تشنية والد يريد أبويه، وقرأ الحسين بن علي - عليه السلام - ويحيى بن يعمر والنخعي: (ولولدي) تشنية ولد يعني ابنه ساما وحاماً^(٦).

(١) سورة هود، الآية: ٣٦.

(٢) ينظر: التفسير الكبير ١٤٦/٣٠، وتفسير المراغي ٨٩/٢٩.

(٣) ينظر: السراج المنير ٨٤/٤.

(٤) المصدر السابق ٧/٢٧.

(٥) الدر المصون: ١٩٠/٦.

(٦) التفسير الكبير ١٤٦/٣٠، البحر المحيط ٣٤٣/٨، روح المعاني ٨١/٢٩.

وقرأ ابن جبير والجحدري: (ولو الذي) بكسر الدال يعني أباه فيجوز أنه أراد أباه الأقرب الذي ولده وخصه بالذكر لأنه أشرف من الأم وأن يريد جميع من ولده من لدن آدم إلى من ولده^(١).

خامساً: معنى المؤمنين والمسلمين في الآية

وصف الله تبارك وتعالى أهل بيت لوط - ﷺ - بالمؤمنين وبالمسلمين لأنهم جمعوا الوصفين^(٢)، والحق أن المسلم أعم من المؤمن وإطلاق العام على الخاص لا مانع منه، فإذا سمي المؤمن مسلماً لا يدل على اتحاد مفهوميهما فكأنه تعالى قال: أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الأعم منهم إلا بيتاً من المسلمين، ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين، وهذا كما لو قال قائل لغيره: من في البيت من الناس؟ فيقول له ما في البيت من الحيوانات أحد غير زيد، فيكون مخبراً له بخلو البيت عن كل إنسان غير زيد^(٣). وهذا فيه إشارة لما ذكره الخطابي حيث قال: ((المسلم قد يكون مؤمناً في بعض الأحوال وقد لا يكون مؤمناً في بعضها والمؤمن مسلم في جميع الأحوال.... فإذا كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً))^(٤).

والمؤمن: وهو المصدق بما يجب التصديق به، والمسلم: المنقاد إلى مقتضى الإيمان ولا نجاة إلا بمجموع الأمرين فحصل في الكلام مع التفنن في الألفاظ الإشارة إلى التنويه بكليهما وإلى أن النجاة باجتماعهما.

والآية تشير إلى أن امرأة لوط كانت تظهر الانقياد لزوجها وتضمهر الكفر وموالاته أهل القرية على فسادهم، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتَ نُوحَ وَأَمْرَاتَ لُوطَ﴾^(٥). فبيت لوط كان كله من المسلمين ولم يكن كله من المؤمنين،

(١) ينظر: إعراب القرآن للنحاس ٤٣/٥، ومختصر في شواذ القراءات: ١٦٢، والبحر المحيط ٣٨٣/٨.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ٧٠/٤، تفسير الجلالين: ٦٩٢.

(٣) التفسير الكبير ٢٨/٢١٩.

(٤) شرح السنة ١١/١، لأبي محمد البغوي، تح شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، مط المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٢ - ١٩٨٣م.

(٥) سورة التحريم، الآية: ١٠.

فلذلك لم ينج منهم إلا الذين اتصفوا بالإيمان والإسلام معاً^(١).

سادساً: أهمية اختيار مكان البيت

إن اختيار مكان الاستيطان بالنسبة للبيوت من الضروريات المهمة وتجنب بناء البيوت في البؤرة الفاسدة؛ لئلا تسري العادات السيئة والأخلاق الذميمة إلى داخل البيت المسلم، وفي هذا يقول الشاعر:

لا تربط الجرباء قرب صحيحة خوفي على تلك الصحيحة تجرب^(٢)

ويقول الفخر الرازي: ((إن الكفر إذا غلب والفسق إذا فشا لا تنفع معه عبادة المؤمنين، بخلاف ما لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة، وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويزنون، وقيل في مثاله أن العالم كبذن ووجود الصالحين كالأغذية الباردة والحارة، والكفار والفساق كالسموم الواردة عليه الضارة ثم إن البدن إن خلا عن المنافع وفيه المضار هلك، وإن خلا عن المضار وفيه المنافع طاب عيشه ونما وإن وجد فيه كلاهما فالحكم للغالب فكذاك البلاد والعباد))^(٣).

سابعاً: العمل الصالح وليس النسب وسيلة للنجاة

في قصة غرق قوم نوح فإنه - ﷺ - نادى ابنه أن يركب معه في السفينة لينجو من الغرق فرفض الابن ذلك، فدعا نوح - ﷺ - ربه بشأته وأخبره الله تعالى بأنه ليس من أهلك الذين وعدتك بإنجائهم لكونه كافراً وهذا يبين لنا أن نسب الإنسان لا يغني عنه شيئاً إذا كان صاحبه عارياً من الإيمان والعمل الصالح، فابن نوح لا شك في رفعة نسبه فهو ابن رسول الله، ولكن لم ينفعه شيئاً لكونه كافراً فالله تعالى يجزي الناس في الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم الصالحة وليس بأنسابهم، ولا يحابي أحداً منهم لأجل آبائه وأجداده الصالحين وإن كانوا من الأنبياء والمرسلين^(٤).

وما قلنا هو من أصول شريعتنا الإسلامية فقد أخرج الإمام مسلم عن عائشة

(١) التحرير والتنوير ٨/٢٧

(٢) لم أهتد إلى قائله.

(٣) التفسير الكبير ٢٨/٢١٩.

(٤) تفسير المنار ٨٧/١٢.

- ﷺ - قالت: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(١) قام رسول الله - ﷺ - على الصفا فقال: «يا فاطمة بنت محمد! يا صفية بنت عبد المطلب! يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً سلوني من مالي ما شئتم»^(٢).

وفي كتاب الله إخبار عن أبي لهب وأن مصيره إلى النار؛ لكفره ولم يغن عنه كونه عم رسول الله - ﷺ - فاعتبروا يا أولي الألباب.

ونستدل بقصة هلاك ابن نوح على أن الإيمان والعمل الصالح لا علاقة لهما بالوراثة والأنساب وإلا كان ابن نوح مؤمناً، وإنما يكون الإيمان والعمل الصالح بكسب الإنسان وتركية نفسه^(٣).

لذلك فإن الله سبحانه عبر عن قوم لوط الناجين بـ(المؤمنين) للإشارة إلى أن إيمانهم هو سبب نجاتهم^(٤).

لذا قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَحَدَّا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ دون أن يقول: فأخرجنا لوطاً وأهل بيته قصداً للتنويه بشأن الإيمان والإسلام، أي: أن الله نجاهم من العذاب لأجل إيمانهم بما جاء به رسولهم لا لأجل أنهم أهل لوط، وأن كونهم أهل بيت لوط لأنهم انحصروا فيهم وصف (المؤمنين) في تلك القرية فكان كالكلي الذي انحصر في فرد معين^(٥).

ثامناً: مصاحبة المؤمنين لا تنفع إذا لم يكن المصاحب مؤمناً

إن امرأة نوح لم تكن من أهل نوح الذين وعد الله نوحاً بإنجائهم، وإنما كانت من الذين سبق عليهم حكم الله بالغرق لكفرهم، وعلمنا ذلك بإخبار الله لنا بأن امرأته كانت من الكافرين، ولذلك استحققت دخول النار قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ٣٤٩ - ٣٥٠، المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ١٦٧/١، للدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ١ - ١٩٩٧، والحديث أخرجه الإمام مسلم ١٩٢/١ [كتاب الإيمان - باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ برقم ٢٠٥.

(٣) تفسير المنار ١٢/ ٨٦.

(٤) التحرير والتنوير ٢٧/ ٧.

(٥) التحرير والتنوير ٢٧/ ٨.

لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتٌ نُوحٍ وَأَمْرَاتٌ لُّوطٍ ۚ كَانَتَا ۚ وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يغني عنهم شيئاً ولا ينفعهم عند الله تعالى إن لم يكن الإيمان حاصلًا في قلوبهم، ثم ذكر المثل فقال: ﴿أَمْرَاتٌ نُوحٍ وَأَمْرَاتٌ لُّوطٍ ۚ كَانَتَا﴾ أي: نبين رسولين كانتا عندهما في صحبتها ليلًا ونهاراً يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشدَّ العشرة والاختلاط (فخانتاهما) أي: في الإيمان لم توافقاها على الإيمان ولا صدقتاهما في الرسالة فلم يُجد ذلك كله شيئاً ولا دفع عنهما محذوراً ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لكفرهما (وقيل) أي: للمرأتين: ﴿أَدْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ وليس المراد (فخانتاهما) في فاحشة، بل في الدين فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون وكانت على غير دينه وتطلع على سره فإذا آمن أحد برسالة نوح - ﷺ -، أخبرت الجبابة من قوم نوح - ﷺ - بإيمانه (١).

وأما امرأة لوط - ﷺ - فكانت على غير دين لوط، وكانت تخبر قومها بضيوف لوط، فتبين أنه إذا كان للكافر صلة نسب أو زوجية أو قرابة من مؤمن أو صالح، فهذه الصلة لا تنفع الكافر كما رأينا في امرأة نوح وامرأة لوط وهما زوجتا نبين كريمين، فهذه الرابطة الزوجية لم تغنيا عنهما من الله شيئاً لكفرهما، وكذلك يقال بالنسبة للعاصي إذ كانت له صلة قرابة أو زوجية برجل صالح، وفي الحديث عن رسول الله - ﷺ -: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» (٢).

تاسعاً: استحباب دخول الصالحين والأخيار إلى البيوت وتجنب الطالحين والأشرار

إن دخول أهل الإيمان البيت يزيده نوراً ويحصل بسبب أحاديثهم وسؤالهم والنقاش معهم فوائد كثيرة، ويقول رسول الله - ﷺ -: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم ٣٩٣/٤، والمستفاد من قصص القرآن ١٦٧/١ - ١٦٨.
(٢) ينظر: المستفاد من قصص القرآن ٢٣٥/١، والحديث أخرجه مسلم ٢٠٧٤/٤ [كتاب الذكر والدعاء والتوبة - باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن] برقم ٢٦٩٩، وهو جزء من حديث طويل.

يأكل طعامك إلا تقي»^(١) وحامل المسك إما يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، وجلوس الاخوان والأولاد والآباء وسماع النساء من وراء حجاب لما يقال فيه تربية للجميع، وإذا أدخل الخير إلى البيت فقد منع الشر من الدخول، والشر خطره عظيم في إفساد البيت المسلم ويقول رسول الله - ﷺ -: «إنما مثل المجلس الصالح والمجلس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»^(٢) وفي رواية البخاري: «وكير الحداد يحرق بيتك أو ثوبك أو تجد منه ريحاً خبيثة»^(٣) نعم يحرق البيت بأنواع الإفساد، وكم كان دخول المفسدين والمشبهين سبباً للعداوات بين أهل البيت، والتفريق بين الرجل وزوجته، وغير ذلك من الأمور التي لا تحمد عقباها^(٤).

عاشراً: دلالة الآيات وما يستفاد منها

دلت الآيات على عدة فوائد منها:

- (١)- أن سيدنا نوحاً - ﷺ - دعا دعوتين: دعوة على الكافرين، ودعوة للمؤمنين وحين استجيب له الأولى فلا يبعد أن تستجاب له الثانية والله تعالى أكرم الأكرمين^(٥).
- (٢)- بيان أنه ببركة المحسن ينجو المسيء فإن القرية ما دام فيها المؤمن لم تُهلك^(٦).

(١) سنن أبي داود ١٦٧/٥ [كتاب الأدب - باب من يؤمر أن يجالس] برقم ٤٨٣٢، سنن الترمذي ٤/

٦٠١ [كتاب الزهد عن رسول الله - ﷺ - باب ما جاء في صحبة المؤمن] برقم ٢٣٩٥.

(٢) مسلم ٢٠٢٦/٤ [كتاب البر والصلة والآداب - باب استحباب مجالسة الصالحين] برقم ٢٦٢٨.

(٣) البخاري ٢١٠١/٥، [كتاب البيوع - باب العطار وبيع المسك] برقم ٢١٠١.

(٤) ينظر: أربعون نصيحة لإصلاح البيوت: ٢٨، لمحمد صالح المنجد، مط دار الخضير المدينة المنورة، ط ٢ - ١٤١٧هـ.

(٥) روح المعاني ٨١/٢٩.

(٦) التفسير الكبير ٢٨/٢١٩، حاشية الشيخ زاده ٨/٢٧٧.

(٣)- شمل دعاء سيدنا نوح - ﷺ - كل ظالم إلى يوم القيامة كما شمل دعاؤه للمؤمنين والمؤمنات كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة^(١). وقال بعض العلماء: إن الإله الذي استجاب لنوح - ﷺ - فأغرق بدعوته جميع أهل الأرض الكفار حقيق أن يستجيب له فيرحم بدعوته جميع المؤمنين والمؤمنات^(٢).

(٤)- يؤخذ من هذا أن سنة الدعاء أن يقدم الإنسان الدعاء لنفسه على الدعاء لغيره^(٣) فسيدنا نوح - ﷺ - بدأ بنفسه لأنها أولى بالتخصيص والتقديم ثم ثنى بالمتصلين به نسباً ودينياً لأنهم أحق بدعائه من غيرهم، ثم عمم جميع المؤمنين والمؤمنات ليكون ذلك أبلغ في الدعاء^(٤).

(٥)- دعاء سيدنا نوح - ﷺ - لوالديه هو برّ النبوة بالوالدين المؤمنين ولو لم يكونا مؤمنين لروجع فيهما كما روجع في شأن ولده الكافر الذي أغرق مع المغرقين (كما جاء في سورة هود) ودعاؤه الخاص لمن دخل بيته مؤمناً هو بر المؤمن بالمؤمن، وحب الخير لأخيه كما يجب لنفسه^(٥).

حادي عشر: المعنى العام

قوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾ بينت هذه الآية العاقبة الحسنة لأهل الإيمان ونجاتهم بسبب إيمانهم الثابت بالله وبما جاء به نبيهم نوح - ﷺ - ، فأخبر سبحانه وتعالى حكاية مناجاة سيدنا نوح - ﷺ - لربه ودعائه لنفسه، ثم رتب المدعو لهم على الأحق فالأحق فقال: ﴿وَلِوَلَدَيَّ﴾ وقد كانا مؤمنين، ﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتَ مُؤْمِنًا﴾ مصداقاً بدعوتي ورسالتي، ثم ختم ذلك الدعاء ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي: العريقين في هذا الوصف، ولا تزددهم في حال من الأحوال إلا مفازاً وخلاصاً من العذاب.

ولما أتم الدعاء لنفسه ولوالديه وللمؤمنين عاد ليكرر الدعاء على الظالمين بالهلاك

(١) فتح القدير ٢٠٢/٥.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ١٥٢/٤.

(٣) المصدر السابق ١٥١/٤.

(٤) لباب التأويل ١٥٧/٧.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن ٣٠٧/٢٩ - ٣٠٨، وروح القرآن: ٨٩.

والخسران فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا نَبَارًا﴾ أي: إلا هلاكاً مُدمراً قاطعاً لأعقابهم مخرباً لبيوتهم^(١).

أما الآية الأخرى فجاءت متممة لفضل الله على المؤمنين وبيان منزلتهم عند الله فإن العذاب الذي أنزله الله بقري قوم لوط - ﷺ - كان سابقاً له الأمر بإخراج المؤمنين، وهم أهل ذلك البيت الذي كان أهله عريقين في الإسلام منقادين لأوامره ظاهراً وباطناً من غير اعتراض، فكان حقاً على الله أن يكرمهم بالنجاة من ذلك العذاب الذي أحاط بالمسرفين ﴿وَلَا يَظِلُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٢).

(١) ينظر: نظم الدرر ٤٥٩/٢٠ - ٤٦٠.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

المطلب الثاني

بيوت موسى وهارون - ﷺ - وقومهما

سنحلل في هذا المبحث قوله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وستتعرف معاني هذه الآية من خلال النقاط الآتية:

أولاً: تحليل المفردات

(١) - ﴿تَبَوَّءَا﴾ وقد تقدم تحقيق هذه الكلمة في قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ ومعنى بوأته داراً: أسكنته إياها، وبوأ له كذلك، وتبوأ بيتاً: اتخذ مسكناً^(٢)، قال ابن عاشور: ((وهو تفعل من البوء، أي: الرجوع، كأن صاحب المسكن يكلف نفسه الرجوع إلى محل سكنه ولو كان تباعد عنه في شؤون اكتسابه بالسير إلى السوق أو الصيد أو نحو ذلك))^(٣).

(٢) - ﴿قِبْلَةً﴾ في اللغة: القاف والباء واللام أصل واحد صحيح تدل كلمه كلها على مواجهة الشيء للشيء. والقبلة سميت قبلة لإقبال الناس عليها في صلاتهم، وهي مقبلة عليهم أيضاً^(٤).

(قبلة) في الغريب: وهي في الأصل إسم للحالة التي عليها المقابل نحو: الجلسة والقعدة، وفي التعارف صار اسماً للمكان المقابل المتوجه إليه للصلاة

(١) سورة يونس، الآية: ٨٧.

(٢) المصباح مادة (باء) ٣٨/١.

(٣) التحرير والتنوير ٢٦٤/١١.

(٤) مقاييس اللغة مادة (قبل) ٥١/٥ - ٥٢، وينظر: المصباح مادة (قبل) ٧٣/٢.

نحو: ﴿فَلَنُؤَيِّنَنَّ قِبْلَةَ تَرْضَاهَا﴾ (١) (٢).

ثانياً: الوجوه الواردة في قوله: ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ عند المفسرين

ذكر المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ عدة أقوال منها:

(١)- اجعلوا بيوتكم مساجد، حتى تصلوا فيها حيث أنهم كانوا خائفين فأمرؤا أن يصلوا في بيوتهم، وهذا قول ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم.

(٢)- قال مجاهد: كانوا لا يصلون إلا في البيع، وكانوا لا يصلون إلا خائفين فأمرؤا أن يصلوا في بيوتهم (٣).

(٣)- قال عطاء عن سعيد بن جبير: يقابل بعضها بعضاً (٤).

(٤)- عن ابن عباس قال: كانت الكعبة قبله موسى، وكان الحسن يقول: الكعبة قبله كل الأنبياء (٥).

وقد حدد الإمام الطبري معنى البيوت في هذه الآية بأنها بيوت السكن وذكر علة ذلك فقال: ((وذلك أن الأغلب من معاني البيوت وإن كانت المساجد بيوتاً البيوت المسكونة إذا ذكرت باسمها المطلق دون المساجد؛ لأن المساجد لها اسم هي به معروفة خاص لها وذلك المساجد، فأما البيوت المطلقة بغير وصلها بشيء ولا إضافتها إلى شيء فاليوت المسكونة)) (٦). ورجح ابن عاشور هذا الرأي واعتبر الروايات التي تعني بالبيوت بأنها مساجد يصلون فيها روايات غير ملائمة لحالة القوم يومئذ (٧).

وفي روح المعاني: ((واعترض القول بحمل القبلة على المساجد المتوجهة إلى

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٤.

(٢) المفردات: ٦٥٤.

(٣) جامع البيان ١١/١٥٣ - ١٥٤، معالم التنزيل ٣/٢٠٤.

(٤) جامع البيان ١١/١٥٤، وينظر: التفسير الكبير ١٧/١٤٨، ولباب التأويل ٣/٢٠٤.

(٥) التفسير الكبير ١٧/١٤٨.

(٦) جامع البيان ١١/١٥٥.

(٧) التحرير والتنوير ١١/٢٦٦.

الكعبة بأن المنصوص عليه في الحديث الصحيح أن اليهود تستقبل الصخرة والنصارى مطلع الشمس ولم يشتهر أن موسى - ﷺ - كان يستقبل الكعبة في صلاته فالقول به غريب، وأغرب منه ما قاله العلائي: من أن الأنبياء - عليهم السلام - كانت قبلتهم كلهم الكعبة، قيل: وجعل البيوت مصلى ينافيه ما في الحديث «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»^(١) من أن الأمم السالفة كانوا لا يصلون إلا في كنائسهم، وأجيب عن هذا بأن محله إذا لم يضطروا فإذا اضطروا جازت لهم الصلاة في بيوتهم كما رخص لنا صلاة الخوف، فإن فرعون - لعنه الله تعالى - خرب مساجدهم ومنعهم من الصلاة فأوحى إليهم: أن صلوا في بيوتكم كما روي عن ابن عباس وابن جبير وقد يقال: إنه لا منافاة أصلاً بناءً على أن المراد تعيين البيوت للصلاة وعدم صحة الصلاة في غيرها فيكون حكمها إذ ذاك حكم الكنائس اليوم وما هو من الخصائص صحة الصلاة في أي مكان من الأرض وعدم تعيين موضع منها^(٢).

ثالثاً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: أن موسى - ﷺ - دعا قومه المؤمنين إلى أن يتوكلوا على الله في أمورهم كلها، فلما أجابوه إلى إظهار الاعتماد عليه سبحانه وفوضوا الأمور إليه، تبعه ما يزيدهم طمأنينة من التوطن في أرض العدو، وإلى ما يوصل إلى نصرهم على أعدائهم فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾^(٣).

رابعاً: الإعراب

قوله تعالى: ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ يجوز أن تكون (أن) المفسرة، ولا يكون لها موضع من الإعراب، وأن تكون مصدرية فتكون في موضع نصب بأوحينا.

﴿لِقَوْمِكُمَا﴾ فيه وجهان: أحدهما اللام غير زائدة، والتقدير: اتخذوا لقومكما بيوتاً، فعلى هذا يجوز أن يكون لقومكما أحد مفعولي تبوءاً وأن يكون حالاً من البيوت، والثاني اللام زائدة والتقدير: بَوَّئَا قومكما بيوتاً أي: أنزلاهم، وهذا هو الأقرب كما رجحه الصاوي.

(١) سنن ابن ماجه ١/١٨٧ [كتاب الطهارة وسننها - باب ما جاء في السبب] برقم ٥٦٧.

(٢) روح المعاني ١١/١٧١.

(٣) ينظر: نظم الدرر ٩/١٧٨.

﴿يَمْصَرُّ﴾ يجوز أن يتعلق بتبوء وهو الظاهر كما رجحه صاحب الفتوحات
الالهية، وأن يكون حالاً من البيوت وأن يكون حالاً من قومكما، وأن يكون حالاً من
ضمير الفاعل في تبوء وفيه ضعف^(١).

خامساً: كيفية هذه الواقعة

ذكر المفسرون في كيفية هذه الواقعة وجوهاً ثلاثة وهي:

(١) - أن موسى - ﷺ - ومن معه كانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا في
بيوتهم خفية من الكفرة؛ لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان
المؤمنون على ذلك في أول الإسلام في مكة^(٢).

(٢) - قيل: إنه تعالى لما أرسل موسى إليهم أمر فرعون بتخريب مساجد بني
إسرائيل ومنعهم من الصلاة؛ فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا
فيها خوفاً من فرعون^(٣)، فأمروا بالصبر واتخاذ المساجد في البيوت والإقدام على
الصلاة والدعاء إلى أن ينجز الله وعده وهو المراد بقوله: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا
بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا﴾^{(٤) (٥)}.

(٣) - إنه تعالى لما أرسل موسى - ﷺ - إليهم وأظهر فرعون تلك العداوة
الشديدة أمر الله تعالى موسى وهارون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الأعداء
وتكفل الله أن يصونهم عن شر الأعداء^(٦).

سادساً: سر التنويع في إلقاء الخطاب

ذكر الزمخشري سر تنويع الخطاب في هذه الآية الكريمة بأنه إذا قلت: ((كيف
نوع الخطاب فثنى أولاً، ثم جمع، ثم وحد آخر؟ قلت: خوطب موسى وهارون

(١) املأ ما من به الرحمن ٣٢/٢ - ٣٣، وينظر: الدر المصون ٦٣/٤ - ٦٤، والفتوحات الالهية
٣٦٨/٢، وحاشية الصاوي ١٧١/٢.

(٢) الكشف ٣٦٤/٢، التفسير الكبير ١٧/١٤٨.

(٣) جامع البيان ١١/١٥٥، التفسير الكبير ١٧/١٤٨، السراج المنير ٢٨/٢.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٨/٣٧٢.

(٦) التفسير الكبير ١٧/١٤٨، لباب التأويل ٣/٢٠٤، الفتوحات الالهية ٣٦٨/٢.

- ﷺ - أن يتبوءا لقومهما بيوتاً، ويختاراهما للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء، ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى - ﷺ - بالبشارة التي هي الغرض، تعظيماً لها وللمبشر بها^(١).

وذكر غيره أن الأفراد في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يدل على أن الأصل في الرسالة موسى - ﷺ - وأن هارون - ﷺ - تبع له وهي من الأعظم أسراً وأوقع في النفس^(٢).

وقيل: إن الخطاب في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لنبينا محمد - ﷺ - على طريقة الالتفات والاعتراض، ورجح القرطبي والشوكاني الوجه الأول^(٣).

سابعاً: دور البيوت في الدعوة إلى الله

هذه الآية الكريمة يرشدنا تفسيرها إلى أن البيوت تنوب مناب الأماكن العامة إذا حيل بين الدعوة وهذه الأماكن، فمثلاً في كثير من بلدان العالم الإسلامي - وخاصة في البلدان التي خضعت للأنظمة الشيوعية - نجد كلمة الحق محظورة في المسجد ومضيقاً عليها، حتى حلقات العلم يحال دونها، وفي مثل هذه الظروف فالبيوت تقوم مقام المسجد، والدور العامة، ولكن لا ننسى أن المساجد هي حوايت الإسلام ومعاقله فلا نتخلى عنها والأفضل أن نحیی المساجد ورسالته، ولا نتخلى عنه إلا في حالة الاضطراب كما هنا^(٤).

أقول: وقد كان للبيت الدور البارز في العهد السري للدعوة المحمدية حيث أن رسول الله - ﷺ - كان يلتقي بأصحابه في بيت الأرقم بن أبي الأرقم سرّاً، وكان هذا المأوى هو الذي ربي الناشئة والفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدى.

ويقول سعيد حوى: ((ومن تفسير ابن جرير للقبلة نعرف أن لقرب بيوت أهل الحق من بعضهم مصلحة بل مصالح وفي تذييل الآية بالأمر بالصلاة والبشارة بالنصر

(١) الكشف ٣٦٤/٢.

(٢) التفسير الكبير ١٧/١٤٨، الدر المصون ٤/٦٤، روح المعاني ١١/١٧٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٨/٣٧٣، فتح القدير ٢/٤٦٧.

(٤) ينظر: الأساس ٥/٢٥٠٠.

ندرك دور الصلاة في المساعدة على التحمل ودور التفاؤل وإشاعته في تجاوز أهل الحق المحنة وارتباط هذا بهذا^(١) ومن هنا تأول ابن كثير الآية بقوله: ((وكان هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ وفي الحديث: «كان النبي - ﷺ - إذا حزبه أمر صلى»^(٢).

ثامناً: الأسباب المؤدية إلى النجاة في الآية

ذكر ابن كثير - رحمه الله - في هذه الآية بأن الله تعالى يذكر سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه وكيفية خلاصهم منهم^(٣). وهي ترسم الطريق لكل حالة مشابهة^(٤). فقد أوحى الله تعالى إلى موسى وهارون أن يتخذوا لبني إسرائيل بيوتاً خاصة بهم وذلك لفرزهم وتنظيمهم للرحيل من مصر في الوقت المختار، وكلفهم تطهير بيوتهم وتزكية نفوسهم والاستبشار بنصر الله.

وتلك هي التعبئة الروحية إلى جواز التعبئة النظامية وهما معاً ضروريتان للأفراد والجماعات وبخاصة قبيل المعارك والمشقات، وقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هي السلاح الأول في المعركة وأن الإرادة الحربية في يد الجندي الخائر العقيدة لا تساوي شيئاً في ساعة الشدة.

وهذه التجربة التي يعرضها الله على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة، ليست خاصة ببني إسرائيل فهي تجربة إيمانية خالصة، وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي، وقد عمت الفتنة، وتجبر الطاغوت، وفسد الناس، وانتنت البيئة - وكذلك كان الحال على عهد فرعون في هذه الحقبة - وهنا يرشدهم الله إلى أمور:

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٤٢٨/٢، والحديث في سنن أبي داود ٣٥/٢، [كتاب الصلاة - باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل] برقم ١٣١٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤٢٨/٢.

(٤) الأساس ٢٥٠١/٥.

(١) - اعتزال الجاهلية بنتها وفسادها وشرها - ما أمكن في ذلك - وتجمع العصابة المؤمنة الخيرة النظيفة على نفسها لتطهرها وتركيها وتدريبها وتنظمها حتى يأتي وعد الله لها .

(٢) - اعتزال معابد الجاهلية واتخاذ بيوت العصابة المسلمة مساجد تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي، وتزاول فيها عبادتها لربها على نهج صحيح، وتزاول بالعبادة ذاتها نوعاً من التنظيم في جو العبادة الطهور^(١) .

تاسعاً: استحباب اتخاذ مسجد في البيت

يستحب تخصيص مكان معين في البيت بجعله مسجداً يصلي فيه أهل البيت؛ لأن صلاة النوافل في البيت أفضل من صلاتها في المسجد، حتى الركوع قبل الجمعة وبعدها وقبل الصلوات المفروضة وبعدها؛ إذ النوافل يحصل فيها الرياء، والفرائض لا يحصل فيها ذلك، وكلما خلص العمل من الرياء كان أوزن وأزلف عند الله سبحانه وتعالى، وكذلك فإن بقاء المرأة في بيتها وصلاتها فيه هو الأفضل لها من الخروج إلى المسجد للصلاة فيه مع جماعة المصلين بدليل الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في هذا المعنى ومنها^(٢):

(١) - وروى الإمام البخاري ومسلم - رحمهما الله تعالى - أن عتبان بن مالك وهو من أصحاب رسول الله - ﷺ - وممن شهد بدرأً من الأنصار، أنه أتى النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله قد أنكرت بصري وأنا أصلي لقومي فإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم لم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلي بهم ووددت يا رسول الله أنك تأتيني فتصلي في بيتي فأأخذ مصلي، قال: فقال له رسول الله - ﷺ - : «سأفعل إن شاء الله»، قال عتبان: فغدا رسول الله - ﷺ - وأبو بكر حين ارتفع النهار فاستأذن رسول الله - ﷺ - فأذنت له فلم يجلس حين دخل البيت، ثم قال: «أين تحب أن أصلي من بيتك؟» قال: فأشرت له إلى ناحية من البيت فقام رسول الله - ﷺ - - فكبر، فقمنا فصففنا فصلّي ركعتين ثم سلم^(٣) .

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٤٦٩/١١ - ٤٧٠ .

(٢) ينظر: المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم ٢١٣/١ .

(٣) البخاري ٨٢/٢ [كتاب الصلاة - باب المساجد في البيوت] برقم ٤٢٥، [كتاب المساجد =

(٢)- عن عبد الله بن شقيق قال: سألت عائشة عن صلاة رسول الله - ﷺ - من التطوع فقالت: «كان يصلي قبل الظهر أربعاً في بيتي، ثم يخرج فيصلّي بالناس ثم يرجع إلى بيتي فيصلّي ركعتين، وكان يصلي بالناس المغرب ثم يرجع إلى بيتي فيصلّي ركعتين وكان يصلي بالناس العشاء ثم يدخل بيتي فيصلّي ركعتين...»^(١).

(٣)- روى أبو داود عن كعب بن عجرة أن النبي - ﷺ - أتى مسجد بني عبد الأشهل فصلّى فيه المغرب، فلما قضوا صلاتهم رأهم يسبحون بعدها فقال: «هذه صلاة البيوت»^(٢).

(٤)- ما روي أن النبي - ﷺ - قال: «.. فعليكم بالصلاة في بيوتكم، فإن خير صلاة المرء في بيته إلا الصلاة المكتوبة»^(٣).

(٥)- وفي صحيح مسلم: «إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده فليجعل لبيته نصيباً من صلاته فإن الله جاعل في بيته من صلاته خيراً»^(٤).

(٦)- وفي الصحيحين: «اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم ولا تتخذوها قبوراً»^(٥) وقال النووي في شرح هذا الحديث: المراد به صلاة النافلة، أي: صلوا النوافل في بيوتكم^(٦).

(٧)- وعن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي: أنها جاءت إلى النبي - ﷺ - فقالت: يا رسول الله إني أحب الصلاة معك قال: «قد علمت أنك تحبين الصلاة معي وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي»، فأمرت أم حميد فبني لها مسجد في أقصى شيء من بيتها

=ومواضع الصلاة - باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر[برقم: ٢٦٣.

(١) سنن أبي داود ١٨/٢، [كتاب الصلاة - باب تفرغ أبواب التطوع وركعات السنة] برقم ١٢٥١.

(٢) سنن أبي داود ٣١/٢ [كتاب الصلاة - باب ركعتي المغرب] برقم ١٣٠٠.

(٣) مسلم ٥٤٠/١ [كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد] برقم ٧٨١.

(٤) مسلم ٥٣٩/١ [كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب صلاة النافلة في بيته] برقم ٧٧٨.

(٥) البخاري ٩/٢ [كتاب الصلاة - باب كراهية الصلاة في المقابر] برقم ٣٤٢، مسلم ٥٣٨/١ [كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب صلاة النافلة في بيته] برقم ٧٧٨.

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي ٦٧/٥، للإمام النووي، مط المصرية.

وأظلمه وكانت تصلي فيه حتى لقيت الله - ﷺ - (١).

(٨) - وعن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله - ﷺ - : «لأن تصلي المرأة في بيتها خير من أن تصلي في الدار، ولأن تصلي في الدار خير لها من أن تصلي في المسجد» (٢).

عاشراً: دلالة الآية وما يستفاد منها

إن الدارس لهذه الآية المتدبر لمعانيها يجد أن الآية قد دلت وأفادت الفوائد الآتية:

- (١) - اتخاذ المساجد في المنازل للصلاة فيها عند الخوف (٣).
- (٢) - إن مما يعين المؤمنين على النصر والفلاح، أن يعتزلوا أهل الكفر والفسوق والعصيان، إذا لم تنفع معهم النصيحة، وأن يستعينوا على بلوغ غايتهم بالصبر والصلاة، وأن يقيموا حياتهم على الأخوة الصادقة والمحبة الخالصة (٤).
- (٣) - الدلالة على أن القبلة في الصلاة كانت شرعاً لموسى في صلاته ولقومه ولم تخل الصلاة قط عن شرط الطهارتين واستقبال القبلة وستر العورة؛ فإن ذلك أبلغ في التكليف وأوفر للعبادة (٥).
- (٤) - يستدل بالآية على أن المعذور بالخوف وغيره يجوز له ترك الجماعة والجمعة (٦).

حادي عشر: المعنى العام

تعد البيوت منطقة أمان يأمن فيها الإنسان على نفسه وماله وعرضه ويأمن فيها

-
- (١) مسند أحمد: ٢٠١٥، برقم ٢٧٦٣٠.
 - (٢) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢٥٦/٥، للعلامة محمد عبد الرؤوف المناوي، مط مصطفى الحلبي، ط ١ - ١٩٣٨ م.
 - (٣) أيسر التفاسير ٥٠١/٥.
 - (٤) التفسير الوسيط ١٥٨/٧.
 - (٥) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٠٥٥.
 - (٦) الجامع لأحكام القرآن ٨/٣٧٣، وينظر: روضة الطالبين ٢/٣٤٥ للإمام يحيى بن شرف الدين النووي (ت ٦٧٦هـ)، مط المكتب الإسلامي - بيروت، وحواشي الشرواني وابن قاسم العبادي على تحفة المحتاج في شرح المنهاج ٢/٢٥٠، دار الفكر - بيروت.

حتى على أداء العبادة لله وحده، وقد اتفق الفقهاء على أن أمن الإنسان على نفسه وماله وعرضه شرط في التكليف بالعبادات^(١).

ف نجد أن الله تبارك وتعالى قد أوحى إلى موسى وهارون - عليهما السلام - بعد أن ازداد فرعون في طغيانه بإنزال العذاب بالمؤمنين أن يتخذا لقومهما بيوتاً خاصة بهم في مصر ينزلون بها ويستقرون فيها ويعتزلون فرعون وجنوده، ويرجعون إليها بالعبادة بعد أن هدم فرعون معابدهم، وأن يجعلوا هذه البيوت متقابلة ليعتضد بعضهم ببعض وأن يجعلوها متوجهة نحو القبلة ليقيموا الصلاة خفية، وكانوا أول الأمر مأمورين بأن يُصلّوا في بيوتهم خفية من فرعون وجنوده، لئلا يظهروا عليهم فيضطهدوهم ويفتنوهم عن دينهم، وقد أذن الله تعالى لهم في ترك الصلاة في البيع حتى يأمنوا شرور فرعون وقومه^(٢).

ومن ثم حثهم على إقامة الصلاة وأدائها في أوقاتها؛ لأن في أداء الصلاة تفرجاً للكروب، وختم هذا الوحي والتوجيه بزف البشرى للمؤمنين بأن العاقبة لهم.

(١) المستصفى من علم الأصول ٢٨٧/١، للإمام محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، مط الأميرية بولاق مصر، ١٣٢٢هـ.

(٢) ينظر: التفسير الفريد للقرآن المجيد ١٣٨٥/٢، للدكتور محمد عبد المنعم الجمال.

الفصل الثاني

بيوت الصالحين

وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول : نعمة البيوت.
- المبحث الثاني : آداب البيوت.
- المبحث الثالث : هجرة البيوت ابتغاء مرضات الله تعالى.
- المبحث الرابع : إثارة بيوت الآخرة على بيوت الدنيا.

المبحث الأول

نعمة البيوت

وفيه مطالب:

المطلب الأول : نعمة السكن.

المطلب الثاني : كونه محلاً للأكل والإدخار.

المطلب الثالث : دوره في حماية المرأة.

المطلب الأول نعمة السكن

سنحلل في هذا المطلب قوله تعالى :

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَا وَمِثْلًا إِلَى حِينٍ﴾ (١).

ستتعرف معاني هذه الآية ومقاصدها من خلال النقاط الآتية :

أولاً: توضيح السكن والظعن والأثاث

(١)- معنى (السكن) في اللغة والغريب والوجوه والنظائر

(السكن) لغة: السين والكاف والنون أصل واحد مطرد، يدل على خلاف الاضطراب والحركة، يقال: سكن الشيء يسكن سكوناً فهو ساكن، والسكن هو ما يسكن إليه من أهل ومال وغير ذلك، وهو مصدر سكنت إلى الشيء، وسكنوا الدار وسكنوا فيها، وهم سكن الدار، وساكنتها وساكنوها، وسكانها، وهي مسكنهم (٢).

(السكن) في الغريب: هو السكون وما يسكن إليه، والسكون هو ثبوت الشيء بعد تحرك، ويستعمل في الاستيطان نحو: سكن فلان مكان كذا، أي: استوطنه، واسم المكان مسكن، والجمع مساكن (٣).

(١) سورة النحل، الآية: ٨٠.

(٢) ينظر: العين ٣١٣/٥، وجمهرة اللغة ٤٦/٣ - ٤٧، ومقاييس اللغة مادة (سكن) ٨٨/٣، وأساس البلاغة: ٣٠٤.

(٣) المفردات: ٤١٧.

(السكن) في الوجوه والنظائر: يأتي بعدة معان منها^(١):

- (١)- القرار، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾^(٢).
- (٢)- النزول، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَسَكِنْتُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾^(٣) يعني: لننزلنكم.
- (٣)- الاستئناس، فذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾^(٤) يعني: الاستئناس إليها.
- (٤)- الاطمئنانية، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾^(٥) يعني: تطمئن قلوبهم.

(٢)- (الظعن) في اللغة

(الظعن) لغة: الظاء والعين والنون أصل واحد صحيح يدل على الشخوص من مكان إلى مكان، يقال: ظَعَنَ يَظْعُنُ ظَعْنًا بالتحريك، وظعوننا: ذهب وسار، وهو سير البادية لنجعة، أو حضور ماء، أو طلب مربع، أو تحول من ماء إلى ماء أو من بلد إلى بلد، وقد يقال لكل شاخص لسفر في حج أو غزو أو مسير من مدينة إلى أخرى: ظاعن^(٦).

(٣)- (الأثاث) في اللغة والغريب

(الأثاث) في اللغة: الأثاث والأثاث والأثاث: الكثرة والعظم من كل شيء ويقال: أَثَّ النبات يَثُّ أَثَاةً أي: كثر والتف، وهو أثيث ويوصف به الشعر الكثير والنبات الملتف.

والأثاث: الكثير من المال، وقيل: المال كله والمتاع ما كان من لباس، أو حشو لفراش أو دثار، واحدته أثاة، وقال أبو زيد: والأثاث المال أجمع، والإبل والغنم والعبيد والمتاع^(٧).

(١) الأشباه والنظائر: ٣١٩ - ٣٢٠، وينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ٤١ - ٤٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٦

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ١٤.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٩.

(٥) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٦) ينظر: مقاييس اللغة مادة (ظعن) ٤٦٥/٣، واللسان: مادة (ظعن) ٢٧٤٨/٢.

(٧) لسان العرب مادة (أثث) ٢٤/١ - ٢٥، وينظر: جمهرة اللغة ١٤/١.

(الأثاث) في الغريب: متاع البيت الكثير، وأصله من: أث أي: كثر وتكاثر. وقيل: للمال كله إذا كثر: أثاث، ونساء أثاث: كثيرات للحمل، كأنّ عليهن أثاثاً، وتأثت فلان: أصاب أثاثاً^(١).

ما ورد في الآية من وجوه ودروس

ثانياً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: لما ذكرهم سبحانه بنعمة الإدراك بعد ابتداء الخلق، واتبعه ما من به على الطير من الارتفاع الحامي لها من الحر، اتبعه ما يسكنون إليه فيظلهم ويجمعهم لأنه أهم الأشياء للحيوان فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾^(٢).

ثالثاً: أوجه الإعراب والقراءات

[١]- الإعراب:

﴿سَكَنًا﴾ يجوز أن يكون المفعول الأول للفعل (جعل) على أن الجعل بمعنى التصيير، والمفعول الثاني أحد الجارين قبله ويجوز أن يكون الجعل بمعنى الخلق فيتعدى لواحد^(٣). وإنما وحّد السكن لأنه بمعنى ما يسكنون فيه^(٤).

(أثاثاً) معطوف على سكناً، وقد فصل بينه وبين حرف العطف بالجاء والمجرور وهو قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا﴾^(٥).

[٢]- القراءات

قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو قوله تعالى: ﴿ظَعْنِكُمْ﴾ بفتح العين والباقون بإسكانها.

وزعم بعضهم أن الأصل الفتح، والسكون تخفيف لأجل حرف الحلق كالشعر والشعر. فهما لغتان مثل (النهر والنهر) فمن فتح فقد راعى حروف الحلق ومن سكن

(١) المفردات: ٦١ - ٦٢.

(٢) نظم الدرر ١١/٢٢٤.

(٣) الدر المصون: ٣٥١/٤، الفتوحات الإلهية ٥٨٩/٢.

(٤) ينظر: إملاء ما من به الرحمن ٨٤/٢.

(٥) ينظر: إملاء ما من به الرحمن ٨٤/٢.

فقد أراد المصدر^(١).

رابعاً: مفهوم (السكن) في الآية الكريمة

ذكر صاحب الكشاف - رحمته الله - في معنى السكن بأنه: ((ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو إلف))^(٢).

وعبر ابن العربي وتبعه القرطبي والشوكاني - رحمهم الله - عنه بأنه: ((محلاً تسكنون فيه، وتهتدأ جوارحكم عن الحركة، وقد تتحرك فيه، وتسكن في غيره، إلا أن القول خرج على غالب الحال، وهو أن الحركة تكون فيما خرج عن البيت فإذا عاد المرء إليه سكن، وبهذا سميت مساكن لوجود السكون فيها في الأغلب))^(٣).

ويستطرد صاحب الظلال - رحمته الله - في بيان مفهوم السكن بقوله: ((فهكذا يريد الإسلام البيت مكاناً للسكنية النفسية والاطمئنان الشعوري، هكذا يريده مريحاً مطمئناً إليه النفس وتسكن وتأمّن، سواء بكفايته المادية للسكنى والراحة، أو باطمئنان من فيه بعضهم لبعض، ويسكن من فيه كل إلى الآخر فليس البيت مكاناً للنزاع والشقاق والخصام، إنما هو مبيت وسكن وأمن واطمئنان وسلام))^(٤).

خامساً: أنواع البيوت

البيوت التي يسكنها الإنسان تنقسم على قسمين:

(القسم الأول) البيوت المتخذة من الخشب والطين والآلات التي يمكن بها تسقيف البيوت وإليها الإشارة بقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ وهذا القسم من البيوت لا يمكن نقله بل الإنسان يتنقل إليه وهذا ما يخص المقيمين.

(القسم الثاني) القباب والخيام والفساطيط، وإليها الإشارة بقوله: ﴿وَجَعَلَ

(١) ينظر: الحجة لابن خالويه: ٢١٢ - ٢١٣، والمبسوط في القراءات العشر: ٢٥٥، لأبي بكر أحمد بن الحسين الأصبهاني، (ت ٣٨١هـ)، تح سبعي حمزة حاكمي، مط مؤسسة علوم القرآن، بيروت، وغاية الاختصار ٥٤٢/٢، والكافي: ١٤١، والبدور الزاهرة: ١٧٩.

(٢) الكشاف ٦٢٥/٢.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١١٦٧/٣، وينظر الجامع لأحكام القرآن ١٥٢/١٠، وفتح القدير ٣/ ١٨٤.

(٤) في ظلال القرآن ٢٦٨/١٤ - ٢٦٩.

لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ يُؤْتَا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴿١﴾ وهذا القسم من البيوت يمكن نقله وتحويله من مكان إلى مكان، وهذا ما يخص المسافرين^(١).

وجلود الأنعام يعني بها: جلود الإبل والبقر والغنم، فيتخذ منها البيوت وهي الأخبية حيث تضرب فيسكن فيها. قال ابن العربي: ((وهذا أمر انتشر في تلك الديار وعريت عنه بلادنا، فلا تضرب الأخبية إلا من الكتان والصوف. وقد كان للنبي -ﷺ- قبة من آدم، وناهيك بأديم الطائف غلاء في القيمة واعتلاء في الصفة، وحسناً في البشرة، ولم يعد ذلك -ﷺ- ترفاً ولا رآه سرفاً؛ لأنه مما امتن الله به من نعمه وأذن فيه من متاعه، وظهرت وجوه منفعته في الاكتنان والاستظلال الذي لا يقدر على الخروج عنه جنس الإنسان))^(٢).

سادساً: أثاث البيت

ذكر سبحانه وتعالى من الأنعام على عباده ما ذكر منها قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ وعطف عليها قوله: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا﴾ فالكناية عائدة إلى الأنعام، فيعني: أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز^(٣).

والأثاث هو المال وقيل: المتاع، وقيل: الثياب، وذهب ابن كثير إلى أن ((الصحيح أعم من ذلك كله فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك ويتخذ مالا وتجارة))^(٤).

قال ابن العربي: ((ولم يذكر القطن ولا الكتان؛ لأنه لم يكن في بلاد العرب المخاطبين به، وإنما عدّد عليهم ما أنعم به عليهم، وخطبوا فيما عرفوا بما فهموا، وما قام مقام هذه وناب منابها يدخل في الاستعمال والنعمة مدخلها))^(٥).

(١) التفسير الكبير ٩١/٢٠ - ٩٢، وينظر: لباب التأويل ١٠٧/٤، وفتح القدير ١٨٤/٣، والمراعي ١٢١/١٤.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١١٦٧/٣ - ١١٦٨.

(٣) ينظر: معالم التنزيل ١٠٧/٤، وفتح القدير ١٨٤/٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٥٨٠/٢.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١١٧٠/٣.

سابعاً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة الفوائد الآتية:

- (١)- ذكر ابن كثير - رحمته الله -: ((يذكر الله تبارك وتعالى تمام نعمه على عبده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع))^(١).
- (٢)- أذن الله سبحانه في هذه الآية بالانتفاع بصوف الغنم ووبر الإبل وشعر المعز^(٢)، وتضمنت هذه الآية جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كل حال^(٣).
- (٣)- أفادت الآية جواز الانتفاع بجلود الأنعام، وفيه الخلاف عند العلماء حول نجاسته^(٤).

ثامناً: المعنى العام

قال قتادة: هذه السورة تسمى سورة النعم^(٥). وهذه الآية جاءت لتذكير العباد بنعمة السكن والاستقرار في البيوت سواء كان في الحضر أم في السفر وما هياً الله - سبحانه وتعالى - لهم ويسر من النعم الظاهرة والخفية من سكن ومتاع. والسكن والطمأنينة في البيوت كما يقول سيد قطب - رحمته الله -: ((نعمة لا يقدرها حق قدرها إلا المشردون الذين لا بيوت لهم ولا سكن ولا طمأنينة))^(٦). وكما هياً الله - سبحانه وتعالى - لهم السكن في البيوت فقد هياً لهم ضرورات السكن في البيوت مما يلبسونه ويفترشونه من أصواف الغنم، ووبر الإبل، وشعر الماعز، وما يتمتعون به في هذه الدنيا إلى انتهاء الآجال، وهذه النعمة وغيرها من النعم تحتاج إلى الشكر فالحمد لله تبارك وتعالى يمن على عباده بالنعم ليشكروه عليها

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٨٠/٢.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١١٦٨/٣، الجامع لأحكام القرآن ١٥٤/١٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥٤/١٠.

(٤) ينظر: المغني ٥٦/١، والجامع لأحكام القرآن ٥٦/١٠، وفقه الإمام سعيد بن المسيب ٤٣/١ - ٤٤، إعداد شيخنا الدكتور هاشم جميل عبدالله، مط الإرشاد - بغداد، ١٩٧٥ م.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٥٨٠/٢.

(٦) في ظلال القرآن ٢٦٨/١٤.

وبالشكر تدوم النعم.

وملابسنا اليوم وأثاثنا في البيوت قد يكون من غير هذه الأشياء ولكن هذا الخطاب هو للعرب، الذين كانوا يسكنون البادية وما كانوا يستعملون غير هذه الأشياء فاقصر تذكيرهم بالنعم التي يعرفونها.

وهذه النعم التي أسبغها الله سبحانه وتعالى على عباده قال في نهاية الآية: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ يعني: تتقادون لصاحب هذه النعم وتركوا عبادة غيره الذي لا يستطيع أن ينفع نفسه فكيف ينفعكم.

فالله تبارك وتعالى يدعو عباده إلى التفكير بما يتمتعون به من أفضال الله ونعمه التي لا تعد ولا تحصى فهو وحده المستحق للشكر والاتجاه إليه وإسلام النفس له ولطاعته ولأحكامه.

المطلب الثاني

كون البيت محلاً للأكل والادخار

تمهيد

لا شك أن البيت هو المحطة التي يستريح فيها الإنسان وتسكن فيه جوارحه عن الحركة أكثر من غيره من الأماكن، وما دام البيت كذلك فيكون محلاً لتناول الطعام وادخاره حيث يجد الإنسان فيه الراحة والطمأنينة بعيداً عن اطلاع الناس عليه وعلى أسرارهِ وممتلكاته، وهذا ما سوف نفهمه من خلال هذا النص القرآني العظيم على لسان سيدنا عيسى - ﷺ - إذ يقول: ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وسنحلل الآية الكريمة في النقاط الآتية:

أولاً: معنى (الادّخار) في اللغة والغريب

(الادّخار) في اللغة: أصل الادخار إذ تخار، وهو افتعال من الذخر، فأرادوا الإدغام ليخف النطق فقلبوا التاء إلى الدال فصارت اللفظة إدخار، والإدخار من دَخَرَ الشيء يذخره دُخْرًا: إذا أعددته لوقت الحاجة إليه^(٢).

الإدخار في الغريب: يقال: ذخرته، وادّخرته: إذا أعددته للعقبى، والمذاخر: الجوف والعروق المُدّخرة للطعام^(٣).

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

(٢) اللسان مادة (ذخر) ٣/١٤٩٠، وينظر: المصباح مادة (ذخر) ١/١١١.

(٣) المفردات: ٣٢٦.

ثانياً: تحليل الألفاظ عند المفسرين

قوله تعالى: ﴿وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ فإنه يعني: وأخبركم بما تأكلون مما لم أعينته وأشاهده معكم في وقت أكلكموه.

﴿وَمَا تَدْخُرُونَ﴾ يعني: بذلك: وما ترفعونه فتخبئونه ولا تأكلونه^(١) وذكر المفسرون عدة روايات في هذا المعنى، فعن سعيد بن جبير قال: كان عيسى بن مريم - ﷺ - إذا كان في الكتاب يخبرهم بما يأكلون في بيوتهم وما يدخرون^(٢).

وعن السدي قال: كان عيسى بن مريم - ﷺ -، يُحَدِّثُ الغلمان وهو معهم في الكتاب بما يصنع آباؤهم، وبما يرفعون لهم، وبما يأكلون ويقول للغلام: انطلق فقد رفع لك أهلك كذا وكذا، وهم يأكلون كذا وكذا، فينطلق الصبي فيكي على أهله حتى يعطوه ذلك الشيء فيقولون له: من أخبرك بهذا؟ فيقول: عيسى، فحبسوا صبيانهم عنه وقالوا: لا تلعبوا مع هذا الساحر، فجمعوهم في بيت، فجاء عيسى يطلبهم فقالوا: ليس هم ههنا، فقال: ما في هذا البيت؟ قالوا: خنازير قال عيسى: كذلك يكونون، ففتحوا عنهم فإذا هم خنازير، فذلك قوله تعالى: ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾^(٣).

وعن الحسن قال في قوله: ﴿وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال: ما تخبئون مخافة الذي يمسك أن لا يخلفه شيء^(٤).

وقال قتادة: أنبئكم بما تأكلون من المائدة، وما تدخرون منها، قال: فكان قد أخذ عليهم في المائدة حين نزلت أن يأكلوا ولا يدخروا، فادخروا، وخانوا، فجعلوا خنازير حين ادخروا وخانوا^(٥).

ثالثاً: مناسبة الآية

لما ذكر سيدنا عيسى الآيات الدالة على صدق نبوته من إبراء الأكمه والأبرص

(١) جامع البيان ٣/ ٢٧٨.

(٢) جامع البيان ٣/ ٢٧٩، الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٩٥.

(٣) جامع البيان ٣/ ٢٧٩، معالم التنزيل ١/ ٣٥٠-٣٥١، لباب التأويل ١/ ٣٥١.

(٤) جامع البيان ٣/ ٢٨٠.

(٥) جامع البيان ٣/ ٢٨٠، وينظر: معالم التنزيل ١/ ٣٥١، وروح المعاني ٣/ ١٧٠.

وإحياء الموتى وغيرها أتبعه ما هو من جنسه من المعجزات، وهو الإخراج من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، وهو الإخبار عن الأكل والإذخار في البيوت وذلك من المغيبات؛ لأن مسكن الإنسان أعز البيوت عنده وأخفى لما يريد أن يخفيه فقال لهم سيدنا عيسى - ﷺ -: ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾^(١).

رابعاً: الإعراب والقراءات

[١]- الإعراب:

﴿بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ يجوز أن تكون بمعنى الذي، ونكرة موصوفة ومصدرية وكذلك ما الأخرى^(٢).

[٢]- القراءات:

قرأ الجمهور: ﴿تَذَخَّرُونَ﴾ بدال مشددة وخاء مكسورة^(٣)، وقرأ مجاهد والزهري والسختياني: (وما تَذَخَّرُونَ) بالذال المعجمة مخففاً^(٤).

قال الفراء: ((أصلها الذال يعني: تذخرون من ذخرت فالأصل تذخرون، فثقل على اللسان الجمع بين الذال والتاء فأدغموا، وكرهوا أن تذهب التاء في الذال فيذهب معنى الافتعال، فجاءوا بحرف عدل بينهما وهو الدال فقالوا: تَذَخَّرُونَ))^(٥) قال أبو جعفر النحاس: ((هذا القول غلط بين؛ لأنهم لو أدغموا على ما قال لوجب أن يدغموا الذال في التاء، وكذا باب الإدغام أن يدغم الأول في الثاني، فكيف تذهب التاء. والصواب في هذا مذهب الخليل وسيبويه أن الذال حرف مجهور يمنع النفس أن يجري والتاء حرف مهموس يجري معه النفس فأبدلوا من مخرج التاء حرفاً مجهوراً أشبه الدال في جهرها فصار تذخرون ثم أدغمت الذال في الدال فصار تَذَخَّرُونَ))^(٦).

(١) ينظر: نظم الدرر ٤/٤٠٦.

(٢) إملاء ما من به الرحمن ١/١٣٥ - ١٣٦، البحر المحيط ٢/٤٦٧، الدر المصون ٢/١٠٧.

(٣) المحرر الوجيز ٣/١٣٢.

(٤) معاني القرآن، للفراء ١/٢١٥، مختصر في شواذ القراءات: ٢٠، الكشف ١/٣٦٥، البحر المحيط ١/٤٦٧.

(٥) معاني القرآن، للفراء ١/٢١٥.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/٣٧٩ - ٣٨٠.

خامساً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة المعاني الآتية:

(١)- إن البيت محل للأكل والإدخار وفي الصحيحين عن النبي - ﷺ - أنه ادّخر لأهله قوت سنة^(١).

(٢)- إن البيت هو محل أسرار الإنسان وراحته ومأواه الذي يأخذ فيه حرّيته، كما أن فيه متاعه وما يرغب في ستره عن أعين الغير.

(٣)- إن في الآية دليلاً قاطعاً على صحة نبوة سيدنا عيسى - ﷺ - ومعجزة عظيمة له بإخباره عن المغيبات^(٢)، ومن هذه المغيبات إخباره عما يأكل الإنسان في بيته وما يدّخره.

(٤)- إن السر في ذكر هذين الأمرين وهما الأكل والإدخار بخصوصهما؛ لأن غالب سعي الإنسان وصرف ذهنه لتحصيل الأكل الذي به قوامه، والإدخار الذي تطمئن به أكثر القلوب، وتسكن به غالب النفوس^(٣).

سادساً: المعنى العام

في هذه الآية الكريمة التي يبرهن فيها السيد المسيح - ﷺ - على صدق رسالته فيذكر من علامات نبوته أن ينبي قومه بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم للمستقبل. وإخبار عن حالة الأكل والإدخار في البيوت أمر لا يعلمه إلا أهله فهو من أسرار البيوت التي لا يعلمها إلا أهلها، فذكرهم بهذا الأمر ليتيقنوا بأمره فلا يبقى لهم أي شك؛ لأنه أعلمهم بأحوالهم الخاصة التي تعد من الأمور الغيبية.

وهذه الآية وإن دلت على صدق نبوة سيدنا عيسى - ﷺ - فإنها تفصح عن مكانة البيت في المجتمع وما يحوي من أسرار عظيمة يستطيع فيه الإنسان أن يستتر فيه عن أعين الناس فيأكل طعامه سواء كان قليلاً على قدر حاله أو كثيراً، ويدّخر فيه حاجياته وممتلكاته الخاصة به، فهذه نعمة من النعم التي لا يعرف قدرها إلا من يفقدها، فنسأل الله أن يستر عوراتنا وأن يؤمّن روعاتنا، اللهم آمين.

(١) البخاري ٦٢٩/١٠ [كتاب النفقات - باب حيس نفقة الرجل قوت سنة] برقم ٥٣٥٧، مسلم ١٣٧٩/٣ [كتاب الجهاد والسير - باب حكم الفيء] برقم ١٧٥٧.

(٢) معالم التنزيل ٣٥١/١.

(٣) روح المعاني ١٧٠/٣.

المطلب الثالث

دور البيت في حماية المرأة

تمهيد

الأصل في علاقة المرأة بالبيت هو لزوم استقرارها فيه، وملازمتها له، وعدم الخروج منه، إلا لضرورة شرعية، فالبيت هو مكان ستر المرأة وصيانتها، وفيه تجد المرأة نفسها بعيدة عن اقتراف الفاحشة التي قال في حقها القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(١) فكان البيت ولا يزال المكان الذي تحافظ فيه الأسرة على كيانها وعفتها، ومن هنا نجد أن الإسلام قد شرع في بداية الأمر بأن يجعل من البيت سجناً تحبس فيه المرأة التي تقترب الفاحشة، فيكون البيت مؤدباً للمرأة ومذكراً لها.

وكذلك أوصى بعدم إخراج المرأة من بيتها ولا يحق لها أن تخرج في حالة وقوع الفرقة فيما بين الزوجين إلا بعد انتهاء العدة.

وهذا ما سنتعرفه من خلال الفرعين الآتيين:

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٢.

الفرع الأول حبس المرأة في البيت

سنحلل في هذا الفرع قوله تعالى :

﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾^(١).
وستعرف معاني ومقاصد الآية الكريمة من خلال النقاط الآتية :

أولاً: (الفاحشة) و(الامساك) في اللغة والغريب :

(١) - (الفاحشة) في اللغة: الفاء والحاء والشين كلمة تدل على قبح في شيء وشناعة، ومن ذلك الفحش والفحشاء والفاحشة، وكل شيء جاوز حده فهو فاحش، ولا يكون إلا فيما يُنكره، وأفحش الرجل: قال الفحش، ويسمى الزنا فاحشة^(٢).

(الفاحشة) في الغريب: وهو ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، قال الله تعالى: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٣)، وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ كناية عن الزنا^(٤).

(الفاحشة) في الوجوه والنظائر: تأتي على أربعة وجوه هي^(٥):

أ- المعصية في الشرك: فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾^(٦) يعني: معصية.

(١) سورة النساء، الآية: ١٥.

(٢) مقاييس اللغة مادة (فحش) ٤/٤٧٨، وينظر: الصحاح مادة (فحش) ٣/١٠١٤، وتاج العروس مادة (فحش) ٤/٣٣١.

(٣) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٤) المفردات: ٦٢٦.

(٥) ينظر: الأشباه والنظائر: ١٢٨ - ١٢٩، وإصلاح الوجوه والنظائر: ٣٥١ - ٣٥٢.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٢٨.

ب- الزنا: فذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ سَائِبِكُمْ﴾ يعني: الزنا.

ج- إتيان الرجال في أدبارهم: فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾^(١) يعني: إتيان الرجال في أدبارهم.

د- النشوز من المرأة: فذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾^(٢) يعني: العصيان من المرأة على زوجها.

(٢)- (الإمساك) في اللغة: الميم والسين والكاف أصل واحد صحيح يدل على حبس الشيء أو تحبسه، والبخيل ممسك، وأمسكته بيدي إمساكاً: قبضته باليد، وأمسكت المتاع على نفسي: حبسته، وأمسك الله الغيث: حبسه ومنع نزوله^(٣).

(الإمساك) في الغريب: إمساك الشيء: التعلق به وحفظه، قال تعالى: ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيعٌ بِإِحْسَنٍ﴾^{(٤) (٥)}.

ثانياً: تحليل الألفاظ عند المفسرين

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يَأْتِيكَ الْفَاحِشَةُ﴾ أي: يفعلنها يقال: أتى امرأةً قبيحاً، أي: فعله، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾^(٦) وقال: ﴿لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا إِذَا﴾^(٧)، وفي التعبير عن الإقدام على الفواحش بهذه العبارة معنى دقيق وهو أن الفاعل لها ذهب إليها بنفسه واختارها بطبعه.

والفاحشة ههنا الزنا، وأجمعوا على ذلك وإنما أطلق على الزنا اسم الفاحشة لزيادتها في القبح على كثير من القبائح^(٨).

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٣) مقاييس اللغة مادة (مسك) ٣٢٠/٥، وينظر: الصحاح مادة (مسك) ١٦٠٨/٤، والمصباح مادة (مسك) ١١٩/٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٩.

(٥) المفردات: ٧٦٨.

(٦) سورة مريم، الآية: ٢٧.

(٧) سورة مريم، الآية: ٨٩.

(٨) ينظر: أحكام القرآن للشافعي ١٣٠/٢، ولباب التأويل ٤٩٥/١، والتفسير الكبير ٢٣٠/٩.

(من نسائكم) اختلف المفسرون في ذلك، فقيل: هن الزوجات، وقيل: المراد بهن جنس النساء^(١) قال الجصاص: ((وليس في الآية فرق بين البكر والثيب فهذا يدل على أنه كان حكماً عاماً في البكر والثيب))^(٢) وهذا ما رجحه ابن العربي بقوله: ((والصحيح عندي أنه أراد جميع النساء؛ لأنه مطلق اللفظ الذي يقتضي ذلك وعمومه))^(٣).

﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ﴾ أي: اطلبوا شهادة أربعة من رجال المؤمنين وأحرارهم، وهذا خطاب للحكام، وقيل: للأزواج^(٤).

﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَاْمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ أي: فاحبسوهن فيها واجعلوها سجناً عليهن^(٥) قال ابن عباس - رضي الله عنه - : كانت المرأة إذا زنت حبست في البيت حتى تموت فجعل الله لهن سبيلاً وهو الجلد أو الرجم^(٦)، والحبس في البيت ألم وأوجع من الضرب والإهانة ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك أخذ المهر على ما ذكره السدي؛ لأن ألم الحبس مستمر وألم الضرب يذهب^(٧).

﴿حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ يعني: حتى تتوفاهن ملائكة الموت لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾^(٨) والسبيل هو الحكم الخاص بهن، وهو الحد كما رجحه الطبري حيث قال: ((السبيل التي جعلها الله جل ثناؤه للثيبين المحصنين الرجم بالحجارة وللبكرتين جلد مائة ونفي سنة))^(٩).

ثالثاً: البلاغة

تضمنت الآية الكريمة بعض الأوجه البلاغية منها:

- (١) لباب التأويل ٤٩٥/١.
- (٢) أحكام القرآن للجصاص ١٠٦/٢.
- (٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣٥٥/١.
- (٤) لباب التأويل ٤٩٥/١.
- (٥) إرشاد العقل السليم ٣٢٤/١.
- (٦) زاد المسير ١٦/٢.
- (٧) البحر المحيط ١٩٦/٣.
- (٨) سورة النحل، الآية: ٢٨.
- (٩) جامع البيان ٢٩٤/٤.

(١)- قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّكَ أَلْفَ حِشَّةٍ﴾ عبر عن الفعل والعمل بالمجيء؛ لأن المجيء إليه يكون، ولأن فاعل شيء عن قصد يشبه السائر إلى مكان حتى يصله وهذا من بدیع الاستعارة^(١).

(٢)- قوله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ فالسبيل هنا مستعار للأمر اللين بمعنى العقاب المناسب تشبيهاً له بالطريق الجادة^(٢).

(٣)- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ﴾ تهويل وإبراز له في صورة من يتولى قبض الأرواح وتوفيها^(٣). فهناك استعارة بالكناية والكلام على حذف مضاف^(٤).

رابعاً: الناسخ والمنسوخ

اختلف العلماء في هذه الآية الكريمة فقال بعضهم: إنها منسوخة، فمنهم من ذهب إلى أن الناسخ لها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ فَتَادُوهُمْ﴾^(٥) ثم نسخ ذلك بالسنة لما روى مسلم عن عبادة بن الصامت أن النبي - ﷺ - قال: «خذوا عني، خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم»^(٦). وإلى هذا ذهب عكرمة وهو مروي عن الحسن^(٧).

وقد قصر ابن سلامة القول بالنسخ في هذه الآية على السنة فقال بعد ذكره الحديث الذي رواه مسلم: ((فصارت هذه السنة ناسخة لتلك الآية))^(٨). ومنهم من ذهب إلى أن الناسخ لها آية الحدود في سورة النور وهي قوله تعالى:

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣٥٤/١، التحرير والتنوير ٢٧٠/٤.

(٢) التحرير والتنوير ٢٧١/٤.

(٣) إرشاد العقل السليم ٣٢٤/١.

(٤) روح المعاني ٢٣٥/٤.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٦.

(٦) مسلم ١٣١٦/٣ (كتاب الحدود - باب حد الزنا) برقم ١٦٩٠.

(٧) الناسخ والمنسوخ: ٣٠٦، لأبي جعفر النحاس، تح الدكتور محمد عبد السلام محمد، مط مكتبة الفلاح، الكويت، ط ١ - ١٩٨٨ م.

(٨) الناسخ والمنسوخ: ٣٣، لأبي القاسم هبة الله بن سلامة، (ت ٤١٠هـ)، مط مصطفى الحلبي - مصر، ط ٢ - ١٩٦٧ م.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ وهو قول ابن عباس - رضي الله عنه - وإليه ذهب أبو جعفر النحاس^(١).

قال الشيخ ابن عاشور نقلاً عن ابن عطية: ((أجمع العلماء على أن هاتين الآيتين منسوختان بآية الجلد في سورة النور))^(٢)، ولست أدري أي إجماع هذا الذي ادعاه ابن عطية مع تباين الآراء!.

ومما تقدم يتبين لنا أن الآية منسوخة، إلا أن أبا مسلم الأصفهاني ذكر أنها غير منسوخة^(٣)، وتبعه القاضي أبو بكر بن العربي ورد على القائلين بالنسخ فقال: ((اجتمعت الأمة على أن هذه الآية ليست منسوخة؛ لأن النسخ إنما يكون في القولين المتعارضين من كل وجه، اللذين لا يمكن الجمع بينهما بحال، وأما إذا كان الحكم ممدوداً إلى غاية ثم وقع بيان الغاية بعد ذلك فليس بنسخ؛ لأنه كلام منتظم متصل لم يرفع ما بعده ما قبله، ولا اعتراض عليه))^(٤) وفي دعواه الإجماع نظر؛ لتعدد الآراء، إلا أن قوله هو قول المحققين من الأصوليين، فإن النسخ عندهم إنما يكون في القولين المتعارضين ولا يمكن الجمع بينهما، والجمع هنا ممكن بين الحبس والتعير والجلد والرجم، أما إطلاق المتقدمين على هذا وأمثاله النسخ فهو تجوز^(٥).

خامساً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: لما ذكر في الآيات المتقدمة الأمر بالإحسان إلى النساء ومعاشرتهن بالجميل وما يتصل بهذا الباب، ضم إلى ذلك التغليظ عليهن فيما يأتينه من الفاحشة، فإن ذلك في الحقيقة إحسان إليهن ونظر لهن في أمر آخرتهن، وأيضاً ففيه فائدة أخرى وهو أن لا يجعل أمر الله الرجال بالإحسان إليهن سبباً لترك إقامة الحدود عليهن فيصير ذلك سبباً لوقوعهن في أنواع المفساد والمهالك، وأيضاً فيه فائدة ثالثة وهي بيان أن الله تعالى كما يستوفي لخلقه فكذلك يستوفي عليهم، وأنه

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس: ٣١٠.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦٩/٤، وينظر: المحرر الوجيز ٥٢٨/٣ - ٥٢٩.

(٣) التفسير الكبير ٢٣٢/٩.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٣٥٤/١.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ٨٥/٥، وينظر: الكشاف ٤٨٧/١.

ليس في أحكامه محاباة ولا بينه وبين أحد قرابة وأن مدار هذا الشرع الانصاف والاحتراف في كل باب عن طرفي الإفراط والتفريط^(١).

سادساً: الإعراب والقراءات

[١]- الإعراب:

قوله تعالى: (واللاتي) جمع التي وهو اسم موصول مبتدأ وقوله: ﴿يَأْتِينَكَ الْفَاحِشَةُ﴾ صلته، وفي الخبر وجهان: أحدهما الجملة من قوله: (فاستشهدوا) وجاز دخول الفاء زائدة في الخبر على رأي الجمهور؛ لأن المبتدأ أشبه الشرط في كونه موصولاً عاماً صلته فعل مستقبل، والوجه الثاني: أن الخبر محذوف والتقدير: فيما يتلى عليكم حكم اللاتي فحذف الخبر والمضاف إلى المبتدأ للدلالة عليهما، وأقيم المضاف إليه مقامهما^(٢).

(أو يجعل الله) ف(أو) عاطفة، والتقدير: أو إلى أن يجعل الله، قيل: هي بمعنى (إلا أن) وكلاهما مستقيم، و(لهن) يجوز أن يتعلق ب(يجعل) وأن يكون حالاً من (سيلاً)^(٣).

[٢]- القراءات:

قوله تعالى: ﴿يَأْتِينَكَ الْفَاحِشَةُ﴾ قرأها ابن مسعود - رضي الله عنه - (يأتين بالفاحشة) والعرب تقول: أتيت أمراً عظيماً وبأمر عظيم، وتكلمت بكلام قبيح وكلاماً قبيحاً^(٤).

سابعاً: ما يستفاد من الآية

يمكن أن نستشف من الآية عدة فوائد منها:

(١)- عظم وقبح فاحشة الزنى^(٥).

(١) التفسير الكبير ٢٣٠/٩، وينظر: نظم الدرر ٢١٥/٥ - ٢١٦.

(٢) ينظر: البحر المحيط ١٩٥/٣، والدر المصون ٣٢٩/٢، والفتوحات الإلهية ٣٦٥/١.

(٣) إملاء ما من به الرحمن ١/١٧١، وينظر: الدر المصون ٣٢٩/٢.

(٤) معاني القرآن للقرءاء ٢٥٨/١، جامع البيان ٢٩٤/٤، الكشف ٤٨٧/١، البحر المحيط ١٩٥/٣.

(٥) أيسر التفاسير ١٥١/١.

(٢)- بيان أهمية البيت من خلال جعله سجنًا تحبس فيه المرأة الزانية، وهو اللائق بحالها؛ لأن المرأة إنما تفعل الفاحشة عند الخروج غالباً، فإذا حبست في البيت انقطعت مادة المعصية^(١).

(٣)- في الآية بيان أن الزنا لا يثبت إلا بأربعة من الشهود، وعلى أن يكون الشهاء منا فلا تقبل شهادة الكفار على المسلمين^(٢)، وفي اشتراط الأربعة تغليظ على المدعي وستر على العباد^(٣).

(٤)- في الآية إشارة إلى أن منع النساء من الخروج عند الحاجة إليه في غير هذه الحالة لمجرد الغيرة، أو لمجرد الهوى والتحكم من الرجال لا يجوز^(٤).

ثامناً: المعنى العام

إن الإسلام يريد أن ينظم حياة المجتمع الذي يدعو إلى بنائه منذ اللحظات الأولى ويتقذه من رواسب الجاهلية، وذلك بتطهيره من الفاحشة، فشرع عقوبة الحبس لعزل العناصر الملوثة التي تقارف الفاحشة من النسوة وإبعادهن عن المجتمع متى ثبت عليهن ارتكاب الفاحشة وهي الزنا.

وقد حدد المكان الذي يتم فيه حبس النساء وهو البيت الذي هو مأوى المرأة ومستقرها الذي تجد فيه الأمن والأمان والطهر والعفاف، ففي حبسها في البيت منع لها من الاختلاط بالرجال فلا تقدر على الزنا.

ويكون الحبس كما قررته الآية بعد أن يثبت عليها الزنى عن طريق شهود أربعة رجال من المسلمين العدول، ولعظم هذه الجريمة التي من شأنها أن تهز كيان الأسر وتؤدي إلى عواقب وخيمة في ظروف كثيرة، فالتشدد في إثبات وقوعها يحول دون كل ذلك، أما إذا شهد أربعة شهود عيان فمعنى ذلك أن المجرمين استهتروا استهتاراً

(١) الفتوحات الالهية ٣٦٦/١، وينظر: لباب التأويل ٤٩٥/١.

(٢) ينظر: أحكام القرآن للجصاص ١٠٨/٢، ومعالم التنزيل ٤٩٥/١، وتفسير سورة النور لابن تيمية: ٤٦، وفقه الإمام سعيد ٢٠٣/٤ - ٢٠٤.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل ١٣٤/١، المحرر الوجيز ٥٢٦/٣، الجامع لأحكام القرآن ٨٣/٥.

(٤) تفسير المنار ٤٣٦/٤، تفسير المراغي ٢٠٦/٤.

بشعاً بمصلحة الجمهور وسلامة الأعراض بجريمتهم ويصبح إعلان الجريمة والتنكيل
بمرتكبيها من مصلحة الجمهور، فالحبس في البيوت والمنع من الخروج عقوبة
للنساء حتى لا يعدن إلى ارتكابها مرة أخرى إلى أن يَمُتْنَ ويقبض أرواحهن الموت أو
يجعل الله لهن طريقاً بما يشرعه من حد الزنا^(١).

(١) ينظر: التفسير الحديث ٣٧/٩، وفي ظلال القرآن ٢٧٤/٢.

الفرع الثاني بيت العدة

سنحلل في هذا الفرع قوله تعالى :

﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقْتُمُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ يَفْحَشَةً مِّنَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾^(١).

وستتعرف معاني هذه الآية الكريمة في النقاط الآتية :

أولاً: معنى (الطلاق) و(العدة)

(١)- معنى (الطلاق) في اللغة: طلاق المرأة يكون بمعنيين أحدهما: حل عقدة النكاح، والآخر: بمعنى الترك والإرسال، قال ثعلب: طَلَّقْتُ بِالْفَتْحِ تَطْلُقُ طَلَاقاً، والضم أكثر وأجود. وأطلقت طلاقاً بانت وهو من المجاز^(٢).

و(الطلاق) شرعاً: مأخوذ من معناه اللغوي وهو (رفع قيد النكاح بلفظ مخصوص)^(٣) وهو ما اشتمل على مادة طلق صريحاً أو كناية^(٤).

(٢)- (العدة) في اللغة: هي الشيء المعدود، وعدة المرأة: أيام إقرائها، وهي الأيام التي بانقضائها يحل لها التزوج، قال تعالى: ﴿فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾^(٥).

(١) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٢) ينظر: تاج العروس مادة (طلق) ٤٣٤/٦ - ٤٣٥.

(٣) فتح القدير لابن الهمام ٣/٣٢٥.

(٤) الطلاق وألفاظه المعاصرة في ضوء الفقه الإسلامي: ١٣، للدكتور عبد الملك السعدي، مطبوع في - بعثاد، ط ١ - ١٩٨٦ م.

(٥) ينظر: العين ١/٧٩، ومقاييس اللغة مادة (عد) ٤/٢٩، والمفردات: ٥٥٠.

والعدة: هي تربص يلزم المرأة عند زوال النكاح المتأكد أو شبهته^(١).

ثانياً: معنى (الفاحشة) في الآية

اختلف المفسرون في معنى الفاحشة التي ذكرت في هذا الموضع، والمعنى الذي من أجله أذن الله بإخراج النساء - في حال كونهن في العدة - من بيوتهن على خمسة أقوال:

(١)- أراد بها الزنا والإخراج الذي أباحه الله هو الإخراج لإقامة الحد، قاله ابن عباس وابن عمر والحسن والشعبي ومجاهد - رضي الله عنهم -^(٢).

(٢)- إنه البذاء على أحمائها، فيحل لهم إخراجها، قاله ابن عباس - رضي الله عنه - وغيره^(٣).

(٣)- إنه كل معصية، روي ذلك عن ابن عباس - رضي الله عنه -، وهو الذي اختاره الطبري - رحمته الله -^(٤).

(٤)- إنه الخروج من البيت في العدة، واختاره ابن عمر - رضي الله عنهما -^(٥).

(٥)- إنه النشوز، قاله قتادة، وذلك أن يطلقها على النشوز فتتحول عن بيته^(٦).

قال أبو بكر الجصاص: ((هذه المعاني كلها يحتملها اللفظ وجائز أن يكون جميعها مراداً فيكون خروجها فاحشة، وإذا زنت أخرجت للحد، وإذا بذت على أهله أخرجت أيضاً، فأما عصيان الزوج والنشوز، فإن كان في البذاء وسوء الخلق اللذين يتعذر المقام معها فيه فجائز أن يكون مراداً وإن كانت إنما عصت زوجها في شيء غير ذلك، فإن ذلك ليس بعذر في إخراجها))^(٧).

والراجح ما رجحه ابن العربي وهو قول من قال: إنه الخروج بغير حق فيكون

(١) التعريفات: ٨٥.

(٢) جامع البيان ١٣٣/٢٨، الجامع لأحكام القرآن ١٥٦/١٨، تفسير القرآن العظيم ٣٧٨/٤.

(٣) جامع البيان ١٣٣/٢٨، التفسير الكبير ٣٢/٣٠، لباب التأويل ١٠٨/٧.

(٤) جامع البيان ١٣٤/٢٨، أحكام القرآن لابن العربي ١٨٣١/٤، الجامع لأحكام القرآن ١٥٦/١٨.

(٥) أحكام القرآن للجصاص ٤٥٤/٣، التفسير الكبير ٣٢/٣٠، الجامع لأحكام القرآن ١٥٦/١٨.

(٦) معالم التنزيل ١٠٧/٧، الجامع لأحكام القرآن ١٥٦/١٨.

(٧) أحكام القرآن للجصاص ٤٥٤/٣.

تقدير الكلام: لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن شرعاً إلا أن يخرجن تعدياً^(١).

ثالثاً: أسباب النزول

وردت في الآية الكريمة أسباب في نزولها منها:

(١)- ما روي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: أن رسول الله - ﷺ - طلق حفصة - رضي الله عنها - ثم راجعها^(٢).

(٢)- وروى قتادة عن أنس - رضي الله عنه - قال: طلق رسول الله - ﷺ - حفصة - رضي الله عنها - فأتت أهلها فأنزل الله: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ ف قيل له: راجعها فإنها صوامة قوامة وهي من أزواجك في الجنة^(٣).

(٣)- قال السدي: نزلت في عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - وذلك أنه طلق امرأته حائضاً فأمره رسول الله - ﷺ - أن يراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر وتحيض ثم تطهر، فإن أراد أن يطلقها فليطلقها حين تطهر من قبل أن يجامعها، فتلك العدة التي أمر الله تعالى أن يطلق لها النساء^(٤).

والحق أن كل هذه الأقوال لا يمكن أن تنهض لتكون سبباً في نزول الآية وهذا ما رجحه كثير من العلماء^(٥) ومنهم ابن العربي حيث ذكر أن الأصح أنها نزلت ابتداءً - أي من غير سبب باعث لنزولها - وذلك لبيان حكم شرعي وكل ما ذكر من أسباب النزول لها لم يصح.

ومما يستأنس به في ترجيح ما ذهب إليه ابن العربي ما ذكره ابن عاشور من أن

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٣١.

(٢) جامع البيان ٢٨/ ١٣١ - ١٣٢، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٢٣، التفسير الكبير ٣٠/ ٢٩، لباب النقول: ٢٣٦ والحديث أخرجه أبو داود ٧١٢/ ٢ [كتاب الطلاق - باب في المراجعة] برقم ٢٢٨٣، سنن ابن ماجه ١/ ٦٥٠ [كتاب الطلاق - باب حدثنا سويد بن سعيد] برقم ٢٠١٦.

(٣) أسباب النزول: ٢٨٩، لباب النقول: ٢٣٦.

(٤) المصادر السابقة، والحديث أخرجه البخاري ٩/ ٦٤٩، [كتاب التفسير - باب سورة الطلاق] برقم ٤٩٠٨، مسلم ٢/ ١٠٩٣ [كتاب الطلاق - باب تحريم طلاق الحائض بغير رضاها] برقم ١٤٧١.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٨٢٣، الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ١٤٨، روح المعاني ٢٨/ ١٣٢، التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٩٣.

ظاهر كلمة (إذا) أنها للمستقبل حيث يجوز أن يكون المراد إذا طَلَقْتُمْ في المستقبل فلا تعودوا إلى مثل ما فعلتم^(١).

رابعاً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: إنه لما ذكر الفتنة بالمال والولد، أشار إلى الفتنة بالنساء، وأنهن قد يعرضن الرجال للفتنة حتى لا يجد مخلصاً منها إلا بالطلاق، فذكر أنه ينفصل منهن بالوجه الجميل^(٢) ولما وقع في آخر التغابن: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾^(٣) كانت عداوة الأزواج تفضي إلى الطلاق، وعداوة الأولاد تفضي إلى القسوة وترك الانفاق عليهم؛ عقب ذلك بسورة فيها ذكر أحكام الطلاق والانفاق على الأولاد وعلى المطلقات بسبيهم^(٤).

خامساً: الإعراب والقراءات

[١]- الإعراب:

قوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمْ﴾ فيه أوجه:

- أ- إنه خطاب لرسول الله - ﷺ - بلغة الجمع تعظيماً.
- ب- إنه خطاب له ولأتمته، والتقدير: يا أيها النبي، وأتمته إذا طَلَقْتُمْ فحذف المعطوف للدلالة ما بعده عليه.
- ج- إنه خطاب لأتمته فقط بعد بدايته - ﷺ - وهو من تلوين الخطاب حيث خاطب أتمته بعد أن خاطبه.
- د- إنه على إضمار قول، أي: يا أيها النبي قل لأمتك إذا طَلَقْتُمْ^(٥).

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٢٩٥.

(٢) البحر المحيط ٨/٢٨١.

(٣) سورة التغابن، الآية: ١٤.

(٤) تناسق الدرر في تناسب السور: ٨٦، لجلال الدين السيوطي، تح عبدالله محمد الدرويش، مط دار الكتاب العربي - دمشق، ط ١ - ١٩٨٣م.

(٥) ينظر: الدر المصون ٦/٣٢٨ - ٣٢٩، وتنوير الأذهان من تفسير روح البيان، للشيخ اسماعيل حقي البروسوي اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، مط الدار الوطنية - بغداد، ط ١ - ١٩٩٠م.

هـ- قال الزمخشري: خص النبي - ﷺ - بالنداء وعم الخطاب؛ لأن النبي - ﷺ - إمام أمته وقودتهم كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان، إفعلوا كيت وكيت، إظهاراً لتقدمه واعتباراً لترؤسه^(١).

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ﴾ حال من فاعل ﴿وَلَا يَخْرُجَنَّ﴾ ومن مفعول ﴿لَا تَخْرُجُوهُنَّ﴾ أي: لا يخرجن ولا تخرجوهن في حال من الأحوال^(٢).

[٢]- القراءات:

قوله تعالى: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ قرأ عثمان وابن عباس وأبي وغيرهم (في قُبَلِ عِدَّتِهِنَّ). قال أبو الفتح: ((وهذه القراءة تصديق لمعنى قراءة الجماعة: ﴿فَطَلَّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: عند عدتهن ومثله قوله تعالى: ﴿لَا يَجْلِبُهَا لُوقُهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي: عند وقتها))^(٣).

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ﴾ قرأ أبي: (يفحشن عليكم) وقرأ ابن كثير وشعبة (ميينة) بفتح الياء وقرأ الباقر بالكسر، فمن قرأ بالكسر فمعناه: أن نفس الفاحشة إذا تفكر فيها تبين أنها فاحشة، ومن قرأ بالفتح فمعناه: أنها مبرهنة بالبراهين وميينة بالحجج^(٤).

سادساً: علاقة العدة بالبيت

أجملت هذه الآية أحكام العدة وهي الأصل الذي اعتمد عليه الفقهاء رحمهم الله في استنباط أحكام العدة، وقد تناول الفقهاء أحكام العدة وأشبعوها بحثاً ودراسة في مطولات مظان الفقه، فتناولوا في ذلك أسبابها، وأنواعها، وكيفيتها، وحكمة تشريعها وغير ذلك، ولا يعنينا من كل ذلك إلا أن ندرس علاقة البيت المذكور في الآية بالعدة ذاتها، حيث إن العدة تستلزم بالضرورة قرار المرأة في البيت الذي تعتد فيه بعد حصول الفرقة - سواء بالطلاق أو الموت -.

(١) الكشاف ٤/٤٥٢.

(٢) حاشية الشيخ زاده ٨/٤٨١، الجدول في إعراب القرآن ١٤/٢٧٨.

(٣) مختصر في شواذ القراءات: ١٥٨، المحتسب ٢/٣٢٣.

(٤) ينظر: الحجة لابن خالويه: ١٢١، والكشف ٢/٣٨٣، وغاية الاختصار: ٤٦١، والمهذب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيبة النشر: ٢٩١، للدكتور محمد سالم محيسن، مط مكتبة الكليات الأزهرية مصر، ط ٢ - ١٩٧٨م.

فالمراد ببيت العدة: المسكن الذي تقيم فيه المرأة المعتدة من غير أن تفارقه حتى تنقضي عدتها، ولا يقتضي هذا بالضرورة أن يكون ذلك البيت ملكاً لها كما قد يفهم من قراءة الآية الكريمة للوهلة الأولى، وهو ما قد توهمه إضافة البيوت إليهن، وهذا ما نبه عليه غير واحد من المفسرين كالزمخشري وابن العربي^(١)، وإنما المراد من هذه الإضافة الاختصاص بالسكنى، قال ابن العربي في قوله تعالى: ﴿مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ أنها ((إضافة إسكان وليست إضافة تملك))^(٢).

وقد يعبر عن معنى الاختصاص الذي أفادته الإضافة في الآية الكريمة بكمال استحقاق السكن، وكما استحقاق السكنى يكاد يكون تملكاً، وهذا ما أثره الألوسي - رحمه الله - حيث قال: ((واضافتها إليهن وهي لأزواجهن لتأكيد النهي ببيان كمال استحقاقهن لسكنها كأنها أملاكهن))^(٣).

والمعتدة من الطلاق الرجعية أو المبتوتة يلزمها عدم الخروج من بيت العدة كما يلزم الزوج وغيره عدم إخراجها من بيت العدة لقوله تعالى: ﴿لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ باعتبار أن حكم هذه الآية غير مقصور على المطلقة طلاقاً رجعياً بل يشمل سائر المطلقات - المطلقة ثلاثاً أو بائناً - بدلالة قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ﴾^(٤) (٥). وفي حكم المطلقة ثلاثاً خلاف بين العلماء، فذهب مالك والشافعي ورواية عن أحمد أن لها السكنى ولا نفقة لها، وذهب أبو حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة ما دامت في العدة، وذهب أحمد وغيره إلى أنها لا نفقة لها ولا سكنى^(٦).

فبيت العدة هو البيت الذي كانت تسكنه وقت وقوع الفرقة فلا يجوز إخراج المعتدة ولا خروجها منه، ولا يشترط في هذا المسكن أن يكون مملوكاً لها وإنما الشرط أن يكون مكان سكنها وقت الفرقة، ويجوز للمعتدة أن تتحول عنه إذا وقعت

(١) ينظر: الكشف ٥٢٤/٤، وأحكام القرآن لابن العربي ١٨٢٩/٤.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ١٤٢٩/٤.

(٣) روح المعاني ١٣٣/٢٨.

(٤) سورة الطلاق، الآية: ٦.

(٥) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي ١٨٣٠/٤، ١٨٣٩، والجامع لأحكام القرآن ١٥٤/١٨.

(٦) ينظر: نيل الأوطار ٣٠٥/٦، والفقهاء الإسلاميين وأدلته ٧٢٠٣/٩، وروائع البيان ٦١٦/٢.

ضرورة أو حاجة^(١).

جاء في البدائع: ((إذا اضطرت إلى الخروج من بيتها بأن خافت سقوط منزلها أو خافت على متاعها... فلا بأس أن تنتقل وإنما كان كذلك؛ لأن السكنى وجبت على المعتدة بطريق العبادة حقاً لله تعالى عليها والعبادات تسقط بالأعذار، وقد روي أن سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لما قُتل نَقَلَ سيدنا علي - رضي الله عنه - زوجته أم كلثوم - رضي الله عنها، وهي ابنة علي - لأنها كانت في دار الاجارة، وروي أيضاً أن عائشة - رضي الله عنها - نقلت أختها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنها - لما قتل طلحة - رضي الله عنه - فدل ذلك على جواز الانتقال للعذر^(٢)). وعن جابر - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - : «أذن لخالته في الخروج في جدار نخلها»^(٣). وجاء من هذا أن لزوم البيت للمعتدة شرع لازم، وأن الخروج للحدث والبذاء والحاجة إلى المعاش وخوف العورة من المسكن جائز بالسنة^(٤).

سابعاً: الفائدة من احصاء العدة

إن معرفة الوقت الذي وقع فيه الطلاق وحفظه، له صلة أكيدة بإسكان المعتدة في البيت وإن المخاطب بأمر الاحصاء في قوله: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها : أنهم الأزواج.

الثاني : الزوجات.

الثالث : المسلمون^(٥).

(١) ينظر: معالم التنزيل ١٠٨/٧، والتفسير الكبير ٣٢/٣٠، ومغني المحتاج ٤٠١/٣، وحاشية رد المحتار على الدر المختار ٥٣٦/٣، والفقہ الإسلامي وأدلته ٧٢٠٠/٩.

(٢) بدائع الصنائع، في ترتيب الشرائع ٣٢٥/٣ - ٣٢٦، للإمام علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني، (ت ٥٨٧هـ)، تح محمد عدنان بن ياسين درويش، مط دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط ٣ - ٢٠٠٠م.

(٣) شرح معاني الآثار ٧٩/٣، للإمام أبي جعفر الطحاوي (ت ٣٢١هـ) تح محمد زهري النجار، مط الأنوار المحمدية القاهرة، والجداد، بفتح الجيم وكسرها، قطع ثمر النخل، ينظر: مقاييس اللغة.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ١٨٣٠/٤.

(٥) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي ١٨٢٦/٤، والجامع لأحكام القرآن ١٥٤/١٨.

ورجح ابن العربي - رحمته - الأزواج ؛ لأن الضمائر كلها من ﴿طَلَقْتُمْ﴾ و﴿وَأَحْصُوا﴾ و﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ على نظام واحد يرجع إلى الأزواج ، فقال - رحمته - : ((ولكن الزوجات داخلة فيه بالإلحاق بالزوج ؛ لأن الزوج يحصي ليراجع ، وينفق أو يقطع ، وليسكن أو يخرج ، وليلحق نسبه أو يقطع ، وهذه كلها أمور مشتركة بينه وبين المرأة ، وتنفرد المرأة دونه بغير ذلك ، وكذلك الحاكم يفتقر إلى الإحصاء للعدة للفتوى عليها وفصل الخصومة عند المنازعة فيها ، وهذه فوائد الإحصاء المأمور به))^(١).

وهذا الإحصاء فيه عدة فوائد منها :

- (١) - فيه فائدة لمن يريد من رجعة وإمساك أو تسريح وفراق^(٢).
- (٢) - فيه فائدة للرجل وهي أنه إذا بانت يشهد على فراقها ويتزوج من النساء غيرها ممن لم يكن يجوز له جمعها إليها ، ولثلا يخرجها من بيتها قبل انقضائها^(٣).
- (٣) - مراعاة أمر النفقة والسكنى^(٤).
- (٤) - الحيلولة دون وقوع التزويج قبل انتهائها فربما اختلط النسب^(٥).
- (٥) - لتوزيع الطلاق على الأقراء إذا أراد أن يطلق ثلاثاً^(٦).

ثامناً: غرض الشارع الحكيم من بقاء المطلقة في بيتها

يقول الشيخ ابن عاشور في حكمة السكنى للمطلقة: ((إنها حفظ الأعراض فإن المطلقة يكثر التفات العيون لها ، وقد يتسرب سوء الظن إليها فيكثر الاختلاف عليها ولا تجد ذا عصمة يذب عنها فلذلك شرعت لها السكنى ومن الحكم أيضاً في ذلك أن المطلقة قد لا تجد مسكناً ؛ لأن غالب النساء لم تكن لهن أموال وإنما هن عيال على الرجال ، فلما كانت المعتدة ممنوعة من التزوج كان إسكانها حقاً على مفارقتها استصحاباً للحال حتى تحل للتزوج فتصير سكنها على من يتزوجها ، ويزاد

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١٨٢٧/٤ .

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٤٥٣/٣ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) معالم التنزيل ١٠٨/٧ ، لباب التأويل ١٠٨/٧ .

(٥) ينظر: تنوير الأذهان ٣٣٨/٤ ، والتحرير والتنوير ٢٩٨/٢٨ .

(٦) معالم التنزيل: ١٠٨/٧ ، لباب التأويل ١٠٨/٧ ، اللباب ١٤٩/١٩ .

في المطلقة الرجعية قصد استبقاء الصلة بينها وبين مطلقها لعله أن يثوب إليه رشده فيراجعها فلا يحتاج في مراجعتها إلى إعادة التذاكر بينه وبينها أو بينه وبين أهلها^(١).

ولعل في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ أهم ما في العدة من المصالح، وهو ما يحدثه الله من أمر بعد الطلاق وتنكير (أمرًا) للتنويع، وهذا الأمر هو تقليب القلوب من بغضها إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن إثارة تحمل المخالفة في الأخلاق مع المعاشرة على تحمل آلام الفراق وخاصة إذا كان بين المتفارقين أبناء، أو ظهور حمل بالمطلقة بعد أن لم يكن لها أولاد وغيرها من الأمور التي تحدث الزوج على الرغبة في الرجعة^(٢).

تاسعاً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة الفوائد الآتية:

- (١)- بيان السنة في الطلاق وهي أن يطلقها في طهر لم يمسه فيه بجماع^(٣).
- (٢)- السكنى واجبة للمطلقة على زوجها فلا يجوز له إخراجها حتى تنتهي العدة^(٤).
- (٣)- إذا خرجت المرأة من بيت زوجها قبل انتهاء عدتها فقد عصت الله وأيّمت، ولا تنقطع العدة^(٥).
- (٤)- قوله تعالى: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ فيه دليل على أن المستحب في التطلق أن يوقع متفرقاً، فإنه إذا طلق ثلاثاً أضر بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة في الارتجاع^(٦).
- (٥)- الآية تعليل للمحافظة على الأحكام المذكورة فيها من تطلق النساء

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٣٠٤.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، ١٨/١٥٦، والتحرير والتنوير ٢٨/٣٠٦.

(٣) الكشف ٤/٥٥، الجامع لأحكام القرآن ١٨/١٥٠.

(٤) أحكام القرآن للجصاص ٣/٥٥٤، وينظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٢٩.

(٥) التفسير الكبير ٣٠/٣٢، الجامع لأحكام القرآن ١٨/١٥٤.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٨٣٢، نيل المرام: ٣٩٠.

لعدتهن، واحصاء العدة، والتجانب عن الإخراج والخروج، فإن التطليق على الوجه المذكور لما لم يقطع على الزوج سبيل الرجعة صح تعليله بقوله: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثَ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾، فإن العدة إذا لم تكن مضبوطة أو انتقلت المرأة من منزل زوجها أشكل أمر الرجعة^(١).

عاشراً: المعنى العام

الخطاب هنا في هذه الآية الكريمة للنبي - ﷺ - والمراد به المسلمون جميعاً، فالمسلمون مخاطبون من الله سبحانه وتعالى في شخص النبي - ﷺ - الذي يتلقى الخطاب عنهم، لأنه إمامهم وهاديهم، ومبلغ الدعوة من الله إليهم، وفي هذه الآية تنظيم للحياة العائلية في البيوت ومعالجة الظروف الاستثنائية بحكمة ورشاد.

فإذا كان لا بد من الفرقة بين الرجل وزوجته بالطلاق، فليكن الطلاق في الوقت المناسب، لذا قال تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي: لوقت استقبال العدة، وهو ما بينته السنة المطهرة، وهو أن تطلق المرأة في طهر لم تمس من الرجل فيه، فإذا طلقت في الطهر المتقدم للقرء من أقرائها فقد طلقت مستقبلة لعدتها.

كما أمر سبحانه وتعالى بضبط العدة وحفظها، التي ينبنى عليها أمور شرعية كثيرة، ومنها أمر السكن في البيوت، فأمر بعدم إخراج المطلقة من مسكنها الذي كانت فيه قبل الطلاق حتى تنتهي عدتها، فالمرأة في أثناء العدة لا تزال في بيتها في بيت الزوجية، وليست غريبة عنه، وهي أيضاً لا يجوز لها أن تخرج ما دامت في عدة الزواج إلا إن أتت بمعصية ظاهرة كالبداء على الزوج أو أهله بلسانها أو فعالها، والخروج من الدار قبل انقضاء العدة، وهذه هي حدود الله ومن يتعد الحدود فقط ظلم نفسه وأورثها الندامة والحسرة على ما فعلت، وختمت هذه الآية الكريمة بحكمة الإبقاء في البيوت فقال تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ وهو ميل القلب إليها وتحوله من البغض إلى المحبة، فتكون المراجعة وهي في بيته أيسر وأسهل.

(١) حاشية الشيخ زاده ٤٨١/٨، وينظر: الفتوحات الإلهية ٣٥٦/٤.

المبحث الثاني آداب البيوت

وفيه مطالب:

- المطلب الأول : الاستئذان في دخول البيوت.
- المطلب الثاني : الأكل في البيوت.
- المطلب الثالث : وقاية البيت المسلم من المخالفات الشرعية.
- المطلب الرابع : اجتناب العادات الجاهلية لدخول البيوت.

المطلب الأول

الاستئذان في دخول البيوت

مما لا شك فيه أن البيوت إنما اتخذها أصحابها لتكون حماية لهم مما يؤذيهم من حر وبرد ومطر وغير ذلك، وسترأ لعوراتهم عن أعين الناس، وقد يكونون في بيوتهم على أحوال لا يحبون إطلاع أحد عليها، فشرع الإسلام الاستئذان وآدابه لتكون للبيوت حرمتها، فلا يفاجأ أهل البيت الآمنين بدخول الناس عليهم إلا بعد الاستئذان والسماح لهم بالدخول، وقد قسمت البيوت على قسمين: قسم يستأذن لها، والآخر لا يستأذن لها وهذا ما تقرره الآيات في قوله تعالى:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾^(١).

وسنحلل هذه الآيات المباركات من خلال النقاط الآتية:

أولاً: (الاستئناس) في اللغة والغريب

(١) - (الاستئناس) في اللغة: الهمزة والنون والسين أصل واحد، وهو ظهور الشيء، وكل شيء خالف طريق التوحش، واستأنست به وتأنست به إذا سكن إليه القلب ولم ينفر، وأنست الشيء بالمد: إذا علمته، وأنسته: أبصرته، واستأنست تأني بمعنى استعلمت ومنه قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا﴾^(٢).

(١) سورة النور، الآية: ٢٧ - ٢٩.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة مادة (أنس) ١/١٤٥، والمفردات: ٩٤، والمصباح مادة (أنس) ١/١٦.

ثانياً: الاستئناس عند المفسرين

اختلف المفسرون في معنى الاستئناس في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ على عدة معانٍ منها:

(١)- الاستئذان قاله ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم وقتادة^(١) - عليه السلام - وكان ابن عباس - عليه السلام - يقرأ: حتى تستأذنوا ويقول: تستأنسوا خطأ من الكاتب، قال الرازي - رحمته الله -: ((واعلم أن هذا القول من ابن عباس - عليه السلام - فيه نظر لأنه يقتضي الطعن في القرآن الذي نقل بالتواتر، ويقتضي صحة القرآن الذي لم ينقل بالتواتر وفتح هذين البابين يترك الشك إلى كل القرآن وإنه باطل))^(٢).

(٢)- طلب الانس، وهو أن ينظر هل في البيت ناس فيؤذنه بدخوله فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه فإذا أذن له استأنس^(٣).

(٣)- التئنج والتنجم وما أشبهه، قاله مجاهد وابن زيد^(٤)، وقال عكرمة: هو التسييح والتكبير ونحوه^(٥).

(٤)- الاستعلام والاستكشاف، والمعنى: حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال، هل يراد دخولكم أم لا^(٦).

والذي أميل إليه من هذه الآراء ما رجحه الطبري - رحمته الله - إلى أن ((الاستئناس: الاستفعال من الانس، وهو أن يستأذن أهل البيت في الدخول عليهم مخبراً بذلك من فيه، وهل فيه أحد؟ وليؤذنه أنه داخل عليهم، فيأنس إلى إذنه له في ذلك ويأنسوا إلى استئذانه إياهم))^(٧).

(١) جامع البيان ١٨/١٠٩، أحكام القرآن للجصاص ٣/٣٠٩.

(٢) التفسير الكبير ٢٣/١٩٦، وينظر الجامع لأحكام القرآن ١٢/٢١٤، ولباب التأويل ٥/٦٦.

(٣) ينظر: معالم التنزيل ٥/٦٦، والكشاف ٣/٢٢٦، والتفسير الكبير ٢٣/١٩٦ - ١٩٧.

(٤) جامع البيان ١٨/١١١ - ١١٢، أحكام القرآن للجصاص ٣/٣١١، روح المعاني ١٨/١٣٤.

(٥) التفسير الكبير ٢٣/١٩٧.

(٦) الكشاف ٣/٢٢٦، التفسير الكبير ٢٣/١٩٦، إرشاد العقل السليم ٤/٥٤.

(٧) جامع البيان ١٨/١١٢.

ثالثاً: أسباب النزول

ذكر الكثير من أهل التفسير: أن امرأة من الأنصار جاءت رسول الله - ﷺ - فقالت: يا رسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، فلا يزال يدخل علي رجل من أهلي فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ فقال أبو بكر - رضي الله عنه - بعد نزولها: يا رسول الله، أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام ليس فيها ساكن؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ (١).

رابعاً: مناسبة الآيات

مناسبة الآيات لما قبلها: لما أنهى الله سبحانه الحديث عن براءة السيدة عائشة - رضي الله عنها - على الوجه الذي كساها به من الشرف ما كساها، وحلاها برونقه من مزايا الفضل ما حلاها، وكان أهل الإفاك قد فتحوا بإفكهم هذا باب الظنون السيئة عداوة من إبليس لأهل هذا الدين بعد أن كانوا في ذلك وفي كثير من سجايهم على الفطرة الأولى، أمر تعالى رداً لما أثار بوسواسه من الداء بالتنزه عن مواقع التهم والتلبس بما يحسم الفساد فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ (٢).

أما مناسبة الآية لما بعدها: بعد أن نهى سبحانه عن دخول البيوت إلا بعد الاستئذان والسلام على أهلها، منعاً للقليل والقال والاطلاع على عورات الناس وأسرارهم، أمر سبحانه رسوله - ﷺ - أن يرشد المؤمنين إلى غض البصر عن المحارم لمثل السبب المتقدم.

خامساً: القراءات

قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ قرأها ابن عباس وأبي وابن مسعود وسعيد بن جبیر - رضي الله عنهم - (تستأذنوا) (٣)، قال أبو الفتح: ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ هذا معناه تطلبوا وتلتمسوا

(١) ينظر: جامع البيان ١٨/١١١، وأسباب النزول: ٢١٩، ولباب النقول: ١٧٣، والدر المنثور في التفسير بالمأثور ٣٩/٥، لجلال الدين السيوطي، طبع بالأوفست في المطبعة الإسلامية بطهران ١٣٧٧هـ.

(٢) نظم الدرر ١٣/٢٤٨.

(٣) جامع البيان ١٨/١٠٩، تفسير التبيان ٧/٤٢٦، لمحمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ)، تح =

الأنس كما أن تستأذنوا تطلبوا الأذن، فأما قولهم: أنست بفلان فليس من هذا^(١).
وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قرأ أبي وابن عباس - رضي الله عنهما -
(حتى تسلموا أو تستأذنوا)^(٢) وقرأ ابن مسعود (حتى تسلموا على أهلها
وتستأذنوا)^(٣)، وقرأ أبي (حتى يسلموا ويستأذنوا)^(٤).

سادساً: المراد بالبيوت المسكونة وغير المسكونة

البيوت المسكونة: هي البيوت المعدة للسكنى التي يكون لصاحبها فيها حق
السكنى والمنفعة، وإن كانت ملكاً لغيره، فقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ
بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ أي: المعدة لسكنائكم حتى تستأذنوا ممن يملك الإذن من
أصحابها المالكين إن كانت تحت أيديهم، أو المالكين لمنفعة سكنائها بالأجرة
كالمستأجرين، أو بالهبة كالمستعيرين^(٥).

أما البيوت غير المسكونة فقد ذكر المفسرون في معناها عدة أقوال منها:

- (١)- الخانات والبيوت المبنية بالطرق وحوانيت البياعين، وهذا قول محمد بن
الحنفية، وقتادة ومجاهد والحسن^(٦).
- (٢)- بيوت مكة، روي ذلك عن محمد بن الحنفية ولكن قد قيد سبحانه وتعالى هذه
البيوت المذكورة هنا بأنها غير مسكونة^(٧).
- (٣)- البيوت الخربة، والمتاع في قوله: ﴿فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ﴾ قضاء الحاجة، من الخلاء
والبول فيها، قاله عطاء^(٨).

=أحمد حبيب العامري، مط النعمان - النجف، ١٩٦٣م.

- (١) المحتسب ١٠٧/٢ - ١٠٨.
- (٢) مختصر في شواذ القراءات: ١٠١.
- (٣) جامع البيان ١١٠/١٨، الكشاف ١٢٧/٣، التفسير الكبير ١٩٦/٢٣.
- (٤) مختصر في شواذ القراءات: ١٠١.
- (٥) ينظر: التفسير الواضح ٥٤/١٨، مواهب الرحمن ٩٦/٦.
- (٦) ينظر: جامع البيان ١١٣/١٨ - ١١٤، ومعالم التنزيل ٦٨/٥، والتفسير الكبير ٢٣/٢٠٠.
- (٧) فتح القدير ٢٠/٤.
- (٨) ينظر: جامع البيان ١١٤/١٨، ومعالم التنزيل ٦٨/٥، والتفسير الكبير ٢٣/٢٠٠.

(٤) - بيوت التجار وحوانيتهم في الأسواق يدخلونها للبيع والشراء^(١).

(٥) - الحمامات^(٢).

والراجح من هذه الآراء هو كل بيت لا ساكن له، ولنا فيه حاجة ومتاع فلا مانع من دخوله بغير إذن؛ لأن الإذن إنما شرع للاستئناس وليس ذلك هنا فلا مانع من دخول الجميع تحت الآية وهذا ما ذهب إليه الإمام الطبري والبغوي والرازي وغيرهم^(٣).

إلا أن الطبري - رحمه الله - أخرج بيوت التجار عن هذا الحد فقال: ((وأما بيوت التجار فإنه ليس لأحد دخولها إلا بإذن أربابها وسكانها))^(٤).

ولا مانع من جعل حجرات الموظفين كاليوت يحسن الاستئذان عند دخولها فربما كان الموظف في شغل شاغل، أو عنده شخص في مصلحة لا يحب أن يطلع عليها أحد وهذا بلا شك أحفظ للوقت وأدعى إلى العمل والجد^(٥).

سابعاً: الحكمة من الاستئذان

الحكمة من تقديم الاستئذان في الدخول على البيوت هي التي نبه الله تعالى عليها في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ فدل بذلك على أن الذي لأجله حرم الدخول إلا على هذا الشرط هو كون البيوت مسكونة، فالذي يهجم على هذه البيوت بغير استئذان فربما يهجم على ما لا يحل له أن ينظر إليه من عورة أو على ما لا يحب الناس أن يعرفه غيرهم من الأحوال، وهذا من باب العلل المنبه عليها بالنص، ولأنه تصرف في ملك الغير فلا بد وأن يكون برضاه وإلا أشبه الغصب^(٦).

ويقول رسول الله - ﷺ - : «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»^(٧)، وقد جاء

(١) أحكام القرآن للجصاص ٣/٣١٤، لباب التأويل ٥/٦٨.

(٢) التفسير الكبير ٢٣/٢٠٠، إرشاد العقل السليم ٤/٥٤.

(٣) ينظر: جامع البيان ١٨/١١٥، ومعالم التنزيل ٥/٦٨، والتفسير الكبير ٢٣/٢٠٠.

(٤) جامع البيان ١٨/١١٥.

(٥) التفسير الواضح ١٨/٥٤ - ٥٥.

(٦) ينظر: الكشف ٣/٢٢٨، والتفسير الكبير ٢٣/١٩٧، واللباب ١٤/٣٤٤.

(٧) البخاري ١٢/٢٨٧ [كتاب الاستئذان - باب الاستئذان من أجل البصر] برقم ٦٢٤١، مسلم =

في شرحه: إنما شرع الاستئذان في الدخول لأجل أن لا يقع البصر على عورة أهل البيت ولئلا يطلع الغير على أحوالهم ولأن المستأذن لو دخل بغير إذن لرأى بغض ما يكرهه^(١).

ويقول سيد قطب: ((لقد جعل الله البيوت سكناً، يفى إليها الناس فتسكن أرواحهم وتطمئن نفوسهم، ويأمنون على عوراتهم وحرمااتهم ويلقون أعباء الحذر والحرص المرهقة للأعصاب، والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرماً آمناً لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنه، وفي الوقت الذي يريدون وعلى الحالة التي يحبون أن يلقوا عليها الناس، ذلك أن استباحة حرمة البيت من الداخلين دون استئذان يجعل أعينهم تقع على عورات، وتلتقي بمفاتيح تثير الشهوات، وتتهيء الفرصة للغواية الناشئة من اللقاءات العابرة والنظرات الطائرة، التي قد تتكرر فتتحول إلى نظرات قاصدة تحركها الميول التي أيقظتها اللقاءات الأولى على غير قصد ولا انتظار وتحولها إلى علاقات آثمة أو إلى شهوات محرمة تنشأ عنها العقد النفسية والانحرافات، ولقد كانوا في الجاهلية يهجمون هجوماً فيدخل الزائر البيت ثم يقول: لقد دخلت! وكان يقع أن يكون صاحب الدار مع أهله في الحالة التي لا يجوز أن يراها عليها أحد وكأن يقع أن تكون المرأة عارية أو مكشوفة العورة، هي أو الرجل وكان ذلك يؤدي ويجرح ويحرم البيوت أمنها وسكيتها، كما يعرض النفوس من هنا ومن هناك للفتنة حيث تقع العين على ما يثير.

من أجل هذا وذاك أدب الله المسلمين بهذا الأدب العالي أدب الاستئذان على البيوت والسلام على أهلها لإيناسهم وإزالة الوحشة من نفوسهم قبل الدخول^(٢).

وقد أجملت حكمة الاستئذان في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

= ١٦٩٨/٣ [كتاب الأدب - باب تحريم النظر في بيت غيره] برقم ٢١٥٦.

(١) صحيح البخاري بشرح الكرمانى ٨٣/٢٢، لمحمد بن يوسف الكرمانى (ت ٧٨٦هـ) مط مؤسسة المطبوعات الإسلامية بميدان الأزهر، إرشاد السارى إلى شرح صحيح البخارى ١٤٠/٩، لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني (ت ٩٢٣هـ)، الناشر دار الكتاب العربى، بيروت - لبنان، مطبوع عن الطبعة السابعة بولاق - مصر ١٣٢٣هـ.

(٢) في ظلال القرآن ٨٧/٦ - ٨٨.

ثامناً: كيفية الاستئذان

إن المتأمل في الآية الكريمة يرى من ظاهرها تقديم الاستئذان على السلام إلا أن العلماء اختلفوا في أيهما يقدم، فقال بعضهم: يقدم الاستئذان وذهب الأكثرون على أن السلام مقدم وتقدير الآية: (حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا) وهذا ما تؤيده قراءة ابن مسعود المتقدمة^(١) وقال عنه النووي إنه الصحيح المختار لحديث جابر بن عبدالله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «السلام قبل الكلام»^(٢) إلا أن حديث جابر لا يصلح دليلاً بمفرده.

وفي الباب أحاديث كثيرة تؤيد هذا الرأي منها:

أ- عن كلدة بن حنبل - رضي الله عنه - قال: دخلت على النبي - ﷺ - ولم أستأذن فقال النبي - ﷺ -: «ارجع فقل السلام عليك أَدْخِلْ»^(٣).

ب- عن ربيعي قال: حدثنا رجل من بني عامر استأذن على النبي - ﷺ - وهو في بيت فقال أَلْج؟ فقال النبي - ﷺ - لخدمه: «أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له: قل السلام عليكم أَدْخِلْ؟»^(٤).

ج- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - فيمن يستأذن قبل أن يسلم قال: لا يؤذن له حتى يسلم^(٥).

وقد فصل بعض العلماء هذه المسألة أنه إن كان القادم يرى أحداً من أهل البيت سلم أولاً، ثم استأذن في الدخول، وإن كانت عينه لا ترى أحداً قدم الاستئذان على السلام، وهذا اختيار الماوردي - رحمته الله -^(٦).

(١) ينظر: معالم التنزيل ٦٦/٥، ولباب التأويل ٦٦/٥.

(٢) روح المعاني ١٣٤/١٨، أضواء البيان ١٧٢/٦ - ١٧٣، والحديث أخرجه الترمذي في سننه ٥٩/٥ [كتاب الأدب والاستئذان عن الرسول - ﷺ - باب ما جاء في السلام قبل الكلام] ٢٦٩٩، قال أبو عيسى هذا الحديث منكر لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٣) سنن أبي داود ٣٦٨/٥ [كتاب الأدب - باب كيفية الاستئذان] برقم ٥١٧٦، سنن الترمذي ٦٥/٥ [كتاب الاستئذان والأدب - باب ما جاء في التسليم قبل الاستئذان] برقم ٢٧١٠.

(٤) سنن أبي داود ٣٦٩/٥ [كتاب الآداب - باب كيفية الاستئذان] برقم ٥١٧٧.

(٥) الأدب المفرد: ١٥٦ [باب الاستئذان قبل السلام] للإمام البخاري، مط التازية، ط ١ بدون تاريخ.

(٦) النكت والعيون ١١٨/٣.

والظاهر أنه لا يشترط أن يكون الاذن صريحاً بلفظ (أدخل) بل يجوز أن يكون بما يفهم منه ذلك مطلقاً، وجعلوا منه التسبيح والتكبير ونحوهما^(١).

وإن مجرد الاستئذان لا يبيح الدخول على البيوت؛ وإنما هو طلب للإذن فإن لم يأذن أهل البيت فلا دخول، وكذلك إذا لم يكن فيها أحد فلا يجوز اقتحامها بعد الاستئذان لأنه دخول بغير إذن ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾^(٢).

تاسعاً: الأحكام التي تتعلق بآداب الاستئذان

لقد وعى المؤمنون الصادقون هذه الآيات عند نزولها أول مرة وأشبعوها تطبيقاً على يد المعلم الأول سيدنا محمد - ﷺ - فجاءت كتب الحديث والتفسير حافلة بالكثير من الأحكام والآداب منها:

(١)- بينت السنة المطهرة أن الاستئذان يكون ثلاثاً، والدليل على ذلك قصة أبي موسى الأشعري مع عمر بن الخطاب - ﷺ -، فقد روى أبو سعيد الخدري - ﷺ - قال: كنت في مجلس الأنصار إذ جاء أبو موسى الأشعري كأنه مذعور، قال: استأذنت على عمر ثلاثاً، فلم يأذن لي، فرجعت، قال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله - ﷺ -: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع». فقال: والله لتقيمن عليه بينة أمنكم سمعه من النبي - ﷺ -؟ قال أبي بن كعب - ﷺ -: والله لا يقوم معك إلا أصغرنا فكنت أصغرهم، ففقت معه فأخبرت عمر أن النبي - ﷺ - قال ذلك^(٣).

وعن قتادة: الاستئذان ثلاثة: الأول يسمع الحي، والثاني ليتأهبوا، والثالث إن شاؤوا أذنوا وإن شاؤوا ردّوا^(٤)، قال الفخر الرازي: ((يجب في الاستئذان ثلاثاً أن لا يكون متصلاً، بل يكون بين كل واحدة والأخرى وقت، فأما قرع الباب بعنف

(١) ينظر: روح المعاني ١٨/١٣٥، والتحرير والتنوير ١٨/١٩٩.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٣٦١، في ظلال القرآن ١٨/٨٨.

(٣) أضواء البيان ٦/١٦٩، والحديث أخرجه مسلم بألفاظ قريبة ٣/١٦٩٤ [كتاب الآداب - باب الاستئذان] برقم ٢١٥٣.

(٤) التفسير الكبير ٢٣/١٩٧، روح المعاني ١٨/١٣٥.

والصياح بصاحب الدار فذاك حرام لأنه يتضمن الإيذاء والايحاش)^(١) وروى ابن وهب عن مالك: الاستئذان ثلاث لا أحب أن يزيد أحد عليها، إلا من علم أنه لم يسمع فلا أرى بأساً أن يزيد إذا استيقن إنه لم يسمع^(٢).

(٢)- الاستئذان على المحارم، فهو من الآداب السامية لما روي أن رجلاً قال للنبي - ﷺ - أأستأذن على أمي؟ قال: «نعم». قال: إنها ليس لها خادم غيري أأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: «أتحب أن تراها عريانة؟» قال الرجل: لا، قال: «أستأذن عليها»^(٣).

ويستحب الاستئذان حتى على الزوجة، قال ابن كثير: ((الأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها))^(٤).

وجاء في الصحيحين عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: ((كان النبي - ﷺ - يكره أن يأتي الرجل أهله طروقاً))^(٥).

(٣)- ينبغي للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره لما صح عن رسول الله - ﷺ - : كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول: «السلام عليكم، السلام عليكم»؛ وذلك أن الدور لم تكن عليها يومئذ ستور^(٦).

(٤)- إذا لم يأذن أهل البيت للمستأذن بالدخول وجب عليه الرجوع دون أن يجد في نفسه غضاظة، ودون أن يظن أن أهل البيت قد أسأؤوا إليه، أو نفروا منه، فللناس

(١) التفسير الكبير ٢٣/١٩٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢/٢١٤.

(٣) البحر المحیط ٦/٤٤٥، اللباب ١٤/٣٤٦، والحديث أخرجه نحوه البخاري في الأدب المفرد: ١٥٥ [باب يستأذن على أمه].

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/٢٨٠.

(٥) البخاري ١٠/٤٢٥ [كتاب النكاح - باب لا يطرق أهله ليلاً إذا أطال الغيبة] برقم ٥٢٤٣، مسلم ٣/١٥٢٧ [كتاب الإمارة - باب كراهة الطروق وهو الدخول ليلاً لمن ورد من سفر] برقم ١٩٢٨.

(٦) ينظر: تفسير القرآن العظيم ٣/٢٧٩، والحديث أخرجه أبو داود في سننه ٥/٣٧٤ [كتاب الأدب - باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان] برقم ٥١٨٦.

أسرارهم وأعذارهم، ويجب أن يترك لهم وحدهم تقدير ظروفهم وملاساتهم في كل حين^(١).

وعن قتادة قال بعض المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها أن أستاذن على بعض اخواني فيقول لي: إرجع، فأرجع وأنا مغتبط لقوله: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾^(٢).

(٥) - صفة طرق الأبواب يكون خفيفاً بحيث يسمع ولا يعنف في ذلك فقد روى أنس ابن مالك - رضي الله عنه - قال: كانت أبواب النبي - صلى الله عليه وسلم - تقرع بالأطافر^(٣).

(٦) - على المستأذن أن يعرف باسمه الصريح المعروف به عند الاستئذان، فعن جابر ابن عبدالله - رضي الله عنه - قال: استأذنت على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: «من هذا؟» فقلت: أنا، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «أنا، أنا!» كأنه كره ذلك^(٤) وإنما كره ذلك؛ لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها.

(٧) - حرمة الاطلاع على بيوت الناس إلا بإذنهم وقد شدد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - العقوبة بحق من يملأ عينه في بيت غيره بدون إذنهم، فعن سهل بن سعد أن رجلاً أطلع في حجر في باب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: - ومع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مَذْرِيٍّ يَرْجُلُ به رأسه، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لو أعلم أنك تنظر لطعنت به عينك إنما جعل الله الاذن من أجل البصر»^(٥).

(٨) - وجوب الاستئذان على كل مكلف شرعاً عندما يريد دخول بيت غيره، ويدخل في

(١) ينظر: في ظلال القرآن ١٨/٨٨.

(٢) جامع البيان ١٨/١٣، تفسير القرآن العظيم ٣/٢٧١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٢/٢١٧، والحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٦/٤٤٢، لإمام المحدثين الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، (ت ٤٥٨هـ)، تح محمد سعيد البسيوني زغلول، مط دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط ١ - ١٤١٠هـ.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/٢٧٩، والحديث أخرجه البخاري ١٢/٣٠١ [كتاب الاستئذان - باب إذا قال من ذا فقال أنا] برقم ٦٢٥٠، مسلم ٣/١٦٩٧ [كتاب الأدب - باب كراهية قول المستأذن أنا] برقم ٢١٥٥.

(٥) اللباب ١٤/٣٤٦، أضواء البيان ٦/١٨١، والحديث أخرجه البخاري ١٢/٢٨٧ [كتاب الاستئذان - باب الاستئذان من أجل البصر] برقم ٦٢٤١، ومسلم ٣/١٦٩٨ [كتاب الأدب - باب تحریم النظر في بيت غيره] برقم ٢١٥٦.

هذا الحكم الرجال والنساء كما هو المعمود في الأوامر والنواهي القرآنية المبدوءة بمثل هذا النداء، أما الأطفال فإنهم غير مكلفين بهذه التكاليف الشرعية، وليس هناك محذور يخشى من جانبهم، فيجوز لهم الدخول بغير إذن إلا إذا بلغوا الحلم لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (١) (٢).

(٩) - دلت الآية أن النهي عن دخول بيوت الغير إذن شامل لجميع الأزمان والأحوال، ولكن يستثنى منه الحالات التي تقضي بها الضرورة، وهي حالات اضطرارية تبيح الدخول بغير إذن؛ وذلك إذا عرض أمر في دار من حريق، أو هجوم سارق، أو ظهور منكر فاحش، فذلك أمر مستثنى بالدليل، وهو ما قاله الفقهاء - رحمة الله تعالى عليهم - من أن الضرورات تبيح المحظورات (٣).

عاشراً: اللطائف التفسيرية

وردت في الآيات الكريمات بعض اللطائف التفسيرية نورد منها:

(١) - تصدير الخطاب بلفظ (الإيمان) مشعر بعلو مكانة المؤمن عند الله، فالمؤمن أهل للتكليف والخطاب، والكافر كالدابة والحيوان ليس بأهل للتكريم أو الخطاب، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا فِي أَعْيُنِنَا﴾ (٤) وهذا هو السر في نداء المؤمنين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (٥).

(٢) - قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ فيه معنى دقيق، فليس المراد من اللفظ مجرد الاذن، وإنما المراد معرفة أنس أهل البيت بدخول الزائر عليهم هل هم راضون بدخوله أم لا (٦).

قال العلامة المودودي: ((وقد يخطئ الناس، إذ يجعلون كلمة (الاستئناس)

(١) سورة النور، الآية: ٥٩.

(٢) ينظر: روح المعاني ١٨/١٣٥، وروائع البيان ٢/١٣٨ - ١٣٩ والموسوعة الفقهية ٣/١٤٥ وما بعدها.

(٣) ينظر: الكشف ٣/٢٢٨، وحاشية الشيخ زادة ٦/٣٢٨، وتنوير الأذهان ٣/٥٦، والموسوعة الفقهية ٣/١٥٨ - ١٥٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٥) روائع البيان ٢/١٣٠.

(٦) ينظر: روح المعاني ١٨/١٣٤.

بمعنى الاستئذان فقط، مع أن الكلمتين بينهما فرق لطيف لا ينبغي أن ينصرف عنه النظر، فكلمة (الاستئناس) أعم وأشمل من كلمة (الاستئذان) كما لا يخفى بأدنى تأمل والمعنى: حتى تعرفوا أنس أهل البيت بدخولكم عليهم^(١).

(٣)- قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ هذا تعبير دقيق يشير إلى معنى أدق، فربما كان في البيت صاحبه ولم يرد، على الزائر، أو لم يأذن له فيصدق على المستأذن أنه لم يجد أحداً ولو قال: (إِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَحَدٌ) لما كان هذا المنزع اللطيف والسر الدقيق^(٢).

(٤)- إن إباحة الدخول في الأماكن العامة لغرض أو في البيوت الخاصة قد يتخذه بعض الناس لغرض آخر سيء من حب الاطلاع على عورات الناس أو من قصد ريبة أو فساد فجاء قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ ليذكرهم، ولا يخفى ما في هذا من الوعيد الشديد^(٣).

حادي عشر: ما يستفاد من الآيات

أفادت الآيات المباركات الفوائد الآتية:

(١)- أن المرء لا ينبغي أن يكون كلاً على غيره، ولا ينبغي له أن يعرض نفسه إلى الكراهية والاستئقال، وأنه ينبغي أن يكون الزائر والمزور متوافقين متأنسين وذلك عون على توقّر الأخوة الإسلامية^(٤).

(٢)- مشروعية السلام على أهل البيت لقوله تعالى: ﴿وَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ فهو من شعائر الإسلام ومن سنة المسلمين أمروا بها؛ لأن السلام أمان منه لهم ومجلبة للمودة وناف للحقد والضغينة^(٥).

(٣)- يجوز للرجل أن ينهى من لا يجوز له دخول داره وعن الوقوف على داره أو

(١) تفسير سورة النور: ١٤٢، لأبي الأعلى المودودي، مط مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٩٧٩م.

(٢) روايع البيان ١٣١/٢، ينظر: التفسير الواضح ٥٥/١٨.

(٣) ينظر: تفسير المراغي ٩٦/١٨، والتفسير الواضح ٥٤/١٨.

(٤) التحرير والتنوير ١٩٧/١٨.

(٥) ينظر: أحكام القرآن للجصاص ٣/٣١٠.

القعود عليه لقوله: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَازْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ (١).

(٤)- في هذه الآيات آداب شرعها الله طهارة للمجتمع والأفراد (٢).

(٥)- في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ توعده لأهل التجسس على البيوت، وطلب الدخول على غيره والنظر لما لا يحل (٣).

ثاني عشر: المعنى العام

حددت الآيات المباركات النظام الذي يجب أن يتبع عند تزاور المسلمين في بيوتهم وغشيان بعضهم منازل بعض، فكان لازماً سبق الاستئذان حتى لا يقتحم أحد منهم منزل الآخر دون رضاه، فتسبق عينه إلى ما لا يحسن عقباه ولا سيما أن من أوجب واجبات المسلم أن لا يطلع على عورة أخيه، ولذلك شرع الاستئذان حتى لا يفاجأ المستأذن من طرف أهل البيت بما يكره ولا يفاجأ أهل البيت من طرف المستأذن بما يكرهون، وحول هذه المعاني يدور قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي: حتى تجدوا من يأذن لكم، فالبيت محجوب لما فيه، وبما فيه، سواء كان الباب مغلقاً أم مفتوحاً؛ لأن الشرع قد أغلقه بتحريم الدخول إليه، حتى يفتحه إذن صاحبه، فإذا لم يأذن صاحب البيت أو نهى عن الدخول، وجب على المستأذن الامتثال وعدم الاقتحام ولذلك جاء التعبير: ﴿هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

أما دخول البيوت التي لم تعد للسكنى مما جرى العرف بدخول الناس إليها لمنفعتهم دون إذن، فإنها مستثناة من المساكن الخاصة التي لا بد من الاستئذان لدخولها فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ﴾ (٤).

(١) المصدر السابق ٣/ ٣١٤.

(٢) روائع البيان ٢/ ١٤١.

(٣) البحر المحيط ٦/ ٤٤٦.

(٤) ينظر: التيسير في أحاديث التفسير ٤/ ٢٦١ - ٢٦٢.

المطلب الثاني الأكل في البيوت

تمهيد

لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يسير المسلم على منهاج صحيح ومنظم حتى في الأمور العامة التي هي من المباحات، وليست من العقائد والعبادات، فأرشد عباده إلى آداب قيمة في دخول بيوت الناس والأكل والشرب فيها، من غير أن يجدوا في أنفسهم حاجة، أو يكون عليهم حرج في الشريعة، وفي هذا المطلب سنحلل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاحِشُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١).

وستتعرف معاني هذه الآية الكريمة من خلال النقاط الآتية:

أولاً: (الحرج) في اللغة والغريب

(١) - (الحرج) في اللغة: الحاء والراء والجيم أصل واحد، وذلك تجمع الشيء وضيقه، فمنه الحَرْجُ: جمع حَرْجَةٍ، وهي مجتمع شجر، ومن ذلك الحرج: الاثم، والحرج: الضيق^(٢). قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرُ ضِيقًا حَرْجًا﴾^(٣).

(الحرج) في الغريب: أصل الحرج والحراج مجتمع الشئيين، وتصور منه ضيق ما

(١) سورة النور، الآية: ٦١.

(٢) مقاييس اللغة مادة (حرج) ٥٠/٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

بينهما، فقليل للضيّق: حَرَج، وللائم حرج، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (١) (٢).

(الحرج) في الوجوه والنظائر: يأتي في القرآن الكريم بوجوه عدة منها (٣):

أ- الشك، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ (٤) يعني: شكًا.

ب- الضيق، فذلك قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ (٥) يعني: من ضيق.

ج- الإثم، فذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ يعني: ليس عليهم إثم في الأكل معهم.

ثانياً - أسباب النزول

ورد في سبب نزول هذه الآية عدة روايات منها:

(١)- عن ابن عباس - رضي الله عنه - : لما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ (٦) تحرّج المسلمون عن مؤاكلة المرضى، والزمى، والعمى، والعرج، وقالوا: الطعام أفضل الأموال، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب والمرضى لا يستوفي الطعام بسبب مرضه، والأعرج لا يستطيع المزامحة على الطعام، فنزلت الآية الكريمة: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ (٧).

(٢)- ما ورد عن سعيد بن المسيب - رضي الله عنه - إنه قال: إن ناساً كانوا إذا خرجوا مع رسول الله - ﷺ - وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمرضى وعند أقاربهم، وكانوا يأمرונهم أن يأكلوا مما في بيوتهم إذا احتاجوا فكانوا يتقون أن

(١) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٢) المفردات: ٢٢٦.

(٣) ينظر: الأشباه والنظائر: ١٥٠-١٥١، وإصلاح الوجوه والنظائر: ١٢٣ - ١٢٤.

(٤) سورة النساء، الآية: ٦٥.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

(٧) أسباب النزول: ٢٢٣، زاد المسير ٦/٦٤، البحر المحيط ٦/٤٧٣، الدر المنثور ٥/٥٨، والزّمانة: العاهة التي تصيب الانسان فتقعده، ينظر: مقاييس اللغة ٣/٢٣.

يأكلوا منها ويقولون: نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيبة، فنزلت هذه الآية^(١).
 (٣) - ما روي عن مجاهد إنه كان رجال زمني وعميان وعرجان وأولو حاجة، يستتبعهم رجال إلى بيوتهم، فإن لم يجدوا لهم طعاماً ذهبوا بهم إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم وبعض من سمى الله - ﷻ - في هذه الآية، فكان أهل الزمانة يتخرجون من أكل ذلك الطعام لأنه أطعمهم غير مالكة، فنزلت هذه الآية^(٢).
 قال أبو حيان: ((وعلى هذه الأقوال كلها يكون نفي الحرج عن أهل العذر ومن بعدهم في المطاعم))^(٣).

ثالثاً: الناسخ والمنسوخ

ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ وبقوله - ﷺ - : «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيبة من نفسه»^(٤)، والصحيح أنها غير منسوخة وهو رأي جمهور المفسرين وإليه ذهب الإمام أبو بكر الجصاص والرازي وغيرهما^(٥)، قال أبو بكر الجصاص: ((ليس في ذلك ما يوجب نسخه؛ لأن هذه الآية فيمن ذكر فيها، وقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ في سائر الناس غيرهم وكذلك قوله - ﷺ - : «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيبة من نفسه»))^(٦).

رابعاً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: لما ذكر سبحانه ما ذكر من حرمة البيوت المستلزمة لصيانة الأبضاع على وجه يلزم منه إحراز الأموال، اتبعه ما يباح من ذلك للأكل الذي هو من أجل مقاصد الأموال اجتماعاً وانفراداً، فقال في جواب من كأنه سأل: هل

(١) أسباب النزول: ٢٢٣، زاد المسير ٦/٦٤، الدر المنثور ٥٨/٥.

(٢) المصادر السابقة.

(٣) البحر المحيط ٦/٤٧٣.

(٤) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٣/٢٩٥ [باب الخطب في الحج].

(٥) ينظر: نواسخ القرآن: ٢١٠، للحافظ ابن الجوزي، ط ١ - ١٩٨٥ م، والتفسير الكبير ٢٤/٣٦،

وفتح القدير ٤/٥٢، وروح المعاني ١٨/٢٢٠ - ٢٢١.

(٦) أحكام القرآن للجصاص ٣/٣٣٦.

هذا التحجير في البيوت سار في الأقارب وغيرهم في جميع الأحوال؟ فجاء قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ جواباً لهذا السؤال^(١).

خامساً: البلاغة في الآية

ذكر ابن أبي الاصبغ في كتابه (بديع القرآن) في هذه الآية عشرة أضرب من البديع وهي: صحة التقسيم، والتهديب، وحسن النسق، والكناية، والمناسبة، والمثل السائر، والتذييل، والمطابقة، والمقارنة، والتمكين.

فأما صحة التقسيم فلاستيعاب الكلام جميع أقسام الأقارب القرية بحيث لم يغادر منها شيئاً، وأما التهديب ففي الانتقال على مقتضى البلاغة في هذا المكان، فإن مقتضى البلاغة تقديم الأقرب فالأقرب كما جاء فيها، وأما حسن النسق فاختيار (أو) لعطف الجمل للإباحة، وأما الكناية فكنايته سبحانه عن الأموال بالبيوت التي هي حرز الأموال ومقرها من باب تسمية الشيء بما جاوره، كقولهم (سال الميزاب) و(جری النهر) وأما المناسبة فلمناسبة الألفاظ بعضها ببعض في الزنة ولما بين لفظة آبائكم واخوانكم وأعمامكم وأخوالكم من المناسبة في الزنة.

وأما المثل فلأن قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ خرج مخرج المثل السائر الذي يصلح أن يتمثل به في كل واقعة تشبه واقعته.

وأما التذييل فإن الكلام الذي خرج مخرج المثل جاء تذييلاً لمعنى الكلام المتقدم لقصد توكيده وتقريره، وأما المطابقة ففي قوله تعالى: ﴿جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ فإن هاتين اللفظتين تضادتا تضاداً أوجب لهما وصفهما بالمطابقة؛ لأن المعنى جميعاً أو متفرقاً، وأما المقارنة ففي موضعين، أحدهما: اقتران التمثيل بالتذييل كما تقدم بيانه، والثاني: اقتران المطابقة بالتمكين، فإن فاصلة هذا الكلام في غاية التمكن فقد حصل بهذا التمكن وما تقدم فيه من الإيضاح أحد عشر ضرباً من البديع والله أعلم^(٢).

(١) ينظر: نظم الدرر ١٣/٣١٥.

(٢) بديع القرآن: ٢٧٢ - ٢٧٣، لابن أبي الاصبغ المصري، (ت ٦٥٤هـ) تح الدكتور حنفي محمد شرف، مط دار النهضة مصر، ط ٢.

سادساً: آراء المفسرين في معنى (رفع الحرج)

اختلف المفسرون في المعنى الذي رفع الله فيه الحرج عن الأصناف الثلاثة على أقوال:

(١)- قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ منفصل عن قوله: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ وإنه في غرض غير غرض الأكل في البيوت وهو بذلك يكون من تمام آية الاستئذان، فتكون هذه الآية نفيًا للحرج عن هؤلاء الثلاثة فيما فيه ضرر، فالحرج مرفوع عنهم في ذلك كله، وبه قال الحسن وجابر بن زيد وهو اختيار الجبائي وابن عطية وابن العربي وأبي حيان وابن عاشور^(١).

(٢)- إن رفع الحرج عنهم في القعود عن الغزو والجهاد لضعفهم وعجزهم وقوله: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ كلام منقطع عما قبله، وبه قال ابن زيد^(٢).

قال الزمخشري: ((وهذا كلام صحيح إذا فسر بأن هؤلاء ليس عليهم حرج في القعود عن الغزو ولا عليكم أن تأكلوا من البيوت المذكورة لالتقاء الطائفتين في أن كل واحد منهما منفي عنه الحرج))^(٣).

(٣)- إنه لا حرج على هؤلاء الذين سموا في هذه الآية أن يأكلوا من بيوتهم وبيوت من ذكره الله تعالى فيها على ما أباح لهم من الأكل منها، فإذا كان ذلك أظهر معانيه فتوجيه معناه إلى الأغلب أولى من توجيهه إلى الأنكر منها، وهذا هو الأولى، وهو الذي رجحه الطبري، وما عليه جمهور المفسرين^(٤). قال الطبري: ((وكذلك أيضاً الأغلب من تأويل قوله: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أنه بمعنى: ولا عليكم أيها الناس، ثم جمع هؤلاء والزمنى الذين ذكرهم قبل في الخطاب فقال: أن تأكلوا من بيوت أنفسكم وكذلك تفعل العرب إذا جمعت بين خبر الغائب والمخاطب، غلبت المخاطب فقالت: أنت وأخوك قمتما، وأنت وزيد جلستما، ولا

(١) ينظر: المحرر الوجيز ١٠/٥٤٧، والبحر المحيط ٦/٤٧٣ - ٤٧٤، والتحرير والتنوير ١٨/٢٩٩.

(٢) جامع البيان ١٨/١٦٩، الكشف ٣/٢٥٦.

(٣) الكشف ٣/٢٥٦.

(٤) جامع البيان ١٨/١٧٠، وينظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٤٠٣، وفتح القدير ٤/٥٣.

تقول: أنت وأخوك جلسا، وكذلك قوله: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ والخبر عن الأعمى والأعرج والمريض، غلب المخاطب فقال: أن تأكلوا، ولم يقل: أن يأكلوا^(١).

وعلل الطبري الوجه في رد من قال: ليس على الأعمى حرج في التخلف عن الجهاد في سبيل الله، لأن قوله: ﴿أَنْ تَأْكُلُوا﴾ خبر ليس و(ان) في موضع نصب على أنها خبر لها فهي متعلقة بليس، فمعلوم بذلك أن معنى الكلام: ليس على الأعمى حرج أن يأكل من بيته، إلا ما قاله الذين ذكرنا من أنه لا حرج عليه في التخلف من الجهاد فإذا كان الأمر في ذلك على وصفنا، تبين أن معنى الكلام: لا ضيق على الأعمى ولا على الأعرج ولا على المريض ولا عليكم أيها الناس أن تأكلوا من بيوت أنفسكم أو بيوت آبائكم...^(٢).

سابعاً: الإعراب والقراءات

[١]- الإعراب:

انتصب ﴿جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ على الحال أي: مجتمعين أو متفرقين^(٣). وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّةٌ﴾ مصدر من معنى سلموا؛ لأن سلمَ وحياً بمعنى^(٤).

[٢]- القراءات:

قوله تعالى: ﴿مَلَكُكُمْ﴾ قرأها الجمهور بالبناء للمعلوم، وقرأ سعيد بن جبير: (ملكتم) بضم الميم وتشديد اللام مع كسرها بالبناء للمجهول^(٥).

وقوله تعالى: ﴿مَفَاتِحُهُ﴾ قرأها الجمهور بالجمع وقرأها قتادة: (مفتاحه) بكسر الميم على الافراد^(٦)، وقرأ ابن جبير: (مفاتيحه) جمع مفتاح^(٧).

(١) جامع البيان ١٧٠/١٨ - ١٧١.

(٢) المصدر السابق ١٧١/١٨.

(٣) البحر المحيط ٤٧٤/٦، الدر المصون ٢٣٦/٥.

(٤) ينظر: إعراب القرآن للنحاس ١٤٩/٣، وإملاء ما من به الرحمن ١٦٠/٢.

(٥) مختصر في شواذ القراءات: ١٠٣، البحر المحيط ٤٧٤/٦.

(٦) مختصر في شواذ القراءات: ١٠٣، المحتسب ١١٦/٢، البحر المحيط ٤٧٤/٦.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ٣١٥/١٢، البحر المحيط ٤٧٤/٦.

ثامناً: البيوت التي يجوز الأكل منها

إن الله تبارك وتعالى ذكر أحد عشر بيتاً في هذه الآية يجوز الأكل منها وهي:

(١) - ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ وإنما ذكر هذا وهو معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ وليساويه ما بعده في الحكم ويدخل في مفهوم (بيوتكم) بيوت أزواجكم، وبيوت أولادكم وأضافه إليهم؛ لأن بيت الزوجة بيت لزوجها، وبيت الولد بيت لأبيه؛ لأن الولد كسب والده، وماله كماله قال - ﷺ -: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه»^(١) والدليل على هذا أنه سبحانه وتعالى عدّد الأقارب ولم يذكر الأولاد لأنه إذا كان سبب الرخصة في الأكل هو القرابة كان الذي هو أقرب منهم أولى^(٢).

(٢) - بيوت الآباء.

(٣) - بيوت الأمهات.

(٤) - بيوت الإخوان.

(٥) - بيوت الأخوات.

(٦) - بيوت الأعمام.

(٧) - بيوت العمات.

(٨) - بيوت الأخوال.

(٩) - بيوت الخالات.

قال القاضي أبو بكر: ((فأباح الأكل لهؤلاء من جهة النسب من غير استئذان في الأكل إذا كان الطعام مبدولاً، فإن كان محرراً دونهم لم يكن لهم أخذه، ولا يجوز أن يجاوزوا إلى الادّخار ولا ما ليس بمأكل، وإن كان غير محرز عنهم إلا بإذن منهم))^(٣).

(١) سنن ابن ماجه ٧٢٣/٢ [كتاب التجارات - باب الحث على المكاسب] برقم ٢١٣٧، سنن

النسائي ٢٤١/٧ [كتاب البيوع - باب الحث على الكسب] برقم ٤٤٥٢.

(٢) ينظر: التفسير الكبير ٣٦/٢٤، وإرشاد العقل السليم ٧٤/٤، والبحر المحيط ٤٧٤/٦، والمفصل

في أحكام المرأة والبيت المسلم ٧/٤.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ١٤٠٢/٣.

(١٠) - البيوت المعبر عنها: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُ مَفَاتِحُهُ﴾ أي: البيوت التي تملكون التصرف فيها بإذن أربابها، وذلك كالوكلاء والخزان، فإنهم يملكون التصرف في بيوت من أذن لهم بدخول بيته وأعطاهم مفاتيحه^(١). وملك المفتاح كناية عن كون الشيء تحت يد الشخص وتصرفه^(٢).

(١١) - بيوت ﴿صَدِيقُكُمْ﴾ الصديق: هو من يصدق في مودتك وتصدق في مودته، ويطلق على الواحد وعلى الجمع وهنا يراد به الجنس الصادق بالجماعة بقرينة اضافته إلى ضمير جماعة المخاطبين، ورفع الحرج في الأكل من بيت الصديق لأنه أَرْضَى بالتبسيط وأسر به من كثير من ذوي القرابة، وعن ابن عباس - رضي الله عنه - : الصديق أوكد من القرابة، ألا ترى استغاثة الجهنميين حيث يقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ^(٣) ولم يستغيثوا بالآباء والأمهات، وسئل بعض الحكماء: أي الرجلين أحب إليك أخوك أم صديقك؟ فقال: إنما أحب أخي إذ كان صديقي^(٤)، وحكي أن أخاً للربيع بن خيثم في الله دخل منزله في حالة غيبته فانبسط إلى جاريته حتى قدمت إليه ما أكل، فلما عاد أخبرته بذلك، فلسروره بذلك قال: إن صدقت فأنت حرة^(٥).

وهؤلاء الأصناف الذين خص ذكرهم في هذه الآية قد قيد بعض العلماء جواز الأكل من بيوت هؤلاء بالاذن منهم، وقال آخرون: لا يشترط الاذن، فقد جرت العادة بالتبسط بينهم والتسامح في الحضور للأكل بدون دعوة، فلا يتحرج أحد منهم غالباً أذنوا له أو لم يأذنوا، فالقرابة أو الصداقة الحميمة التي بينهم هي اذن منهم،

(١) المفصل في أحكام المرأة ٧/٤ - ٨.

(٢) روح المعاني ٢١٩/١٨.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٠٠ - ١٠١.

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم ٧٥/٤، وروح المعاني ٢٢١/١٨، والتحرير والتنوير ٣٠٢/١٨، يقول الألوسي: وهذا شيء قد كان إذا الناس ناس والزمان زمان، وأما اليوم فقد طوى فيما أعلم بساطه واضمحل فسطاطه وعفت آثاره وأفلت أقماره، وصار الصديق اسماً للعدو والذي يخفي عداوته، ويتنظر لك حرب الزمان وغارته، فآه ثم آه ولا حول ولا قوة إلا بالله:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً ما من صداقته بدَّ

ينظر: روح المعاني ٢٢٠/١٨.

(٥) التفسير الكبير ٣٧/٢٤.

وقد اختلف العلماء في حدود هذه الاباحة التي شرعت في هذه الآية، قال ابن العربي: ((فأباح الأكل لهؤلاء من جهة النسب من غير استئذان في الأكل، إذا كان الطعام مبدولاً، فإن كان محرراً دونهم لم يكن له أخذه، ولا يجوز أن يجاوزوا إلى الادخار، ولا إلى ما ليس بمأكل وإن كان غير محرر عنهم إلا بإذن منهم))^(١) وبه قال ابن الجوزي والقرطبي والشوكاني^(٢). إلا أن الإمام النووي ذهب إلى فهم أبعد من ذلك عندما ذكر الفوائد من حديث أبي هريرة في مسلم (... وفيه فخرجت أبتغي رسول الله - ﷺ - حتى أتيت حائطاً للأنصار لبني النجار فدرت به هل أجد له باباً، فلم أجد فإذا ربيع يدخل في جوف حائط من بئر خارجة (والربيع الجدول) فاحتفتز كما يحتفتز الثعلب فدخلت على رسول الله - ﷺ - فقال أبو هريرة؟ فقلت: نعم يا رسول الله، قال ما شأنك؟)^(٣) الحديث... قال النووي: ((وفيه جواز دخول الإنسان ملك غيره بغير إذنه إذا علم أنه يرضى، ذلك لمودة بينهما أو غير ذلك، فإن أبا هريرة - ﷺ - دخل الحائط وأقره النبي - ﷺ - على ذلك ولم ينقل أنه أنكر عليه، وهذا غير مختص بدخول الأرض بل يجوز له الانتفاع بأدواته وأكل طعامه والحمل من طعامه إلى بيته وركوب دابته أو نحو ذلك من التصرف الذي يعلم أنه لا يشق على صاحبه هذا هو المذهب الصحيح الذي عليه جماهير السلف والخلف من العلماء - رحمة الله عليهم -))^(٤).

تاسعاً: الحالة التي يكون عليها الأكل

لما ذكر الله تبارك وتعالى البيوت التي يجوز الأكل منها بدون حرج ذكر بعدها الحالة التي يجوز عليها الأكل فقد كان من عادات بني ليث بن بكر (وهم حي من بني كنانة) كان الرجل منهم لا يأكل وحده، ويمكث يومه حتى يجد ضيفاً يأكل معه، فإن لم يجد من يؤاكلة لم يأكل شيئاً، وربما قعد الرجل منهم والطعام بين يديه لا يتناوله

(١) أحكام القرآن لابن العربي ١٤٠٣/٣.

(٢) ينظر: زاد المسير ٦/٦٥، والجامع لأحكام القرآن ١٢/٣١٥، وفتح القدير ٤/٥٣.

(٣) مسلم ١/٥٩ - ٦٠ [كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من مات موحداً دخل الجنة] برقم ٣١.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١/٢٣٩، وينظر: سورة النور - دراسة وتحليل: ٥٧٦-٥٧٧، لاسماعيل ابراهيم السامرائي، وهي رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية العلوم الإسلامية - جامعة بغداد، ١٩٩٨م.

من الصباح إلى الرواح وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشربه، فإذا أمسى ولم يجد أكل، هذا قول قتادة والضحاك وابن جريج.

وقد قال حاتم الطائي:

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له أكيلاً فإنني لست آكله وحدي^(١)

وقال عكرمة: كانت الأنصار إذا نزل بهم الضيف، لا يأكلون حتى يأكل الضيف معهم^(٢) وقال آخرون: كانوا يأكلون فرادى خوفاً من أن يحصل عند الجمعية ما ينفر أو يؤذي، فردّ الله تبارك وتعالى هذا الحرج المتكلف ورخص لهم في أن يأكلوا كيف شاؤوا أفراداً وجماعات فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾^(٣).

قال الطبري - رحمه الله -: ((إن الله وضع الحرج عن المسلمين أن يأكلوا جميعاً معاً إذا شاؤوا أو أشتاتاً متفرقين إذا أرادوا وجائز أن يكون ذلك نزل بسبب من كان يتخوف من الأغنياء الأكل مع الفقير، وجائز أن يكون نزل بسبب القوم الذين ذكر أنهم كانوا لا يطعمون وحداناً، وبسبب غير ذلك، ولا خبر بشيء من ذلك يقطع العذر، ولا دلالة في ظاهر التنزيل على حقيقة شيء منه، والصواب التسليم لما دل عليه ظاهر التنزيل، والتوقف فيما لم يكن على صحته دليل))^(٤).

وأياً ما كان سبب نزول الآية، فالعبرة بعموم اللفظ لا لخصوص السبب فيجوز أن يأكل المرء وحده ومع الجماعة، وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل^(٥) لقوله - ﷺ -: «كُلُوا جَمِيعاً وَلَا تَفْرُقُوا فَإِنَّ الْبِرْكَهَ مَعَ الْجَمَاعَةِ»^(٦) وجاء رجل إلى النبي - ﷺ - فقال: إنا نأكل ولا نشبع فقال النبي - ﷺ -: «لعلكم تأكلون متفرقين اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه»^(٧).

(١) ديوان حاتم الطائي: ٦٢، تح كرم البستاني، مكتبة صادر - بيروت، ١٩٥٣.

(٢) ينظر: معالم التنزيل ٩١/٥، والتفسير الكبير ٣٧/٢٤، وروح المعاني ٢٢١/١٨.

(٣) التفسير الكبير ٣٧/٢٤.

(٤) جامع البيان ١٧٢/١٨ - ١٧٣.

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم ٣٠٥/٣.

(٦) سنن ابن ماجه ١٠٩٤/٢ [كتاب الأطعمة - باب الاجتماع على الطعام] برقم ٣٢٨٧.

(٧) سنن أبي داود ١٣٨/٤ [كتاب الأطعمة - باب في الاجتماع على الطعام] برقم ٣٧٦٤، سنن ابن ماجه ١٠٩٣/٢ [كتاب الأطعمة - باب الاجتماع على الطعام] برقم ٣٢٨٦.

عاشراً: التحية من آداب دخول البيوت

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى البيوت التي يجوز الأكل منها وبعد أن بين الحالة التي يكون عليها الأكل مجتمعين ومنفردين، أرشد عباده إلى أدب الدخول إلى تلك البيوت التي أباح لهم الأكل فيها، أو البيوت عموماً، وهو الأمر بالسلام على من فيها فقال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ وأن هذه الجملة تفريع على الاذن لهم في الأكل من هذه البيوت بأن ذكرهم بأدب الدخول المتقدم في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ لئلا يجعلوا القرابة والصداقة والمخالطة مبيحة لإسقاط الآداب فإن واجب المرء أن يلزم الأدب مع القريب والبعيد، ولا يعرّنه قول الناس: إذا استوى الحب سقط الأدب^(١).

وفي قوله: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم لما بينكم وبينهم من القرابة الدينية والنسبية الموجبة لذلك^(٢) وفي هذا المعنى أنه تعالى جعل أنفس المسلمين كالنفس الواحدة على مثال قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٣) ^(٤). وفي هذا تنبيه وتذكير لهم بالسر الذي اقتضى إباحة الأكل من هذه البيوت وجعلها كأنها بيوتهم وهذا المعنى هو قرابتهم القرية أو صداقتهم الحميمة^(٥).

واختلف المتأولون في أي البيوت أراد بقوله: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا﴾ فقيل: المساجد، وقيل: بيت المرء نفسه والبيوت التي أبيع الأكل فيها، وقيل: إنها بيوت الغير، المسكونة وغير المسكونة، وأولى الأقوال هو القول بعموم البيوت حيث لا دليل على التخصيص فالمراد هو جميع البيوت مساجدها وغير مساجدها، وهذا الذي أميل إليه وهو ترجيح الإمام الطبري وابن العربي - رحمهما الله -^(٦).

(١) التحرير والتنوير ٣٠٣/١٨.

(٢) إرشاد العقل السليم ٧٥/٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ٢٩.

(٤) التفسير الكبير ٣٧/٢٤.

(٥) ينظر: الانتصاف على الكشاف ٢٥٨/٣، وروح المعاني ٢٢٢/١٨.

(٦) ينظر: جامع البيان ١٧٥/١٨، وأحكام القرآن لابن العربي ١٤٠٨/٣.

والسلام على أهل هذه البيوت هو قول الداخل (السلام عليكم ورحمة الله) وهو معنى قوله تعالى: ﴿تَحِيَّاتٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: ثابتة بأمره، مشروعة من لدنه، ووصفها ﴿مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق^(١) ووجه طيب التحية إنها دعاء بالسلامة وإيدان بالمسالمة والمصافاة والقبول في نفوس الناس، وقد ورد عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «إذا ولج الرجل بيته فليقل: اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج باسم الله ولجنا وباسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا، ثم ليسلم على أهله»^(٢) وقال أنس - رضي الله عنه -: قال لي رسول الله - ﷺ: «يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك»^(٣).

ومغزى هذا الأدب من إلقاء التحية بهذه الصيغة التي أمر الله تعالى بها وهي: (السلام عليكم) إنها تحية خير من تحية أهل الجاهلية (أنعم صباحاً، أو أنعم مساء) وهذا كقوله تعالى: ﴿وَقَبِّلْهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾^(٤) أي: تحيتهم هذا اللفظ^(٥) ولما في هذه التحية المباركة من نية المسالمة وحسن اللقاء والمخالطة وذلك يوفر خير الأخوة الإسلامية حيث أنها من عند الله تعالى تحمل الروح وتفوح بذلك العطر وتربط بينهم بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها^(٦).

حادي عشر: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة الكثير من الأحكام يمكن أن نوجزها فيما يأتي:

(١) - إباحة الأكل من بيوت الأقارب للمؤانسة والمباينة التي تكون في العادة بينهم^(٧).

(١) الكشف ٢٥٨/٣، البحر المحيط ٤٧٥/٦.

(٢) سنن أبي داود ٣٢٨/٥ [كتاب الأدب - باب ما يقول الرجل إذا دخل بيته] برقم ٥٠٩٦.

(٣) سنن الترمذي ٥٩/٥ [كتاب الاستئذان - باب ما جاء في التسليمة إذا ما دخل بيته] برقم ٢٦٩٨، قال أبو عيسى: حديث حسن غريب.

(٤) سورة يونس، الآية: ١٠.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير ٣٠٥/١٨.

(٦) ينظر: في ظلال القرآن ١٢٥/٦.

(٧) روائع البيان ٢٣٣/٢.

- (٢)- الحظ في صلة الأرحام ومعاملتهم بما يعامل الإنسان به نفسه^(١).
- (٣)- قال أبو بكر الجصاص - رحمته الله -: ((دلت الآية على أن من سرق من ذي رحم محرم انه لا يقطع؛ لإباحة الله تعالى لهم بهذه الآية الأكل من بيوتهم ودخولهم من غير إذنهم فلا يكون محرراً عنهم، فإن قيل: فيلزم أن لا يقطع إذا سرق من صديقه فأجيب عن هذا من أراد سرقة ماله لا يكون صديقاً له))^(٢).
- (٤)- يجوز للخازن أن يأكل مما يخزن اجماعاً، وهذا إذا لم تكن له أجرة فإن استأجره على الخزن حرم الأكل^(٣).
- (٥)- تعريف حق الصديق الذي ساوى باطنه ظاهره في إخلاص المودة ولا يسمى صديقاً حتى يكون كذلك فإن اشتقاق اسمه من صدق المحبة وصفاء المودة هو الذي أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَلَا صَدِيقَ حَمِيمٍ﴾ فإذا كان الصديق بهذه المثابة وعلى هذه الصفة ساوى هذه القرابة القريبة فليس على الانسان جناح إذا تصرف في ماله تصرفه في ماله نفسه^(٤).
- (٦)- دلت الآية على جواز اشتراك الناس في الطعام والأكل سوية، وهذا ما يسمى بـ(المناهدة) وهي الشركة التي يفعلها الناس في الأسفار، وقد دل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾^(٥) فأباح لهم أن يخلطوا طعام اليتيم بطعامهم فيأكلوه جميعاً، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَكُمْ بِرِزْقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرُوا أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾^(٦). فكان الورق لهم جميعاً والطعام بينهم فاستجازوا أكله فكذا ذلك قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا﴾^(٧).
- (٧)- قوله: ﴿نَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فيه الدلالة على أن قوله: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِنَحِيَّةٍ﴾

(١) بديع القرآن: ٢٧١.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/٣٣٦، وينظر: التفسير الكبير ٢٤/٣٧، وروح المعاني ١٨/٢٢١.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٤٠٦، التحرير والتنوير ١٨/٣٠٢.

(٤) بديع القرآن: ٢٧١.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٢٠.

(٦) سورة الكهف، الآية: ١٩.

(٧) ينظر: أحكام القرآن للجصاص ٣/٣٣٦، وروائع البيان ٢/٢٣١.

فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا^(١) قد أريد به السلام^(٢).

(٨) - مشروعية التحية عند الدخول على البيوت وصيغتها (السلام عليكم) وأن فيها خيراً وفضلاً^(٣).

ثاني عشر: المعنى العام

إن الإسلام منهاج حياة كامل، فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها وفي كل علاقاتها وارتباطاتها، وفي كل حركاتها وسكناتها ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكثيرة وينسق بينها جميعاً ويتجه بها إلى الله سبحانه في النهاية^(٤).

ففي هذه الآية الكريمة رفع الله سبحانه وتعالى الحرج عن أهل الأعذار (الأعمى والأعرج والمرضى) أن يأكلوا مع الأصحاء، فإن الله تعالى يكره الكبر والمتكبرين، ويحب من عباده الذين يألفون ويؤلفون، وذكر أنه لا حرج على المسلمين أن يأكلوا من بيوت أقربائهم أو أصدقائهم، أو البيوت التي يؤكلون عليها، لما في ذلك من توسعة على الناس، ولما فيه من صلة للأرحام وزيادة أواصر المحبة والالفة، ويدعو إلى المؤانسة والانبساط.

وفي ذكر بيت الصديق في هذه الآية وجعله في مرتبة القربة تنبيه إلى منزلة الصديق، وكم من صديق أنفع من أخ قريب، وفي المثل (رب أخ لك لم تلده أمك)^(٥) ولهذا رخص الله سبحانه وتعالى الأكل من بيوت الأصدقاء، وجعلهم في عداد الأقرباء، حتى تدوم الالفة، وتتمكن الصداقة والمحبة وتتقوى رابطة الأخوة بين المسلمين، وهذا الذي يدعو إليه الإسلام ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٦).

(١) سورة النساء، الآية: ٨٦.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/٣٣٧.

(٣) أيسر التفاسير ٣/٥٩٢ - ٥٩٣.

(٤) في ظلال القرآن ٦/٢٢٥.

(٥) ينظر: مجمع الأمثال ١/٢٩١، لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بالميداني، (ت ٥١٨هـ)، تح محمد محي الدين عبد الحميد، مط السعادة بمصر، ط ٢ - ١٩٥٩م.

(٦) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

ورفعت الآية الحرج كذلك عن الناس في أن يأكلوا كما يريدون متفرقين أو مجتمعين ثم بعد ذلك تحت على أدب من الآداب الاجتماعية الرفيعة وهو الأمر بالسلام عند الدخول إلى البيوت والسلام بكل ما يحمل من معان فهو طريق المحبة بين المؤمنين كما يقول رسول الله - ﷺ - : «والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ افشوا السلام بينكم»^(١).

فما أحوج المسلمين اليوم إلى التخلق بهذه الآداب التي أرشدنا إليها الحكيم الخبير، وما أحوج المسلمين إلى أن يمثلوا إلى أمر ربهم في الصغيرة والكبيرة فما أحلى كلمة (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) فالسلام اسم من أسماء الله، فلا يليق بالمسلم أن يتركها إلى تحية الجهل والجاهلية كقولهم: (صباح الخير ومساء الخير) إلى غير ذلك من الألفاظ.

(١) مسلم ٧٤/١ [كتاب الإيمان - باب بيان إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون] برقم ٥٤.

المطلب الثالث

وقاية البيت المسلم من المخالفات الشرعية

تمهيد

الأسرة لبنة من لبنات المجتمع الإسلامي، وبها قوامه، والبيت هو المثابة والسكن لهذه الأسرة ففي ظله تلتقي النفوس على المودة والرحمة والتعاطف والستر والحصانة والطهر، وفي كنفه تتربى الأجيال ومنه تمتد وشائج الرحمة وأواصر التكافل، فأراد الإسلام أن يحمي البيوت من الرذيلة والفاحشة التي تكون سبباً في خراب البيوت وتفكك العائلة وتدهور الأخلاق، والقاعدة في الشريعة الإسلامية أنها إذا حرمت شيئاً حرمت مقدماته ومسهلاته والوسائل المؤدية إليه، ومن أجل ذلك حرمت الخلوة بالأجنبية، ومنعت الاختلاط والتبرج ونحو ذلك، مما يدل على حرص الشريعة على سد جميع الطرق التي يمكن أن تؤدي أو تسهل وقوع الفاحشة^(١) وهذا ما سنتعرفه من خلال الآية الكريمة في سورة يوسف بقوله تعالى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢).

وسنحلل هذه الآية في النقاط الآتية:

أولاً: تحليل المفردات

(١) - (راودته) في اللغة: الرأ والواو والدا ل معظم بابه يدل على مجيء وذهاب من انطلاق في جهة واحدة، والرياد: اختلاف الإبل في المرعى مقبلة ومدبرة، وراودت المرأة تروود: إذا اختلفت إلى بيوت جاراتها وراوده عن نفسه: خادعه عنها وراوغه^(٣).

(١) ينظر: المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم ٣٠/٥.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٣.

(٣) مقاييس اللغة مادة (رود) ٤٥٧/٢ - ٤٥٨، أساس البلاغة: ١٨٣ - ١٨٤.

(المرادة) في الغريب: من الرود وهو التردد في طلب الشيء برفق، يقال: أراد وارتاد، ومنه: الرائد لطالب الكلاء، والمرادة: أن ينازع الرجل غيره في الارادة.

(المرادة) في الغريب: من الرود وهو التردد في طلب الشيء برفق، يقال: أراد وارتاد، ومنه: الرائد لطالب الكلاء، والمرادة: أن ينازع الرجل غيره في الارادة فيريد منه غير ما يريد، قال: ﴿هِيَ رَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾^(١) وقال: ﴿تُرَوِّدُ فَتَنَهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾^(٢) أي: تصرفه عن رأيه، وعلى ذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾^(٣) (٤).

(٢) - (هيت) في اللغة: الهاء والياء والتاء كلمة تدل على الصيحة يقولون: هيت به: إذا صاح، ويقولون في معنى هيت لك: هلم لك^(٥).

ثانياً: تحليل الألفاظ عند المفسرين

أ- معنى المرادة: قال الزمخشري في معنى المرادة: ((خادعته عن نفسه، أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج من يده، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه، وهي عبارة عن التحمل لمواقفته إياها))^(٦).

ب- معنى (هيت لك): ذكر المفسرون فيها عدة معان، إلا أن معناها على جميع القراءات التي وردت فيها: هلم وتعال؛ لأنها من أسماء الأفعال فهي تدعوه إلى نفسها، إلا في قراءة من قرأ بكسر الهاء بعدها همزة وتاء مضمومة - هِئْتُ - فإنها بمعنى: تهيات لك^(٧).

فقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ إلى هنا اعتراض جيء به انموذجاً للقصة ليعلم السامع من أول الأمر أن ما لقيه - ﷺ - من الفتن التي ستحكي بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وأنه - ﷺ - محسن في جميع أعماله ولم يصدر عنه في

(١) سورة يوسف، الآية: ٢٦.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٠.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٣٢.

(٤) المفردات: ٣٧١.

(٥) مقاييس مادة (هيت) ٢٢/٦، وينظر: العين ٨٠/٤.

(٦) الكشاف ٤٥٤/٢ - ٤٥٥.

(٧) ينظر: جامع البيان ١٧٩/١٢ - ١٨٠، وتفسير القرآن العظيم ٤٧٣/٢ - ٤٧٤، وفتح القدير ٣/

حالي السراء والضراء ما يخلّ بنزاهته^(١).

رابعاً: الإعراب والقراءات

[١]- الإعراب:

﴿هَيْتَ لَكَ﴾ الكلمة اسم للفعل، فمنهم من يقول: هو خبر معناه تهيأت، وبني كما بني شتان، ومنهم من يقول: هو اسم للأمر، أي: أقبل وهلم، فمن فتح طلب الخفة، ومن كسر فعلى التقاء الساكنين مثل جير، ومنهم من ضم شبهه بحيث، واللام على هذا للتبيين مثل التي في قولهم: سقيا لك^(٢).

﴿وَعَلَّقْتَ الْأَبْوَابَ﴾ غلق للتكثير، ولا يقال: غلق الباب، وأغلق يقع للكثير والقليل، كما قال الفرزدق في أبي عمرو بن العلاء - رَحِمَهُ اللهُ -:

ما زلت أفتح أبواباً وأغلقها حتى أتيت أبا عمرو بن عمار^(٣)

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ مصدر يقال: عاذ معاذاً وعياداً و﴿إِنَّهُ رَفِيٌّ﴾ في موضع نصب على البدل من الهاء وقد يكون رفعاً على الخبر، و﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ الهاء كناية عن الحديث والجملة خبر^(٤).

[٢]- القراءات:

وردت في قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ القراءات الآتية:

أ- (هَيْتَ) بفتح الهاء والتاء وياء بينهما وبها قرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي والأعمش.

ب- (هَيْتَ) بكسر الهاء وفتح التاء وبها قرأ نافع، وابن ذكوان عن ابن عامر، وأبو جعفر.

ج- (هَيْتُ) بفتح الهاء وضم التاء وبها قرأ ابن كثير وأبو عبد الرحمن السلمي.

(١) إرشاد العقل السليم ٦١/٣.

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٥١/٢.

(٣) ينظر: الكتاب لسيبويه ١٤٨/٢، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، (ت ١٨٠هـ)، مط الأميرية بولاق - مصر، ١٣١٦هـ، وشرح ديوان الفرزدق: ٣٨٢، عبدالله الصاوي، مصر، ١٩٢٦م.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٣٢٢/٢ - ٣٢٣، مشكل إعراب القرآن ٣٨٣/١ - ٣٨٤.

د- (هَيْتٌ) بكسر وهمزة بعدها وفتح التاء وبها قرأ هشام عن ابن عامر .
 فحجة من قرأ بفتح الهاء وضم التاء فعلى أنها أشبهت حيث، ومن فتح الهاء والتاء
 فقد جعلها مثل الهاء في هلم .

أما قراءة هشام فهي بمعنى: تهيأت لأمر^(١).

ه- (هَيْتٌ) بكسر الهاء وهمزة بعدها وضم التاء وهي قراءة ابن عباس .

و- (هَيْتٌ) بكسر الهاء وضم التاء وهي قراءة ابن مخيضر وابن زيد .

ز- (هَيْتٌ) بفتح الهاء وكسر التاء وهي قراءة الحسن وابن أبي اسحاق .

ح- (هَيْتٌ) لك وهي قراءة علي - رضي الله عنه .

ط- (ها أنا لك) وهي قراءة علي - رضي الله عنه - أيضاً^(٢) .

خامساً: اللطائف التفسيرية

(١)- في قوله: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ اقتصر على هذه اللفظة، وهذا في منتهى النزاهة في التعبير، والله أعلم بما زادته من الاغراء والتهيج الذي تقتضيه الحال، ونقل رواية الاسرائيليات عنها وكذا عنه ما يعلم بالضرورة أنه كذب، فإن مثله لا يعلم إلا من الله تعالى أو بالرواية الصحيحة عنه أو عنها^(٣) .

(٢)- في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّقْتَ الْأَبْوَابَ﴾ السبب أن ذلك العمل وهو الجماع لا يؤتى إلا في المواضع المستورة لا سيما إذا كان حراماً ومع قيام الخوف الشديد^(٤) .

(٣)- ذكر سيدنا يوسف - عليه السلام - في الجواب عن كلامها ثلاثة أشياء: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ و﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ و﴿إِنَّهُ لَا يُلْجَأُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا الترتيب في غاية الحسن، وذلك لأن الانقياد لأمر الله وامتنال أوامره من أهم الأشياء لكثرة نعمه على عبده، فقلوه: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ إشارة إلى أن حق الله تعالى يمنع عن هذا العمل، وأيضاً حقوق

(١) ينظر: الحجة لابن خالويه: ١٩٤، والمبسوط: ٢٠٩، والتبصرة: ٢٢٨، والكنز في القراءات العشر: ١٧٦. والمهذب: ٢٢٤، والمغني ٢/ ٢٧٠.

(٢) ينظر: مختصر في شواذ القراءات: ٦٣، والمحاسب ١/ ٣٣٧ - ٣٣٨، والنشر ٢/ ٢٩٤ - ٢٩٥، والاتحاف: ٢٦٣.

(٣) تفسير المنار ١٢/ ٢٧٦.

(٤) ينظر: التفسير الكبير ١٨/ ١١٢ ولباب التأويل ٣/ ٢١٣.

الخلق واجبة الرعاية فلما كان العزيز قد أنعم في حق يوسف فيقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالاساءة، وأيضاً صون النفس عن الضرر واجب، وهذه اللذة لذة قليلة يتبعها خزي في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة واللذة القليلة إذا لزمها ضرر شديد فالعقل يقتضي تركها والاحتراز عنها فقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ إشارة إليه فثبت أن هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب^(١).

- (٤)- في العدول عن التصريح باسمها للمحافظة على الستر، أو للاستهجان بذكره.
- (٥)- إيراد الموصول لتقرير المرادة فإن كونه في بيتها مما يدعو إلى ذلك وإظهار كمال نزاهته - ﷺ - فإن عدم ميله إليها مع مشاهدته لمحاسنها واستعصاءه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادي بكونه - ﷺ - في أعلى معارج العفة والنزاهة^(٢).

سادساً: تجنب دخول الأجنبي على النساء في البيوت

إن من الثابت أنّ الشريعة الإسلامية تقرر للبيوت حرمتها وتمنحها الرعاية والحماية من كل ما قد يؤدي إلى تصدع كيان الأسرة وتفككها، ومن هذه الآية الكريمة يلمح المؤمن المتدبر لمرادها تعليماً من ربه بشأن اختلاء الرجل مع المرأة فكأن الحكيم الخبير يرشد عباده إلى أن لا يصنعوا كصنيع عزيز مصر، فدخول الخدم من الرجال مع الأهل والعيال له عواقب وخيمة، فالنساء أمام شهواتهن ينزلن من درجات العز إلى أحط الدركات! ويطيش أمامهن كل شيء في سبيل مبتغاهن حتى قيل لواحدة ما حملك على ما أنت عليه مما لا خير فيه؟ قالت: قرب الوساد، وطول السواد، فهي تعني أن كثرة مخالطتها له وطول المحادثة والمناجاة معه هي التي خرجت بها عن حشمتها وعفتها حتى وقعت في عار الزنى، فهذا تحذير وتنبية على تجنب دخول الغرباء وغير المحارم على النساء، وكم انتهكت حرمان من جراء اختلاط الرجال بالنساء في البيوت، ولقد حذرنا رسول الله - ﷺ - من الخلوة بالأجنبيات.

(١) ينظر: التفسير الكبير ١٨/١١٤، واللباب ١١/٥٩.

(٢) إرشاد العقل السليم ٣/٦٢، تنوير الأذهان، ٢/٢١٢، روح المعاني ١٢/١٢١، والتهجين: تقييح الأمر. ينظر: مختار الصحاح: ٦٩١، لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٦٦٦هـ) دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ١٩٨١م.

فقد روى ابن عباس - رضي الله عنه - ، أن رسول الله - ﷺ - قال: «لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم»^(١) ولقوله - ﷺ - : «لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان»^(٢).

فالسلامة الحقيقية لتجنب هذا المحذور تكمن في منع هذه الخلوة، إذ هي سبب هذا المحذور، ومنعها يكون بمنع دخول الأجنبي على المرأة وهي وحدها في البيت، سواء كان هذا الأجنبي لا قرابة له مع المرأة أصلاً أو كانت قرابته غير محرمة منها كابن العم مثلاً، فلا يجوز للمرأة أن تأذن للأجنبي بالدخول عليها، ولا يجوز لهذا الأجنبي الدخول ولو أذنت له وهو يعلم أنها وحدها في البيت^(٣)، ولا رخصة لأحد في تجاوز هذه الحدود بحجة تقوى الشخص وعمق إيمانه لأن ما حرّمته الشريعة يسري على الجميع^(٤).

وأن كثيراً من الناس يتساهلون في إدخال أنواع من الرجال إلى بيوتهم، بحيث يكون بين هؤلاء الرجال والنساء علاقة، فمن هؤلاء الرجال من يسمى بالصدّيق، أو الخادم، أو التابع، وربما الذين يُكَلِّفون بإيصال الحاجيات إلى البيوت، وفي كل صورة من هذه الصور نوع تعرض وتعرض للفتنة، إلا إذا ضبّطت هذه الأمور ضوابط الشرع^(٥).

سابعاً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة بعض الفوائد منها:

- (١) - اجتناب دخول الأجانب إلى البيوت في حالة غياب الرجال.
- (٢) - منع اختلاط الرجال الأجانب بالنساء.
- (٣) - أفادت الآية من حفاظ سيدنا يوسف عليه السلام على التقوى والتجاء إلى الله تبارك

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم ٣/٦٢، والتفسير المنير: ٤١-٤٢ لمحمد أديب حسون، مط دار الكتاب النفيس بيروت، ط ٢ - ١٤٠٨هـ، والحديث أخرجه البخاري ٤١٤/١٠ [كتاب النكاح - باب لا يخلون رجل بامرأة] برقم ٥٢٣٣، ومسلم ٩٧٨/٢، [كتاب الحج - باب سفر المرأة] برقم ١٣٤١.

(٢) سنن الترمذي ٣/٤٦٥ [كتاب الرضاع - باب الدخول على المغيبات] برقم ١١٧١.

(٣) المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم ٤/٣٨.

(٤) المصدر السابق ٥/٣٠.

(٥) ينظر: الأساس ٥/٢٦٥٣.

وتعالى ليحفظه، إن المؤمن ينبغي أن يراقب الله جل جلاله في مثل هذه المواطن التي يمكنه الوصول فيها إلى عرض أو مال حرام يسير^(١).

(٤)- كمال الوفاء الذي تحلى به سيدنا يوسف - عليه السلام - عندما لم ينكر فضل سيده عليه، سواء كان ربه العزيز أو عزيز مصر^(٢).

(٥)- في الآية عبرة عظيمة من العفاف والتقوى وعصمة الأنبياء من الكبائر^(٣).

(٦)- في الآية لم يصرح باسم امرأة العزيز تعليماً للأدب كأن الله يقول من الأدب أن لا يذكر أحد زوجته باسمها بل يكتفي عنها^(٤).

ثامناً: المعنى العام

ذكر الحق سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة كيد امرأة العزيز ومراودتها لسيدنا يوسف - عليه السلام - الذي اشتراه سيدها ليتخذه ولداً له تقر به عينه، فنظرت إليه بغير العين التي نظر بها زوجها إليه، وأرادت منه غير ما أراده هو، وما أراد الله من فوقهما، وأعدت العدة لهذا الأمر القبيح الذي لا يرضى به أهل الطهر والعفاف؛ فلذلك غلقت كل الأبواب لتخفي هذا الاثم عن أعين الناس، ولكن سيدنا يوسف - عليه السلام - كان مخلصاً ووفياً لسيده عزيز مصر، ولربه وخالقه جل جلاله فتحصن واستجار بربه من هذا العمل الذي إذا فعله كان من المعتدين الذين يجاوزون حدود الله ويجاوزون الحسن بالسيئ.

(١) التفسير المنير: ٤٢.

(٢) ينظر: التفسير الحديث ١٠٩/٤.

(٣) التحرير والتنوير ٢٥٢/١٢.

(٤) حاشية الصاوي ٢٠٣/٢.

المطلب الرابع

اجتناب العادات الجاهلية لدخول البيوت

سنحلل في هذا المطلب قوله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَيَّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

وستتعرف معاني هذه الآية في النقاط الآتية:

أولاً: (البر) في اللغة والغريب والوجوه والنظائر

(البر) في اللغة: يأتي بمعنى: الصدق فيقال: صدق فلان وبر، وبرت يمينه: صدقت، وأبرها: أمضاها على الصدق، والبر هو الخير والفضل، ومن المجاز: فلان يبر ربه أي: يطيعه^(٢).

(البر) في الغريب: هو خلاف البحر، وتصور منه التوسع، فاشتق منه البر، أي: التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله تعالى تارة نحو: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾^(٣) وإلى العبد تارة، فيقال: بر العبد ربه، أي: توسع في طاعته، فمن الله تعالى الثواب ومن العبد الطاعة^(٤).

(البر) في الوجوه والنظائر: ورد بمعان ووجوه متعددة في القرآن الكريم منها^(٥):

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة مادة (بر) ٧٧/١ والمصباح مادة (بر) ٣٦/١.

(٣) سورة الطور، الآية: ٢٨.

(٤) المفردات: ١١٤.

(٥) الأشباه والنظائر: ٣١٠ - ٣١١، إصلاح الوجوه والنظائر: ٦٧ - ٦٨.

(١)- الصلاة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا﴾^(١) يعني: لثلاثا تصلوا القرابة.

(٢)- الطاعة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾^(٢) يعني: ترك المعصية.

(٣)- التقوى، فذلك قوله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ﴾^(٣) يعني: تبلغوا التقى كله.

ثانياً: المراد من (البيوت) في الآية عند المفسرين

وردت في تأويل معنى قوله: ﴿تَتَأْتُوا الْبُيُوتَ﴾ أقوال منها:

(١)- أنها بيوت السكن^(٤).

(٢)- هذا مثل، فأمر الناس بأن يأتوا الأمور من وجوها، وأن يسألوا العلماء لا الجهال^(٥).

(٣)- أراد بها النساء، حيث أمر باتيانهن من قبل لا من الدبر، وسمى النساء بيوتاً؛ للإيواء إليهن كالإيواء إلى البيوت^(٦) قال ابن عطية: ((وهذا بعيد مغير نمط الكلام))^(٧).

وقد رد ابن العربي - رحمه الله - القول الذي أراد بالبيوت النساء؛ لأنه بعيد وليس له دليل، وأما القول بأنه مثل فهذا جائز في كل آية، فإن لكل حقيقة مثلاً منها ما يقرب ومنها ما يبعد وحقيقة هذه الآية البيوت المعروفة وهذا هو الصحيح كما ذهب إليه القرطبي بدليل ما روي في سبب نزول الآية ما رواه البراء - رضي الله عنه - ((كان الأنصار إذا حجّوا فرجعوا لم يدخلوا البيوت من أبوابها...))^(٨).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٤.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

(٤) جامع البيان ١٨٦/٢، معالم التنزيل ١٦٧/١، تفسير القرآن العظيم ٢٢٥/١.

(٥) ينظر: أحكام القرآن للجصاص ٢٥٦/١، والتفسير الكبير ١٣٨/٥، والجامع لأحكام القرآن ٢/٣٤٦، وفتح القدير ١٨٩/١.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ١٠١/١، الجامع لأحكام القرآن ٣٤٦/٢، فتح القدير ١٨٩/١.

(٧) المحرر الوجيز ١٣٨/٢.

(٨) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي ١٠١/١، والجامع لأحكام القرآن ٣٤٦/٢، والحديث أخرجه =

فعلى هذا الترجيح يتعين أنَّ دخول البيوت ينبغي أن يكون من أبوابها وأن إتيان البيوت من ظهورها ليس من البر، ولا هو مما أمر الله به، بل هي عادة جاهلية أراد الإسلام أن يبطلها، وأن البر الحقيقي هو تقوى الله والتزام شرعه فأمر المسلمين بدخول البيوت من أبوابها وتقوى الله فهذا هو الطريق الذي فيه صلاحهم وفلاحهم.

ثالثاً: أسباب النزول

وردت في الآية الكريمة أسباب كثيرة في نزولها منها:

(١)- أخرج أبو نعيم وابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس أن معاذ بن جبل وثعلبة ابن غنمة قالا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو أو يطلع دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حال واحد فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾ (١).

(٢)- روى البخاري عن البراء قال: كانت الأنصار إذا حجّوا ورجعوا لم يدخلوا البيوت إلا من ظهورها قال: فجاء رجل من الأنصار فدخل من بابه، ف قيل له ذلك، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ (٢).

(٣)- عن الزهري، قال: كان ناس من الأنصار إذا أهلّوا بالعمرة لم يحل بينهم وبين السماء شيء، يتخرجون من ذلك، وكان الرجل يخرج مهلاً بالعمرة، فتبدو له الحاجة بعدما يخرج من بيته، فيرجع ولا يدخل من باب الحجر من أجل سقف الباب أن يحول بينه وبين السماء فيفتح الجدار من ورائه ثم يقوم في حجرته فيأمر بحاجته، فتخرج إليه من بيته، حتى بلغنا أن رسول الله - ﷺ - أهلّ زمن الحديبية بالعمرة فدخل حجره، فدخل رجل على اثره من الأنصار من بني سلمة، فقال له النبي - ﷺ - : «إني أحمس» (٣): قال الزهري: وكانت الحمس لا يبالون ذلك، فقال الأنصاري:

= البخاري ٤/٤٦٢ [كتاب الحج والعمرة - باب قوله تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَوْبَاهُهَا﴾] برقم ١٨٠٣، ومسلم ٤/٢٣١٩ (كتاب التفسير) برقم ٣٠٢٦.

(١) أسباب النزول: ٣٢، معالم التنزيل ١/١٦٦، لباب النقول: ٢٨ - ٢٩.

(٢) جامع البيان ٢/١٨٦، أسباب النزول: ٣٢، لباب النقول: ٢٩، البخاري ٩/٤٦٢ [كتاب الحج والعمرة - باب قوله تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَوْبَاهُهَا﴾] برقم ١٨٠٣، مسلم ٤/٢٣١٩ [كتاب التفسير] برقم ٣٠٢٦.

(٣) الحمس: قریش وكنانة وخزاعة وثقيف وجشم وبنو عامر بن صعصعة وبنو نصر بن معاوية، =

وأنا أحسن، يقول: وأنا على دينك فأنزل الله عز ذكره: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾^(١).

وتعقب ابن حجر الرواية عن معاذ فقال: ((أما الأول فلم ار له سنداً إلى معاذ، ويحتمل أن يكون اختصره أولاً ثم أورده مبسوطاً)) أما رواية الزهري فقال: ((هذا مرسل رجاله ثقات أخرجه الطبري من طريق عبد الرزاق))^(٢).

رابعاً: مناسبة الآية

مناسبة هذه الآية لما قبلها: انه لما ذكر سبحانه وتعالى أن الأهلّة مواقيت للحج استطراد إلى ذكر شيء كانوا يفعلونه في الحج، زاعمين أنه من البر، فبين لهم أن ذلك ليس من البر، وإنما جرت العادة به قبل الحج أن يفعلوه في الحج، ولما ذكر سؤالهم عن الأهلّة بسبب النقصان والزيادة وما حكمة ذلك، وكان من المعلوم أنه تعالى حكيم، فأفعاله جارية على الحكمة رد عليهم بأن ما يفعلونه من إتيان البيوت من ظهورها إذا أحرموا ليس من الحكمة في شيء ولا من البر، ولما وقعت القصة في وقت واحد نزلت الآية فيهما معاً ووصل إحداها بالأخرى^(٣).

خامساً: الإعراب والقراءات

[١]- الإعراب:

قوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ جار ومجرور متعلق بمحذوف نعت لمواقيت و﴿الْحَجَّ﴾ معطوف على الناس بالواو مجرور مثله، ولا اختلاف في رفع (البر) هنا لأن خبر ليس ﴿يَأْتُوا﴾ ولزم بذلك دخول الباء فيه^(٤).

و(من) في قوله: ﴿مِنْ ظُهُورِهَا﴾ و﴿مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ متعلقة بالآيتين ومعناها ابتداء

= وسموا حمساً لتشديدهم في دينهم والحماسة: الشدة، ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢/ ٣٤٥.

(١) جامع البيان ٢/ ١٨٧، معالم التنزيل ١/ ١٦٧ - ١٦٨ العجائب في بيان الأسباب: ٣٣١، للإمام ابن حجر العسقلاني، دراسة وتحقيق عبد الحكيم محمد الأنيس وهي رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية العلوم الإسلامية، بإشراف الدكتور محيي هلال السرحان ١٩٩٥م.

(٢) العجائب في بيان الأسباب: ٣٢٨ - ٣٣٢.

(٣) البحر المحيط ٢/ ٦٣.

(٤) إملاء ما من به الرحمن ١/ ٨٤، الجدول في إعراب القرآن ١/ ٣٨٦.

الغاية، والضمير في ﴿ظُهُورِهَا﴾ و﴿أَنْوَابِهَا﴾ للبيوت^(١).

﴿وَلَكِنَّ الْآلِرَ﴾ يقرأ: بتشديد النون ونصب البر، وتخفيف النون، ورفع البر على الابتداء وفي التقدير ثلاثة أوجه: (أحدهما) أن البر هنا اسم فاعل من برير، و(الوجه الثاني) أن يكون التقدير: ولكن ذا البر من آمن، و(الوجه الثالث) أن يكون التقدير: ولكن البر بر من آمن فحذف المضاف على التقديرين^(٢).

وجملة ﴿هِيَ مَوَقِيتٌ﴾ في محل نصب مقول القول، وجملة ﴿وَلَيْسَ الْآلِرُ بِأَنْ تَأْتُوا﴾ في محل نصب معطوفة على جملة ﴿هِيَ مَوَقِيتٌ﴾ وجملة ﴿لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾ لا محل لها تعليلية^(٣).

[٢]- القراءات:

قوله تعالى: ﴿وَالْحَجُّ﴾ قرأها الحسن وابن أبي اسحاق (والحج) بكسر الحاء^(٤)، وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الْآلِرَ﴾ قرأ نافع وابن عامر وشريح والحسن (ولكن البر) بتخفيف النون ورفع البر على الابتداء، وذلك أن (لكن) وأخواتها عملت النصب لشيئها بالفعل في اللفظ والمعنى: فإذا زال اللفظ زال العمل ولذلك فمن خفف جاءت قراءته بالرفع على الابتداء^(٥).

سادساً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة بعض الفوائد منها:

(١)- فائدة الشهور القمرية عظيمة إذ بها تعرف كثير من العبادات ومن أهم هذه العبادات الحج^(٦).

(١) الدر المصون ٤٨٠/١.

(٢) إملاء ما من به الرحمن ٧٧/١.

(٣) الجدول في إعراب القرآن ٣٨٦/١ - ٣٨٧.

(٤) البحر المحيط ٦٢/٢، الإتاحت: ١٥٥.

(٥) ينظر: الحجة لابن خالويه: ٨٦، والنشر ٢/٢١٩، وسراج القارئ المبتدي وتذكارات المقرئ المنتهي: ١٧٦، لأبي القاسم علي المعروف بابن القاصع، (ت ٨٠١هـ)، ضبطه محمد شاهين، مط دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١٩٩٩م، والنفحات الالهية في شرح متن الشاطبية: ٣٠١، للشيخ محمد عبد المنعم خميس، مط دار المنار القاهرة - مصر، ط ١ - ١٩٩٦م، والمغني ٢٣١/١.

(٦) أيسر التفاسير ١٧١/١.

(٢) - إن ما لم يشرعه الله قربة ولا ندب إليه لا يصير قربة بأن يتقرب به متقرب ونظيره من السنة ما روي عن النبي - ﷺ - (من نهيه صوم يوم إلى الليل، وأنه رأى رجلاً في الشمس، فقال: «ما شأنه؟» فقيل: إنه نذر أن يقوم في الشمس فأمره أن يتحول إلى الفئ وأنه - عليه الصلاة والسلام - نهى عن الوصال)؛ لأن الليل لا صوم فيه فنهى أن يعتقد صومه وترك الأكل فيه قربة، لذا فإن اقتحام البيوت من ظهورها عند التلبس بالعمرة لم يكن ندباً فيقصد به وجه القربة. ولذلك لا يتعلق النذر بمباح ولا منهي وإنما يتعلق بكل مندوب^(١).

(٣) - الأمر بالتقوى المفضية إلى فلاح العبد ونجاته في الدارين^(٢).

سابعاً: المعنى العام

في هذه الآية الكريمة إبطال لعادة جاهلية جرى عليها الأنصار في حجهم حيث أنهم إذا أحرموا فإنهم يتخرجون دخول البيوت من أبوابها ويرون أن ذلك من البر، فتضمنت الآية بأن إتيان البيوت من ظهورها ليس من البر لما فيه من المشقة والعبث لما لا فائدة فيه وأرشدت الآية إلى أن إتيان البيوت ينبغي أن يكون من أبوابها، وأن إتيانها من ظهورها باسم الدين غير مأذون فيه شرعاً، وكل ما يفعل على هذه القاعدة باسم الدين وليس له في الدين من شاهد فهو بدعة وكل بدعة ضلالة.

وبعد أن أعلمهم بخطئهم في إتيان البيوت من ظهورها وظنهم أن ذلك من البر، بين لهم البر الحقيقي وهو تقوى الله بالتخلي عن المعاصي والرذائل والتحلي بالفضائل، فهو طريق الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾^(٣) (٤).

(١) ينظر: أحكام القرآن للجصاص ٢٥٦/١، وأحكام القرآن لابن العربي ١٠١/١، والجامع لأحكام القرآن ٣٤٦/٢، والحديث أخرجه الإمام مالك في الموطأ ٤٧٥/١ [كتاب النذور والإيمان - باب ما لا يجوز من النذر في الوصية] للإمام مالك بن أنس الأصبحي، تد محمد فؤاد عبد الباقي، مط المكتبة الثقافية بيروت - لبنان، ١٩٨٨م.

(٢) أيسر التفاسير ١٧١/١.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ٤.

(٤) ينظر: تفسير المراعي ٨٦/٢ - ٨٧.

المبحث الثالث

هجرة البيوت ابتغاء مرضات الله تعالى

سنحلل في هذا المبحث قوله تعالى :

﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١).

وستتعرف معاني هذه الآية الكريمة من خلال النقاط الآتية :

أولاً: تحليل الألفاظ

(يهاجر) في اللغة: هو فعل مضارع ماضيه هجر وهو ضد الوصل، والهجر ما لا ينبغي من الكلام، وهجرت الرجل أهجره هجرًا، وهاجر القوم من دار إلى دار: تركوا الأولى للثانية، كما فعل المهاجرون حيث هاجروا من مكة إلى المدينة، والهجرة والهجير والهجرة: انتصاف النهار، وهجروا يعني: ساروا في ذلك الوقت، وسميت هجرة؛ لأن الناس يستكنون في بيوتهم، كأنهم قد تهاجروا^(٢).

(الهجر) في الغريب: هو مفارقة الإنسان غيره، إما بالبدن أو باللسان، أو بالقلب، والمهاجرة في الأصل: مصارمة الغير ومتاركته، من قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ﴾ فالظاهر منه الخروج من دار الكفر إلى دار الإيمان كمن هاجر من مكة إلى المدينة؛ وقيل: مقتضى ذلك هجران الشهوات والأخلاق الذميمة والخطايا وتركها ورفضها^(٣).

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٠.

(٢) ينظر: جمهرة اللغة ٢/ ٨٧ - ٨٨، ومقاييس اللغة مادة (هجر) ٦/ ٣٤ - ٣٥.

(٣) المفردات: ٨٣٣.

(الهجر) في الوجوه والنظائر: ومن وجوهه في القرآن^(١):

أ- الانفراد والعزلة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾^(٢) أي: اعتزلهم.

ب- الانتقال من بلد إلى بلد طلب سلامة الدين في طاعة الله سبحانه وتعالى، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

ج- تحويل الوجه في الفراش عن الزوجة ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾^(٣).

(مَرَاغِمًا) في اللغة: الرغام، بالفتح: التراب، ويقال: ارغم الله أنفه، أي: ألصقه بالرغام، وتأتي المراغمة بمعنى: المغاضبة، يقال: راغم فلان قومه، إذا نابذهم وخرج عنهم، والمُراغم: المذهب والمهرب ومنه قوله تعالى: ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾^(٤).

(الرَّغَام) في الغريب: هو التراب الدقيق، ورَغِمَ أنف فلان رَغْمًا: وقع في الرغام، وأرغَمَهُ غيره، ويعبر بذلك عن السخط، وتستعار المراغمة للمنازعة، قال تعالى: ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا﴾ أي: مذهباً يذهب إليه إذا رأى منكراً يلزمه أن يغضب منه^(٥).

ثانياً: معنى ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ عند المفسرين

ذكر المفسرون في معنى (المراغم) عدة وجوه منها:

(١)- المتزحزح، قاله مجاهد^(٦).

(٢)- المتحول والمذهب، قاله ابن عباس والضحاك والربيع وغيرهم^(٧).

(١) إصلاح الوجوه والنظائر: ٤٧١.

(٢) سورة المزمل، الآية: ١٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٤) الصحاح مادة (رغم) ١٩٣٤/٥ - ١٩٣٥، وينظر: مقاييس اللغة مادة (رغم) ٤١٣/٢ - ٤١٤.

(٥) ينظر: المفردات: ٣٥٩.

(٦) جامع البيان ٢٤١/٥، تفسير القرآن العظيم ١٤٣/١.

(٧) المصدران السابقان.

(٣)- المهاجر، قال ابن زيد وأبو عبيدة^(١).

(٤)- مبتغى للمعيشة، قاله السدي^(٢).

قال النحاس: ((فهذه الأقوال متفقة المعاني، فالمراغم هو المذهب والمتحول في حال هجرة، وهو اسم للموضع الذي يراغم فيه وهو مشتق من الرغام ورغم أنف فلان أي: لصق بالتراب، وراغمت فلاناً: هجرته وعاديته ولم أبال إن رغم أنفه))^(٣).

ومعنى (المراغم) في هذا الموضع هو موضع المراغمة، وهو أن يراغم كل واحد من المتنازعين أنف صاحبه بأن يغلبه على مراده، فكفار قريش أرغموا أنوف المحبوسين بمكة فلو هاجر منهم مهاجر في أرض الله لأرغم أنوف قريش بحصوله في منعة منهم، فتلك المنعة هي موضع المراغمة^(٤).

أما (السعة) فهي: السعة في الرزق، قاله ابن عباس والربيع والضحاك^(٥)، وقال قتادة: المعنى سعة من الضلالة إلى الهدى، ومن العيلة إلى الغنى، وقال مالك: السعة سعة البلاد^(٦).

والحاصل في معنى الآية ما تأوله الإمام الطبري - رَحِمَهُ اللهُ - حيث قال: ((إن الله أخبر أن من هاجر في سبيله يجد في الأرض مضطرباً ومتسعاً وقد يدخل في السعة، السعة في الرزق، والغنى من الفقر، ويدخل فيه السعة من ضيق الهم والكرب الذي كان فيه أهل الإيمان بالله من المشركين بمكة وغير ذلك من معاني السعة))^(٧).

ثالثاً: البلاغة في الآية

تضمنت هذه الآية الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع منها:

- (١) معالم التنزيل ٥٨٣/١، الكشف ٥٥٦/١.
- (٢) الجامع لأحكام القرآن ٣٤٨/٥.
- (٣) إعراب القرآن للنحاس: ٤٨٥/١.
- (٤) المحرر والوجيز ١٩٦/٤.
- (٥) جامع البيان ٢٤٢/٥، معالم التنزيل ٥٨٣/١، تفسير القرآن العظيم ٥٤٣/١.
- (٦) الجامع لأحكام القرآن ٣٤٨/٥، روح المعاني ١٢٧/٥.
- (٧) جامع البيان ٢٤٢/٥.

(١) - قوله تعالى: ﴿يُذَكِّرُ﴾ استعار الإدراك الذي هو صفة من فيه حياة لحلول الموت .

(٢) - وضع ﴿يُذَكِّرُ أَلْمَوْتَ﴾ موضع - يمت - إشعاراً بمزيد الرضا من الله تعالى : وأن الموت كالهديّة منه سبحانه له لأنه سبب للوصول إلى النعيم المقيم الذي لا ينال إلا بالموت وجيء بـ(ثم) بدل الواو تقسيماً لهذه الدققة^(١) .

(٣) - قوله تعالى: ﴿فَقَدْ وَقَعَ﴾ إشعار الوقوع الذي هو من صفات الاجرام لثبوت الأجر^(٢) .

(٤) - الجنس المغاير في (يهاجر ومهاجراً)^(٣) .

(٥) - أعرض من ذكر مقدار الجزاء والثواب ، وذكر ما هو معلوم ومشترك بين جميع أعمال البر تفخيماً لمقدار الجزاء لما في ذلك من إبهام المقدار وتنزيله منزلة ما قد علم ، فهو إذن غير محتاج إلى البيان ، ولذلك صار السكوت عن مراتب الثواب أبلغ من بيانه^(٤) .

رابعاً: أسباب النزول

وردت أسباب كثيرة في نزول قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً﴾ منها:

(١) - قال ابن عباس في رواية عطاء: كان عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - يخبر أهل مكة بما ينزل فيهم من القرآن ، فكتب الآية التي نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَالِمِ أَنْفُسِهِمْ﴾^(٥) فلما قرأها المسلمون قال حبيب بن ضمرة الليثي لبيته وكان شيخاً كبيراً: احملوني إلى المدينة فلما بلغ التنعيم أشرف على الموت فصفق يمينه على شماله وقال: اللهم هذه لك وهذه لرسولك ، أبايحك على ما بايعتك يد رسول الله - ﷺ - ومات حميداً فبلغ خبره أصحاب رسول الله - ﷺ - فقالوا: لو وافى المدينة لكان أتم أجراً ، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآية^(٦) .

(١) روح المعاني ١٢٨/٥ .

(٢) البحر المحيط ٣/٣٣٧ .

(٣) ينظر: البحر المحيط ٣/٣٣٧ ، وصفوة التفسير ١/٣٠٤ .

(٤) البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن: ٣١٢ .

(٥) سورة النساء ، الآية: ٩٧ .

(٦) أسباب النزول: ١١٩ .

(٢) - أخرج ابن أبي حاتم وأبو يعلى بسند جيد عن ابن عباس قال: خرج جندب بن ضمرة من بيته مهاجراً فقال لأهله احملوني فأخرجوني من أرض المشركين إلى رسول الله - ﷺ - فمات في الطريق قبل أن يصل إلى النبي - ﷺ - فنزل الوحي ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا﴾ الآية (١).

(٣) - وعن سعيد بن جبير عن ضمرة بن النعيص الزرقى الذي كان مصاب البصر وكان بمكة، فلما نزلت: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ (٢) فقال: إني لغني، وإني لذو حيلة فجهز يريداً النبي - ﷺ - فأدركه الموت بالتنعيم فنزلت فيه هذه الآية (٣).

(٤) - نزلت في جندع بن ضمرة الضمري كان بمكة، فمرض فقال لبنيه: أخرجوني من مكة فقد قتلني غمها، فقالوا إلى أين؟ فأوماً بيده نحو المدينة يريد الهجرة، فخرجوا به، فلما بلغوا بني غفار مات، فأنزل الله فيه: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا﴾ (٤).

(٥) - وعن الزبير بن العوام - ﷺ - قال: هاجر خالد بن حرام إلى أرض الحبشة فنهشته حية في الطريق فمات فنزلت فيه: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا﴾ (٥).

وعلى الرغم من وجود الأسباب الكثيرة لنزول الآية الكريمة واختلاف الروايات في اسم المهاجر الذي مات في الطريق إلى عشرة أقوال كما ذكره ابن حجر في الإصابة وصحح في الاستيعاب أنه جندب بن ضمرة، وما ذكر في رواية الزبير في أنها نزلت في خالد بن حرام فقد رد هذا الأثر ابن كثير - ﷺ - وقال عنه غريب جداً حيث أن هذه القصة مكية ونزول هذه الآية مدني، فأقول: تبقى العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فقد ذهب أهل العلم إلى أن الآية الكريمة عامة وإن نزلت في سبب خاص (٦). فلذلك قال ابن كثير في رواية ابن الزبير: ((فلعل أنه أراد أنها تعم

(١) ينظر: الكشف ٥٥٧/١، وتفسير القرآن العظيم: ٥٤٣، ولباب النقول: ٨٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٥٤٣/١، لباب النقول: ٨٢.

(٤) معالم التنزيل ٥٨٣/١ - ٥٨٤، لباب التأويل ٥٨٣/١ - ٥٨٤، لباب النقول: ٨٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم ٥٤٣/١، لباب النقول: ٨٣.

(٦) ينظر: الاستيعاب ٢١٩/١، وتفسير القرآن العظيم ٥٤٣/١، والإصابة ٢٥٣/١، وروح المعاني

حكمه مع غيره وإن لم يكن ذلك سبب النزول والله أعلم^(١).

خامساً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: لما رهب من ترك الهجرة رغب فيها بما يسلي عما قد يوسوس به الشيطان من أنه لو فارق رفاهية الوطن وقع في شدة الغربة، وأنه ربما تجشم المشقة فاخترم قبل بلوغ القصد فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٢).

أما مناسبتها لما بعدها: فلما أوجب السفر للجهاد والهجرة وكان مطلق السفر مظنة المشقة فكيف بسفرهما مع ما يَنْضَمُّ إلى المشقة فيهما من خوف الأعداء ذكر بعدها تخفيف الصلاة بالقصر^(٣).

سادساً: الإعراب والقراءات

[١]- الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ شرط و﴿مُهَاجِرًا﴾ حال من الضمير في يخرج، و﴿ثُمَّ يَدْرِكُهُ الْمَوْتُ﴾ مجزوم عطفاً على يخرج ولا يجوز أن يكون جواباً، ﴿فَقَدْ وَقَعَ آخِرُهُ﴾ جواب الشرط^(٤).

[٢]- القراءات:

قوله تعالى: ﴿يَدْرِكُهُ﴾ قرأ الجمهور بالجزم عطفاً على الشرط قبله وجوابه فقد، وقرأ الحسن البصري بالنصب وقرأ النخعي وطلحة بن مصرف برفع الكاف، وخرجها ابن جني على إضمار مبتدأ أي: ثم يدركه الموت، فيعطف جملة اسمية على جملة فعلية وهي جملة الشرط المجزوم وفاعله^(٥).

(١) تفسير القرآن العظيم ٥٤٣/١.

(٢) نظم الدرر ٣٧٥/٥.

(٣) المصدر السابق ٣٧٧/٥.

(٤) ينظر: إعراب القرآن للنحاس ٤٨٥/١، وإملاء ما من به الرحمن ١٩٢/١.

(٥) مختصر في شواذ القراءات: ٢٧، المحتسب ١٩٧/١، الكشف ٥٥٧/١، البحر المحيط ٣/٣٣٦.

سابعاً: أسباب مفارقة الأوطان

قسم ابن العربي الذهاب في الأرض قسمين: هرباً وطلباً، فالأول ينقسم على ستة أقسام وهي:

(١)- الهجرة وهي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضاً في أيام الرسول - ﷺ - وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي - ﷺ - حيث كان، فمن أسلم في دار الحرب وجب عليه الخروج إلى دار الإسلام، فإن بقي فقد عصى ويختلف في حاله.

(٢)- الخروج من أرض البدعة، قال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: لا يحل لأحد أن يقيم ببلد سب فيه السلف، قال ابن العربي: وهذا صحيح فإن المنكر إذا لم تقدر أن تغيره فزل عنه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِنَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

(٣)- الخروج من أرض غلب عليها الحرام، فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم.

(٤)- الفرار من الإذاية في البدن، وأول من فعله سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فإنه لما خاف من قومه قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ (٢). وقال تعالى مخبراً عن موسى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ (٣).

(٥)- خوف المرض في البلاد الوخمة والخروج منها إلى الأرض الزهية.

(٦)- الفرار خوف الإذاية في المال، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، والأهل مثله أو أكد.

أما الثاني وهو قسم الطلب فينقسم قسمين: طلب دين وطلب دنيا وينقسم طلب الدين بتعدد أنواعه تسعة أقسام وهي:

(١)- سفر العبرة، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (٤).

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢٦.

(٣) سورة القصص، الآية: ٢١.

(٤) سورة يوسف، الآية: ١٠٩.

- (٢)- سفر الحج .
 (٣)- سفر الجهاد .
 (٤)- سفر المعاش فقد يتعذر على الرجل معاشه مع الإقامة فيخرج في طلبه لا يزيد عليه فهو فرض .
 (٥)- سفر التجارة والكسب الكثير الزائد على القوت وذلك جائز بفضل الله سبحانه قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(١) يعني التجارة .
 (٦)- في طلب العلم .
 (٧)- قصد البقاع الكريمة .
 (٨)- زيارة الاخوان في الله .
 (٩)- السفر إلى دار الحرب .

قال ابن العربي : ((وبعد هذا فالنية تغلب الواجب من هذا حراماً، والحرام حلالاً بحسب حسن القصد وإخلاص السر عن الشوائب))^(٢) .
 كل هذه الأسباب والمقاصد التي يفارق فيها الانسان بيته ووطنه ترتكز على أمر النية التي ذكرها ابن العربي والتي عبر عنها الصادق المصدوق - عليه السلام - في الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب - عليه السلام - قال ، قال رسول الله - عليه السلام - : «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(٣) .

ثامناً : مكانة الوطن في النفوس

إن المكان الذي ينشأ فيه الانسان له مكانة عزيزة في نفسه ولقد اقترن حب الأرض في القرآن بحب النفس قال تعالى : ﴿أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾^(٤)

(١) سورة البقرة، الآية : ١٩٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤٨٤/١ - ٤٨٧ ، وينظر الجامع لأحكام القرآن ٣٤٩/٥ - ٣٥١ .

(٣) البخاري ١١/١ [كتاب بدء الوحي] برقم ١ .

(٤) سورة النساء، الآية : ٦٦ .

واقترانها في موضع آخر بالدين قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِيلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾^(١) ويجدر بنا في هذا الجانب أن نذكر قول رسول الله - ﷺ - حين غادر مكة مهاجراً: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»^(٢).

وبلد الإنسان ومدينته وحيته وبيته أعز شيء عنده، لا يتركه إلا لأسباب قاهرة خارجة عن إرادته، وإذا تركه لسبب ما، تبقى ذكرياته في أعماق نفسه يحنّ إلى ساحاته، يحنّ إلى روابيه، يحنّ إلى كل شيء فيه وكل ذلك يدل على تأثير الأرض وعلى أن فطرة الانسان التي فطره الله عليها حب الوطن والديار، ولكن لهذا الحب حدوداً يجب أن لا يتجاوزها لأن فوق هذا الحب حب الحق والعدل والدين والعقيدة وقديماً هجر العربي أرضه إثارةً للكرامة والعز وهاجر المسلم منها فراراً بدينه وفراراً من الظلم حين لا يستطيع الحفاظ على دينه ودفع الظلم عن نفسه^(٣).

تاسعاً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة بعض الفوائد الآتية:

- (١)- الترغيب في أمر الهجرة في سبيل الله والتأنيس لها^(٤).
- (٢)- دلت الآية انه لا عذر لأحد في المقام على المعصية في بلده لأجل المال والولد والأهل بل ينبغي أن يفارق وطنه إن لم يمكنه إظهار الحق فيه^(٥).
- (٣)- ان من قصد فعل طاعة من الطاعات ثم عجز عن إتمامها كتب الله له ثواب تلك الطاعة كاملاً^(٦).

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٨.

(٢) سنن الترمذي ٧٢٢/٥ [كتاب المناقب عن رسول الله - ﷺ - باب فضل مكة] برقم ٣٩٢٥ قال أبو عيسى: حديث حسن غريب صحيح.

(٣) ينظر: الأمة والعوامل المكونة لها: ٤٦، لمحمد المبارك، دار الفكر - دمشق، والهجرة والنصرة في القرآن الكريم: ١٥، للدكتور موسى بناي العلي، منشورات الدار العربية للموسوعات، بيروت - لبنان، ط ١ - ١٩٨٩ م.

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم ٣٧٦/١، وفتح القدير: ٥٠٥/١.

(٥) تنوير الأذهان ٣٦٩/١.

(٦) التفسير الكبير ١٥/١١، لباب التأويل ٥٨٤/١.

(٤)- كل هجرة لغرض ديني - من طلب علم أو حج أو جهاد أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعة وزهداً في الدنيا أو ابتغاء رزق طيب - فهي هجرة إلى الله ورسوله^(١).

(٥)- فيها وعد للمهاجرين في سبيله بتسهيل سبل العيش لهم وإرغامهم أعداءهم والظفر بهم^(٢).

(٦)- دلت الآية على أن المهاجر له إحدى الحسينين، إما أن يرغب أنف أعداء الله ويذلهم بسبب مفارقتهم واتصاله بالخير والسعة، وإما أن يدركه الموت ويصل إلى السعادة الحقيقية والنعيم الدائم^(٣).

(٧)- قوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيه دليل على أن الهجرة لا بد أن تكون بقصد صحيح، ونية خالصة غير مشوبة بشيء من أمور الدنيا^(٤).

عاشراً: المعنى العام

بين سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أن من يفارق أرض الشرك وأهلها هرباً بدينه منها ومنهم إلى أرض الإسلام وأهلها المؤمنين، ويكون هذا الخروج لا لدنيا يصيبها ولا من أجل امرأة ينكحها، بل هو خروج في سبيل الله فإنه يجد في الأرض المتحول إليها من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنف أعدائه، كما يجد السعة في الرزق، والسعة في أمر الدين، وعبادة الله جل وعلا، ثم أخبر سبحانه وتعالى عمن خرج مهاجراً من أرض الشرك زاهداً في بيته ووطنه وعشيرته إلى دار الإسلام ثم أدركته منيته في الطريق قبل أن يصل إلى دار الهجرة أنه قد استوجب ثواب هجرته وإن لم يبلغ دار الإسلام، وفي هذه الآية تلقين رائع يشمل كل ظرف ودور مماثل يوجب على المسلم ما رغبت إليه الآية من الهجرة من دار الظلم والبغي وعدم الخضوع والاستسلام للظالم الطاغوي وضرورة إرغامه وإزعاجه بكل الوسائل ومن هذه الوسائل الهجرة^(٥).

(١) الكشف ٥٥٧/١، إرشاد العقل السليم ٣٧٦/١.

(٢) المراغي ١٣٤/٥.

(٣) روح المعاني ١٢٨/٥.

(٤) فتح القدير ٥٠٥/١.

(٥) ينظر: جامع البيان ٢٣٨/٥.

المبحث الرابع

إيثار بيوت الآخرة على بيوت الدنيا

سنحلل في هذا المبحث قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١).

وستتعرف معاني هذه الآية من خلال النقاط الآتية:

أولاً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: بعد أن ضرب الله تعالى المثل للصالحين والصالحات من النساء وأنه لا ينفع العصي طاعة غيره ولا يضر المطيع معصية غيره وإن كانت القرابة متصلة بينهم وأن القريب كالأجانب بل أبعد وإن كان القريب الذي يتصل به الكافر نبياً كامرأة نوح وامرأة لوط لما خانتاهما لم يغن هذان الرسولان عن امرأتهما شيئاً فقطع طمع من يرتكب المعصية ويتكل على صلاح غيره وفي هذا المثل تعريض بأمر المؤمنين عائشة وحفصة - رضي الله عنهما - وما فرط منهما، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشدّه، ثم ضرب هذا المثل الذي يتضمن أن معصية الغير لا تضره إذا كان مطيعاً وأن وصلة المسلم بالكافر لا تضر المؤمن فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية (٢).

أما مناسبتها لما بعدها: فإن أفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التي جعلتها قرينة مريم في الذكر، وهما الاثنان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدقة القانئة يضر بهما الله لأزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - ويضر بهما للمؤمنات من بعد في كل جيل (٣).

(١) سورة التحريم، الآية: ١١.

(٢) لباب التأويل ١٢٣/٧.

(٣) في ظلال القرآن ١٧٥/٢٨.

ثانياً: الإعراب

قوله: ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ العامل في إذ المثل، و﴿عِنْدَكَ﴾ يجوز أن يكون ظرفاً ل(ابن)، وأن يكون حالاً من ﴿بَيْتًا﴾^(١). و﴿فِي الْجَنَّةِ﴾ إما متعلق ب(ابن)، وإما بمحذوف على أنه نعتاً لبنت^(٢).

ثالثاً: زهد امرأة فرعون في بيوت الدنيا

ذكر المفسرون: أن امرأة فرعون هي عمة موسى - ﷺ - فهي اسرائيلية، وقيل: إنها ابنة عم فرعون، وأنها من العمالقة، وزاد ابن عاشور على ذلك أنها امرأة فرعون الذي أرسل إليه موسى وهو منقطع الثالث وليست هي امرأة فرعون رعمسيس الثاني التي تبنت موسى حين التقطوه من اليم^(٣).

والحقيقة أنه لا يهمننا معرفة هذا التحقيق في شخصية امرأة فرعون إلا أننا نسلم لحديث رسول الله - ﷺ - أنه قال: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»^(٤).

قال المفسرون^(٥): لما غلب موسى - ﷺ - السحرة آمنت امرأة فرعون، فلما تبين لفرعون إسلامها أوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد وألقاها في الشمس فكانت تعذب في الشمس فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وقيل: ان فرعون أمر بصخرة عظيمة لتلقى عليها فلما أوتوها بالصخرة قالت: ﴿رَبِّ أَبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فأبصرت بيتها في الجنة من درة بيضاء، وانتزعت روحها فألقيت الصخرة على جسد لا روح فيه وعن الحسن: فنجأها الله أكرم نجاة فرفعها إلى الجنة فهي

(١) إملأ ما من به الرحمن ٢/٢٦٥.

(٢) الدر المصون ٦/٣٣٩.

(٣) ينظر: الكشف ٤/٥٧٢، والتفسير الكبير ٣٠/٤٩، والفتوحات الالهية ٤/٣٧٢، والتحرير والتنوير ٢٨/٣٧٧-٣٧٦.

(٤) مسلم ٤/١٨٨٦ [كتاب فضائل الصحابة - باب فضائل خديجة - ﷺ] - برقم ٢٤٣١.

(٥) ينظر: جامع البيان ٢٨/١٧١، ولباب التأويل ٧/١٢٣، والجامع لأحكام القرآن ١٨/٢٠٣، وتفسير القرآن العظيم ٤/٣٩٤، والبحر المحيط ٨/٢٩٤ - ٢٩٥.

تأكل وتشرب وتتعمق فيها.

ها هي ذي امرأة فرعون لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه في قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها، وقد تبرأت من قصر فرعون، من أمتع مكان تجد فيه المرأة ما تشتهي وما تلبس وما تتمنى، فطلبت من ربها القرب من رحمته، طلبت بيتاً في مستقر رحمته فأثرت الباقي على الفاني، فقالت: ﴿رَبِّ أَبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ قريباً من رحمتك في أعلى الدرجات؛ لأن ما عند الله خير وأبقى، قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار.

فتبرأت آسية بنت مزاحم من صلتها بفرعون، فسألت ربها النجاة منه، وتبرأت من عمله وخصوصاً الكفر وعبادة غير الله، والتعذيب بغير جرم، إلى غير ذلك من القبائح، وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صورته استعلاء على القصور، وكل ما فيها من متاع وحاشية وخدم، واستعلاء على الملك والسلطان والجاه فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ، فهذا نموذج عالٍ في التجرد لله، وهذه المرأة لهي أعظم مثال للمؤمنين والمؤمنات^(١).

رابعاً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة بعض الفوائد منها:

(١)- التروغيب في التمسك بالطاعة والثبات على الدين، وهو حث للمؤمنين على الصبر في الشدة، ولا يكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون، حيث صبرت على أذى فرعون^(٢).

(٢)- العلم بأن صلاح الغير لا ينفع المفسد، وفساد الغير لا يضر المصلح^(٣).

(٣)- التنبيه على أن التضرع بالصدق في حضرة الله تعالى وسيلة إلى الخلاص من العقاب، وإلى الثواب بغير حساب^(٤).

(١) ينظر: في ظلال القرآن ١٧٤/٢٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠٣/١٨، تفسير القرآن العظيم ٣٩٤/٤، إرشاد العقل السليم ١٧٩/٥.

(٣) التفسير الكبير ٥١/٣٠.

(٤) التفسير الكبير ٥١/٣٠، البحر المحيط ٩٥/٨.

(٤) - لا ينبغي لأحد أن يقارن الظالمين ويخالطهم إلا على وجه يسلم به من عذاب الله - ﷻ - ، وأقل ذلك أن يكون منكراً لظلمهم، ماقتاً لهم شأنًا ما هم فيه بحسب الإمكان^(١).

خامساً: المعنى العام

هذه الآية الكريمة تبين مثلاً لحقيقة المؤمنين الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان، فلا تؤثر فيهم الأهواء، ولا زخارف الدنيا ولا قصورها الفانية ولا يؤثر فيهم ضلال الضالين ولا عتو الجبارين، فضرب الله لذلك مثلاً بأسية امرأة فرعون التي أبت ألاّ تعبد إلا الله وقد كانت تحت سلطان فرعون أعدى أعداء الله فطلبت من ربها القرب، وزهدت بقصور الدنيا ونعيمها، وآثرت جوار الله تبارك وتعالى بأن سألت ربها أن يبني لها بيتاً في الجنة، وينقذها من فرعون وسلطان الغشوم وينقذها من أتباع فرعون الطاغين المعتدين، فاستحقت أن تكون مثلاً وانموذجاً رائعاً للزهد في متاع الدنيا، والصبر والثبات على الدين، ومن ثم استحققت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد الذي تردد كلماته في جنبات هذا الكون آناء الليل وأطراف النهار^(٢).

(١) التفسير الكبير ٥/ ٢٩٠، للإمام ابن تيمية، (ت ٧٢٨هـ)، تح د. عبد الرحمن عميرة، مط دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١ - ١٩٨٨ م.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن ٢٨/ ١٧٤.

الفصل الثالث

بيوت الطالحين

وفيه أربعة مباحث:

- المبحث الأول : بيوت الدنيا وهوانها على الله تعالى.
- المبحث الثاني : بيوت ثمود.
- المبحث الثالث : بيوت المنافقين.
- المبحث الرابع : الانتقام من اليهود وتخريب بيوتهم.

المبحث الأول

بيوت الدنيا وهوانها على الله تعالى

سنحلل في هذا المبحث قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١).

وستتعرف معاني الآيات المباركات من خلال النقاط الآتية:

أولاً: تحليل المفردات

(١) - ﴿وَمَعَارِجَ﴾ في اللغة: جمع مَعْرَجٍ وهو المَصْعَد، وأصل العروج: الارتقاء، يقال: عَرَجَ يَعْرِجُ عروجاً ومَعْرَجاً، والمَعْرَج: الطريق الذي تصعد فيه الملائكة، قال تعالى: ﴿تَعْرِجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ (٢) (٣).

﴿وَمَعَارِجَ﴾ في الغريب: هي المصاعد، وليلة المعراج سميت لصعود الدعاء فيها إشارة إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ (٤)، والعروج: ذهاب في صعود وعَرَجَ عَرُوجاً وَعَرَجَاناً: مشى مشي العارج، أي: الذاهب في صعود، كما يقال: درج: إذا مشا الصاعد في درجه (٥).

(٢) - ﴿وَزُخْرُفًا﴾ في اللغة: هو الذهب ثم يشبه به كل مموه مزور، والمزخرف: المزين، وزخارف الماء: طرائقه (٦).

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٣ - ٣٥.

(٢) سورة المعارج، الآية: ٤.

(٣) العين ٢٢٣/١، مقاييس اللغة مادة (عرج) ٣٠/٤.

(٤) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٥) المفردات: ٥٥٧.

(٦) ينظر: الصحاح مادة (زخرف) ١٣٦٩/٤، والمفردات: ٣٧٩.

وأما (الزخرف) في الوجوه والنظائر، فيأتي على ثلاثة أوجه هي^(١):

أ- الذهب، وذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ﴾^(٢) يعني من ذهب.

ب- الحسن، وذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾^(٣) يعني حسنها.

ج- تزيين، وذلك قوله تعالى: ﴿زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾^(٤) يعني تزيين من القول

يغرون به.

ثانياً: (الزخرف) عند المفسرين

جاء معنى ﴿وَزُخْرَفًا﴾ عند المفسرين بعدة معان منها:

أ- الذهب، قاله ابن عباس وقتادة والسدي^(٥).

ب- هو ما يتخذها الناس في منازلهم من الفرش والأمتعة والأثاث، قاله زيد بن أسلم^(٦).

ج- النقوش وأصله الزينة، قاله الحسن^(٧).

كل هذه المعاني التي ذكرها المفسرون يحتملها معنى الزخرف فتجمع كلها على معنى الزينة، وإن كمال الزينة يكون بالذهب.

ثالثاً: مناسبة الآيات

مناسبة الآيات لما قبلها: لما أجاب الله تعالى عن الشبهة التي ذكرها الكفار بناء على تفضيل الغني على الفقير بوجه آخر، وهو أنه تعالى بين أن منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيسة عند الله تعالى فقال: ﴿وَرَحِمْتُ رَيْكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، أكد هذا التهوين لحطام الدنيا فقال: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾^(٨).

(١) ينظر: الأشباه والنظائر: ٢٤٦ - ٢٤٧، إصلاح الوجوه والنظائر: ٢١٧.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.

(٣) سورة يونس، الآية: ٢٤.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

(٥) جامع البيان ٧/٢٥، لباب التأويل ١٣٤/٦، تفسير القرآن العظيم ١٢٧/٤.

(٦) جامع البيان ٧/٢٥، معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤١١/٤، الجامع لأحكام القرآن ٨٧/١٦.

(٧) فتح القدير ٥٥٥/٤، روح المعاني ٨٠/٢٥.

(٨) ينظر: التفسير الكبير ٢٢١/٢٧.

رابعاً - البلاغة في الآيات

تعرض الدكتور بكري بن شيخ أمين لأسلوب التقديم والتأخير في مفردات الآيات الكريمة فقال: ((نلاحظ في نظم الفقرة الأولى تقديماً كثيراً، فقد قدمت ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ على متعلقها مرتين، وقدم الجار والمجرور على متعلق ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ و﴿لِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ و﴿وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكُونُونَ﴾.

ماذا يعني هذا التقديم في الأسلوب؟ إن البلغاء يقولون: التقديم ملازم للتخصيص، وهو طريق من طرق القصر وفائدته تكون في لفت النظر وتأکید المعنى والتأثير في النفس، والجمال التعبيري.

جَرَّبَ جملتين أن تضع كلاً في موضعه الأصل فتؤخر ما يجب تأخيره وتقدم ما يجب تقديمه حسب القواعد النحوية، إنك ستقول:

(لجعلنا لمن يكفر بالرحمن سقفاً من فضة لبيوتهم ومعارج يعرجون عليها، وأبواباً لبيوتهم، وسرراً يتكثون عليها).

عد إلى القرآن من جديد، واقرأه بصوت عال، واقرأ ما جئت به بصوت عال وكرر هذا وذاك إنك ستصل في آخر المطاف إلى الاعتراف بأن النظم القرآني بلغ من الروعة ما لا حد له^(١).

خامساً: الإعراب والقراءات

[١] - الإعراب:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ﴾، ﴿أَنْ﴾ في موضع رفع و﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ سُقُفًا ﴿فَفِي بُيُوتِهِمْ﴾ عدة أقوال منها أن المعنى: على بيوتهم وقيل: إنه بدل باعدة الحرف مثل قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ (٢) (٣).

(١) التعبير الفني في القرآن: ٢٧٧ - ٢٧٨، د. بكري شيخ أمين، دار الشروق - بيروت، ط ١ - ١٩٧٣ م.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٥.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣١.

قال أبو جعفر النحاس: ((وهذا القول أولى بالصواب؛ لأن الحروف ولا تنقل عن بابها إلا بحجة يجب التسليم لها))^(١).

وقوله: ﴿مِنْ فَضَّةٍ﴾ يجوز أن يتعلق بالجعل وأن يتعلق بمحذوف صفة لسقف، وهل أن قوله: ﴿مِنْ فَضَّةٍ﴾ شامل للمعارج والأبواب والسرر؟ فقال الزمخشري: نعم، فإنه يرى تشريك العطف مع المعطوف عليه في قيوده.

وقوله: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ يجوز أن يكون منصوباً بـ ﴿جَعَلَ﴾ أي: وجعلنا لهم زخرفاً، وجوز الزمخشري أن ينتصب عطفاً على محل ﴿مِنْ فَضَّةٍ﴾ كأنه قيل: سقفاً من فضة وذهب أي: بعضها كذا وبعضها كذا^(٢).

﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فلام للتوكيد عند البصريين، وعند الكوفيين بمعنى: إلا و(ما) زائدة للتوكيد، وعند بعض النحويين نكرة بمعنى: شيء. ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ رفع بالابتداء والتقدير: ثواب الآخرة عند ربك للمتقين^(٣).

[٢]- القراءات:

قرأ الجمهور: (سُقُفٌ) بضم السين والقاف، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وغيرهم بفتح السين واسكان القاف على الافراد، ومعناه الجمع لكونه للجنس أما من فتح السين فإنه أراد التوحيد أي: سقف واحد، ومن ضمها فإنه أراد بذلك الجمع، وحجته أنه واقع بين اللفظين في قوله: ﴿وَمَعَارِجَ﴾ وقوله: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا﴾ ولم يقل: باباً وسريراً^(٤).

وقرأ أبو رجاء العطاردي وطلحة بن مصرف (معاريج) على الجمع^(٥) ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَاةَ﴾ قرأ الجمهور (لما) بالتخفيف وقرأ عاصم وحمرزة وهشام بخلف عنه بتشديد الميم، وهي عندهم بمعنى: ما النافية، ومن خفف فقد جعل (ما) صلة

(١) إعراب القرآن للنحاس ١٠٧/٤.

(٢) الدر المصون ٩٧/٦، وينظر: الكشف ٢٤٩/٤ - ٢٥٠.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١٠٩/٤.

(٤) ينظر: الروضة في القراءات: ٧٥٥، حجة القراءات لابن زنجلة: ٦٤٩، والكنز: ٢٣٥.

(٥) مختصر في شواذ القراءات: ١٣٥، البحر المحيط ١٥/٨.

ولم تعمل لأنها خفت ومن ثم زال شبهها بالفعل^(١).

سادساً: وجه ارتباط الآيات مع قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ يَتٌ مِّن زُخْرٍ﴾^(٢)

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ يَتٌ مِّن زُخْرٍ﴾ هذه إحدى الآيات التي أنكر الكفار بها على رسول الله -ﷺ- نبوته حتى قالوا: ألم يكن عند الله إلا يتيم أبي طالب يجعله رسولا!! فهم عرفوه يتيما فقيراً، وهم باعتقادهم وتصورهم أن الرسالة والنبوة ينبغي أن تكون للشرفاء والأغنياء فاعترضوا بقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(٣) يعني من أغنياء مكة أو الطائف؛ لذا أنكروا أن يكون محمد بن عبد الله -ﷺ- اليتيم الفقير رسولاً، فقالوا له: لن نؤمن لك حتى تكون غنياً، ومن غناك أن يكون لك بيت مزين بالذهب فيه الخدم والحشم وتحيطه البساتين التي تفجر الأنهار خلالها تفجيراً^(٤).

وهذه الاعتراضات والأباطيل رأسها حب الدنيا والخلود فيها والتمسك بنعيمها، وهذا شأن الكفار، فكان الرد عليهم بهذه الآية واضحاً وجلياً بأن متاع الدنيا وبهرجها ليس له وزن عند الله تبارك وتعالى ولو شاء لأعطاه بحذافيره إلى من هو شر الخلائق وأبغضهم لله، وبذلك يقول رسول الله -ﷺ-: «ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها قطرة أبداً»^(٥).

سابعاً: الحكمة من الآيات

إن المتدبر لقول الله تبارك وتعالى في هذه الآيات يتبين له أنها سيقّت لبيان حقارة الدنيا وهوانها على الله تعالى، وأن منافعها حقيرة وخسيسة لا تعدل عند الله شيئاً وما هي إلا تعجيل لنصيب الكفار في هذه الحياة الدنيا، ولولا أن يرغب الناس في الكفر إذا رأوا الكافر في سعة من الخير والرزق لأعطى سبحانه وتعالى الكافر أكثر الأسباب

(١) ينظر: المبسوط: ٣٣٥، والتيسير: ١٩٦، وغاية الاختصار: ٦٥٢، وحجة القراءات لابن زنجلة:

٦٤٩، والاقناع ٢/٧٦٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٣.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

(٤) ينظر: لباب التأويل ٦/١٣٣ - ١٣٤، وتفسير القرآن العظيم ٤/١٢٦ - ١٢٧، والتفسير الواضح

٣٨/٢٥.

(٥) سنن ابن ماجه ٢/١٣٧٧ [كتاب الزهد - باب مثل الدنيا] برقم ٤١١٠.

المفيدة للتعمق ومنها:

أ- أن يكون سقف بيوتهم من فضة.

ب- أن تكون المعارج التي يصعدون عليها على السطوح من فضة.

ج- أن يجعل لهم زينة في كل شيء.

د- أن يجعل لبيوتهم أبواباً من فضة وسراً أيضاً من فضة عليها يتكئون.

قال ابن زيد: لولا أن يختار الناس دنياهم على دينهم لجعلنا هذا لأهل الكفر، ثم قال الحسن: والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها، وما فعل ذلك فكيف لو فعل!

فكراهية الاجتماع على الكفر وعلى متاع الدنيا هي المانعة من تمتع كل كافر، والبسط عليه لا أن المانع كون متاع الدنيا له قدر عند الله تبارك وتعالى، وما كل ما ذكر من البيوت الموصوفة بالصفات المفصلة إنما ذلك من متاع الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة يتمتع بها الكافر^(١)، وعن المستورد بن شداد قال: كنت في الركب الذين وقفوا مع رسول الله -ﷺ- على السخلة الميتة فقال رسول الله -ﷺ-: «أترون هذه هانت على أهلها حين ألقيوها؟ قالوا: من هوانها القوها يا رسول الله، قال: فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها»^(٢).

وما أعده الله لعباده المؤمنين المتقين في الآخرة من الجنة ومساكنها ونعيمها خاص بهم لا يشاركهم فيه أحد، ولهذا لما قال سيدنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لرسول الله -ﷺ- حين صعد إليه في تلك المشربة لما ألى -ﷺ- من نسائه فرأى أثر الحصر قد أثر بجنبه فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال يا رسول الله، إن كسرى وقیصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله -ﷺ-؟، فاستوى جالساً ثم قال: «أَوْفَى شُكْ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَابِ! أَوْلَئِكَ قَوْمٌ عَجَلَتْ لَهُمْ طَبِيبَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»، وفي رواية: «أما ترضى أن تكون لهما الدنيا ولك الآخرة»^(٣) وفي الصحيحين وغيرهما عن رسول الله -

(١) ينظر: جامع البيان ٦٨/٢٥، والكشاف ٢٥٠/٤، والتفسير الكبير ٢٧/٢١١، والجامع لأحكام القرآن ٨٤/١٦، وروح المعاني ٧٩/٢٥.

(٢) سنن ابن ماجه ١٣٧٧/٢ [كتاب الزهد - باب مثل الدنيا] برقم ٤١١١، سنن الترمذي ٥٦٠/٤ [كتاب الزهد - باب ما جاء في هوان الدنيا] برقم ٢٣٢١، قال أبو عيسى حديث حسن.

(٣) مسلم ١١١٠/٢، ١١١٣ [كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء، وتخيرهن] برقم ٣١، ٣٤.

ﷺ- «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»^(١).

ثامناً: البيوت الحديثة والمعجزة القرآنية

إن من أسرار القرآن العظيم وخلوده أنه أخبر عن أشياء لم تحدث وقد حدثت كما حققها الواقع، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ﴾ برهان ساطع على صدق القرآن فهو أخبر في الماضي عندما كان الناس يعيشون ويسكنون في بيوت الشعر وبيوت الخشب والطين عن معجزة قرآنية يراها القاصي والداني في الحاضر إذ ظهرت ناطحات السحاب والسلالم الكهربائية التي تصعد بالناس إلى مئة طابق أو أكثر في وقت قصير، وهنا يتبين سر قوله تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ وما كان يخطر ببال أحد الصعود إلى مئة طابق أو أكثر قبل اكتشاف الكهرباء واختراع المصاعد الكهربائية، وقد نبأ رسول الله ﷺ - قبل أربعة عشر قرناً من الزمان بهذه الأبنية الحديثة المسماة: (ناطحات السحاب) حين قال: «وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»^(٢).

تاسعاً: ما يستفاد من الآيات

أفادت الآيات بعض الفوائد منها:

- (١)- التزهيد في الدنيا وزينتها والتحريض على التقوى^(٣).
- (٢)- إن القدر الذي جعل عند الكفار من الدنيا وعند بعض المؤمنين من الأغنياء إنما هو فتنة لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾^(٤) (٥).
- (٣)- استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن السقف لا حق فيه لرب العلو؛ لأن الله

(١) البخاري ٢٣٠/١١ [كتاب الأشربة - باب آنية الفضة] برقم ٥٦٣٣، مسلم ١٦٣٧/٣ [كتاب اللباس والزينة - باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة] برقم ٢٠٦٧.

(٢) ينظر: قيس من نور القرآن الكريم ٥٢/١٢ - ٥٣، لمحمد الصابوني، مط دار القرآن الكريم، بيروت، ط ٤ - ١٩٩٨م، والحديث جزء من حديث طويل أخرجه مسلم ٣٣٦/١ - ٣٣٨ [كتاب الإيمان - باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان] برقم ٨.

(٣) روح المعاني ٨٠/٢٥.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢٠.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١٦٨٢/٤.

تعالى جعل السقوف للبيوت كما جعل الأبواب لها^(١).

(٤)- تبين أن العظيم هو العظيم في الآخرة لا في الدنيا^(٢).

(٥)- تقرير بأن كل ما يمكن أن يتمتع به الكفار من بهارج الدنيا وزخارفها وذهبها وفضتها ليس إلا متاعاً قصير الأمد قاصراً على الدنيا وأن المتعة الحقيقية إنما هي متعة الآخرة للمتقين عند الله؛ لأنها المتعة الخالدة^(٣).

عاشراً: المعنى العام

هذا بيان للناس جلي واضح لحقارة الدنيا وهوانها على الله تبارك وتعالى ومن هوانها أن الله يعطيها لمن يحب ولمن لا يحب، ولولا أن يرغب الناس لحبهم الدنيا في الكفر إذا رأوا الكفار متنعمين لأعطى الله تبارك وتعالى الكفار ومنحهم كل مقومات الحياة السعيدة وجعل لبيوتهم سقوفاً ومصاعداً وأبواباً وسراً كلها من فضة وذهب، ويجعل أثاثهم ومتاعهم مزينة ومزخرفة تتناسب مع كل زمان ومكان، وإن عرض الحياة الدنيا الذي ضرب الله له بعض الأمثال من المال والزينة والمتاع جعله الله فتنة للكثيرين، وتكون الفتنة أشد حين يرونها في أيدي الفجار يتمتعون به، ويتفاخرون ويرون أيادي الأبرار خالية، والله تعالى يعلم وقع هذه الفتنة في نفوس الناس ولكنه يكشف لهم عن زهادة الدنيا وهوانها عليه، ويكشف لهم كذلك عن نفاسة ما يدخره للأبرار الاتقياء في الآخرة من النعيم الدائم حيث لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر^(٤).

(١) ينظر: أحكام القرآن، لابن العربي ٤/١٦٨٢، والجامع لأحكام القرآن ١٦/٨٥، وروح المعاني ٨٠/٢٥.

(٢) إرشاد العقل السليم ٥/٤٤، حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الرازي على تفسير البضاوي ٧/٤٤٢ لأحمد بن محمد بن شهاب الدين (ت ١٠٦٩هـ)، دار صادر - بيروت.

(٣) التفسير الحديث ٥/٢١١.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن ٢٥/٣٣٢.

المبحث الثاني بيوت ثمود

تمهيد

ثمود قبيلة من العرب كانت تسكن الجِجْر، وهو المعروف بوادي القرى بين المدينة والشام، ويعرف اليوم بمدائن صالح على الطريق من خيبر إلى تبوك، وهم من ولد سام بن نوح - عليه السلام - وكانوا خلفاء لقوم عاد بعد أن أهلكهم الله تعالى، فورثوا أرضهم وديارهم، فعاشوا في رفاهية ورخاء، وفي أمن وهناء، ينتقلون بين الرياض النضرة والبساتين الزاهية والقصور العالية وغمرتهم الخيرات، ولكنهم لم يشكروا الله ولم يعرفوا قدر نبيهم الذي أرسل إليهم وهو سيدنا صالح - عليه السلام - فأهلكهم الله وخرّب ديارهم وقصورهم وجعلهم عبرة لمن يعتبر ونجّى الله صالحاً والذين آمنوا معه فأصبحت ثمود بعد ذلك في عداد الأمم البائدة^(١).

وستتعرف في هذا المبحث بيوتهم ومآلهم من خلال الآيات الأربع الآتية:

(١) - قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاتَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٢).

(٢) - قال تعالى: ﴿وَكَاُنُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾^(٣).

(١) ينظر: الكشف ١٢٠/٢، ومعجم البلدان ٢٢١/٢، للشيخ شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، (ت ٦٢٦هـ)، مط دار صادر للطباعة والنشر - بيروت، ١٩٥٦م.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٧٤.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٨٢.

(٣) - قال تعالى: ﴿وَنَجِّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُّوْتًا فَرِهِينَ﴾^(١).

(٤) - قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ يُّوْتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وسنحلل هذه الآيات من خلال المطلبين الآتين:

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٤٩.

(٢) سورة النمل، الآية: ٥٢.

المطلب الأول

تذكير قوم ثمود بنعمة الله تعالى في بيوتهم

وفيه فروع:

أولاً: معنى ﴿تَجْحُونُ﴾ و﴿فَدْرِهَيْنَ﴾ في اللغة

(١)- ﴿تَجْحُونُ﴾ في اللغة: النون والحاء والتاء كلمة تدلُّ على نجر شيء وتسويته بحديدة، ونحته ينحته بالكسر نحتاً، أي: براه، والنحتية: الطبيعة يريدون الحالة التي نحت عليها الانسان، وما سقط من المنحوت نحاتة^(١).

(٢)- ﴿فَدْرِهَيْنَ﴾ في اللغة: الفاء والراء والهاء كلمة تدل على أشر وحذق، من ذلك الفاره الحاذق بالشيء، والفره: الأشر^(٢)، وقيل: هو النشاط والخفة وفلان أفره من فلان، أي: أصبح، وجارية فرهاء، أي: حسناء^(٣).

ثانياً: الوجوه الواردة في الآيات عند المفسرين

ذكر المفسرون^(٤): إن عاداً لما أهليكت عمرت ثمود بلادها وخلفوهم في الأرض وكثروا وعمرُوا أعماراً طوالاً، حتى أن الرجل كان يبني المسكن المحكم فينهدهم في حياته، فنحتوا البيوت من الجبال وكانوا في سعة ورفاه من العيش.

فقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُوراً﴾ أي: تبنيون القصور من سهولة الأرض فإن القصور إنما تبنى من الطين واللبن والآجر، وهذه الأشياء إنما تتخذ من سهولة الأرض^(٥). وفسر الألوسي - رحمه الله - أن (من) بمعنى: في، كما في قوله تعالى:

(١) مقاييس اللغة مادة (نحت) ٤٠٤/٥ والصحاح مادة (نحت) ٢٦٨/١.

(٢) مقاييس اللغة مادة (فره) ٤٩٦/٤، وينظر: الصحاح مادة (فره) ٢٢٤٢/٦ - ٢٢٤٣.

(٣) المصباح مادة (فره) ٦٤/٢.

(٤) ينظر: معالم التنزيل ٢/٢٥٢، والكشاف ٢/١٢٠، والتفسير الكبير ١٤/١٦١.

(٥) معالم التنزيل ٢/٢٥٣، التفسير الكبير ١٤/١٦٤، لباب التأويل ٢/٢٥٣.

﴿إِذَا تُدْرِكُ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾^(١) فيكون المعنى: تبنون في سهولها قصوراً، وهو الذي رجحه الصاوي في حاشيته على الجلالين^(٢). ﴿وَتَنْجُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمَ﴾ كانوا ينقبون في الجبال البيوت، ففي الصيف يسكنون بيوت الطين، وفي الشتاء بيوت الجبل^(٣)، وقيل: كانوا لقوتهم، وصلابة أبدانهم، ينحتون الجبال، فيتخذون فيها كهوفاً يسكنون فيها؛ لأن الأبنية والسقوف كانت تفنى قبل فناء أعمارهم^(٤) وفي سورة الأعراف قال تعالى: ﴿وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ﴾ وفي غيرها ﴿مِنَ الْجِبَالِ﴾ لأن في هذا الموضع تقدمه قوله: ﴿مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ فاكتمى بذلك^(٥).

وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ لوثاقة البيوت واستحكامها أن تنهدم ويتداعى بنيانها، ومن نقب اللصوص، ومن الأعداء وحوادث الدهر، وقيل: آمنين من عذاب الله يحسبون أن الجبال تحميمهم منه^(٦)، وقيل: آمنين من الموت^(٧). قال ابن عطية: ((وأصح ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة، فكانوا لا يعملون بحسبها، بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها))^(٨).

أما قوله: ﴿فَرِهِينَ﴾ فاختلف أهل التفسير في تأويلها على اختلاف القراء في قراءتها، فعلى قراءتها ﴿فَرِهِينَ﴾ ذكر المفسرون فيها عدة وجوه منها:

- ١- حاذقين، قاله ابن عباس - رضي الله عنه -^(٩).
- ٢- كيّسين، وهو مروي عن الضحاك^(١٠).
- ٣- يتجبرون، قاله السدي^(١١).

(١) سورة الجمعة، الآية: ٩.

(٢) ينظر: حاشية الصاوي ٧٤/٢، وروح المعاني ١٦٣/٨.

(٣) الكشف ١٢٢/٢، لباب التأويل ٢٥٣/٢، فتح القدير ٢٢٠/٢.

(٤) معالم التنزيل ٢٥٣/٢، الجامع لأحكام القرآن ٢٣٩/٧، روح المعاني ١٦٤/٨.

(٥) أسرار التكرار في القرآن: ٨٥، محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، تح عبد القادر أحمد عطا، مط دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس.

(٦) الكشف ٥٨٧/٢، وينظر: جامع البيان ٥٠/١٤، وتفسير النسفي ٢٧٧/٢.

(٧) جامع البيان ٥٠/١٤، الجامع لأحكام القرآن ٥٣/١٠.

(٨) المحرر الوجيز ٣٤٨/٨، وينظر: البحر المحيط ٤٦٤/٥.

(٩) جامع البيان ١٠٠/١٩، الجامع لأحكام القرآن ١٢٩/١٣، تفسير القرآن العظيم ٣٤٣/٣.

(١٠) جامع البيان ١٠٠/١٩، معالم التنزيل ١٢٤/٥.

(١١) المصدران السابقان.

أما على قراءتها (فرهين) بغير الألف، فذكروا عدة وجوه منها:

١- أشرين، وهي رواية عن ابن عباس^(١).

٢- شرهين، قاله الحسن ومجاهد^(٢).

٣- معجيين بصنيعكم، قاله قتادة^(٣).

٤- أقوياء، مروى عن ابن زيد^(٤).

(٥)- فرحين، قاله الأخفش، والعرب تعاقب بين الهاء والحاء تقول: مدهته ومدحته^(٥)

وذكر الطبري - رحمه الله - أن القراءتين معروفتان مستفيضتان القراءة وبأيهما قرأ القارئ فمصيب، وأن معنى من قرأ: ﴿فَرِهَيْنَ﴾ يعني: حاذقين بنحتها متخيرين لمواضع نحتها كيسين من الفراهة ومعنى من قرأ: ﴿فَرِهَيْنَ﴾ يعني: مرحين أشرين^(٦).

ثالثاً: مناسبة الآيات

الآية الأولى:

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ نَتَّخِذُوكَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَنَجْعُوكَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَأَذْكُرُوا الْآلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

مناسبة الآية لما قبلها: بعد أن بين نبي الله صالح - عليه السلام - لقومه وظيفته، وكشف لهم عن معجزته، وهي الناقة، وأنذرهم بسوء العاقبة إذا ما خالفوا أمره، أخذ بعدها في تذكيرهم بنعم الله عليهم، وبمصائر الماضين قبلهم^(٧).

الآية الثانية:

قوله تعالى: ﴿وَكَاُنُوا يَتَّخِذُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾

(١) جامع البيان ١٩/١٠١، فتح البيان ٧/٤١.

(٢) جامع البيان ١٩/١٠١، معالم التنزيل ٥/١٢٣.

(٣) جامع البيان ١٩/١٠١، معالم التنزيل ٥/١٢٣.

(٤) جامع البيان ١٩/١٠١، البحر المحيط ٧/٣٥، فتح البيان ٧/٤١.

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٣/١٢٩، فتح البيان ٧/٤١.

(٦) جامع البيان ١٩/١٠١.

(٧) ينظر: التفسير الوسيط ٥/١٠٠.

مناسبة الآية لما قبلها: لما ذكر سبحانه وتعالى في الآيات السابقة تكذيب قوم صالح لرسولهم، ذكر سبحانه أن من مظاهر تكذيبهم أنهم كانوا يشاهدون آيات الله ويعرضون عنها، ولا يفكرون فيها لما كان عندهم من العتو والتكبر، فذكر سبحانه من مظاهر تكبرهم هو تطور حضارتهم، وتحصنهم في بيوتهم المنحوتة في الجبال فقال تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (١).

الآية الثالثة:

قوله - ﷻ -: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾

مناسبة الآية لما قبلها: بعد أن ذكر سبحانه وتعالى نصيح سيدنا صالح - ﷻ - لقومه وأمره إياهم بتقوى الله، أردف ذلك بذكر موعظته لهم بما يرقق القلوب، وبما يحمل العقلاء على شكر الله تعالى على نعمه، فلفت أنظارهم إلى ما يتقلبون فيه من نعم تشتمل على البساتين والعيون والزروع المتعددة، والنخيل الجيدة الطلع، اللذيذة الطعم، ثم أرشدهم في هذا الموضع إلى نعمة أخرى وهي نعمة بناء البيوت (٢).

رابعاً: الإسراف في بناء البيوت

استدل بقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْحِتُونَ مِنْ سُھُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ من أجاز البناء الرفيع كالقصور ونحوها، وبقوله - ﷻ - ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (٣)، وذكر أن ابناً لمحمد بن سيرين بنى داراً وأنفق فيها مالاً كثيراً فذكر ذلك لمحمد بن سيرين فقال: ما أرى بأساً أن يبنى الرجل بناءً ينفعه، وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إذا أنعم الله على عبد أحب أن يرى أثر النعمة عليه» ومن آثار النعمة البناء الحسن، والثياب الحسنة (٤).

وكره ذلك آخرون ومنهم الحسن البصري - ﷺ - وغيره، حيث أن الإسراف في البناء والتطاول فيه تفاخراً وتكاثراً من الأمور المذمومة التي ينبغي أن يتوقاها

(١) ينظر: التفسير الوسيط ٨/ ٨٦.

(٢) المصدر السابق: ١٠/ ٣٥٢.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٣٩، والحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٥/ ١٦٣.

المسلم، وقد أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «إذا تطاول رعاء البهم في البنيان فذاك من أشراطها»^(١)، وعن أنس - رضي الله عنه - : قال: مرّ رسول الله - ﷺ - بقبة على باب رجل من الأنصار، فقال: «ما هذه؟» قالوا: قبة بناها فلان، قال رسول الله - ﷺ - : «كل مال يكون هكذا، فهو وبال على صاحبه يوم القيامة» فبلغ الأنصاري ذلك فوضعها، فمرّ النبي - ﷺ - بعد فلم يرها فسأل عنها، فأخبر أنه وضعها لما بلغه عنك فقال: «يرحمه الله، يرحمه الله»^(٢).

قال القرطبي - رحمته الله - : ((وبهذا أقول لقوله - ﷺ - : «ما أنفق المؤمن من نفقة فإن خلفها على الله عز وجل إلا ما كان في بنيان أو معصية» وقوله - ﷺ - : «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يوارى عورته، وجلف الخبز والماء»^(٣)).

وهذا كله فيما لم يرد به وجه الله، أما إذا كان البناء لوجه الله كبناء مسجد فهو مثاب عليه مأجور، وكذلك إذا كان البناء لما لا بد منه لنفسه وللمن يعوله فلا حرج عليه في ذلك كمن بنى بيتاً له وللمن يعوله بقدر الكفاية وعلى الوجه اللائق به وبهم فهذا ليس بمذموم^(٤).

وذكر ابن حجر العسقلاني بعض الأحاديث الدالة على ذم البناء والتطاول فيه، ثم قال: ((وهذا كله محمول على ما لا تمس الحاجة إليه مما لا بد منه للتوطن وما يقي البرد والحر))^(٥).

والراجح عندي في هذه المسألة هو ما رجحه صاحب كتاب (المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم) العالم الجليل عبد الكريم زيدان - حفظه الله - حيث قال: ((إن الزهادة في الدنيا وعدم الغرور بها ولزوم التواضع والقناعة باليسير من لوازم

(١) مسلم ٣٩/١ [كتاب الإيمان - باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان] برقم ٥، وهو جزء من حديث طويل.

(٢) سنن ابن ماجه ١٣٩٣/٢ [كتاب الزهد - باب في البناء والخراب] برقم ٤١٦١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٣٩/٧، والحديثان الأول أخرجه الحاكم في المستدرک ٥٧/٢، والثاني أخرجه النسائي في سننه ٥٧١/٤ [كتاب الزهد - باب ما جاء في الزهادة في الدنيا] برقم ٢٣٤٠.

(٤) ينظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٢٦٤/١.

(٥) صحيح البخاري بشرح القسطلاني ٩٢/١١ - ٩٣، فتح الباري ٩٣/١.

الحياة... وما لا بد منه من البنيان، وعدم التفاخر بالمال والرياش والتناول بالبنيان، كل ذلك مرغوب شرعاً ومطلوب من المسلم الالتزام به، ولكن لو توسع المسلم فبنى له بيتاً واسعاً أكثر من حاجته ولم يجعل فيه محرماً ولا مكروهاً، ولم يشغله ذلك عما أوجبه عليه الإسلام ولم يخرج عن حدود المباح، ولكن مع هذا يبقى من ينفق فضول أمواله على غير التوسع في البنيان أي على ما ينفعه في الآخرة ويؤجر عليه فهذا يكون أولى مرتبة وأقرب إلى ما يحبه الله من ذلك الذي ينفق ماله في البنيان والتوسع فيه وإن لم يشغله عن واجبات الدين ولم يضع في بنيانه ما هو ممنوع شرعاً ولم يقصد ببنيانه التفاخر ولم يجره ذلك إلى الركون إلى الدنيا والاعتزاز بها^(١).

وروى أن الصحابي الجليل أبا الدرداء - رضي الله عنه - لما زار دمشق ورأى ما أحدث الناس من البنيان، ونصب الحدائق والبساتين قام في مسجدهم فنادى يا أهل دمشق، فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا تستحيون!! تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تسكنون وتأمّلون ما لا تدركون، إنه قد كان قبلكم قرون يجمعون فيوعون، وينون فيوثقون ويأملون فيطيلون فأصبح أملهم غروراً وأصبح جمعهم بوراً، وأصبحت مساكنهم قبوراً، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين؟^(٢).

فهذه موعظة عظيمة للتذكير بعدم الانشغال بالدنيا عن الآخرة، والانخداع بزينة الحياة وبهرجها الخداع، ولم يقصد - رضي الله عنه - ترك العمل وبناء البيوت وسكنها فإن هذا لا يحرمه أحد كما قاله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(٣).

خامساً: الإعراب والقراءات

[١] - الإعراب:

قوله تعالى: ﴿مِنْ سُئُولِهِمَا﴾ يجوز أن يكون حالاً من ﴿فَصُورًا﴾ ومفعولاً ثانياً لتتخذون، وأن تتعلق بتتخذون لا على أن تتخذون يتعدى إلى مفعولين بل إلى واحد،

(١) المفصل ٤٤١/٣ - ٤٤٢.

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم ٣/٣٤١.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

و(من) لا ابتداء غاية الاتخاذ.

﴿وَنَنْحِتُونَ الْجِبَالَ﴾ يجوز أن تكون ﴿الْجِبَالَ﴾ على إسقاط الخافض، أي: من الجبال فيكون ﴿يُوتًا﴾ مفعوله، ويجوز أن يتضمن ﴿نَنْحِتُونَ﴾ معنى ما يتعدى لاثنين، أي: وتتخذون الجبال بيوتاً بالنحت أو يصيرونها بيوتاً بالنحت، ويجوز أن يكون ﴿الْجِبَالَ﴾ هو المفعول به و﴿يُوتًا﴾ حال مقدرة، كما يقال: خط هذا الثوب جبة، أي: مقدراً له ذلك^(١).

وقوله تعالى: ﴿فَرِهَيْنَ﴾ هو حال من المضمر في تنحتون^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ يُؤْتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ (خاوية) نصب على الحال. ويجوز الرفع في ﴿خَاوِيَةً﴾ في الكلام من خمسة أوجه:

أ- أن تكون (بيوتهم) بدلاً من (تلك) و(خاوية) خبر البيوت.

ب- أن تكون (خاوية) خبراً ثانياً.

ج- أن ترفع (خاوية) على إضمار مبتدأ، أي: هي خاوية.

د- أن تجعل (خاوية) بدلاً من البيوت.

هـ- أن تجعل (بيوتهم) عطف بيان على (تلك) و(خاوية) خبر تلك^(٣).

[٢]- القراءات:

قوله تعالى: ﴿وَنَنْحِتُونَ﴾ قرأ الحسن (وتنحتون) بفتح الحاء وهي لغة، وفيه حرف من حروف الحلق فلذلك جاء على فعل يفعل، وكذلك قرأها (وتنحاتون) بإشباع الفتحة^(٤). وقرأ الأعمش (ولا تعثوا) بكسر التاء أخذاً من عثي يعثي لا من عثا يعثو^(٥).

وقوله تعالى: ﴿فَرِهَيْنَ﴾ قرأته عامة قراء أهل الكوفة وابن عامر (فارهيْن) وقرأته

(١) ينظر: إملاء ما من به الرحمن ٢٧٨/١ - ٢٧٩، والدر المصون ٢٩٣/٣.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٥٢٨/٢، إملاء ما من به الرحمن ١٦٩/٢.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٥٣٧/٢ - ٥٣٨.

(٤) مختصر في شواذ القراءات: ٤٤، المحتسب ٥/٢.

(٥) الكشف ١٢٢/٢، البحر المحيط ٣٢٩/٤.

عامة قراء أهل المدينة والبصرة (فرهين) بغير ألف، وعلى هذا الاختلاف يكون التفريق بالمعاني، (فمن أثبت الألف فإنه أراد حاذقين بما يعملونه، ومن حذفها فعلى معنى أشرين بطرين^(١)، وقرأها مجاهد (متفرهين)^(٢)).

سادساً: ما يستفاد من الآيات

أفادت الآيات الكريمة بعض الفوائد منها:

(١)- وجوب التذكير بنعم الله وهذا أسلوب جيد ينبغي لدعاة المسلمين استعماله في دعوتهم الناس إلى عبادة الله والتقيد بشرعه واستعمال ما آتاهم الله من مال ونعمة فيما يرضي الله تعالى لا فيما يسخطه^(٣).

(٢)- النهي عن الفساد في الأرض، والشرك، وارتكاب المعاصي^(٤).

(٣)- الحث على العمل لاستبقاء تلك النعم، بأن يشكروا الله عليها كما قال صاحب الحكم: ((من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها))^(٥).

سابعاً: المعنى العام

هذه الآيات الكريمة التي جاءت في سور متفرقة تبين لنا نصيح سيدنا صالح - عليه السلام - وتذكيره لقومه، بالتدبر والتذكر والنظر في مصائر الغابرين، والشكر على نعمة الاستخلاف بعد هؤلاء الغابرين، حيث أورثهم أرضهم وأنزلهم منازلهم، يجعلون بدل سهولها قصوراً زاهية ودوراً عالية، وكل ذلك بإلهام الله وبما أعطاهم من القوة، حيث أنهم من قوتهم وبراعتهم نحتوا في الجبال البيوت، فهذه حضارة عمرانية واضحة المعالم، فهم في رفاهية ورخاء وفي أمن واستقرار، ويتنقلون بين المروج النضرة والحدائق الزاهية، وقد غمرتهم الخيرات وتوفرت لهم أسباب العيش الرغيد،

(١) ينظر: الحجة لابن خالويه: ٢٦٨، والمبسوط: ٣٧٥، والنشر ٣٣٦/٢، والمغني ٩٩/٣.

(٢) جامع البيان ١٠٠/١٩.

(٣) المستفاد ١٩٠/١.

(٤) أيسر التفاسير ١٩٦/٢.

(٥) التحرير والتنوير ١٧٥/١٩، وينظر: حكم بن عطاء الله السكندري: ١٦٧، بشرح العارف بالله الشيخ أحمد زروق، تح الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، مط دار الشعب - القاهرة ١٩٦٩م.

فذكرهم نبيهم بهذه النعم وحثهم على شكر المنعم عليهم، وأن يستعينوا بهذه النعم على عبادة الله، ولا يشغلوا بالدنيا عن الآخرة، ولئلا تخدعهم زينة الحياة الدنيا الفانية، فينسوا العمل للآخرة فقال: ﴿فَاذْكُرُواْ ءَالَآءَ اللّٰهِ وَلَا تَنسَوْاْ فِي الْاَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

المطلب الثاني

تدمير بيوت ثمود عبرة لغيرهم

وفيه فروع:

أولاً: معنى: ﴿خَاوِيَةٌ﴾ و﴿ظَلَمُوا﴾

(١) - ﴿خَاوِيَةٌ﴾ في اللغة: من خَوِيَ الموضع يخوى خواءً وخُويًا: إذا خلا، وخوت الدار: تهدمت وسقطت، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾ أي: خالية، وقيل: ساقطة كما قال تعالى: ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾، وخوى النوء خُويًا إذا خلف فلم يمطر، وخوي جوفه يخوي خويًا إذا خلا^(١).

(٢) - ﴿ظَلَمُوا﴾ في اللغة: الظاء واللام والميم أصلان صحيحان: أحدهما خلاف الضياء، والآخر وضع الشيء في غير موضعه تعديًا، فالأول من الظلمة، والأصل الآخر ظلمه يظلمه ظلمًا، فيقولون: من أشبه أباه فما ظلم، أي: ما وضع الشبه في غير موضعه، والأرض المظلومة هي التي لم تحفر قط ثم حفرت، وذلك التراب ظليم، والظلامة: ما يطلب من مظلمتك عند الظالم^(٢).

(الظلم) في الغريب: هو وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة وإما بعدول عن وقته أو مكانه، والظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير، وفي الذنب الصغير^(٣).

(الظلم) في الوجوه والنظائر: يأتي على عدة وجوه منها^(٤):

(١) ينظر: جمهرة اللغة ١/١٧٣، والصحاح مادة (خوى) ٦/٢٣٣٣، والمصباح مادة (خوى) ١٠٠/١.

(٢) مقاييس اللغة مادة (ظلم) ٣/٤٦٨ - ٤٦٩، وينظر: المصباح مادة (ظلم) ٢/١٨.

(٣) المفردات: ٥٣٧، وينظر: نزهة القلوب ٢/٤٥ - ٤٦.

(٤) ينظر: الأشباه والنظائر: ١٢٠ - ١٢١، إصلاح الوجوه والنظائر: ٣٠٨ - ٣٠٩.

(١) - الشرك، فذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ (١)
يعني: بشرك.

(٢) - ظلم العبد نفسه بذنب يصيبه من غير شرك، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّعَعْدُوْهُنَّ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (٢).

(٣) - بمعنى: الذين يظلمون الناس، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٣).

(٤) - بمعنى: يضرون وينقصون أنفسهم من غير شرك، فذلك قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤).

ثانياً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: لما أمر تعالى بالنظر فيما جرى للظالمين من الهلاك في أنفسهم في قوله: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُّكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٥) بين ذلك بالاشارة إلى منازلهم، وكيف خلت منهم (٦).

ولما كان يتسبب عن دمارهم زيادة الهول والرعب بالاشارة إلى ديارهم لاستحضار أحوالهم واستعظامهم بعظيم أعمالهم قال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾ (٧).

ثالثاً: الإعراب والقراءات

[١] - الإعراب:

قوله تعالى: (خاوية) هو حال من البيوت، والعامل الإشارة (٨). والرفع من أربعة أوجه: أن تكون (بيوتهم) بدلاً من تلك و(خاوية) خبر الابتداء، وتكون (بيوتهم)

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٥٧.

(٥) سورة النمل، الآية: ٥١.

(٦) ينظر: البحر المحيط ٨٦/٧.

(٧) ينظر: نظم الدرر ١٧٩/١٤ - ١٨٠.

(٨) إملاء ما من به الرحمن ١٧٤/٢، الدر المصون ٣٢١/٥.

خبراً، (وخواوية) خبراً ثانياً كما يقال: هذا حلو حامض، وتكون (خواوية) على إضمار مبتدأ أي: هي خواوية، وتكون بدلاً من بيوتهم؛ لأن النكرة تبدل من المعرفة^(١). وقوله: ﴿يَمَا ظَلَمُوا﴾ متعلق بـ﴿خَاوِيَةٌ﴾ أي: بسبب ظلمهم^(٢).

[٢]- القراءات:

قوله تعالى: ﴿خَاوِيَةٌ﴾، قرأها عيسى بن عمر ونصر بن عاصم والجحدري: ﴿خَاوِيَةٌ﴾ بالرفع، ونصبها الجمهور على الحال، أما قراءة الرفع فقال عنها الزمخشري: بالرفع على خبر المبتدأ المحذوف^(٣).

رابعاً: الظلم سبب لخراب البيوت

استهدفت هذه الآية الكريمة تذكير كفار العرب وإنذارهم بما حل بقوم صالح - عليه السلام - الذين ذكرت قصتهم مع نبيهم في سورة هود والشعراء والنمل والأعراف وغيرها، وبلادهم تعرف اليوم بمدائن صالح وهي واقعة في طريق القوافل العربية من الحجاز إلى بلاد الشام.

فبيوتهم الخربة الخالية من أهلها المتهدمة علامة واضحة يشاهدها الكفار في ذهابهم وإيابهم تبين عاقبة الظالمين، فقال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّرَ لَكُمْ مِنْ مَسْكَنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾^(٤) ففي هذه الآية على ما قيل دلالة على أن الظلم يكون سبباً لخراب الدور، وروي عن ابن عباس - عليه السلام - أنه قال: أجد في كتاب الله تعالى أن الظلم يخرّب البيوت وتلا هذه الآية.

وفي التوراة: ابن آدم لا تظلم يخرّب بيتك، قيل: وهو إشارة إلى هلاك الظالم إذ خراب بيته متعقب هلاكه، ولا يخفى أن يكون الظلم بمعنى: الجور والتعدي على عباد الله تعالى سبباً لخراب البيوت مما شوهد كثيراً في هذه الأعصار، وهذه سنة الله

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢١٦/٣.

(٢) الدر المصون ٣٢١/٥.

(٣) جامع البيان ١٩/١٧٤، الكشف ٣/٣٧٣، الجامع لأحكام القرآن ١٣/٢١٨، البحر المحيط ٧/

٨٦.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٣٨.

في خلقه تظهر جليلة لكل دارس لتاريخ الدول، وأسباب سقوطها وانهارها، فالدول التي تصرّ على الظلم والفساد يهلكها الله في الدنيا بالضعف والشقاق وخراب العمران، فتزول منعتها ويتمزق شملها ويستولي عليها من يطمع فيها فيذيقها الهوان والذل.

فاقتضت الحكمة إهلاك أمثال هؤلاء دفعاً لفسادهم وإرشاداً لمن بقي إلى الصلاح، فهذه هي سنة الله مع الجبابة الطغاة الظالمين فالويل لهم إن لم يثوبوا إلى رشدهم ويؤمنوا بربهم ويقلعوا عن طغيانهم^(١).

خامساً: ما ورد في الشؤم من ديار الظالمين

روى البخاري عن ابن عمر -رضي الله عنه- (أن رسول الله -ﷺ- لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عجنّا واستقينا، فأمرهم رسول الله -ﷺ- أن يهريقوا الماء وأن يطرحوا ذلك العجين)^(٢).

وفي الصحيح عن ابن عمر -رضي الله عنه-: (أن الناس نزلوا مع رسول الله -ﷺ- على أرض الحجر أرض ثمود، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله -ﷺ- أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الابل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي تردها الناقة)^(٣).

وروي أيضاً عن ابن عمر قال: مررنا مع رسول الله -ﷺ- على الحجر فقال لنا رسول الله -ﷺ-: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم، ثم زجر فأسرع حتى خلفها»^(٤).

(١) ينظر: روح المعاني ٢١٥/١٩، والتفسير الحديث ١٣٨/٤ - ١٣٩، ومع الأنبياء في القرآن الكريم: ١٠٢، لعفيف عبد الفتاح طيارة، مط دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط ٧ - ١٩٧٩ م.

(٢) البخاري ٧٤/٧ [كتاب أحاديث الأنبياء - باب قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾] برقم ٣٣٧٨.

(٣) البخاري ٧٥/٧ [كتاب أحاديث الأنبياء - باب قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾] برقم ٣٣٧٩.

(٤) مسلم ٢٢٨٦/٤ [كتاب الزهد والرقائق - باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين] برقم ٢٩٨٠.

ففي هذه الروايات عنه - عليه السلام - وأمره دليلاً على بغض أهل الفساد، وذم ديارهم وآثارهم، هذا وإن كان التحقيق أن الجمادات غير مؤاخذات لكن المقرون بالمحبيب محبوب والمقرون بالمكروه المبغوض مبغوض^(١). كما قال كثير:

أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب^(٢)
وكما قال قيس ليلي:

أمر على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدار
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا^(٣)

سادساً: المعنى العام

إنّ من تمام عدله سبحانه وتعالى وقسطه في حكمه أنه لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾^(٤).

وإن قوم صالح - عليه السلام - كانوا في نعمة وغبطة وهناء وسرور في مسكنهم وعيشتهم وما أغدق الله عليهم من النعم وما منحهم من القوة ولكنهم لم يشكروا المنعم وعتوا عن أمر الله وأفسدوا في الأرض وكذبوا نبيهم وتآمروا على قتله فانتقم الله منهم شر انتقام وجعلهم عبرة لمن اعتبر ولم يبق إلا بيوتهم التي أمست خراباً فكانت آية عظيمة تدل على قدرة الله جل وعلا وعلى انتقامه ممن جحد بآياته وكذب رسله^(٥).

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤٧/١٠.

(٢) نسبه القرطبي لكثير ولم أعر عليه في ديوانه، ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٤٧/١٠.

(٣) ديوان مجنون ليلي: ١٧٠، تح عبد الستار فراج، دار مصر ١٣٨٢هـ، وينظر: خزانة الأدب ولب باب لسان العرب على شواهد شرح الكافية ١٦٩/٢ - ١٧٠، للشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي، (ت ١٠٩٣هـ).

(٤) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم ٣٢٠/٢.

المبحث الثالث بيوت المنافقين

تمهيد

لما أعز الله تعالى الإسلام والمسلمين في المدينة بالأوس والخزرج وانتشر الإسلام في البيوت والعشائر، فلم يبق بيت فيها إلا ودخله الإسلام، أصبحت الدولة لأنصار هذا الدين، وشدّ منهم طائفة ممن كرهوا الإسلام وأهله، إلا أن هذه الطائفة لم يكن في ميسورها أن تقاوم بالقوة دولة الإسلام فاضطروا إلى التظاهر بالإسلام على كره منهم وهم يضمرون الحقد والعداء ويتربصون بالرسول والصحابة الدوائر، وكان على رأس هؤلاء عبدالله بن أبي بن سلول.

ولما كان خطر هذه الفئة على دولة الإسلام عظيماً وبلاؤهم على المسلمين جسيماً، مع خفاء حقيقتهم حيث يتسترون بالإيمان فيكيدون للمؤمنين من مآمنهم ويغدرون بهم بعدما يظهرون لهم الأخوة والمودة كشف الله سبحانه أمرهم وهتك أستارهم وأوضح للأمة خطرهم حتى يكونوا منهم على حذر، فمن أهم صفات هذه الطائفة إتصافهم بالجبن والخوف والخلود إلى البيوت لأدنى مداهمة أو خطر، وهذا ما بيته الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَبْأَهْلَ يَثْرَبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (١).

وسنحلل الآية الكريمة من خلال النقاط الآتية:

أولاً: معنى ﴿عَوْرَةٌ﴾ في اللغة والغريب

(١) - ﴿عَوْرَةٌ﴾ في اللغة: من عَوَرَت العين تعار عواراً، وعورت واعورت يعني:

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٣.

ذهاب البصر منها، ويقال: كلمة عوراء لقبحها، وقيل للسوء عورة؛ لقبح النظر إليها، وكل شيء يستره الانسان أنفة وحياء فهو عورة، والنساء عورة والعورة في الثغور والحروب والمساكن: خلل يُتخوف منه القتل، ومنه ثغر مُعور: لا أحد يحميه، وشيء معور: ليس له من يحفظه وأعور المكان وغيره، وعور عوراً: صار ذا عورة، وفي التنزيل: ﴿إِنَّ يُوْتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: ليست بحريزة^(١).

ثانياً: الوجوه الواردة في الآية عند المفسرين

وردت عن المفسرين الوجوه الآتية:

(١)- في قول المنافقين: ﴿يَتَأْهَلُ يَثْرَبَ﴾ أن يثرب هو اسم المدينة المطهرة، وقيل: اسم بقعة وقعت المدينة في ناحية منها، وكأن المنافقين ذكروها بذلك الاسم لأمر منها:

أ- مخالفة له - عليه الصلاة والسلام - لما علموا من كراهيته - ﷺ - لهذه اللفظة فكأنه كرهها لما فيها من التثريب وهو التقرع والتوبيخ^(٢).

ب- لِبَثَّ الفرقة بين المهاجرين والأنصار ونبذ ما بين الفريقين من موثيق إذ إن المهاجرين في جيش المسلمين ليسوا من أهل يثرب فكان النداء بقولهم: ﴿يَتَأْهَلُ يَثْرَبَ﴾^(٣).

ج- تذكير الأنصار بالعهد القديم فاختاروا هذا الاسم القديم دون ذكر أي صفة تتعلق بالرسول - ﷺ - ومن معه، فهم يعنون به ذهاب الإسلام من المدينة^(٤).

(٢)- في قولهم: ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ أي: لا موضع إقامة لكم، أي: عند النبي - ﷺ - في مقام المراقبة فارجعوا إلى منازلكم بالمدينة، ومرادهم الأمر بالفرار لكنهم عبروا عنه بالرجوع ترويحاً لمقالتهم وإيداناً بأنه ليس من قبيل الفرار المذموم،

(١) ينظر: العين ٢/٢٣٥ - ٢٣٦، والمخصص ١/١٣٨، لأبي الحسن علي بن إسماعيل المعروف - بابن سيده (ت ٤٥٨هـ)، مط دار الفكر، والمصباح مادة (عور) ٢/٤٦.

(٢) لباب التأويل ٥/٢٤٣، إرشاد العقل السليم ٤/٢٠٥.

(٣) ينظر: روح المعاني ٢١/١٦٠، ولغة المنافقين في القرآن ٢/٧٦، للدكتور عبد الفتاح لاشين، مط دار الرائد العربي بيروت - لبنان، ط ١ - ١٩٨٥ م.

(٤) لغة المنافقين ٢/٧٦.

وقيل المعنى: لا قيام لكم على دين محمد ﷺ - فارجعوا إلى ما كنتم عليه من الشرك أو فارجعوا عما كنتم عليه وسلموه إلى أعدائهم، أو لا مقام لكم في يثرب لغلبة الأعداء فارجعوا كفاراً ليتسنى لكم المقام فيها لارتفاع العداوة حينئذ.

وذكر آلوسي وجوهاً أخرى بعضها بعيد جداً، والوجه الأول الذي ذكرناه هو الأظهر والأنسب لما بعده^(١).

(٣) - في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفِذُّ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ التعبير بالمضارع للإشارة إلى أنهم يلحون في الاستئذان ويكررونه ويجددونه لأجل الرجوع إلى البيوت والسكون مع النساء^(٢). كما أنه يفيد استحضر الصورة وكأنها حاضرة^(٣) والقول الذي قاله المنافقون ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ فهذا اعتذار أن بيوتهم معرضة للعدو وممكنة للسراق لأنها غير محرزة ولا محصنة فاستأذنوه ليحصنوها ثم يرجعوا إلى المعسكر.

وجاءت (العورة) مصدر ووصفت به البيوت للمبالغة في الخلل وهذا هو الأنسب في الاعتذار حيث أن ذلك يصور بيوتهم بأنها الخلل نفسه، فأكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ وبين قصدهم وما تكن صدورهم وهو الفرار بسبب الخوف^(٤).

ثالثاً: أسباب النزول

قال الماوردي حاكياً عن النقاش أن هذه الآية: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَافِيَةُ﴾ نزلت في قبيلتين من الأنصار من بني حارثة وبني سلمة، هموا أن يتركوا مراكزهم يوم الخندق وفيهم نزلت قبل ذلك: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَافِيَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾^(٥) وكان ذلك يوم أحد وليس يوم الخندق، وأشار الطبري إلى ذلك حين قال في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ﴾^(٦) نزلت في بني حارثة لما كان

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم ٢٠٥/٤، وروح المعاني ١٦٠/٢١.

(٢) ينظر: السراج المنير ١٨٦/٣، والتحرير والتنوير ٢٨٥/٢١.

(٣) إرشاد العقل السليم ٢٠٥/٤.

(٤) ينظر: الكشاف ٥٢٨/٣، والتفسير الكبير ٢٥٠/٢٥، وروح المعاني ١٦٠/٢١.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٢٢.

(٦) سورة الأحزاب، الآية: ١٥.

من فعلهم في الخندق بعد الذي كان منهم يوم أحد، وهم الذين هموا أن يفشلوا مع بني سلمة ثم عاهدوا الله لا يعودون لمثلها^(١).

رابعاً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: لما ذكر سبحانه وتعالى ما هو الأصل في نفاق المنافقين وهو التكذيب، أتبعه ما تفرع عليه، ولما كان تخذيلهم بالترجيع مرّ عبر عنه بالماضي بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ^(٢)﴾.

أما مناسبة الآية لما بعدها: لما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أردف بعدها بتفنيد عذرهم الواهي فرجوعهم ليس لحفظ البيوت؛ لأن من يريد أن يفعل فعلاً لغرض فيفوته ذلك الغرض لا يفعله، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ^(٣)﴾.

خامساً: الإعراب والقراءات

[١]- الإعراب:

﴿يَتَرَبَّ﴾: وهو ممنوع من الصرف للتعريف ووزن الفعل، وفيه التأنيث.
﴿يَقُولُونَ﴾: في محل نصب حال، وهي مفسرة ليستأذن^(٤)، و﴿إِنْ بُيُوتَنَا عَوْرَةً﴾ أي: ذات عورة، فهو اسم فاعل، ويجوز أن يكون مصدرًا في موضع اسم الفاعل كما يقال: رجل عدل، أي: عادل^(٥).
وقوله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ في محل نصب حال، وجملة ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ لا محل لها اعتراضية أو تعليلية^(٦).

[٢]- القراءات:

قرأ حفص عن عاصم: ﴿مَقَامٍ﴾ بالضم والباقون بالفتح وحجته: أنه جعلها من

(١) النكت والعيون ٣/٣١٠، وينظر: جامع البيان ٢١/١٣٧، والجامع لأحكام القرآن ١/٤٠٠، ولباب النقول: ٥٤.

(٢) نظم الدرر ١٥/٣٦٠.

(٣) ينظر: زاد المسير ٦/٣٦١، واللباب ١٥/٥١٧.

(٤) إملاء ما من به الرحمن ٢/١٩١.

(٥) ينظر: مشكل إعراب القرآن ٢/٥٧٣.

(٦) الجدول في إعراب القرآن ١١/١٣٦.

الإقامة، أما حجة الباقيين: فعلى أنه اسم للمكان^(١).

وقرأ ابن عباس وأبو رجاء العطاردي: ﴿عَوْرَةٌ﴾ فيها بكسر الواو أي: قصيرة الجدران يسهل دخول السراق عليها والباقيون بإسكانها، قال أبو الفتح: صحّة الواو في هذا شاذة من طريق الاستعمال وذلك أنها متحركة بعد فتحة، فكان قياسها أن تقلب ألفاً فيقال عارة^(٢).

سادساً: وجه ارتباط الآية بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾^(٣)

إن هذه الآية ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ هي أيضاً من الآيات التي جاءت متضمنة لصفة من صفات المنافقين الذميمة، وموقف من مواقفهم المخزية، وفاضحة لما تكن صدور المنافقين من الخوف والجزع وعدم الإيمان بقضاء الله وقدره فهم أصحاب عقيدة واهنة لا تثبت وجبن لا يملكون معه مقاومة.

فجاءت رداً على المنافقين كمعتب بن قشير ومن لف لفه من أتباع ابن أبي ابن سلول الذين يظنون بالله ظن الجاهلية، ويعتبرون أن خروجهم للجهاد مع رسول الله - ﷺ - كان سبباً في قتل من قتل منهم، فجاء الرد فيه مبالغة لرد مقالتهم الباطلة حيث لم يقتصر على تحقيق نفس القتل كما في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ﴾^(٤) بل عين مكانه ولا ريب في تعيين زمانه أيضاً بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾^(٥) فلو قعدتم أيها المنافقون الجبناء في بيوتكم، ولم تخرجوا للقتال مع رسول الله - ﷺ - لظهر الذين كتب الله عليهم القتل من بيوتهم إلى المواضع التي كُتب عليهم أن يُصرعوا فيها؛ لأن الله - جل وعلا - قدّر عليهم أن

(١) ينظر: معاني القرآن للزجاج ٢١٩/٤، والحجة لابن خالويه: ٢٨٩، والكثر: ٢١٩، وسراج القارئ: ٢٩٩.

(٢) ينظر: المحتسب ١٧٦/٢، والجامع لأحكام القرآن ١٤٨/٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٤) سورة النساء، الآية: ٧٨.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

يموتوا قتلاً في تلك المواضع قبل أن يوجد لهم من العدم ولا راد لقضائه وقدره^(١).
فهذا وجه المناسبة والارتباط بين هذه الآية وآية الأحزاب وهو أن المنافقين يتصفون بالجبن الهالع الذي يدفعهم إلى التخلي عن الجهاد وتخذيل المؤمنين عنه أو الخوف من الموت والخلود إلى البيوت ليحتموا بها.

والمؤمن الصادق الإيمان لا يعرف الجبن، فالحرص على الحياة أو الجبن ليس من أسباب إطالة الأجل، والشجاعة والاقدام ليسا من أسباب تقصير الأجل، وبهذه العقيدة القوية اندفع الصحابة - عليهم السلام - في قتال الأعداء ومن بعدهم المسلمون الذين تم على أيديهم الفتح الإسلامي وكان لهم النصر في أغلب المعارك التي خاضوها. أما اليوم فقد تقاصرت همم المسلمين وضعفت نفوسهم حتى أصبحوا يهابون الاقدام على المخاطر ويفضلون الخلود إلى الراحة، وإذا برز منهم من يبذل نفسه وماله في سبيل الله فإنه يسمع من مجتمعه كلمات الاستنكار والتأنيب، وكأنهم يرون أنه لو أخلد إلى الراحة كما أخلد غيره لسلم من العواقب السيئة وصدق فيهم قول القائل: أخلد إلى غرفتك لا يأكلك الأسد.

والحقيقة أن هذه النظرة هي نظرة المنافقين والكفار الذين سماهم القرآن الكريم المثبتين لعزائم الرجال فلا هم يقاتلون ولا يتركون غيرهم يقاتل.

فالمسلمون اليوم بحاجة إلى تصحيح إيمانهم بقضاء الله وقدره حتى يواجهوا مصاعب الحياة بقوة وصبر حتى يجاهدوا في سبيل الله بعزم وإقدام وهم يعتقدون أن العبد لا يقربه من الموت مواجهة المشاق ولا تحمل الصعاب ولا يبعده القعود في المساكن والخلود إلى الراحة^(٢).

سابعاً: مقارنة بين الماضي والحاضر

يقول الأستاذ منير الغضبان تعليقاً على قول المنافقين على لسان طائفة منهم: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَبْأَهْلَ يُثْرَبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ إنه موقف صاخب من مواقفهم ينادي المنافقون فيه فريقاً من المؤمنين المرابطين بنداء الجاهلية محاولين

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم ٢٨٤/١ - ٢٨٥.

(٢) ينظر: الجهاد والنصر: ٤٤، للدكتور عبد الحليم محمود مط دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، والمنافقون في القرآن الكريم: ١٤١.

العودة بهم إلى الورا عدة سنين، متجاهلين عن عمد ما بناه الإسلام من النفوس وفي النفوس خلال تلك السنين، وهذا هاتف المنافقين في كل عصر يتجاوز هتاف السابقين، ويحاول بكل بساطة هدر عشرات القرون لا عدة سنين، والعودة إلى الجاهلية، وذكر أن بعضهم قال: لو كان محمد ومن معه لحماً لالتهمهم أبو سفيان ومن معه من الأحزاب، إنه التثييط والتخذيل، والتخويف، وهم اليوم على تلك الشاكلة أو أشد فيقولون: ما هو موقع العرب والمسلمين كذلك أمام القوة الأمريكية والأطلسية واليهودية وغيرها؟! وكم اندفعت وسائل الاعلام في تعظيم شأن تلك القوى الغاشمة حسبة للشيطان، ودون أن يطلب منها تلك المباركة والتزلف.

فارجعوا عن مواقعكم واتركوا النبي - ﷺ - في موقعه على الخندق، أو فارجعوا عن دينكم إلى ما كنتم عليه من الشرك قبل ذلك، فهم لا يسمون الأمور بمسمياتها، فالفرار يوم الأحزاب رجوع لما في هذا اللفظ من تلييس وتثييط، بل وتزيين للأذهان، وهم في هذا العصر يسمون الهزيمة نصراً لا رجوعاً، والخونة أبطالاً، ونسمع من وسائل الاعلام ألقاباً لمعارك المنافقين، وكأنها حقيقة وواقع لا غرابة، فالخضوع والاستسلام في معجم المنافقين هو المحافظة على مقدرات الأمة ومنجزاتها حتى لا تضيع على أيدي المتحمسين والمندفعين وربما أطلق عليهم غير تلك التسميات^(١).

ثامناً: المعنى العام

في هذه الآية الكريمة يمن الله سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين الصادقين بذكر النعم التي أنعم بها عليهم، ومن هذه النعم، أنه تعالى كفاهم شر المنافقين المخذلين لهم الذين لا يؤمنون بالقضاء والقدر، ولهذا فإنهم يخشون لقاء الأعداء في المعركة؛ لأنهم يخافون أن تداهمهم المنية فيخسروا حياتهم فيها هم في ساحة القتال وفي وقت الشدة تنكشف أوراقهم ويبين معدنهم فهم ينادون على أصحابهم بنداء يحوي كل معاني الخبث الذي يضمرونه في نفوسهم للإسلام والمسلمين حيث ينادونهم بالرجوع إلى بيوتهم وإلى ما كانوا عليه من الكفر ليسلموا من القتل وما علموا أن هذا الفرار لن ينفعهم في دفع القدر المحتوم سواء كان في الميدان أو على الأسيرة في البيوت.

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية: ٢٥٣ - ٢٥٤، لمنير محمد غضبان، مط مكتبة المنار الزرقاء - الأردن، ط ٣ - ١٩٩٠م.

ويستأذن طائفة من المنافقين النبي - ﷺ - حتى ينصرفوا من معسكر النبي - ﷺ - متذرعين بدعوى باطلة وغير صحيحة وهي قولهم: ﴿إِنَّ يُّوتَنَا عَوْرَةً﴾ فهم يدعون أنها غير محصنة وعرضة لهجوم الأعداء، أو اللصوص فهم يريدون الرجوع إلى بيوتهم لحمايتها، ويكذبهم القرآن ويجعل سرائرهم عارية من كل ستار، فبيوتهم محصنة ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ وما يريدون بهذا إلا الفرار من القتال ومقابلة الصعاب.

هؤلاء هم المنافقون كما صورهم القرآن الكريم، وفضح حيلهم وبين للمسلمين أكاذيبهم وما في نفوسهم من الكيد والبغض للمسلمين، وأمثال هؤلاء في كل زمان ومكان وفي كل عصر ومصر ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾^(١).

(١) سورة الحج، الآية: ١١.

المبحث الرابع الانتقام من اليهود وتخريب بيوتهم

سنحلل في هذا المبحث قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنزَلَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَأْأُولِ الْآبَصِرِ﴾^(١).

وستتعرف معاني هذه الآية الكريمة من خلال النقاط الآتية:

أولاً: تحليل المفردات

(١) - ﴿الرُّعْبَ﴾ في اللغة: الخوف، رعبت فلاناً رُعباً ورُعباً فهو مرعوب مرتعب، أي: فزع^(٢).

﴿الرُّعْبَ﴾ في الغريب: هو الانقطاع من امتلاء الخوف، يقال: رعبته فرعب رعباً، فهو رعب، ولتصور الامتلاء منه قيل رعبت الحوض: ملأته، وباعتبار القطع قيل: رعبت السنام: قطعت^(٣).

(٢) - ﴿يُخْرِبُونَ﴾ في اللغة: الخاء والراء والباء أصل يدل على الثلم والثقب، والخراب ضد العمارة^(٤)، يقال: أخرجوا البلاد وخربوها، وقد خربت خرباً وبلد خراب^(٥).

﴿يُخْرِبُونَ﴾ في الغريب: يقال: خرب المكان خراباً، وهو ضد العمارة، قال الله

(١) سورة الحشر، الآية: ٢.

(٢) العين ١٣٠/٢، وينظر: مقاييس اللغة مادة (رعب) ٤١٠/٢.

(٣) المفردات: ٣٥٦ - ٣٥٧.

(٤) مقاييس اللغة مادة (خرب) ١٧٤/٢.

(٥) أساس البلاغة: ١٠٦.

تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾^(١)، وقد أخربه، وخربه، قال الله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فتخريبهم بأيديهم إنما كان لثلاثا تبقى للنبي -ﷺ- وأصحابه، وقيل: كان بإجلالهم عنها^(٢).

(٣) - (الاعتبار) في اللغة: يكون بمعنى: الاختبار والامتحان مثل: اعتبرت الدراهم فوجدتها ألفاً، ويكون بمعنى الاتعاض نحو قوله تعالى: ﴿فَاعْتَرُوا يَدَافِرُ الْأَبْصَرِ﴾، كأنه قال: انظروا إلى من فعل ما فعل، فعوقب بما عوقب به، فتجنبوا مثل صنيعهم لثلاثا ينزل بكم مثل ما نزل بأولئك^(٣).

(الاعتبار) في الغريب: الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً﴾^(٤) (٥).

ثانياً: الوجوه الواردة في الآية عند المفسرين

وردت في الآية الكريمة عن المفسرين الوجوه الآتية:

في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ المراد بهم الذين جحدوا نبوة سيدنا محمد -ﷺ- من أهل الكتاب وهم بنو النضير (حي من اليهود)، وكان إخراجهم بتسليط الرسول -ﷺ- عليهم فأجلاهم من المدينة إلى خيبر، هذا الذي قاله قتادة^(٦).

وروي عن الحسن: أنهم بنو قريظة، وهذا الرأي مردود ووه؛ لأن بني قريظة ما حشروا وإنما قتلوا بحكم سعد بن معاذ -رضي الله عنه- وهذا ما اتفق عليه المفسرون^(٧).

﴿لَأَوَّلُ الْحَشْرِ﴾ معنى تسميته بأول الحشر فيه وجوه منها:

(١) - أن هذا أول حشر أهل الكتاب، أي: أول مرة حشروا وأخرجوا من جزيرة

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٤.

(٢) المفردات: ٢٧٧.

(٣) المصباح مادة (عبر) ٢٠/٢، وينظر: مقاييس اللغة مادة (عبر) ٢١٠/٤.

(٤) سورة النور، الآية: ٤٤.

(٥) المفردات: ٥٤٣.

(٦) جامع البيان ٢٨/٢٨.

(٧) الجامع لأحكام القرآن ٣/١٨، فتح القدير ٥/١٩٥، روح المعاني ٢٨/٣٨.

العرب، لم يصبهم هذا الذل من قبل؛ ذلك لأنهم كانوا أهل منعة وعز، وهذا قول ابن عباس والاكثرين^(١).

(٢)- أن هذا أول حشرهم، وأما آخر حشرهم فهو إجلاء سيدنا عمر - رضي الله عنه - إياهم من خير إلى الشام^(٢).

(٣)- وقيل معناه: أخرجهم من ديارهم لأول ما حشر لقتالهم؛ لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله - ﷺ -^(٣).

(٤)- أنه تعالى جعل إخراجهم من المدينة حشراً، وجعله أول الحشر، وأن آخر حشرهم حشر يوم القيامة؛ لأن المحشر يكون بالشام، وورد عن عكرمة: من شك أن المحشر ههنا - يعني الشام - فليقرأ هذه الآية^(٤) وهذا الرأي ضعفه الألوسي وابن عاشور إذ لا مناسبة له في هذه الآية^(٥).

وقوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ الخطاب للمؤمنين من أصحاب رسول الله - ﷺ - أي: ما ظننتم أن يخرج هؤلاء الذين أخرجهم الله من ديارهم من أهل الكتاب من مساكنهم ومنازلهم لشدة بأسهم ومنعتهم ووثاقة حصونهم وكثرة عددهم وعدتهم^(٦)، وفي ذكر هذا تعظيم للنعمة فإن النعمة إذا جاءت من حيث لا ترتقب كانت مكانتها في النفوس أعظم، وكانت بها أشد سروراً وابتهاجاً^(٧).

﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من سلطان الله، وكانت لهم ستة حصون وهي: الوطيط، والنطاة والسلالم والكُتبية والوخدة وشق^(٨).

قال الزمخشري: ((فإن قلت: أي فرق بين قولك: وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو

(١) ينظر: جامع البيان ٢٨/٢٨، ومعالم التنزيل ٥٧/٧، والتفسير الكبير ٢٧٨/٢٩.

(٢) ينظر: معالم التنزيل ٥٧/٧، والكشاف ٤٩٩/٤، والتفسير الكبير ٢٧٩/٢٩.

(٣) الكشاف ٤٩٩/٤، التفسير الكبير ٢٧٩/٢٩.

(٤) ينظر معالم التنزيل ٥٧/٧، والتفسير الكبير ٢٧٨/٢٩، وتفسير القرآن العظيم ٣٣٢/٤.

(٥) ينظر: روح المعاني ٤٠/٢٨، والتحرير والتنوير ٦٩/٢٨.

(٦) ينظر: جامع البيان ٢٩/٢٨، ومعالم التنزيل ٥٧/٧، والكشاف ٤٩٩/٤.

(٧) تفسير المراغي ٣٣/٢٨، وينظر: التفسير الكبير ٢٧٩/٢٩.

(٨) ينظر: معالم التنزيل ٥٧/٧، والجامع لأحكام القرآن ٣/١٨، والتحرير والتنوير ٦٩/٢٨.

مانعتهم، وبين النظم الذي جاء عليه؟ قلت: في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم؛ وفي تصوير ضميرهم إسمائاً لأن، وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم، وليس ذلك في قولك: وظنوا أن حصونهم تمنعهم^(١).

﴿فَأَنَّهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ فَأَتَاهُمُ أَمْرُ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا أَنْ يَأْتِيَهُمْ، وقيل: الضمير في: ﴿أَنَّهُمْ﴾ و﴿لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ للمؤمنين أي: فَأَتَاهُمُ نصر الله^(٢). والأول أولى لقوله: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ فَإِنْ قَذَفَ الرعب كان في قلوب بني النضير لا في قلوب المؤمنين^(٣).

والرعب وهو الخوف الذي ملأ صدورهم بنزول رسول الله - ﷺ - وقيل: بقتل رئيسهم كعب بن الأشرف غرة على يد أخيه، وذلك مما أضعف قوتهم وفل من شوكتهم، وسلب قلوبهم الأمن والطمأنينة بما قذف فيها من الرعب^(٤).

والأولى تفسير الرعب في هذه الآية بمسير رسول الله - ﷺ - الذي ثبت في الحديث الصحيح عنه أنه قال: «نصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر»^(٥) فكيف لا ينصر به مسيرة ميل من المدينة إلى محلة بني النضير، وهذه من خصائصه - ﷺ -^(٦).

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ذكر المفسرون في كيفية تخريب بيوتهم وجوهاً:

(١) - جعلوا يخربونها من أجوافها وجعل المؤمنون يخربون من ظاهرها، قاله قتادة^(٨).

(١) الكشف ٤/٤٩٩، وينظر: التفسير الكبير ٢٩/٢٧٩، وروح المعاني ٢٨/٤٠.

(٢) جامع البيان ٢٨/٢٩، وينظر: إرشاد العقل السليم ٥/١٩٤.

(٣) فتح القدير ٥/١٩٥، فتح البيان ٩/٣٤١.

(٤) جامع البيان ٢٨/٢٩، الجامع لأحكام القرآن ١٨/٣.

(٥) الكشف ٤/٤٩٩، وينظر: معالم التنزيل ٧/٥٧.

(٦) مسلم ١/٣٧٠ [كتاب المساجد ومواضع الصلاة] برقم ٥٢١.

(٧) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٦٥، والجامع لأحكام القرآن ١٨/٣، وتفسير القرآن العظيم ٤/٣٣٢.

(٨) جامع البيان ٢٨/٣٠، معالم التنزيل ٧/٥٧.

(٢)- عن الزهري: لما صالحوا النبي -ﷺ- كانوا لا يعجبهم خشبة إلا أخذوها فكان ذلك خرابها^(١).

(٣)- جعل المسلمون كلما هدموا شيئاً من حصونهم جعلوا ينقضون بيوتهم ويخربونها ثم يبنون ما يخرب المسلمون فذلك هلاكهم، قاله ابن عباس والضحاك^(٢).

(٤)- قال ابن زيد: كانوا يقلعون العمد وينقضون السقوف وينقبون الجدران ويقلعون الخشب حتى الأوتاد يخربونها لئلا يسكنها المؤمنون حسداً منهم وبغضاً^(٣).

(٥)- يخربون بأيديهم بنقض الموائد، وبأيدي المؤمنين بالمقاتلة، قاله الزهري^(٤) قال الزمخشري -رحمته الله-: ((فإن قلت ما معنى تخريبهم لها بأيدي المؤمنين؟ قلت: لما عرضوهم لذلك وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروهم به وكلفوهم إياه))^(٥).

ومن كل ذلك يتبين لنا أنهم كانوا سبباً في تخريب بيوتهم سواء كان باليد حقيقة أو بنقض العهد مجازاً.

﴿فَاعْتَبِرُوا يَكَاؤُلِيَ الْأَبْصَارُ﴾ فاتعظوا يا معشر ذوي الافهام بما أحل الله بهؤلاء اليهود الذين قذف الله في قلوبهم الرعب وهم في حصونهم، واعلموا أن الله ولي من والاه وناصر رسوله على كل من ناوأه، ومحل من نعمته به نظير الذي أحل ببني النضير وإنما عني بالابصار في هذا الموضع أبصار القلوب وذلك أن الاعتبار بها يكون دون الابصار بالعيون^(٦).

ثالثاً: أسباب النزول

قال المفسرون وأصحاب السير والمغازي^(٧): ان الآية نزلت في بني النضير وهم طائفة من اليهود، وجاء في الصحيحين عن ابن عباس قال: (سورة الأنفال نزلت في

(١) المصدران السابقان.

(٢) جامع البيان ٣٠/٢٨، وينظر: الكشف ٤٩٩/٤ - ٥٠٠.

(٣) معالم التنزيل ٥٧/٧، وينظر: الكشف ٥٠٠/٤، ولباب التأويل ٥٨/٧.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ١٧٦٦/٤.

(٥) الكشف ٥٠٠/٤.

(٦) جامع البيان ٣١/٢٨.

(٧) ينظر: الطبقات ٤٠/٢ - ٤١، لمحمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ)، بتصحيح أدوارد سخو، طبعة =

بدر وسورة الحشر نزلت في بني النضير^(١)، وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كانت غزوة بني النضير وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم ونخلهم في ناحية المدينة فحاصرهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى نزلوا على الجلاء وعلى أن لهم ما اقلت الابل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة - وهي السلاح - فأنزل الله فيهم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

رابعاً: مناسبة الآية

مناسبتها لما قبلها: في السورة التي قبلها قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾^(٢) فجاء الخطاب محققاً ما أراد بقوله: ﴿فَأَنزَلْنَاهُمْ إِلَهُ مِّنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾. وذكر في السورة التي قبلها حال المنافقين واليهود وتولي بعضهم بعضاً، وهنا ذكر ما حل باليهود وعدم إغناء تولى المنافقين إياهم شيئاً^(٣).

خامساً: الإعراب والقراءات

[١] - الإعراب:

قوله تعالى: ﴿لَأَوَّلُ الْحَشْرِ﴾ هذه اللام تتعلق بـ (خرج) وهي لام التوقيت كقوله: (لدلوك الشمس) أي: عند أول الحشر^(٤).

وقوله تعالى: ﴿مَّا نَعْتُهُمْ﴾ هو خبر إن، و﴿حُصُونُهُمْ﴾ مرفوع به، وقيل: هو خبر مقدم.

= مصورة عن مطبعة برلين - ليدن ١٣٢٥هـ، وجامع البيان ٢٨/٢٧ - ٢٨، والسيرة النبوية ٣/ ١٩٩-٢٠٠، لابن هشام، (ت ٣١٨هـ) تح مصطفى السقا وآخرين، مط دار العلم، بيروت - لبنان، والكشاف ٤/ ٤٩٨-٤٩٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٤٢، ولباب النقول: ٢٢٨-٢٢٩.

(١) البخاري ٩/ ١٩٦ [كتاب التفسير - باب قوله: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾] برقم ٤٦٤٥، ومسلم ٤/ ٢٣٢٢ [كتاب التفسير - باب سورة براءة والأنفال والحشر] برقم ٣٠٣١.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٢١.

(٣) ينظر: نظم الدرر ١٩/ ٤٠٦، وتناسق الدرر في تناسب السور: ٨٣.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٢٤٩، والدر المصون ٦/ ٢٩٢، واللباب ١٨/ ٥٦٢.

وقوله: ﴿يُخْرِتُونَ﴾ يجوز أن يكون حالاً وأن يكون تفسيراً للرعب فلا يكون له موضع^(١).

[٢]- القراءات:

قوله تعالى: ﴿الرُّعْبَ﴾ قرأها ابن عامر والكسائي وأبو جعفر بضم العين، وحجة من قرأ بالاسكان: أن الأصل عندهم هو الضم فثقل عليهم الجمع بين ضمتين فأسكن، وحجة من ضم: أن الأصل عنده الاسكان فاتبع الضم الضم، ليكون اللفظ في موضع واحد فهما لغتان^(٢).

وقرأ العامة: ﴿يُخْرِتُونَ﴾ بالتخفيف من أخرج، وقرأ أبو عمرو وقتادة ومجاهد وغيرهم: (يخربون) بالتشديد، وحجة من خفف، فقد أراد أنهم يرحلون منها، تقول العرب: أخرجنا المنزل إذا هم ارتحلوا عنه وإن كان صحيحاً، أما من شدد فقد أراد أنهم يهدمونها، تقول العرب: أخرجنا المنزل إذا هم هدموه وإن كان فيه مقيمين^(٣).

سادساً: الأسباب والمقاصد الداعية لتخريب الكفار لبيوتهم

لقد كان من يهود بني النضير مواقف عديدة ضد الإسلام وأهله تجاوزت مواقف الجدل والمناظرة في الدعوة، بل تجاوزت مواقف التشكيك والاستهتار والاستخفاف والطعن، وقد كانت محاولتهم إغتيال النبي -ﷺ- السبب المباشر لخراب بيوتهم وكان كعب بن الأشرف منهم، وكان شاعراً فكان يهجو النبي -ﷺ- والمسلمين بقصائده المقذعة، حتى أن النبي -ﷺ- انتدب المسلمين لاغتياله، فكانت كل هذه الأسباب مع غيرها يجمعها قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٤) فكانت العاقبة أن سلبهم الله أكبر نعمة وهي نعمة السكن في البيوت وملاً قلوبهم خوفاً وفزعاً وشردهم من ديارهم مكرهين، وجعلهم يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم^(٥).

(١) إملاء ما من به الرحمن ٢/٢٥٨.

(٢) ينظر: الحجة لابن خالويه: ١١٤، والحجة لأبي علي الفارسي ٢/٣٨٩، والإقناع ٢/٦٢٣، غيث النفع: ٧٧.

(٣) الحجة لابن خالويه: ٣٤٤، المبسوط: ٣٦٦، الكثر: ٢٤٩، المغني ٣/٢٩٥.

(٤) سورة الحشر، الآية: ٤.

(٥) ينظر: الطبقات لابن سعد ٢/٢١، ٤١، والسيرة النبوية لابن هشام ٣/٢٠١ - ٢٠٩، والسيرة النبوية ١١/٣، للإمام أبي الفداء اسماعيل بن كثير، تح مصطفی عبد الواحد، مط دار الرائد =

وأما مقاصد الكفار من تخريب بيوتهم فلثلاثة مقاصد وهي:

(١)- حاجتهم إلى الخشب والحجارة ليسدوا بها أفواه الأزقة ويحصنوا ما خربه المسلمون من الأسوار.

(٢)- ليحملوا معهم ما أعجبهم من الخشب والسواري وغير ذلك.

(٣)- حتى لا تبقى مساكنهم مبنية للمسلمين فهدموها شحاً عليهم^(١).

سابعاً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة بعض الفوائد منها:

(١)- قال الكيا الطبري: ((مصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير شيء لا يجوز الآن، وإنما كان ذلك في الإسلام ثم نسخ، والآن فلا بد من قتالهم أو سبيهم أو ضرب الجزية عليهم))^(٢).

(٢)- دلت الآية على أن الأمور كلها لله تعالى حيث أن وقوع الرعب في قلوب اليهود كان من الله -ﷻ-، وهذا الرعب صار سبباً في إقدامهم على بعض الأفعال^(٣).

(٣)- في الآية تشريف عظيم لرسول الله -ﷺ- فإنها تدل على أن معاملتهم مع رسول الله -ﷺ- هي بعينها نفس المعاملة مع الله تعالى^(٤).

(٤)- أفادت الآية أن الاعتماد يجب أن يكون على فضل الله ورحمته^(٥).

ثامناً: المعنى العام

إن هذه الآية الكريمة من سورة الحشر تحكي لنا انتقام الله تبارك وتعالى من

=العربي، بيروت - لبنان ط ٣ - ١٩٨٧م، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري ٨/ ٣٣١، ٣٣٩-٣٤٠، للحافظ شهاب الدين أبي الفضل العسقلاني، المعروف بابن حجر (ت ٨٥٢هـ)، مط مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٥٩م.

(١) التسهيل لعلوم التنزيل ١٠٧/٤.

(٢) أحكام القرآن ٤/ ٤٥٥، للإمام عماد الدين بن محمد الطبري المعروف بالكيا الهراسي، (ت ٥٠٤هـ)، تح موسى محمد علي ود. عزت علي عبيد، مط حسان - القاهرة.

(٣) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٨٠.

(٤) التفسير الكبير ٢٩/ ٢٧٩.

(٥) المصدر السابق ٢٩/ ٢٨١.

اليهود الذين كفروا، وصدوا عن سبيل الله، ونقضوا العهود والمواثيق مع رسول الله -ﷺ- فإن الله بعزته وحكمته أخرجهم من ديارهم، ومكن المسلمين منهم، ومن ديارهم. وحيث أن الاستقرار في البيوت نعمة عظيمة يمن الله بها على عباده، فكان الانتقام من اليهود بمزيد القهر أن سلبهم هذه النعمة وشردهم من ديارهم، والأدهى والأمر من ذلك أنهم اضطروا إلى أن يهدموا بيوتهم بأيديهم، لما ملأ الله قلوبهم من الرعب، فلستسلموا وانصاعوا لأمر رسول الله -ﷺ- فلم تنفعهم قوتهم ولا حصونهم التي كانوا يفخرون بها ويعتقدون أنها تدفع عنهم عدوهم، فما كان يدور بخلدهم أن يخرجوا من هذه العزة وهذه المنعة ولكن الله جاءهم بما لم يوقع في حساباتهم ﴿فَأَنزَلْنَا إِلَهُهُم مِّنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ ، وفي هذا الحدث دلالات على قدرة الله تعالى وعلى أن بطشه شديد ولا يرد عن القوم المجرمين وهذا ما يجب أن يتعظ به أصحاب العقول، وما ينبغي أن يدركوه في حقيقة كل من يشاقق الله ورسوله في كل أرض وفي كل زمان من خلال مصير الذين كفروا من أهل الكتاب وما استحقوا به من هذا العقاب^(١).

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٣٤/٢٨.

الفصل الرابع

بيوت بقية المخلوقات

وفيه تمهيد ومبحثان:

المبحث الأول : بيوت النحل.

المبحث الثاني : بيت العنكبوت.

تمهيد

البيت هو المأوى الذي يُؤوى إليه سواء كان للإنسان أو الحيوان ليدفع عنه الحر والبرد ويمنع العدوان إلى غير ذلك من المنافع فكما أن الإنسان ألهمه الله بناء البيوت التي يسكن فيها كذلك باقي المخلوقات كان لها نصيب من هذه النعمة العظيمة، قال - ﷺ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾^(١) وقد دلت البحوث والدراسات المستفيضة للحيوانات أن بعضها له حياة اجتماعية وقوانين تلتزم بها في إعداد بيوتها والحصول على أقواتها والدفاع عن نفسها، والتعاون فيما بينها بصورة تدهش العقول، وذلك بإلهام من ربها الذي يجعلها تبدو وكأنها أمم لها كيان ونظام وعمران وما النحل والنمل عن ذلك بعيد، وستعرف في هذا الفصل بيتين من بيوت الحيوانات في سورتين من سور القرآن العظيم سميت الأولى سورة النحل، والثانية سورة العنكبوت، وهذان البيتان يناقض أحدهما الآخر حسياً ومعنوياً فبيت النحل جاء في مقام المدح والثناء وأما بيت العنكبوت فذكر في مقام الوهن والتحقير وهذا ما سيتوضح لنا من خلال المبحثين الآتيين:

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

المبحث الأول بيوت النحل

سنحلل في هذا المبحث قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾^(١).

وستتعرف معاني هذه الآية الجليلة من خلال النقاط الآتية:

أولاً: معنى ﴿أَوْحَىٰ﴾ و﴿يَعْرِشُونَ﴾ في اللغة والغريب والوجوه والنظائر

(١)- (الوحي) في اللغة: الواو والحاء والحرف المعتل أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء أو غيره إلى غيرك، فالوحي: الإشارة، والوحي: الكتاب والرسالة، وكل ما ألقته إلى غيرك ليعلمه وحي كيف كان^(٢).

(الوحي) في الغريب: أصل الوحي الإشارة السريعة، ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي، ويكون بالكلام والكتابة والإشارة ببعض الجوارح وبالإلهام والتسخير^(٣).

(الوحي) في الوجوه والنظائر: فقد جاء في القرآن بمعان مختلفة منها^(٤):

أ- هو الذي كان ينزل به جبريل - ﷺ - من الله تعالى على الأنبياء - ﷺ - .
فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾^(٥) يعني: القرآن.

ب- الإلهام، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ يعني: وألهم ربك النحل.

ج- الكتاب، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾^(٦) يعني: كتب إليهم كتاباً.

(١) سورة النحل، الآية: ٦٨.

(٢) مقاييس اللغة مادة (وحي) ٩٣/٦، ينظر: المصباح مادة (وحي) ١٦٣/٢.

(٣) ينظر: المفردات: ٨٥٨ - ٨٥٩.

(٤) الأشباه والنظائر: ١٦٩.

(٥) سورة النساء، الآية: ١٦٣.

(٦) سورة مريم، الآية: ١١.

د- الأمر، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾^(١).

ه- القول، فذلك قوله تعالى: ﴿يَٰأَيُّهَا رَّبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾^(٢).

(٢)- ﴿يَعْرِشُونَ﴾ في اللغة: العين والراء والشين أصل صحيح واحد، يدل على ارتفاع في شيء مبني، ثم يستعار في غير ذلك، قال الخليل: العرش: سرير الملك قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾^(٣) والعريش: ما يستظل به، وعرش البيت: سقفه، وعرش البئر: طيها بالخشب وجمع العرش عروش، وعرش يعرش عرشاً، أي: يبنى بناء من خشب ومنه قيل لببوت مكة: العُرُش، لأنها عيدان تنصب ويظلل عليها^(٤).

﴿يَعْرِشُونَ﴾ في الغريب: العرش في الأصل: شيء مسقف، وجمعه عروش، قال تعالى: ﴿وَهِيَ خَاطِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾^(٥)، ومنه قيل: عرشت الكرم وعرشته: إذا جعلت له كهيئة سقف، وقد يقال لذلك: المعرش، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ قال أبو عبيد: يبنون، واعترش العنب: ركب عرشه والعرش: شبه هودج للمرأة تشبيهاً في الهيئة بعرش الكرم^(٦).

﴿يَعْرِشُونَ﴾ في الوجوه والنظائر: يأتي معنى (عرش) على ثلاثة أوجه^(٧):

أ- السقف، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاطِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾^(٨).

ب- السرير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾^(٩) يعني: سرير مزين.

(١) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٢) سورة الزلزلة، الآية: ٥.

(٣) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

(٤) مقاييس اللغة مادة (عرش) ٢٦٤/٤ - ٢٦٥ وينظر: العين ٢٤٩/١، والمحيط في اللغة ٣١٧/١

- ٣١٩، لاسماعيل بن عباد (ت ٣٨٥هـ)، تح محمد حسن آل ياسين/ مط المعارف - بغداد،

ط ١ - ١٩٧٥م.

(٥) سورة الحج، الآية: ٤٥.

(٦) المفردات: ٥٥٨.

(٧) ينظر: إصلاح الوجوه والنظائر: ٣٢١.

(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

(٩) سورة النمل، الآية: ٢٣.

ج- البنيان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي: بينون.

ثانياً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: لما كان أمر النحل في الدلالة على تمام القدرة وكمال الحكمة أعجب مما تقدم وأنفس، ثلث به وأخره لأنه أقل الثلاثة عندهم وغير الأسلوب وجعله من وحيه إيماءً إلى ما فيه من غريب الأمر وبديع الشأن^(١).

أما مناسبتها لما بعدها: لما كان أمر النحل عجباً في بنائها تلك البيوت المسدسة وفي أكلها من أنواع الأزهار وفي طواعيتها لأمرها وفي نفعها وكأن النظر في ذلك يحتاج إلى تأمل وزيادة تدبر ختم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢).

ثالثاً: الإعراب والقراءات

[١]- الإعراب:

قوله تعالى: ﴿أَنِ اتَّخِذِي﴾ ف(أن) إما مصدرية بتقدير باء الملازمة أي: بأن اتخذي أو تفسيرية وما بعدها مفسر للإيحاء^(٣).

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِبَالِ﴾ من: للتبعض إذ لا يتهيأ لها ذلك في كل جبل ولا شجر^(٤).

[٢]- القراءات:

قرأ يحيى بن وثاب: ﴿النَّحْلِ﴾ بفتح الحاء وقرأ الجمهور بالاسكان وهو يحتمل أن يكون لغة وأن يكون اتباعاً لحركة النون^(٥).

وقرأ ابن عامر وشعبة: ﴿يَعْرِشُونَ﴾ بضم الراء، وقرأ الباقون بالكسر؛ وذلك أن

(١) نظم الدرر ١١/١٩٦.

(٢) البحر المحيط ٥/٥١٣.

(٣) ينظر: الكشف ٢/٦١٨، والدر المصون ٤/٣٤٦، وروح المعاني ٤/١٨٢.

(٤) الدر المصون ٤/٣٤٦، الجدول في إعراب القرآن ٧/٣٤٩.

(٥) مختصر في شواذ القراءات: ٧٣، الكشف ٢/٦١٨، البحر المحيط ٥/٥١١، روح المعاني ١٤/١٨٢.

كل فعل انفتحت عين ماضيه جاز كسرهما وضمهما في المضارع قياساً فهما لغتان^(١).

رابعاً: براعة النحل في بناء البيوت

النحل هو حيوان ذو هيئة طريفة، وخلقة لطيفة، وبنية نحيفة، ويمتاز بأنه فهيم، وذو كيس وشجاعة، ونظر في عواقب الأمور، ومعرفة بفصول السنة وأوقات المطر، وتدير المرتع والمطعم، قال الزجاج: وسميت نحلاً؛ لأن الله تعالى نحل الناس العسل الذي يخرج منها إذ النحلة: العطية وكفاها شرفاً قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ أُنْتَلِ﴾ والوحي هنا الإلهام والهداية والارشاد، فألهمها الله وقذف في قلبها وعلمها بوجه لا يعلمه إلا العليم الخبير^(٢).

واتخاذ البيوت هو أول مراتب الصنع الدقيق الذي أودعه الله في طبائع النحل فإنها تبني بيوتها بنظام دقيق، وهي من أعجب الأشياء؛ لأنها مبنية على الشكل المسدس الذي لا ينحرف كأنه استنبط بقياس هندسي ثم هو في دائرة مسدسة لا يوجد فيها اختلاف، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة، وذلك لأن الأشكال من الثلاث إلى العشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل، وجاءت بينها فروج إلا الشكل المسدس فإنه إذا جمع إلى أمثاله إتصل كأنه قطعة واحدة وكل هذا بغير مقياس منها ولا آلة ولا بركار بل ذلك من أثر صنع اللطيف الخبير وإلهامه إياها^(٣).

ونقل الدميري عن الغزالي قوله: ((وانظر إلى بانيانها بيتاً من الشمع، واختيارها من جميع الأشكال الشكل المسدس، فلا تبني بيتها مستديراً، ولا مربعاً ولا مخمساً بل مسدساً لخاصية في الشكل المسدس يقصر فهم المهندس عن إدراك ذلك، وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستدير وما يقرب منه، فإن المربع تخرج منه زوايا ضائعة، وشكل النحل مستدير مستطيل، فترك المربع حتى لا تبقى الزوايا فارغة، ثم لو بناها

(١) الحجة لابن خالويه: ١٦٢، الكشف ١/ ٤٧٥، النشر ٢/ ٢٧١.

(٢) ينظر: عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات ٢/ ٣٦٢، للإمام زكريا بن محمد بن محمود القزويني، مطبوع بهامش حياة الحيوان الكبرى، وحياة الحيوان الكبرى ٢/ ٣٤١، للأستاذ كمال الدين الدميري، مط دار الفكر بيروت - لبنان.

(٣) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١١٥٦، ولباب التأويل ٤/ ١٠٠، وروح المعاني ١٤/ ١٨٢، والجواهر في تفسير القرآن الكريم ٤/ ١٤٨، للشيخ طنطاوي جوهرى، مط دار الفكر بيروت، ط ٢ - ١٣٥٠هـ.

مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإن الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراسة، ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير، ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى اجتماعها فرجة إلا المسدس، وهذه خاصية هذا الشكل فانظر كيف أَلْهَمَ الله تعالى النحل على صغر جرمه ذلك لطفاً به وعناية بوجوده، فيما هو محتاج إليه ليهنأ عيشه فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتثانه^(١).

وأما مادة بناء البيوت فيكون من شمع النحل حيث تفرز الشغالة صفحات رقيقة صلبة من الشمع تخرجها من بين حلقات بطنها ثم تمضغها بفيها حتى تلين ويسهل تشكيلها بحسب ما تريد فتستعملها في بناء بيوتها السداسية^(٢).

وإنما سمي ما تبنيه لتعسل فيه بيتاً تشبيهاً ببناء الإنسان؛ لما فيه من حسن الصنعة، وصحة القسمة التي لا يقوى عليها حذاق المهندسين^(٣).

خامساً: أنواع المساكن للنحل

دلت الآية دلالة واضحة على تعدد مساكن النحل؛ وذلك لتعدد أنواعه فمنه وحشي وهو الذي يسكن الجبال والشجر ويأوي إلى الكهوف، ومنه أهلي وهو الذي يأوي إلى البيوت، ويربيه الناس عندهم، وقد جرت العادة أن الناس ينون للنحل الأماكن حتى تأوى إليها، فالأول: هو المراد بقوله: ﴿أَنْ أَخْذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ والثاني: هو المراد بقوله: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ وهو خلايا النحل^(٤).

واتخاذ النحل المساكن في هذه البقاع من الجبال والشجر والعرش دون بيوت الحشرات الأخرى؛ إنما هو لشرفها بما تحتويه من المنافع، وبما تشتمل عليه من دقائق الصنعة، ومن هنا يتبين ما قيل في ضدها من قوله تعالى: ﴿وَلَنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَيْتَ الْعَنْكَبُوتُ﴾^(٥)، وكذلك يلاحظ في الآية التي بعدها أطلق لها الأكل من كل

(١) حياة الحيوان الكبير ٣٤٢/٢.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٢٠٦/١٤، وتفسير المراغي ١٠٧/١٤.

(٣) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٣٤٨/٥.

(٤) ينظر: التفسير الكبير ٧/٢٠، ولباب التأويل ١٠١/٤، والسراج المنير ٢٠٠/٢.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤١.

(٦) ينظر: التحرير والتنوير ٢٠٦/١٤.

الثمرات، وفي هذه الآية حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض؛ لأن البيوت لا تحصل مصلحتها في كل موضع^(١).

فتأمل كمال طاعتها وحسن إمتثالها لأمر ربها، كيف اتخذت بيوتاً في هذه الأمكنة الثلاثة: الجبال، والشجر، وبيوت الناس حيث يبنون العروش، فلا ترى للنحل بيتاً في غير هذه الأمكنة الثلاثة البتة، وتأمل كيف كانت أكثر بيوتها في الجبال، وهي المتقدمة في الآية، ثم الأشجار وهي دون ذلك، ثم فيما يعرش الناس وهي أقل بيوتها، فانظر كيف أداها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت قبل المرعى، فهي تتخذها أولاً فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت وأكلت من الثمرات، ثم أوت إلى بيوتها؛ لأن ربها سبحانه وتعالى أمرها باتخاذ البيوت أولاً، ثم الأكل بعد ذلك^(٢)، وقد وقف بعض العلماء - الذين كرسوا جهودهم لدراسة حياة الحشرات - على حقائق عجيبة، أثبتت صحة ما جاء في القرآن من أن هناك فصائل برية من النحل تسكن الجبال، وتتخذ من مغاراتها مأوى لها، وأن منه سلالات تتخذ من الأشجار سكناً بأن تلتجأ إلى الثقوب الموجودة في جذوع الأشجار، وتتخذ منها بيوتاً تأوي إليها، ولما أراد الانسان أن ينتفع بعسل النحل استأنسها وصنع لها خلايا من الطين والخشب تعيش فيها، وهكذا تبين الآية الكريمة كيف كانت هذه الحشرات بإلهام من الله تعالى تأوي إلى مساكنها المختلفة منذ القدم إلى يومنا هذا^(٣).

سادساً: الخصائص المميزة لبيوت النحل

تتبع العلماء أحوال النحل وبيوتها فتوصلوا إلى عدة نتائج منها:

- (١) - أنها تعيش جماعات كبيرة قد يصل عدد بعضها إلى خمسين ألف نحلة، وتسكن كل جماعة منها في بيت خاص يسمى خلية^(٤).
- (٢) - أن كل خلية يحصل فيما بينها واحد يكون كالرئيس للبقية، ويسمى: اليعسوب

(١) ينظر: الانتصاف على الكشف ٦١٨/٢، ومحاسن التأويل ٣٨٢٧/١٠.

(٢) حياة الحيوان الكبرى ٣٤١/٢ - ٣٤٢.

(٣) الإعجاز العلمي في الإسلام للقرآن الكريم: ١٥٥، لمحمد كامل عبد الصمد، مط الدار المصرية اللبنانية، ط ١ - ١٩٩٠م، القرآن وإعجازه العلمي: ١٥١-١٥٢ لمحمد اسماعيل ابراهيم، مط دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٧٧م.

(٤) تفسير المراغي ١٠٤/١٤، وينظر الإعجاز العلمي في الإسلام: ١٥٤.

ويكون أعظم جثة من الباقي، وحكمه نافذ فيهم، وهم يخدمونه ويحملونه عند الطيران^(١).

(٣)- من شأن النحل تدبير معاشه فإنه إذا أصاب موضعاً نقياً بنى فيه بيوتاً من الشمع أولاً، ثم بنى البيوت التي تأوى إليها الملوك، ثم بيوت الذكور التي لا تعمل شيئاً، وتملاً بعض البيوت عسلاً وبعضها فراحاً^(٢).

(٤)- تعيش فصائل النحل في كل بيت عيشة تعاونية على أدق ما يكون، فعلى الملكة وحدها وضع البيض الذي يخرج منه نحل الخلية كلها، فهي أم النحل، وعلى الذكور تلقيح الملكات، وليس لها عمل آخر، وعلى الشغالة جمع رحيق الأزهار ثم تعود إلى الخلية فتفرز عسلاً يتغذى به سكان الخلية، صغاراً وكباراً، وتفرز الشمع الذي هو مادة البناء^(٣).

(٥)- الدفاع عن المملكة وحراستها من الأعداء كالنمل وبعض الطيور^(٤).

(٦)- الهمها ربها أنها تخرج من بيتها، فتدور وترعى، فتبتعد عن خليتها آلاف الأمتار، ثم ترجع إليها ثانية دون أن تخطئها وتدخل خلية أخرى غير خليتها^(٥).

(٧)- أن من طبع النحل النظافة؛ فلذلك فإنه يخرج رجيعة من الخلية لأنه متنن الريح^(٦).

فلما امتاز هذا الحيوان بكل هذه الخواص والأعمال العجيبة التي تدل دلالة واضحة على مزيد الذكاء والفتنة فلا غرابة في الأمر إذا علمنا أن الله تعالى قال في حقها: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾.

(١) التفسير الكبير ٧٠/٢٠، وينظر: الحكمة في مخلوقات الله: ٩٠، لأبي حامد الغزالي، تح الدكتور محمد رشيد قباني، مط دار إحياء العلوم بيروت، ط ١ - ١٩٧٨م، ولباب التأويل ١٠٠/٤.

(٢) حياة الحيوان الكبرى ٣٤١/٢.

(٣) تفسير المراغي ١٠٤/١٤، وينظر: الإعجاز العلمي في الإسلام: ١٥٤.

(٤) تفسير المراغي ١٠٤/١٤.

(٥) الإعجاز العلمي في الإسلام: ١٥٣، وينظر: القرآن وإعجازه العلمي: ١٥٢، والحكمة في مخلوقات الله: ٩١.

(٦) حياة الحيوان الكبرى ٣٤٢/٢.

سابعاً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة بعض الفوائد منها:

(١)- فضل النحل على كثير من الحيوانات وذلك من خلال تشرفها بوحي ربها وبما تحويه في جوفها من مصنع عظيم ينتج شراباً فيه شفاء للناس مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ (١) (٢).

(٢)- أرشدت الآية الكريمة إلى النظر والتفكر في قدرة الخالق وعجيب صنعه في حشرة من أعجب الحشرات لنزداد علماً بسنن الله في خلقه وإيماناً بآياته (٣).

ثامناً: المعنى العام

هذه الآية الكريمة تحكي عجائب قدرة الله تبارك وتعالى فيما خلق وأبدع في تلك الحشرة المعجزة، التي أوحى الله تعالى إليها فألهمها سبل العمل والابداع في اتخاذ مساكنها بدقة عجيبة، يعجز عن مثلها العقل البشري المفكر، فالذي ينظر إلى بيت النحل يقف متحيراً مستعظماً هذه الصنعة من هذه النحلة الصغيرة حيث تبني البيوت المسدسة من أضلاع متساوية، وفيها من الأسرار ما فيها فهي تبني بيوتها بكل ما فيها من روعة الفن وجمال الذوق وإرشاد من خالقها كما أنها تختار الأماكن المناسبة لها كما رتب لها وحي القرآن وأرشد، فاختار لها مواطن ثلاثة: إما في الجبال، وإما في متجوف الأشجار، وإما فيما يعرش لها الناس وبينون، فبيوت النحل ومواطنها تكاد تكون من العجائب، فهي ترشدنا إلى التدبر في مخلوقات الله بما فيها من طباع ألهمها الله إياها ليتذكر الإنسان ويدرك عظمة الخالق جل وعلا وعجيب صنعه في هذا الكون.

(١) سورة النحل، الآية: ٦٩.

(٢) ينظر: الإعجاز العلمي في الإسلام: ١٥٣.

(٣) ينظر تفسير المراغي ١١٨/٧.

المبحث الثاني بيت العنكبوت

سنحلل في هذا المبحث قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

وستتعرف معاني هذه الآية الكريمة من خلال التحليل الآتي:

أولاً: معنى: ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ و﴿أَوْهَنَ﴾ في اللغة والغريب

(١)- ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ في اللغة: جمع ولي، والواو واللام والياء: أصل صحيح يدل على قرب، من ذلك الولي: القرب، يقال: تباعد بعد ولي، أي: قرب^(٢). والولي: كل من ولي أمراً، أو أقام به، والنصير، والمحِب، والصديق^(٣).

(الولي) في الغريب: وهو بالفتح النصير والمولى هو الأولي بالشيء أو ابن العم أو الصهر^(٤)، والولاء والتوالي أن يحصل شيان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدين، ومن حيث الصداقة والنصرة والاعتقاد^(٥).

(الولي) في الوجوه والنظائر: ورد بمعان ووجوه متعددة في القرآن الكريم، منها^(٦):

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤١.

(٢) مقاييس اللغة مادة (ولي) ١٤١/٦، وينظر: أساس البلاغة: ٥٠٩، والمصباح مادة (ولي) ١٧٣/٢.

(٣) المعجم الوسيط ١٠٥٨/٢، أخرجه د. إبراهيم أنيس وآخرون، دار الأمواج، بيروت - لبنان، ط٢، ١٩٩٠م.

(٤) تحفة الأريب: ٢٩٠.

(٥) المفردات: ٨٨٥.

(٦) ينظر: الأشباه والنظائر: ١٩٥ - ١٩٧، وإصلاح الوجوه والنظائر: ٤٩٦ - ٤٩٧.

أ- صاحب من غير قرابة، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّلَىٰ﴾^(١) يعني: لم يكن له صاحب ينتصر به من ذل أصابه.

ب- القريب، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا﴾^(٢).

ج- رباً، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾^(٣) يعني: أرباباً.

د- الآلهة، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾^(٤) يعني: الآلهة.

هـ- الولد، فذلك قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾^(٥) يعني: ولداً.

(٢)- ﴿أَوْهَنَ﴾ في اللغة: الضعف، يقال: وَهَنَ يَهْنُ وَهْنًا فَهُوَ وَاهِنٌ في الأمر والعمل والبدن، ويتعدى بالهمزة فيقال: أوهنت الأمر أوهنه إيهاناً: إذا ضعفته، والوهنانه: المرأة القليلة الحركة الثقيلة القيام والقيود^(٦).

﴿أَوْهَنَ﴾ في الغريب: ضعف من حيث الخلق، أو الخلق، قال تعالى: ﴿وَهَنَّا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: كلما عظم في بطنها زادها ضعفاً على ضعف^(٧).

ثانياً: تحليل الألفاظ عند المفسرين

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾

الولي: هو المتولى للنصرة، وهو أبلغ من الناصر؛ لأن الناصر قد يكون ناصراً بأن يأمره غيره بالنصرة، والولي هو الذي يتولى النصره بنفسه^(٨).

وهذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم وورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد^(٩)، وجوز أن يكون جميع من اتخذ غيره تعالى

(١) سورة الإسراء، الآية: ١١١.

(٢) سورة الدخان، الآية: ٤١.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٥) سورة مريم، الآية: ٥.

(٦) ينظر: جوهرة اللغة ٣/١٨٢، ومقاييس اللغة مادة (وهن) ٦/١٤٩، والمصباح مادة (وهن) ١٧٤/٢.

(٧) المفردات: ٨٨٧.

(٨) مجمع البيان ٨/٢٢٤.

(٩) الجامع لأحكام القرآن ١٣/٣٤٥، تفسير القرآن العظيم ٣/٤١٣.

متكلاً ومعتمداً آلهة كان ذلك أو غيرها؛ ولذا عدل إلى أولياء عن آلهة^(١).

قال الرازي - رحمه الله -: ((ولم يقل آلهة إشارة إلى إبطال الشرك الخفي، فإن من عبد الله رياء لغيره، فقد اتخذ ولياً غيره، فمثله مثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتاً^(٢)). قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾، فالعنكبوت هو صنف من الحشرات ذات بطون، وثمانية أرجل، وستة أعين، وهي ثلاثة أصناف، وكلها تتخذ لأنفسها نسيجاً تنسجه من لعبها يكون خيوطاً مشدودة بين طرفين من الشجر أو الجدران، وتتخذ في وسط تلك الخيوط جانباً أغلظ، تحتجب فيه، وتفرخ، ويقال: إنها أقنع الحيوانات، جعل الله رزقها أحرص الحيوانات، وهو الذباب والبق^(٣).

والمعنى: أن من عبد غير الله فقد اتخذ ولياً من دونه، لا ينفعه ولا يضره، فكان في اتخاذه ذلك كالعنكبوت في اتخاذه بيتاً، لا يحميها من شيء، ولا يكنها من حر ولا برد^(٤).

وجاء المثل باتخاذ العنكبوت نسجه بيتاً ولم يمثله بنسيجه؛ لأن نسيجه فيه فائدة له، لولاه لما حصل وهو اصطياها الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم منه، والكافر يستفيد بشركه ما هو أقل من جناح بعوضة، وهو بعض متاع الدنيا، لكن يفوتهم ما هو أعظم منه وهو الدار الآخرة، التي هي خير وأبقى، فليس اتخاذهم كنسيج العنكبوت، وهذا النسيج مفيد ولكن اتخاذه بيتاً أمر باطل^(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ هذا هو المثل عند الناس في الوهن وضعف القوة^(٦)، حيث لا بيت أوهن وأقل وقاية للحر والبرد منه^(٧).

(١) روح المعاني ١٦١/٢٠، وينظر: فتح القدير ٢٠٤/٤.

(٢) التفسير الكبير ٦٨/٢٥.

(٣) ينظر: حياة الحيوان الكبرى ١٦٤/٢، وحاشية الصاوي ١٩٧/٣، والتحرير والتنوير ٢٥٢/٢٠ - ٢٥٣.

(٤) الجمان في تشبيهات القرآن: ١٦٤، لابن نايقا البغدادى، (ت ٤٨٥هـ) تح عدنان محمد زرزور ومحمد رضوان الداية، مط المحمدية - الكويت ط ١ - ١٩٦٨م.

(٥) التفسير الكبير: ٦٨/٢٥.

(٦) الكشف ٤٥٤/٣.

(٧) أنوار التنزيل ٤٨٥/٣.

قال ابن عاشور: ((وهذه الجملة تجري مجرى المثل فيضرب لقلّة جدوى شيء فاقترضى ذلك أن الأديان التي يعبد أهلها غير الله هي أحقر الديانات وأبعدها عن الخير والرشد، وإن كانت متفاوتة فيما يعرض لتلك العبادات من الضلالات كما تفاوت بيوت العنكبوت في غلظها بحسب تفاوت الدويبات التي تنسجها في القوة والضعف))^(١).

وهذا المثل صحيح في أوله وآخره، فإن بيت العنكبوت يتلاشى إذا هبت ريح فلا يبقى له أثر، فكذلك أعمال الكفار للأوثان كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾^(٢) (٣).

أما قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فإن ﴿لَوْ﴾ متعلقة ببيت العنكبوت لا بجملة ﴿وَلَٰئِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيَّتُ الْعَنَكِبُوتِ﴾ أي: لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت التي لا تغني عنهم شيئاً، وأن هذا مثلهم لما عبدوها^(٤)، وذكر الرمخشري وجهاً آخر: وهو أنه إذا صح تشبيه ما اعتمدوه في دينهم ببيت العنكبوت، وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان لو كانوا يعلمون^(٥).

ثالثاً: مناسبة الآية

مناسبة الآية لما قبلها: لما بينت لهم الأشباه والأمثال من الأمم التي اتخذت الأصنام من دون الله، فما أغنت عنهم أصنامهم لما جاءهم عذاب الله، أعقب ذلك بضرب المثل لحال جميع أولئك، وحال من ماثلهم من مشركي قريش، في اتخاذهم ما يحسبونه دافعاً عنهم، وهو أضعف من أن يدفع عن نفسه، بحال العنكبوت تتخذ لنفسها بيتاً، تحسبه أنها تعتصم به من المعتدي عليها، فإذا هو لا يصمد ولا يثبت

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٥٣.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

(٣) ينظر: التفسير الكبير ٢٥/٦٨، وغرائب القرآن ٢٠/٩٤.

(٤) ينظر: الجمان في تشبيهات القرآن: ١٦٧، والكشاف ٣/٤٥٤-٤٥٥، والجامع لأحكام القرآن ٣٤٥/١٣.

(٥) الكشاف ٣/٤٥٥.

لأضعف تحريك فيسقط ويتمزق^(١).

رابعاً: الإعراب والقراءات

[١]- الإعراب:

قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ﴾ الكاف في موضع رفع خبر الابتداء، وهو قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾. وقيل: هو في موضع نصب على الظرف، وجمع العنكبوت عناكيب وعنأكب وعُكَّاب وعُكَّب وأعُكَّب^(٢).

والعنكبوت يؤنث ويذكر، فمن التأنيث قوله: (اتخذت) ومن التذكير قول الشاعر:
على هطالهم منهم بيوت كأن العنكبوت هو ابتناها^(٣)

[٢]- القراءات:

وقف الأخفش النحوي على ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ﴾، وخولف في هذا، قال أبو عمرو الداني: ((وليس كما قال لأنه إنما قصد بالتشبيه بيتها، الذي عمله من غزلها، إذا كان لا يقيها من شيء، كالألثة التي لا تضر ولا تنفع))^(٤).

خامساً: البلاغة في الآية

إن علماء البلاغة في الكثير من كتبهم لم يغفلوا الحديث عن هذا النوع من التشبيه، فالتشبيه في الآية تشبيه تمثيلي، شبه الله سبحانه وتعالى الكافرين في عبادتهم للأصنام، بالعنكبوت في بنائها بيتاً ضعيفاً واهياً، يتهاوى من هبة نسيم، أو من نفخة فم، وسمي تمثلياً؛ لأن وجه الشبه صورة منتزعة من متعدد^(٥).

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٥٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٣/٢٥٦ - ٢٥٧، مشكل إعراب القرآن ٢/٥٥٦.

(٣) البحر المحيط ٧/١٥٢، الدر المصون ٥/٣٦٦، وينظر هذا البيت في معاني القرآن للفراء ٢/٣١٧.

(٤) المكتفى في الوقف والابتداء: ٢٨٥، لأبي عمرو الداني، تح جايده زيدان مخلف، مط وزارة الأوقاف والشؤون الدينية - العراق، ١٩٨٣م، وينظر: منار الهدى في الوقف والابتداء: ٢٥٢.

(٥) ينظر: صفوة التفاسير ٢/٤٦٣.

فهذه الهيئة المشبه بها من الهيئة المشبهة قابلة لتفريق التشبيه على أجزائها، فالمشركون أشبهوا العنكبوت في الغرور بما أعدوه، وأولياؤهم أشبهوا بيت العنكبوت في عدم الغناء عمن اتخذوها وقت الحاجة إليها، وتزول بأقل تحريك، وأقصى ما ينتفعون به منها نفع ضعيف، وهو السكنى فيها، وتوهم أن تدفع عنهم كما ينتفع المشركون بأوهامهم في أصنامهم^(١).

سادساً: الإعجاز العلمي في الآية الكريمة

في هذه الآية الكريمة إشارة علمية واضحة تؤكد أن الذي يتولى بناء البيت وينسج خيوطه هي الأنثى من العنكبوت وأن الذكر من العناكب لا شأن له بذلك، وهذه حقيقة ما كان أحد مطلقاً يفتن إليها وقت نزول القرآن^(٢).

قال الجاحظ: ((إنما تنسج الأنثى فأما الذكر فإنه ينقض ويفسد، وولد العنكبوت أعجب من الفروج الذي يظهر إلى الدنيا كاسباً مختلاً مكتفياً، وولد العنكبوت على النسج ساعة يولد))^(٣).

وربما عزوا ضعف هذا البيت إلى ضعف العاملين على بنائه وهم الأنثى والولد ساعة يولد^(٤).

ويمكن أن يكون في الآية إعجاز علمي آخر كما أشار إليه الباحثون في العصر الحديث، فنجد الآية تذكر البيت ولم تذكر الخيط، فالثابت علمياً - وهذا يدل على دقة الصدق القرآني الذي لا يخطأ أبداً - أن خيط العنكبوت من أقوى الخيوط، وهو أقوى من مثيله من الصلب أربع مرات! فالوهن إذن في البيت لا في الخيط، ثم إن العلم يؤكد على أن بيت العنكبوت هو أسوأ ملجأ لمن يفكر بالاحتواء به، فهو مصيدة لمن يقع فيه من الزوار الغرباء، وهو مقتل سيء لأهله، فالعنكبوت الأنثى تفترس

(١) التحرير والتنوير ٢٠/٢٥٢.

(٢) ينظر: الإعجاز العلمي في الإسلام: ١٥٩، القرآن وإعجازه العلمي: ١٥٧، والظاهرة القرآنية والعقل: ٢٥٩، لعلاء الدين المدرس، مط العاني بغداد، ط ١ - ١٩٨٦ م.

(٣) الحيوان ٥/٤١٢، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، (ت ٢٥٥هـ) تح. عبد السلام محمد هارون، مط دار الكتاب العربي بيروت - لبنان، ط ٣ - ١٩٦٩ م.

(٤) ينظر: التشبيهات القرآنية والبيئة العربية: ١٩٧، واجدة مجيد الأطرقجي، مط وزارة الثقافة والفنون - العراق ١٩٧٨ م.

زوجها بعد التلقيح، كما أنها تأكل أولادها عند الفقس، كما أن الأولاد يأكل بعضهم بعضاً، فهذه رابطة أسرية واهنة، والعلاقة العائلية معدومة وإنها إن وجدت فهي تتصف بالوحشية والافتراس والعدوان، ومن هنا كانت عظمة التشبيه وحكمته في من يتخذ من دون الله أولياء كمن يحتمي في بيت العنكبوت الواهن حسياً ومعنوياً فهو أسوأ ملجأ يؤدي به إلى أسوأ مصير وعاقبة، ومن هنا كانت الآية مختومة بقوله - ﷻ -: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ثم في الآية التالية: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(١).

سابعاً: الحكمة من ضرب المثل بالبيت

إن الحكمة من اختيار هذا المثل من بين سائر الأمثال، فيه وجود ذكرها الرازي - رحمته الله - منها:

(١)- إن البيت ينبغي أن يكون له أمور: حائط، وسقف مظل، وباب يغلق، وأمور ينتفع بها ويرتفق، وإن لم يكن كذلك فلا بد من أحد أمرين: إما حائط حائل يمنع من البرد، وإما سقف مظل يدفع عنه الحر، فإن لم يحصل منهما شيء فهو كالبيداء، ليس ببيت، لكن بيت العنكبوت لا يجنّها ولا يكتنّها، وكذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار، فإن لم تجتمع هذه الأمور فلا أقل من دفع ضرر أو جر نفع، فإن من لا يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة إليه سواء، فإذا لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معاني البيت شيء، كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الأوثان أولياء من معاني الأولياء شيء.

(٢)- إن أقل درجات البيت أن يكون للظل، فإن البيت من الحجر يفيد الاستظلال، ويدفع أيضاً الهواء والماء والنار والتراب، والبيت من الخشب يفيد الاستظلال، ويدفع الحر والبرد، ولا يدفع الهواء القوي ولا الماء ولا النار، والخباء الذي هو البيت من الشعر، أو الخيمة التي هي من ثوب إن كان يدفع شيئاً من حر الشمس فبظله، لكن بيت العنكبوت لا يظل فإن الشمس بشعاعها تنفذ فيه، وكذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون نافذ الأمر في الغير، فإن لم يكن كذلك فيكون نافذ الأمر في العابد، فإن لم يكن فلا أقل من أن لا ينفذ أمر العابد فيه، لكن معبودهم

(١) ينظر: وجوه من الاعجاز العلمي: ١٧٥ - ١٧٦، لمصطفى الدباغ، مط مكتبة المنار الزرقاء -

تحت تسخيرهم إن أرادوا أجلوه وإن أرادوا إذلاله أذلوه.

(٣) - أدنى مراتب البيت أنه إن لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق، لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت، فإن العنكبوت لو دام في زاوية مدة لا يقصد ولا يخرج منها، فإذا نسج على نفسه واتخذ بيتاً يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه والمسح بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت، فكذا العابد بسبب العبادة ينبغي أن يستحق الثواب، فإن لم يستحقه فلا أقل من أن لا يستحق بسببها العذاب، والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب^(١).

ثامناً: إعتراض وروده

لقد عاب الكفار على الله سبحانه وتعالى ضرب الأمثال بالأشياء الحقيرة، والمثل الذي ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم أولياء من دون الله يرجون منهم النفع ويتمسكون بهم في الشدائد فهم في ذلك كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتاً تأوي إليه، فكان لهذا المثل رد عنيف في نفوس المشركين، حيث هال عليهم أن تمثل آلهتهم - التي ظلوا لها عاكفين - ببيت العنكبوت ضعفاً ووهناً، وهم لا يرون أوهن منه وآلمهم أكثر من ذلك أنهم لا يستطيعون رد ذلك عنها، أو نقضه، فليس لديهم ما يرونه مقنعاً لهم فضلاً عن إقناع خصومهم من المسلمين بقوتها وقدرتها.

وقد رد الله عليهم شبهتهم واعتراضهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾^(٢) فأكد أنه سبحانه وتعالى لا يستنكف من ضرب الأمثال بما هو أصغر وأحق من تلك التي استصغروها واستحقروها، ورأوا أن من المعيب ضرب الأمثال بها طالما كان الممثل له بمثل حقارتها، وصغر شأنها، فالأمثال صور الأشياء، وما يبدو في الصورة - مما يستحب أو يستكره - إنما هو انعكاس لصاحبها. وضارب المثل مرآة صادقة، وما على المرأة من عتب في إظهارها للقيح - من الأشياء - قبحه وللجميل - منها - جماله^(٣).

(١) التفسير الكبير ٦٨/٢٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦.

(٣) ينظر: الأمثال في القرآن الكريم: ٢٨٧ - ٢٨٩، للدكتور محمد جابر الفياض، مط دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد، ط ١ - ١٩٨٨ م.

وبيت العنكبوت هو من مألوفات الناس جميعاً فهو موجود في كل من البيوت، والخرائب، وعلى الأشجار والصخور، وفي كل مكان، ومن الثابت والواقع المشهور أنه أوهن البيوت، حتى لقد ضربه العرب مثلاً في الوهن فقالوا: (أوهن من بيت العنكبوت)^(١) وهذا المثل هو من أدلّ الأمثال على بطلان الشرك وخسارة صاحبه، ووهن ما يعتمد عليه، فالمشركون لم يستفيدوا ممن اتخذوهم أولياء إلا ضعفاً، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْضَرُونَ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا تَتَابَعًا﴾^(٤) (٥).

تاسعاً: ما يستفاد من الآية

أفادت الآية الكريمة فوائد منها:

- (١)- إستحسان ضرب الأمثال لتقريب المعاني للفهم^(٦).
- (٢)- التنديد بالشرك والمشركين وعقولهم، وتنويه بالمؤمنين الذين يقنعون بالبرهان حينما يقوم لهم، ويفهمون الأمثال حيثما تضرب لهم^(٧).
- (٣)- إثبات أن للعنكبوت بيتاً يأوي إليه يلائم بنيته الضعيفة، وقد سمي بيتاً لشبهه بالخيمة في أنه منسوج ومشدود من أطرافه فهو كبيت الشعر^(٨).
- (٤)- إن بيت العنكبوت ضرب الله تعالى به المثل في وهنه وضعفه للذين اتخذوا من

(١) ينظر: التشبيهات القرآنية: ١٩٧.

(٢) سورة مريم، الآية: ٨١ - ٨٢.

(٣) سورة يس، الآية: ٧٤ - ٧٥.

(٤) سورة هود، الآية: ١٠١.

(٥) أمثال القرآن: ٦٢، لابن قيم الجوزية، تح الدكتور موسى بناي العليلى.

(٦) أيسر التفاسير ١٣٩/٤.

(٧) التفسير الحديث ٢٠/٧.

(٨) ينظر: التحرير والتنوير ٢٥٣/٢٠.

دون الله أولياء، بخلاف المؤمن المتوكل على الله تعالى فإنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، فيستخر الله له كل شيء، كما حمى رسوله - ﷺ - من الكافرين بنسج العنكبوت وبيض الحمام مع كونهما أضعف الأشياء ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(١) والقصة مشهورة في كتب التفاسير والسير وغيرها^(٢).

(٥) - يحسن إزالة بيت العنكبوت من البيوت لما أسند الثعلبي وابن عطية وغيرهما عن سيدنا علي بن أبي طالب - ﷺ - أنه قال: طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه في البيوت يورث الفقر^(٣) قال الآلوسي - ﷺ -: ((وهذا إن صح عن الإمام علي - ﷺ - فذاك وإلا فحسن الإزالة لما فيها من النظافة ولا شك بندبها))^(٤).

(٦) - إن أصحاب الدعوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى وللإغراء والإغواء لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة لا ينسونها لحظة وهم يواجهون القوى المختلفة، هذه تضربهم وتحاول أن تسحقهم، وهذه تستهويهم وتحاول أن تشتريهم.... وكلها كبت عنكبوت في حساب الله تعالى وفي حساب العقيدة إذا صحت العقيدة^(٥).

عاشراً: المعنى العام

في هذه الآية الكريمة يضرب الله مثلاً رائعاً لحال الذين اتخذوا الأوثان والأصنام من دون الله أولياء يوالونهم ويتكلمون عليهم في حاجاتهم، بحال العنكبوت تتخذ لنفسها بيتاً ليحميها من الحر والبرد، وتعتصم به من المعتدي عليها، فإذا هو لا يصمد ولا يثبت لأقل تحريك فيخرب ولا يبقى له أثر، فكذلك هؤلاء المشركون لم يغن عنهم أولياؤهم الذين اتخذوهم من دون الله شيئاً.

(١) سورة المدثر، الآية: ٣١.

(٢) ينظر الجامع لأحكام القرآن ٣/٣٤٦، والسيرة النبوية لابن كثير ٢/٢٣٩، وذكره الحافظ ابن كثير أيضاً في البداية والنهاية ٣/١٨١، مط المعارف - بيروت، ط ١ - ١٩٦٦ م. وقال: ((وهذا إسناد حسن، وهو من أجود ما روي في قصة نسج العنكبوت على قم الغار، وذلك من حماية الله رسوله))، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري ٨/٢٣٦، وحاشية الصاوي ٣/١٩٧.

(٣) المحرر الوجيز ١١/٣٩٤، الجامع لأحكام القرآن ١٣/٣٤٦.

(٤) روح المعاني ٢٠/١٦١.

(٥) ينظر: في ظلال القرآن ٦/٤١٢.

والحقيقة أن هناك قوة واحدة هي قوة الله وما عداها من قوة الخلق فهو هزيل
واهن تجاه قوة الله سبحانه وتعالى، ومن تعلق أو احتذى بها ليجعلها ناصراً له من
دون الله، فهو كالعنكبوت الضعيفة تحتوى بيت واهن، فهي وما تحتوى به سواء^(١).

(١) ينظر: في ظلال القرآن ٦/٤١٠.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الممتعة في رحاب القرآن الكريم، وآياته الطيبات المباركات، التي قاربت عامين أو أدنى فتحت لي سبل المعرفة وأرشدتني إلى عظمة القرآن الكريم وبعثت فيّ الهمة العالية على أن أبقى عمري كله أبحث في أسرارهِ وأغوص في أعماقه؛ لأقف على عجائبه التي لا تنقطع، ولا يمكن أن يحيط بها باحث، وكان من حسن الاستهلال وبشير اليمن أن بدأت هذا البحث بالحديث عن بيوت الله تعالى عن أقدم بنية لله - ﷻ - على هذه الأرض، تعرفت فيها نشأة بيت الله وقصة بنائه، والأمن الذي يحيط بتلك البقعة، وساكنها، وزائرها، والعبادة التي كانت هذه الكعبة هي مركزها وقبلتها.

فإذا ما انتهيت من بيوت الله تعالى واجهتني بيوت الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بيوت القدوة الطيبة، والأسوة الحسنة، بيوت الطهر والعفاف والأخلاق الزاكية، بيوت الذين قال فيهم سيدهم رسول الله - ﷺ - «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة في زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلاً وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»^(١).

ومن بيوت الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إلى بيوت الصالحين، حيث أحكامها وآدابها وضوابطها، وإلى بيوت الطالحين المشؤومة بظلم أهلها، ففيها الدروس والعبر لمن قرأ وتدبر، وختمت رحلتي بالوقوف عند بيوت الحيوانات التي ألهمها الله - ﷻ - : بناء بيوتها بدقة عجيبة فهي ترشدنا إلى عظيم قدرة خالقها جل جلاله.

(١) البخاري ٢٥١/٧ [كتاب المناقب - باب خاتم النبيين ﷺ] برقم ٣٥٣٥.

وبعد كل هذا يمكنني أن أخص أهم ما جاء فيها:

أولاً: بيوت العبادة

(١)- الكعبة الشريفة هي أول بيت وضع للناس، فهو يشترك فيه جميع الناس، ولا يقتصر على أحد منهم، وقد أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم -عليه السلام- بتجديد بنائه على قواعده الأولى بعد أن أرشده تعالى إلى مكانه.

(٢)- ان البيت الحرام أقيم للتوحيد منذ أول لحظة عرف الله -ﷻ- مكانه لإبراهيم -عليه السلام- وملكه أمره ليقمه على هذا الأساس، فمن خالف هذا الشرط فكأنه هدم البيت.

(٣)- قررت الآيات أفضلية البيت الحرام على غيره من البيوت، وأنه أحق بالاستقبال من بين المقدس.

(٤)- بينت الدراسة القصة الكاملة لبناء البيت الحرام، والأحداث التي سبقت البناء والأحداث التي تلتها، وعبر القرآن عنها أسمى تعبير وكأنها صورة شاخصة أمام العيان.

(٥)- البيت الحرام يجذب القلوب إليه، فقد جعله الله تعالى مثابة للناس تشترك له الأرواح وتحن، ولا تقضي منه وطراً ولو ترددت إليه كل عام.

(٦)- بحثت مسألة قتال المشرك إذا قصد البيت الحرام، وقد كان ذلك محرماً، ورجحت مسألة أن التحريم منسوخ، وأن المشرك يقاتل وإن قصد البيت بالزيارة وقلد هديه، وقد حكى ابن جرير -رحمته الله- الاجماع على قتال المشرك غير المستأمن وإن أم البيت الحرام.

(٧)- ان مكة آمنة محرمة بحرمة الله تعالى يوم خلق السموات والأرض، وكان إظهار هذا التحريم على لسان سيدنا إبراهيم -عليه السلام-، وحرمتها دائمة مستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

(٨)- ان الراجح أن الجاني إذا لجأ إلى الحرم فإنه يضيق عليه بما يؤدي إلى خروجه، فإن خرج قتل في الحل، وإن لم يخرج جاز قتله في الحرم، وهذا مذهب الإمام الشافعي -رحمته الله-، ولو لم يكن الأمر كذلك لأصبح الحرم مأوى لأهل الشر، ولعم الفساد في حرم الله تعالى.

(٩)- ذكر العبادات من صلاة واعتكاف وطواف عند البيت الحرام يوحى بأن القيام بهن في تلك البقاع أولى من غيرهن من العبادات.

(١٠)- الحث على بناء بيوت الله تعالى والاعتناء بها وتطهيرها ورفع شأنها، وتنزيهاها عن اللغو والقاذورات وعن كل ما لا يليق بها، وتجنب البدع والأهواء في أداء العبادة فيها لتخلص هذه البيوت للغرض الذي بنيت لأجله وهو عبادة الله وحده لا شريك له.

(١١)- جواز الانتفاع بالهدي الذي يهدى للحرم بركوبها وشرب لبنها والحمل عليها إلى غاية حلول نحرها بالحرم، والتأكيد على أنه لا يجوز ذبح الهدي إلا في الحرم ولا يجزئ في غيره.

ثانياً: بيوت السكن

(١)- لقد جاءت آيات البيوت بما تحمل من أحكام وتعاليم وتوجيهات سديدة وآداب وأخلاق سامية تعد بمثابة حجر الأساس لحياة المسلمين الخلقية والاجتماعية، لذا يجب على كل مسلم ومسلمة أن يلمّ ويتعلم الأحكام والآداب والتوجيهات والارشادات التي شرعها الله تبارك وتعالى لبناء البيت المسلم، ففي هدي ما فيها من تشريع نستطيع أن نبني مجتمعاً سليماً معافى، بعيداً عن هاوية الرذيلة التي تردت فيها الكثير من المجتمعات المعاصرة.

(٢)- ان البيت من أعظم النعم التي أنعمها الله على عباده، فينبغي على المسلم أن يشكر الله - ﷻ - بالانتفاع بهذه النعمة في وجوه الخير ولا يكفرها بالتفريط والبطر.

(٣)- ان النبي - ﷺ - قدوة، وان بيوته تعتبر نموذجاً لما ينبغي أن تكون عليه بيوت المسلمين، من خلال الأحكام والآداب الموجهة لأمهات المؤمنين والتطبيق الحي لهذه الأحكام والآداب في تلك البيوت.

(٤)- بينت الدراسة أن القرار في البيوت الذي أمر الله تعالى به أمهات المؤمنين هو الدواء الشافي والعلاج الناجح لما تعانيه المجتمعات من أمراض التفسخ والانحلال وضياح البيوت بمختلف العصور والأزمان.

(٥)- بينت الدراسة دور البيت في حماية المرأة، ودور المرأة في بناء البيت، فقرار المرأة في بيتها حماية وإبعاد لها عن منطقة الخطر، واجتناب لها عن الطرق التي تؤدي إلى الوقوع في المعصية، ولا تتحقق سعادة البيت والأسرة على الوجه الأكمل

إلا باستقرارها في بيتها، إذ البيت في أشد الحاجة لإشرافها حتى تخرج الجيل الذي يعرف دينه وواجبه ووطنه وحقه.

(٦)- أثبتت الدراسة دخول أمهات المؤمنين في أهل البيت، وذلك من خلال إثبات أنه تعالى أراد بالبيت في الآية بيت السكن وليس بيت النسب.

(٧)- أشارت الدراسة إلى أدب الاستئذان ودخول بيوت الناس والأكل فيها، وهي آداب قيمة ينبغي أن يتأدب بها المسلمون جميعاً لما فيها من طهارة للمجتمع والأفراد، وجلباً للمودة والاخاء، ودفعاً للحقد ووساوس الشيطان.

(٨)- رفع الحرج عن دخول بيوت الأقارب والأصدقاء وإباحة الأكل منها وفي هذا توسعة على الناس وصلة للأرحام وزيادة أواصر المحبة والالفة بين طبقات المجتمع.

(٩)- إن بيوت السكن تنوب عن الأماكن العامة إذا حيل بين الدعوة وهذه الأماكن، ومن هنا يبرز دور البيوت في الدعوة إلى الله وأول بيت في الإسلام كان له هذا الشرف بيت الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي - رضي الله عنه -.

(١٠)- ظهر من خلال الدراسة أن البيت يكون شريفاً محترماً ومهاباً بشرف أهله وكرامتهم عند الله، وكما قيل: (المكان بالمكين)، فكلما كان أهل البيت أصحاب فضل، وأهل مكرمة وقدر عند الله تعالى كان ذلك البيت معزراً مكرماً له الذكر الباقي إلى يوم الدين، وكلما كان أهله أصحاب كفر وعصيان، فذلك البيت غير معزز وتأتية الولايات والمصائب من كل مكان كبيت نسجته العنكبوت.

(١١)- جواز بناء البيوت الرفيعة إذا كان البناء لوجه الله تعالى، كبناء مسجد أو إذا كان البناء لما لا بد منه للمرء ولمن يعوله بقدر الكفاية وعلى الوجه اللائق به وبهم، فهذا غير مذموم.

(١٢)- بينت الدراسة حقارة الدنيا وهوانها على الله وأن منافعها حقيرة خسيصة لا تعدل عند الله شيئاً وما كل ما على الأرض من زينة وقصور ما هي إلا متاع الدنيا الفانية الزائلة يتمتع بها الكافر، وما أعده الله لعباده المؤمنين المتقين في الآخرة من الجنة ومساكنها ونعيمها خاص بهم لا يشاركهم فيه أحد.

(١٣)- أوجب الإسلام على المكلف في حالات معينة التضحية ببيته الذي يعيش فيه، والهجرة إلى بلاد الله الواسعة، إذا كان ذلك البيت سبباً في تعطيل الواجبات وتحصيل

المحرمات، وفي كل ما نهى عنه الشرع الحنيف، وقد أوجب الله تعالى للمهاجر الأجر والسعة في الرزق والبلاد.

(١٤)- أن سنة الله تعالى في خلقه ماضية إلى يوم الدين ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ومن سنته الانتقام من الظالمين بخراب بيوتهم كما فعل بشمود واليهود.

(١٥)- كشفت الدراسة عن صفة من صفات المنافقين إذ إنهم يتصفون بالجبن الهالع ويخشون لقاء الأعداء، مما يدفعهم إلى التخلي عن الجهاد، وتخذيل المؤمنين عنه، والخلود إلى البيوت ليحتموا بها خوفاً من الموت.

(١٦)- إن براعة النحل في بناء بيوتها واختيارها الشكل المسدس الذي هو من أعجب الأشكال بما فيه من حسن الصنعة التي لا يقوى عليها حذاق المهندسين؛ إنما هو بإلهام من الله عز وجل جلّت قدرته.

(١٧)- ثبت علمياً أن بيت العنكبوت وإِه معنوياً كونه حسياً وهذا ما يظهر صدق القرآن ودقته في ضرب الأمثال.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تراجم أهم الأعلام

[١]- إبراهيم بن يزيد الخوزي:

هو إبراهيم بن يزيد الخوزي، أبو إسماعيل المكي، مولى بني أمية، متروك الحديث، مات سنة (١٥١هـ).

ينظر: تقريب التهذيب: (٦٩/١).

[٢]- الأخفش:

هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي، أخذ عن سيبويه، من نحاة البصرة، توفي سنة (٢١٥هـ).

ينظر: طبقات النحويين واللغويين: (٧٤-٧٦)، شذرات الذهب: (٣٦/٢).

[٣]- ابن أبي اسحاق:

هو عبدالله بن أبي اسحاق الزيادي الحضرمي، نحوي، من الموالي، من أهل البصرة، أخذ عنه كبار من النحاة كأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفي، توفي سنة (١١٧هـ).

ينظر: طبقات النحويين واللغويين: (٢٥-٢٧)، بغية الوعاة: (٤٢/٢)، الأعلام للزركلي: (٧١/٤).

[٤]- اسماعيل بن أبي حكيم:

هو اسماعيل بن أبي حكيم القرشي، مولاهم، المدني، ثقة، مات سنة (١٣٠هـ).
ينظر: تقريب التهذيب: (٩٣/١).

[٥]- الأعرج:

هو أبو داود عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، المدني، مولى محمد بن ربيعة، أخذ القراءة عرساً عن أبي هريرة وابن عباس - رضي الله عنهما - توفي سنة (١١٧هـ).

ينظر: الجرح والتعديل: (٢٩٧/٥)، معرفة القراء: (٧٧-٧٨)، غاية النهاية:

(٣٨١/١)، تقريب التهذيب: (٥٩٤/١)، الأعلام: (٣/٣٤٠).

[٦]- الأعمش:

هو سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي مولاهم الكوفي، رأى أنس بن مالك - رضي الله عنه - وحفظ عنه، ثقة ثبت، قال سفيان بن عيينة: كان الأعمش أقرأهم لكتاب الله وأحفظهم للحديث وأعلمهم بالفرائض، توفي سنة (١٤٨هـ).
ينظر: تذكرة الحفاظ: (١/١٥٤)، شذرات الذهب: (١/٢٢٠).

[٧]- أبو بكر:

هو شعبة بن عياش بن سالم، أبو بكر الحنّاط الأسدي الكوفي الإمام، أحد الأعلام مولى واصل الأحذب، اختلف في اسمه على عدة أقوال أصحابها شعبة وقيل أحمد وعبدالله، قرأ القرآن ثلاث مرات على عاصم، وروى عن اسماعيل السدي، وأبي حصين وغيرهما، كان سيداً إماماً حجة، كثير العلم والعمل، منقطع القرين، قرأ عليه أبو الحسن الكسائي، ويحيى العُلَيمي وغيرهما، توفي سنة (١٩٣هـ).
ينظر: سير أعلام النبلاء: (٨/٤٣٥)؛ وما بعدها، معرفة القراء: (١/١٣٤-١٣٨)، غاية النهاية: (١/٣٢٥-٣٢٧).

[٨]- ثعلب:

هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني مولاهم، البغدادي، إمام الكوفيين في النحو واللغة، كان شاعراً لغوياً، وكان حافظاً لما يعجز عنه غيره، له مصنفات في النحو والقرآن والشعر والمعاني، توفي سنة (٢٩١هـ).
ينظر: المنتظم: (٦/٤٤)، غاية النهاية: (١/١٤٨)، بغية الوعاة: (١/٣٩٦).

[٩]- الثعلبي:

هو أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، أبو إسحاق الثعلبي المفسر، كان حافظاً واعظاً رأساً في التفسير والعربية، ويقال له الثعلبي والثعلابي وهو لقب له وليس بنسب، توفي سنة (٤٢٧هـ).
ينظر: وفيات الأعيان: (١/٦١-٦٢)، شذرات الذهب: (٣/٢٣٠-٢٣١).

[١٠]- الثوري:

هو سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبدالله الكوفي، قال شعبة وسفيان بن عيينة

وغير واحد من العلماء: سفيان أمير المؤمنين في الحديث، وقال ابن مهدي: كان وهب يقدم سفيان في الحفظ على مالك، توفي في البصرة (١٦١هـ).

ينظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (٣٥٦/٦)، تاريخ بغداد: (١٥١/٩)، تقريب التهذيب: (٣٧١/١)، الأعلام: (١٠٤-١٠٥/٣).
[١١]- جابر بن زيد:

هو جابر بن زيد، أبو الشعثاء الأزدي البصري أحد الأعلام وصاحب ابن عباس روى عنه قتادة وأيوب وغيرهما، ولما دفن أبو الشعثاء قال قتادة: اليوم دفن علم الأرض، توفي سنة (٩٣هـ).

ينظر تذكرة الحفاظ: (٧٢-٧٣/١)، شذرات الذهب: (١٠١/١).
[١٢]- الجبائي:

هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي البصري، أبو علي الفيلسوف المتكلم، رأس المعتزلة وشيخهم، من أشهر مصنفاته: تفسير القرآن ومتشابه القرآن توفي سنة (٣٠٣هـ).

ينظر: وفيات الأعيان: (٣٩٨-٣٩٩)، شذرات الذهب: (٢٤١/٢).

[١٣]- الجحدري:

هو عاصم بن أبي الصباح العجاج وقيل ميمون أبو المجشر الجحدري البصري، أخذ القراءة عَرَضاً عن سليمان بن قتة عن ابن عباس وقرأ أيضاً على نصر بن عاصم وغيرهما، قرأ عليه عَرَضاً أبو المنذر سلام بن سليمان وعيسى بن عمر الثقفي، توفي سنة (١٢٨هـ) وقيل غير ذلك.

ينظر: غاية النهاية: (٣٤٩/١).

[١٤]- أبو جعفر:

هو يزيد بن القعقاع الإمام، أبو جعفر القارئ، أحد العشرة، تابعي مشهور كبير القدر، روى القراءة عن مولاة عبدالله بن عياش المخزومي وغيره، قرأ عليه نافع بن أبي نعيم، وسليمان بن مسلم بن حجاز وغيرهما، وقد وثقه يحيى بن معين والنسائي، توفي سنة (١٣٠هـ) وقيل غير ذلك.

ينظر: معرفة القراء: (٧٢/١) وما بعدها، غاية النهاية: (٣٨٢-٣٨٤/٢)، شذرات الذهب: (١٧٦/١).

[١٥]- أبو حاتم:

هو سهل بن محمد بن عثمان، أبو حاتم السجستاني، نحوي البصرة، ومقرئها في زمانه، أخذ العربية عن أبي عبيدة والأصمعي وغيرهما، روى عنه أبو داود والنسائي في كتابيهما، توفي سنة (٢٥٠هـ) وقيل غير ذلك.
ينظر: طبقات النحويين واللغويين: (١٠٠-١٠٣)، معرفة القراء: (١/٢٢١-٢٢٢)، غاية النهاية: (١/٣٢٠-٣٢١).

[١٦]- الحسن:

هو الحسن بن يسار البصري، مولى الأنصار، ولد لستين بقتا من خلافة عمر -رضي الله عنه- ونشأ بوادي القرى، سيد التابعين في زمانه بالبصرة، رأى علياً وطلحة وعائشة -رضي الله عنهم- توفي سنة (١١٠هـ).
ينظر: وفيات الأعيان: (١/٣٥٤)، تذكرة الحفاظ: (١/٧١).

[١٧]- الحكم بن عتيبة:

هو الحكم بن عتيبة الحافظ الفقيه، أبو عمر الكندي مولاهم، الكوفي، شيخ الكوفة، حدث عن أبي جحيفة السوائي والقاضي شريح وغيرهما، وعنه مسعر والأوزاعي وغيرهما، توفي سنة (١١٥هـ) وقيل غير ذلك.
ينظر: تذكرة الحفاظ: (١/١١٧)، تقريب التهذيب: (١/٢٣٢)، شذرات الذهب: (١/١٥١).

[١٨]- الحلواني:

هو أحمد بن علي بن بدران، أبو بكر الحلواني البغدادي، المقرئ، كان شيخاً صالحاً خيراً، محدثاً عالي الإسناد، سمع من أبي الطيب الطبري وأبي الحسن الماوردي وغيرهما، توفي سنة (٥٠٧هـ).
ينظر: العبر: (٢/٣٨٩)، معرفة القراء: (١/٤٦٣-٤٦٤)، طبقات الشافعية الكبرى: (٤/٤٢)، غاية النهاية: (١/٨٤).

[١٩]- حمزة:

هو حمزة بن حبيب بن عمارة بن اسماعيل الإمام، أبو عمارة الكوفي التيمي مولاهم، أحد القراء السبعة، قرأ القرآن عَرَضاً على الأعمش وحمران بن أعين

وغيرهما، قرأ عليه الكسائي، وسليم بن عيسى وغيرهما، كان إماماً حجة، قيماً بكتاب الله تعالى، حافظاً للحديث، بصيراً بالفرائض والعربية، عابداً خاشعاً قانتاً لله، توفي سنة (١٥٦هـ) وقيل غير ذلك.

ينظر: معرفة القراء: (١/١١١) وما بعدها، غاية النهاية: (١/٢٦١-٢٦٣)، شذرات الذهب: (١/٢٤٠).

[٢٠]- حميد:

هو حميد بن أبي حميد الطويل، أبو عبيدة الخزاعي مولاهم البصري، روى عن أنس بن مالك وثابت البناني وغيرهما، روى عنه حماد بن سلمة ويحيى بن سعيد وآخرون، وثقه يحيى بن معين والعجلي وغيرهما، توفي سنة (١٤٢هـ).
ينظر: تذكرة الحفاظ: (١/١٥٢-١٥٣)، تهذيب التهذيب: (٣/٣٨).

[٢١]- حميد بن قيس:

هو حميد بن قيس المكي الأعرج، أبو صفوان القارئ، قرأ القرآن على مجاهد ثلاث مرات، روى عن مجاهد وعطاء وغيرهما، وروى عنه القراءة عَرَضاً أبو عمرو ابن العلاء وسفيان بن عيينة وغيرهما، وثقه أبو داود، وهو قليل الحديث، توفي سنة (١٣٠هـ) وقيل غير ذلك.

ينظر: معرفة القراء: (١/٩٧-٩٨)، غاية النهاية: (١/٢٦٥)، تقريب التهذيب: (١/٢٤٦).

[٢٢]- أبو حيوة:

هو شريح بن يزيد، أبو حيوة الحضرمي - الحمصي، صاحب القراءة الشاذة ومقرئ الشام، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وهو والد حيوة بن شريح الحافظ، وله اختيار في القراءة، توفي سنة (٢٠٣هـ).
ينظر: غاية النهاية: (١/٣٥٢).

[٢٣]- خلف:

هو خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف، أبو محمد البغدادي المقرئ البزار، أحد الأعلام، أحد القراء العشرة، قرأ على سليم، وأبي يوسف الأعشى وغيرهما، كان ثقة كبيراً زاهداً عابداً عالماً، قرأ عليه أحمد بن يزيد الحلواني، وأحمد بن إبراهيم

وغيرهما، توفي سنة (٢٢٩هـ).

ينظر: تاريخ بغداد: (٣٢٢-٣٢٨)، معرفة القراء: (٢٠٨-٢١٠).

[٢٤]- الخليل:

هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، كان عالماً بالنحو والأدب، وهو أول من وضع علم العروض، توفي سنة (١٧٥هـ) وقيل غير ذلك. ينظر: طبقات النحويين واللغويين: (٤٣-٤٧).

[٢٥]- خنيس بن حذافة:

هو خنيس بن حذافة بن قيس بن عدي القرشي السهمي، كان من السابقين، وهاجر إلى الحبشة ثم رجع وهاجر إلى المدينة وشهد بدرًا وأصابته جراحة يوم أحد ومات منها، وكان زوج حفصة بنت عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قبل النبي -صلى الله عليه وسلم-. ينظر: الاستيعاب: (٤٣٩/١)، أسد الغابة: (١٤٧/٢)، الاصابة: (٤٥١/١).

[٢٦]- ربعي:

هو ربعي بن خراش الكوفي، ابن جحش بن عمرو بن عبدالله العبسي، يقال: أنه لم يكذب قط، وكان له ابنان عاصيان زمن الحجاج، ف قيل للحجاج: إن أباهما لا يكذب قط، لو أرسلت إليه فسألته عنهما، فأرسل إليه فقال له: أين ابنك؟ قال هما في البيت، قال: قد عفونا عنهما لصدقك، توفي سنة (١٠١هـ). ينظر وفيات الأعيان: (٦٠/٢)، تذكرة الحفاظ: (٦٩-٧٠).

[٢٧]- الربيع بن خثيم:

هو الربيع بن خثيم بن عائذ بن عبدالله الثوري، أبو يزيد الكوفي، ثقة عابد، مخضرم، قال له ابن مسعود -رضي الله عنه-: (لو رآك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لأحبك) توفي سنة (٦١هـ) وقيل غير ذلك.

ينظر: تقريب التهذيب: (٢٩٤/١).

[٢٨]- أبو رجاء العطاردي:

هو عمران بن ملحان، ويقال ابن تيم، أبو رجاء العطاردي، مشهور بكنيته، وقيل غير ذلك في اسم أبيه، مخضرم ثقة معمر، توفي سنة (١٠٥هـ). ينظر: معرفة القراء: (٥٨-٥٩)، تقريب التهذيب: (٧٥٣/١)، النجوم الزاهرة: (٢٤٣/١).

[٢٩]- أبو زيد:

هو سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري، أحد أئمة الأدب واللغة، من أهل البصرة، وهو من ثقات اللغويين، قال ابن الأنباري: كان سيويه إذا قال: ((سمعت الثقة)) عنى أبا زيد، توفي سنة (٢١٥هـ).

ينظر: طبقات النحويين واللغويين: (١٨٢-١٨٣)، بغية الوعاة: (١/٥٨٢-٥٨٣)، الأعلام: (٣/٩٢).

[٣٠]- ابن زيد:

هو عبدالله بن زيد بن أسلم العدوي، أبو محمد المدني، مولى آل عمر، روى عنه ابن المبارك وابن مهدي وآخرون، صدوق فيه لين، توفي سنة (١٦٤هـ).
ينظر: تقريب التهذيب: (١/٤٩٤).

[٣١]- السدي:

هو اسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة القرشي مولا هم الكوفي، الأعور، وهو السدي الكبير، كان يقعد من سدة باب الجامع بالكوفة يبيع بها المقانع فسمي بالسدي، روى عن أنس وابن عباس -رضي الله عنهما- وغيرهما، وروى عنه شعبة والثوري وغيرهما، صدوق يهم، توفي سنة (١٢٧هـ).

ينظر: تقريب التهذيب: (١/٩٧)، الأعلام: (١/٣١٧).

[٣٢]- سعد بن عبادة:

هو سعد بن عبادة بن دليم بن حارثة بن حرام بن خزيمة، سيد الخزرج يكنى أبا ثابت وأبا قيس، شهد العقبة واحداً، خرج إلى الشام ومات بحدوران سنة (١٥هـ).
ينظر: الاصابة: (٢/٢٧-٢٨).

[٣٣]- سعيد بن جبير:

هو سعيد بن جبير بن هشام الوالبي مولا هم الكوفي، المقرئ الفقيه، أحد الأعلام، سمع ابن عباس وعدي بن حاتم وابن عمر وطائفة، قتله الحجاج سنة (٩٥هـ)، قال ميمون بن مهران: مات سعيد بن جبير وما على الأرض رجل إلا وهو يحتاج إلى علمه.

ينظر: طبقات الفقهاء للشيرازي: (٨٢)، تذكرة الحفاظ: (٧٦/١).

[٣٤]- ابن السميع:

هو محمد بن عبد الرحمن بن السميع، أبو عبدالله اليماني، قرأ على أبي حيو شريح بن يزيد عن أبي البرهسم، وقرأ عليه إسماعيل بن مسلم المكي.
ينظر: غاية النهاية: ١٦١/٢-١٦٢.

[٣٥]- شريح:

هو شريح بن محمد بن شريح بن أحمد، الإمام أبو الحسن الرعيني الاشيلي، المقرئ الأستاذ، روى الكثير عن أبيه، وقرأ عليه القراءات، حدث عنه محمد بن خلف ومحمد بن جعفر، وخلق كثير، توفي سنة (٥٣٩هـ).
ينظر: معرفة القراء: (٤٩١/١)، غاية النهاية: (٣٢٤-٣٢٥/١).

[٣٦]- الشعبي:

هو أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد الهمداني الكوفي، كان إماماً حافظاً فقيهاً متقناً متفنناً ثباً، أقام بالمدينة هارباً من المختار أشهراً فسمع من ابن عمر، وتعلم الحساب من الحارث الأعور، وشهد وقعة الجمام مع ابن الأشعث، ثم نجا من سيف الحجاج وعفا عنه، وولي قضاء الكوفة، مات سنة (١٠٤) وقيل غير ذلك.
ينظر: حلية الأولياء: (٣١٠/٤)، تأريخ بغداد: (٢٢٧/١٢)، طبقات الفقهاء للشيرازي: (٨١)، الأعلام: (٢٥١/٣).

[٣٧]- الصاغاني:

هو الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر العدوي العمري الصاغاني الحنفي رضي الدين، أعلم أهل عصره في اللغة، وكان فقيهاً محدثاً، له تصانيف كثيرة منها (مجمع البحرين) و(التكملة) و(الأضداد)، مات سنة (٦٥٠هـ).
ينظر: تاج التراجم: (٢٤)، الأعلام: (٢١٤/٢).

[٣٨]- الضحاك:

هو الضحاك بن مزاحم البلخي، المفسر أبو القاسم كناه ابن معين، وأما الفلاس

فكناه أبا محمد، وقال يحيى بن سعيد: الضحاك ضعيف عندنا، لكن وثقه أحمد وابن معين وأبو زرعة، مات سنة (١٠٥هـ) وقيل غير ذلك.

ينظر: تقريب التهذيب: (١/٤٤٤)، الأعلام (٣/٢١٥).

[٣٩]- طلحة بن مصرف:

هو طلحة بن مصرف بن عمرو بن كعب، أبو محمد، ويقال أبو عبدالله الهمداني اليافي الكوفي، تابعي كبير، أخذ القراءة عَرَضاً عن إبراهيم بن يزيد النخعي والأعمش، وروى القراءة عَرَضاً عنه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وعيسى بن عمر الهمداني، مات سنة (١١٢هـ).

ينظر: غاية النهاية: (١/٣٤٣)، الأعلام: (٣/٢٣٠).

[٤٠]- عاصم:

هو عاصم بن أبي النجود الأسدي مولا هم الكوفي، القارئ الإمام أبو بكر، أحد القراء السبعة، اسم أبيه بهدلة على الصحيح، قرأ القرآن على أبي عبد الرحمن السلمي، وزر بن حبيش الأسدي وغيرهما، وهو معدود من التابعين، وقرأ عليه الأعمش وحفص وغيرهما، وإليه انتهت الإمامة في القراءة بالكوفة، بعد شيخه أبي عبد الرحمن السلمي، وثقه أبو زرعة وجماعة، مات سنة (١٢٧هـ)، وقيل غير ذلك.

ينظر: الجرح والتعديل: (٦/٣٤٠)، معرفة القراء: (١/٨٨) وما بعدها، غاية النهاية: (١/٣٤٦-٣٤٩)، شذرات الذهب: (١/١٧٥).

[٤١]- ابن عامر:

هو عبدالله بن عامر بن يزيد بن تميم بن ربيعة بن عامر بن عبدالله بن عمران اليحصبي، إمام أهل الشام في القراءة، أخذ القراءة عن أبي الدرداء، والمغيرة بن أبي شهاب، روى القراءة عنه عَرَضاً يحيى بن الحارث الذماري وأخوه عبد الرحمن بن عامر وغيرهما، توفي بدمشق يوم عاشوراء سنة (١١٨هـ).

ينظر: معرفة القراء: (١/٨٢-٨٦)، غاية النهاية: (١/٤٢٣-٤٢٥)، شذرات الذهب: (١/١٥٦).

[٤٢]- ابن أبي عبله:

هو إبراهيم بن أبي عبله شمر بن يقطان العقيلي، الرملي المقدسي، الدمشقي، من أهل الرملة، تابعي كبير ثقة، كان أديباً بارعاً متمكناً من اللغة، خطيباً، إلا أن خطبه ضاعت وبقيت آثارها، كان تقياً محبوباً عند عمر بن عبد العزيز، توفي سنة (١٥٢هـ).

ينظر: تقريب التهذيب: (١/٦١)، شذرات الذهب: (١/٢٣٣).

[٤٣]- عطاء:

هو عطاء بن أبي رباح أسلم القرشي مولاهم المكي أبو محمد، روى عن العبادلة الأربعة وغيرهم، كان ثقة فقيهاً عالماً، كثير الحديث من أئمة الأمصار وأجلاء الفقهاء، مات بمكة سنة (١١٤هـ) وقيل غير ذلك.
ينظر: طبقات الفقهاء للشيرازي: (٦٩).

[٤٤]- عكرمة:

هو عكرمة بن عبدالله، مولى ابن عباس، أصله بربري ثقة ثبت، عالم بالتفسير، لم يثبت تكذيبه عن ابن عمر، ولا يثبت عنه بدعة، مات سنة (١٠٧هـ) وقيل قبل ذلك، اتهم برأي الخوارج.
ينظر: تهذيب التهذيب: (٧/٢٦٣).

[٤٥]- العلاني:

هو خليل بن كيكلي بن عبدالله، أبو سعيد العلاني الدمشقي الشافعي، محدث فقيه، كان من الجند الأتراك ثم تزى بزي الفقهاء، من مؤلفاته (الأشباه والنظائر) و(برهان التيسير في عنوان التفسير)، توفي سنة (٧٦١هـ).
ينظر: شذرات الذهب: (٦/١٩٠)، الأعلام: (٢/٣٢١).

[٤٦]- أبو عمرو:

هو زبان بن العلاء بن عمار بن العريان، أبو عمرو التميمي المازني البصري أحد القراء السبعة، سمع أنس بن مالك وغيره، وقرأ على الحسن بن أبي الحسن البصري وحميد بن قيس الأعرج وغيرهما، روى القراءة عنه عَرَضاً وسماعاً أحمد بن محمد بن

عبدالله الليثي وغيره، مات بالكوفة سنة (١٥٤هـ) وقيل غير ذلك.

ينظر: غاية النهاية: (٢٨٨/١) وما بعدها.

[٤٧]- ابن عيسى:

هو عيسى بن عبد العزيز بن عيسى بن عبد الواحد الموفق، أبو القاسم الشريشي الأصل، ثم الاسكندري المالكي، إمام في القراءات، جمع فأوعى ولكنه خلط كثيراً وأتى بشيوخ لا تعرف وأسانيد لا توصف، فضعف بسبب ذلك واتهم بالكذب، توفي سنة (٦٢٩هـ) بالاسكندرية.

ينظر: معرفة القراء: (٦١٤/٢) وما بعدها، لسان الميزان: (٤٠١/٤)، الأعلام: (١٠٤/٥-١٠٥).

[٤٨]- أبو الفتح الهمداني:

هو محمد بن أحمد بن بختيار، أبو الفتح الميداني، الواسطي، القاضي، إمام مقرئ مسند العراق، سمع القراءات من أبي عبدالله البار، كان حسن المعرفة، جيد الأصول، صحيح النقل متيقظاً، روى الكثير وصار أسند أهل زمانه، مات سنة (٦٠٥هـ).

ينظر: معرفة القراء: (٥٨٨-٥٨٩/٢)، غاية النهاية: (٥٦/٢).

[٤٩]- قتادة:

هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة بن عزنين بن عمرو بن ربيعة، السدوسي، البصري، كان تابعياً، عالماً كبيراً، كان قتادة من أنسب العرب، توفي بواسط سنة (١١٧هـ) وقيل غير ذلك.

ينظر: صفة الصفوة: (١٤٦/٣)، تذكرة الحفاظ: (١٢٢/١)، تهذيب التهذيب: (٣٥٧-٣٥١/٨).

[٥٠]- القفال الشاشي:

هو محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي، القفال الكبير، من أكابر علماء عصره بالفقه والحديث واللغة والأدب، وهو أول من صنف الجدل الحسن من الفقهاء، توفي سنة (٣٦٥هـ).

ينظر: وفيات الأعيان: (٣٣٨-٣٣٩)، طبقات الشافعية للأسنوي: (٤/٢)-
(٥)، شذرات الذهب: (٣/٥١-٥٢)، الأعلام: (٦/٢٧٤).

[٥١]- ابن كثير:

هو عبدالله بن كثير بن المطلب الإمام، أبو معبد، مولى عمرو بن علقمة الكناني الداري المكي، إمام المكيين في القراءة، قرأ على عبدالله بن السائب، ومجاهد وغيرهما، قرأ عليه أبو عمرو بن العلاء، وشبل بن عباد وغيرهما، قال عنه ابن معين: ثقة، مات سنة (١٢٠هـ) وقيل غير ذلك.

ينظر: وفيات الأعيان: (٢/٢٤٥)، معرفة القراء: (١/٨٦-٨٨)، غاية النهاية: (١/٤٤٣)، شذرات الذهب: (١/١٥٧).

[٥٢]- الكسائي:

هو علي بن حمزة الكسائي الإمام، أبو الحسن الأسدي مولاهم الكوفي المقرئ النحوي، أحد الأعلام، قرأ القرآن على حمزة الزيات، وعيسى بن عمر الهمداني وغيرهما، قرأ عليه أبو عمر الدوري، وأبو الحارث الليثي وغيرهما، كان أعلم الناس بالنحو وواحدتهم في الغريب، وكان أوجد الناس في القرآن، مات سنة (١٨٩هـ) وقيل غير ذلك.

ينظر: معرفة القراء: (١/١٢٠) وما بعدها، شذرات الذهب: (١/٣٢١).

[٥٣]- كلدة بن حنبل:

هو كلدة بن حنبل ويقال ابن عبدالله بن حنبل، قال البخاري: له صحبة، كان ممن سقط من اليمن إلى مكة، كان مولى لعمر بن حبيب الجمحي ثم انتسب في بني جمح، كان متصلاً بصفوان بن أمية يخدمه لا يفارقه في سفر ولا حضر، ثم أسلم بإسلام صفوان، ولم يزل مقيماً بمكة إلى أن توفي فيها.

ينظر: أسد الغابة: (٤/٤٩٦)، الإصابة: (٣/٢٨٨).

[٥٤]- مجاهد:

هو مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكي المخزومي مولى السائب بن أبي السائب، عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، قال خفيف: كان مجاهد أعلم

بالتفسير وعطاء بالحج، وقال مجاهد: قال لي ابن عمر: وددت أن نافعاً يحفظ حفظك، مات سنة (١٠٠هـ) وقيل غير ذلك.

ينظر: تذكرة الحفاظ: (٩٢/١)، شذرات الذهب: (١٢٥/١)، الأعلام: (٢٧٨/٥).

[٥٥]- محمد بن سيرين:

هو محمد بن سيرين الأنصاري، أبو بكر البصري، ثقة ثبت عابد كبير القدر، مولى أنس بن مالك، من سبي عين التمر، مات سنة (١١٠هـ).

ينظر: تاريخ بغداد: (٣٣١/٥) وما بعدها، تذكرة الحفاظ: (٧٧/١).

[٥٦]- ابن محيصة:

هو محمد بن عبد الرحمن بن محيصة السهمي مولا هم المكي، قارئ أهل مكة مع ابن كثير وحميد الأعرج، قرأ القرآن على سعيد بن جبير، ومجاهد وغيرهما، قرأ عليه شبيل بن عباد، وأبو عمرو بن العلاء وغيرهما، توفي سنة (١٢٣هـ).

ينظر: معرفة القراء: (٩٨-٩٩/١)، غاية النهاية: (١٦٧/٢)، شذرات الذهب: (١٦٢/١).

[٥٧]- أبو مسلم الأصفهاني:

هو محمد بن بحر الأصفهاني، أبو مسلم، وال، من أهل أصفهان، معتزلي، من كبار الكتاب، كان عالماً بالتفسير وغيره من صنوف العلم، وله شعر، ولي أصفهان وبلاد فارس للمقتدر العباسي، واستمر إلى أن دخل ابن بويه أصفهان سنة (٣٢١هـ)، فعزل، من كتبه (جامع التأويل) في التفسير، و(مجموع رسائله)، توفي سنة (٣٢٢هـ).

ينظر: الأعلام: (٥٠/٦).

[٥٨]- معمر:

هو معمر بن راشد الأزدي الحداني مولا هم، أبو عروة البصري، سكن اليمن، شهد جنازة الحسن البصري، روى عن قتادة والزهري وغيرهما، روى عنه أبو إسحاق السبيعي وأيوب وآخرون، ثقة ثبت فاضل، مات سنة (١٥٤هـ).

ينظر: تقريب التهذيب: (٢/٢٠٢)، شذرات الذهب: (١/٢٣٥)، الأعلام: (٧/٢٧٢).

[٥٩]- المقداد:

هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك البهراوي، المعروف بالمقداد بن الأسود الكندي، قديم الاسلام من السابقين، هاجر الهجرتين، وشهد بدرأً والمشاهد بعدها، مات سنة (٣٣هـ) في خلافة عثمان بن عفان بالمدينة.
ينظر: أسد الغابة: (٥/٢٥١).

[٦٠]- نافع:

هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي، مولاهم أبو رويم المقرئ المدني، أحد الأعلام، قرأ على طائفة من تابعي أهل المدينة، وقرأ عليه مالك وإسماعيل بن جعفر وغيرهما، قال مالك: نافع إمام الناس في القراءة، مات سنة (١٦٩هـ).
ينظر: وفيات الأعيان: (٥/٣٦٨-٣٦٩)، معرفة القراء: (١/١٠٧-١١١)، غاية النهاية: (٢/٣٣٠-٣٣٤).

[٦١]- النخعي:

هو إبراهيم بن يزيد بن قيس، أبو عمران، روى عن علقمة ومسروق، أخذ عنه حماد بن أبي سليمان وغيره، ثقة، قال الأعمش: كان صيرفياً في الحديث، مات سنة (٩٥هـ) وهو متوارٍ من الحجاج، ودفن ليلاً.
ينظر: وفيات الأعيان: (١/٦)، تذكرة الحفاظ: (١/٧٣).

[٦٢]- النقاش:

هو محمد بن الحسن بن محمد بن زياد الموصلي ثم البغدادي، أبو بكر النقاش المقرئ المفسر، روى عن أبي مسلم الكجي وطبقته، وصار شيخ المقرئين في عصره على ضعف فيه، قال أبو القاسم اللالكائي: تفسير النقاش شقاء الصدور وليس بشفاء الصدور، مات النقاش سنة (٣٥١هـ).

ينظر: تاريخ بغداد: (٢/٢٠١)، معرفة القراء: (١/٢٩٤-٢٩٨)، لسان الميزان: (٥/١٤٩-١٥٠).

[٦٣]- هشام:

هو هشام بن عمار بن نصير بن ميسرة، أبو الوليد السلمي، إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم، أخذ القراءة عَرَضاً عن أيوب بن تميم وعراك ابن خالد وغيرهما، روى القراءة عنه أبو عبيد القاسم بن سلام، وأحمد بن يزيد الحلواني وغيرهما، وثقه يحيى بن معين، وقال النسائي: لا بأس به، توفي سنة (٢٤٥هـ).

ينظر: معرفة القراء: (١/١٩٥ - ١٩٨)، تذكرة الحفاظ: (٢/٤٥١)، البداية والنهاية: (١٠/٣٦٤).

[٦٤]- وائلة بن الأسقع:

هو وائلة بن الأسقع بن كعب بن عامر، كان من أهل الصفة ثم نزل الشام، شهد فتح دمشق وحمص وغيرهما، مات في خلافة عبد الملك سنة (٨٣هـ) وهو آخر من مات بدمشق من الصحابة.

ينظر: الإصابة: (٣/٥٨٩-٥٩٠).

[٦٥]- ابن وثاب:

هو يحيى بن وثاب الأسدي الكوفي، مولى بني أسد، كان قارئاً عابداً، له في الحديث باع طويل، تابعي جليل، روى عن ابن عباس وابن عمر -رضي الله عنهما- وقرأ عليه الأعمش وطلحة بن مصرف، توفي سنة (١٠٣هـ).

ينظر: معرفة القراء: (١/٦٢-٦٥)، غاية النهاية: (٢/٣٨٠)، الأعلام: (٨/١٧٦).

[٦٦]- ورش:

هو عثمان بن سعيد، أبو سعيد المصري المقرئ، الملقب بورش، شيخ القراء المحققين وإمام أهل الأداء المرتلين، انتهت إليه رئاسة الاقراء بالديار المصرية في زمانه، قرأ القرآن وجوده على نافع عدة ختمات، قرأ عليه أحمد بن صالح الحافظ، وداد بن أبي طيبة وغيرهما، كان ثقة حجة في القراءة، مات سنة (١٩٧هـ).

ينظر: معرفة القراء: (١/١٥٢-١٥٥)، غاية النهاية: (١/٥٠٢-٥٠٣)، شذرات

الذهب: (١/٣٤٩).

[٦٧]- ابن وهب:

هو عبدالله بن وهب بن مسلم، أبو محمد القرشي بالولاء، الفقيه المالكي المصري، مولى ربحانة مولاة أبي عبد الرحمن يزيد بن أنس، كان أحد أئمة عصره، وصاحب الإمام مالك بن أنس، له مصنفات معروفة بالفقه، وكان محدثاً، توفي سنة (١٩٧هـ).

ينظر: وفيات الأعيان (٢/ ٢٤٠-٢٤٢)، الديباج المذهب: (١٣٢-١٣٣).

[٦٨]- يحيى بن يعمر:

هو يحيى بن يعمر العدواني، أبو سليمان البصري، أخذ القراءة عَرَضاً عن أبي الأسود الدؤلي، قرأ عليه أبو عمرو بن العلاء، وحدث عنه قتادة، توفي قبل المائة وقيل بعدها.

ينظر: طبقات النحويين واللغويين: (٢٢-٢٣)، معرفة القراء: (١/ ٦٧-٦٨)، بغية الوعاة: (٢/ ٣٤٥)، الأعلام: (٨/ ١٧٧).

[٦٩]- يعقوب:

هو يعقوب بن اسحاق الحضرمي، قارئ أهل البصرة في عصره، الإمام أبو محمد، قرأ القرآن على أبي الأشهب العطاردي، ومهدي بن ميمون وغيرهما، وقرأ عليه روح بن عبد المؤمن، ومحمد بن المتوكل وغيرهما، قال أحمد بن حنبل: هو صدوق، توفي سنة (٢٠٥هـ).

ينظر: معرفة القراء: (١/ ١٥٧-١٥٨)، غاية النهاية: (٢/ ٣٨٦-٣٨٩)، شذرات الذهب: (٢/ ١٤).

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

[١]- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: لأحمد بن عبد الغني الدمياطي (ت ١١١٧هـ)، علق عليه: علي الضباع، مطبعة دار الندوة، بيروت، بدون تاريخ.

[٢]- الاتقان في علوم القرآن: لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، مطبعة دار الندوة الجديدة، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.

[٣]- أحكام القرآن: للإمام أبي بكر أحمد بن علي الجصاص (ت ٣٧٠هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.

[٤]- أحكام القرآن: لأبي بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي (ت ٥٤٣هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، مطبعة دار الجيل، بيروت - لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

[٥]- أحكام القرآن: لأبي عبدالله محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤هـ)، جمعه: أحمد بن الحسين البيهقي، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

[٦]- أحكام القرآن: للإمام عماد الدين علي بن محمد الطبري المعروف بالكنيا الهراسي (ت ٥٠٤هـ) تحقيق: موسى محمد علي والدكتور عزت علي عبيد، مطبعة حسان، القاهرة، بدون تاريخ.

[٧]- الأدب المفرد: للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦هـ)، المطبعة التازية، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.

[٨]- أربعون نصيحة لإصلاح البيوت: لمحمد صالح المنجد، مطبعة دار

الخضيرى، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، (١٤١٧هـ).

[٩]- إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري: لأبي العباس شهاب الدين أحمد ابن محمد القسطلاني (ت ٩٢٣هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، مطبوع عن الطبعة السابعة، بولاق - مصر، (١٣٢٣هـ).

[١٠]- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: لأبي السعود محمد العمادي (ت ٩٥١هـ) مطبعة محمد علي صبيح، مصر، بدون تأريخ.

[١١]- إرشاد المبتدي إلى تذكرة المنتهي في القراءات العشر: للإمام أبي العز محمد بن الحسين بن بندار الواسطي (ت ٥٢١هـ)، تحقيق: عمر حمدان الكبيسي، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

[١٢]- أساس البلاغة: لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الرحيم محمود، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م.

[١٣]- الأساس في التفسير: للشيخ سعيد حوى، مطبعة دار السلام، الطبعة الثانية، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

[١٤]- أسباب اختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعية: للدكتور مصطفى إبراهيم الزلمي، مطبعة الدار العربية للطباعة، بغداد، الطبعة الأولى، (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م).

[١٥]- أسباب النزول: لأبي الحسن الواحدي (ت ٤٦٨هـ)، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

[١٦]- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر القرطبي المالكي (ت ٤٦٣هـ)، مطبوع بأسفل الإصابة، طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر، ١٣٥٩هـ - ١٩٣٩م.

[١٧]- أسد الغابة في معرفة الصحابة: لأبي الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠هـ)، تحقيق: محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور، طبعة دار الشعب، بدون تأريخ.

[١٨]- أسرار التكرار في القرآن: لمحمود بن حمزة بن نصر الكرمانى (ت ٥٠٥هـ)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مطبعة دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، بدون تاريخ.

[١٩]- الأشباه والنظائر في القرآن الكريم: لمقاتل بن سليمان البلخى (ت ١٥٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبدالله محمود شحاته، مطبعة المكتبة العربية، القاهرة - مصر، (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

[٢٠]- الإصابة في تمييز الصحابة: للحافظ أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر، (١٣٥٩هـ - ١٩٣٩م).

[٢١]- إصلاح الوجوه والنظائر: للحسن بن محمد الدامغاني (ت ٤٧٨هـ)، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).

[٢٢]- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: لمحمد الأمين بن محمد الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ)، مطبعة عالم الكتب، بيروت، بدون تاريخ.

[٢٣]- الإعجاز العلمي في الإسلام للقرآن الكريم: لمحمد كامل عبد الصمد، مطبعة الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

[٢٤]- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم: لأبي عبدالله الحسن بن أحمد بن خالويه (ت ٣٧٠هـ)، مطبعة دار الكتب المصرية، (١٣٦١هـ - ١٩٤١م).

[٢٥]- إعراب القرآن: لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس (ت ٣٣٨هـ)، تحقيق: الدكتور زهير غازي زاهد، مطبعة عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

[٢٦]- الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

[٢٧]- الاقتناع في القراءات السبع: لأبي جعفر أحمد بن علي الأنصاري المعروف بابن الباذش (ت ٥٤٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الحميد قطامش، مطبعة دار الفكر، دمشق - سوريا، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

[٢٨]- الإكليل في استنباط التنزيل: لجلال الدين السيوطي، مطبعة دار العهد الجديد، بدون تاريخ.

[٢٩]- الأمة والعوامل المكونة لها: لمحمد المبارك، دار الفكر، دمشق، بدون تاريخ.

[٣٠]- الأمثال في القرآن الكريم: للدكتور محمد جابر الفياض، مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

[٣١]- أمثال القرآن: لابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: الدكتور موسى بناي العلي، بدون تاريخ.

[٣٢]- إملأ ما منَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن: لأبي البقاء عبد الله بن حسين العكبري (ت ٦١٦هـ)، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

[٣٣]- الانتصاف على الكشاف: لأحمد بن المنير الاسكندري (ت ٦٨٣هـ)، مطبوع بأسفل الكشاف، مطبعة دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تاريخ.

[٣٤]- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: لناصر الدين البضاوي (ت ٦٨٥هـ)، طبعة حجرية، بدون تاريخ.

[٣٥]- أنيس الفقهاء في تعريفات الألفاظ المتداولة بين الفقهاء: للشيخ قاسم القونوي (ت ٩٧٨هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد عبد الرزاق الكيسي، نشر دار الوفاء، السعودية، جدة، الطبعة الأولى، (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

[٣٦]- أولى ما قيل في آيات التنزيل: لرشيد الخطيب الموصلي، سنة الطبع (١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م).

- [٣٧]- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: لأبي بكر جابر الجزائري، مطبعة مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).
- [٣٨]- بحر العلوم: لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي (ت ٣٧٥هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الرحيم أحمد الزقة، مطبعة الارشاد، بغداد، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- [٣٩]- البحر المحيط في أصول الفقه: للإمام بدر الدين محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، قام بتحريه: الدكتور عبد القادر عبدالله العاني والدكتور عمر سليمان الأشقر والدكتور عبد الستار أبو غدة، بعناية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- [٤٠]- البحر المحيط: لأبي حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، مطبعة دار الفكر، بدون تأريخ.
- [٤١]- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: للإمام علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني (ت ٥٨٧هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
- [٤٢]- البداية والنهاية: لأبي الفداء الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ)، مطبعة المعارف، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م).
- [٤٣]- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: لعبد الفتاح القاضي، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).
- [٤٤]- بديع القرآن: لابن أبي الأصبع المصري (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق: الدكتور حنفي محمد شرف، مطبعة دار النهضة، مصر، الطبعة الثانية، بدون تأريخ.
- [٤٥]- البرهان في علوم القرآن: لبدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، (١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م).

[٤٦]- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: لكمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني (ت ٦٥١هـ)، تحقيق: الدكتور أحمد مطلوب وغيره، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، (١٣٩٣هـ - ١٩٧٤م).

[٤٧]- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ)، تحقيق، محمد علي النجار، دار التحرير، القاهرة، (١٣٨٥هـ).

[٤٨]- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: للحافظ السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، بدون تأريخ.

[٤٩]- بلغة السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك: لأحمد بن محمد الصاوي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأخيرة، (١٣٧١هـ - ١٩٥٢م).

[٥٠]- البيان في غريب إعراب القرآن: لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن سعيد الأنباري، تحقيق: الدكتور طه عبد الحميد، مراجعة مصطفى السقا، مطبعة الكتاب العربي، القاهرة (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م).

[٥١]- تاج التراجم في طبقات الحنفية: للشيخ زين الدين أبي العدل قاسم بن قطلوبغا (ت ٨٧٩هـ)، مطبعة العاني، بغداد، (١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م).

[٥٢]- تاج العروس من جواهر القاموس: للسيد محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، المطبعة الخيرية، مصر، الطبعة الأولى، (١٣٠٦هـ).

[٥٣]- تأريخ بغداد أو مدينة السلام: للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، بدون تأريخ.

[٥٤]- التأريخ الكبير: للإمام البخاري، مطبعة دار الفكر، بيروت - لبنان، بدون تأريخ.

- [٥٥]- تأملات في سورة الأحزاب: للدكتور حسن باجودة، مطبعة الصفا - نادي مكة الثقافي، (١٤٠٣هـ).
- [٥٦]- التبصرة في القراءات: لمكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ)، تحقيق: الدكتور محيي الدين رمضان، مطبعة منشورات المنظمة العربية للثقافة والعلوم، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- [٥٧]- تبصير الرحمن وتيسير المنان: لغلي بن أحمد بن إبراهيم المهامي (ت ٨٣٥هـ)، مطبعة عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- [٥٨]- التحرير والتنوير: للعلامة محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، بدون تاريخ.
- [٥٩]- تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).
- [٦٠]- تخريج الفروع على الأصول: للإمام شهاب الدين محمود بن أحمد الزنجاني (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق: الدكتور محمد أديب صالح، مطبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).
- [٦١]- تذكرة الحفاظ: للإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.
- [٦٢]- التسهيل لعلوم التنزيل: لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي (ت ٧٤١هـ)، مطبعة دار الفكر، بدون تاريخ.
- [٦٣]- التشبيهات القرآنية والبيئة العربية: لواجدة مجيد الأطرقي، مطبعة وزارة الثقافة والفنون، العراق، (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).
- [٦٤]- التصوير الفني: لسيد قطب، مطبعة دار المعارف، (١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م).
- [٦٥]- التعبير الفني في القرآن: للدكتور بكري شيخ أمين، دار الشروق،

- بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م).
- [٦٦]- التعبير القرآني: للدكتور فاضل صالح السامرائي، جامعة بغداد، بيت الحكمة، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- [٦٧]- التعريفات: لأبي الحسن علي بن محمد الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، بدون تأريخ.
- [٦٨]- تفسير التبيان: لمحمد بن الحسن الطوسي، تحقيق: أحمد حبيب العامري، مطبعة النعمان، النجف، (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).
- [٦٩]- تفسير الجلالين: لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين السيوطي، مطبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تأريخ.
- [٧٠]- التفسير الحديث: لمحمد عزة دروزة، مطبعة دار إحياء التراث العربي، (١٣٨١هـ - ١٩٦٢م).
- [٧١]- تفسير سفيان بن عيينة: الدكتور أحمد صالح المحاييري، مطبعة المكتبة الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- [٧٢]- تفسير سورة النور: لأبي الأعلى المودودي، مطبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
- [٧٣]- تفسير سورة النور: للشيخ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية (ت ٧٢٨هـ)، مراجعة وتخريج: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مطبعة الدار السلفية، الهند، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- [٧٤]- تفسير ابن عرفة: لمحمد بن محمد بن عرفة الورغمي (ت ٨٠٣هـ)، تحقيق: الدكتور حسن المناعي، تونس، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- [٧٥]- تفسير غريب القرآن: لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق: السيد أحمد الصقر، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

- [٧٦]- التفسير الفريد للقرآن المجيد: للدكتور محمد عبد المنعم الجمال، بدون تاريخ.
- [٧٧]- تفسير القرآن العظيم: لابن كثير، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، مصر، بدون تاريخ.
- [٧٨]- التفسير القرآني للقرآن: لعبد الكريم الخطيب، مطبعة السنة المحمدية، بدون تاريخ.
- [٧٩]- التفسير الكبير: لابن تيمية، تحقيق: الدكتور عبد الرحمن عميرة، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- [٨٠]- التفسير الكبير: للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، المطبعة البهية، مصر، الطبعة الأولى، (١٣٥٨هـ - ١٩٣٨م).
- [٨١]- تفسير المراغي: لأحمد مصطفى المراغي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثالثة، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- [٨٢]- تفسير المنار: للأستاذ محمد عبده، مطبعة المنار، مصر، الطبعة الرابعة، ١٣٧٣هـ.
- [٨٣]- التفسير المنير: لمحمد أديب حسون، مطبعة دار الكتاب النفيس، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٨هـ).
- [٨٤]- التفسير المنير لمعالم التنزيل المفسر عن وجوه محاسن التأويل: للعلامة محمد نوي العجاوي، مطبعة دار الفكر، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).
- [٨٥]- التفسير الواضح: للشيخ محمد محمود حجازي، مطبعة الاستقلال الكبرى، الطبعة الثالثة، (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).
- [٨٦]- التفسير الوسيط للقرآن الكريم: للشيخ محمد سيد طنطاوي، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة السادسة، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- [٨٧]- تقريب التهذيب: لابن حجر العسقلاني، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد

القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).

[٨٨]- تلخيص البيان في مجازات القرآن: للشريف الرضي، تحقيق: الدكتور علي محمود مقلد، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

[٨٩]- تناسق الدرر في تناسب السور: لجلال الدين السيوطي، تحقيق: عبدالله محمد الدرويش، مطبعة دار الكتاب العربي، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

[٩٠]- تنوير الأذهان من تفسير روح البيان: للشيخ إسماعيل حقي البروسوي (ت ١١٣٧هـ)، اختصار وتحقيق: محمد علي الصابوني، مطبعة الدار الوطنية، بغداد، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

[٩١]- تهذيب التهذيب: لابن حجر العسقلاني، طبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد، الدكن - الهند، (١٣٢٦هـ).

[٩٢]- تهذيب اللغة: لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: علي حسن هلالي، مطابع سجل العرب، القاهرة - مصر، بدون تاريخ.

[٩٣]- التيسير في أحاديث التفسير: للشيخ محمد المكي الناصري، مطبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

[٩٤]- التيسير في القراءات السبع: لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ)، عني بتصحيحه اوتو هرتزل، مطبعة الدولة، اسطنبول - تركيا، (١٣٥٠هـ - ١٩٣٠م).

[٩٥]- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، (١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م).

[٩٦]- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي

- (ت٦٧١هـ)، مطبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.
- [٩٧]- جامع العلوم في اصطلاحات الفنون الملقب بدستور العلماء: للقاضي عبد النبي عبد الرسول الأحمدى تكري، مؤسسة الأعلمى للمطبوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).
- [٩٨]- الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: لمحمود صافي، مطبعة النهضة، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ - ١٩٩١م).
- [٩٩]- الجرح والتعديل: لأبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت٣٢٧هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.
- [١٠٠]- الجمان في تشبيهات القرآن: لابن نايقا البغدادى (ت٤٨٥هـ)، تحقيق: عدنان محمد زرزور ومحمد رضوان الداية، المطبعة المحمدية، الكويت، الطبعة الأولى، (١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م).
- [١٠١]- جمهرة اللغة: للشيخ أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت٣٢١هـ)، مطبعة المعارف العثمانية، الهند، الطبعة الأولى، (١٣٤٥هـ).
- [١٠٢]- الجهاد والنصر: للدكتور عبد الحليم محمود، مطبعة دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، بدون تاريخ.
- [١٠٣]- الجواهر في تفسير القرآن الكريم: للشيخ طنطاوي جوهري، مطبعة دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٥٠هـ).
- [١٠٤]- حاشية رد المحتار على الدر المختار: لمحمد أمين الشهير بابن عابدين (ت١٢٥٢هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، (١٩٦٦م).
- [١٠٥]- حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الرازي على تفسير البضاوي: لأحمد بن محمد بن شهاب الدين، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.
- [١٠٦]- حاشية الشيخ زاده على البضاوي: (ت١٠٧٨هـ) مطبوع بهامش أنوار التنزيل، طبعة حجرية، بدون تاريخ.

[١٠٧]- حاشية الصاوي على الجلالين: للشيخ أحمد الصاوي (ت ١٢٤١هـ)،
مطبعة الكتب العربية، بدون تاريخ.

[١٠٨]- الحجة في علل القراءات السبع: لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي
(ت ٣٧٧هـ)، تحقيق: علي النجدي وآخرين، مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب،
الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

[١٠٩]- الحجة في القراءات السبع: لإبن خالويه، تحقيق: عبد العال سالم
مكرم، مطبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

[١١٠]- حجة القراءات: لأبي زرعة عبد الرحمن محمد بن زنجلة (ت ٤٠٥هـ)،
تحقيق: سعيد الأفغاني، مطبعة مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية،
(١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

[١١١]- حسن البيان لتفسير القرآن: لمحمد طه الباليساني، مطبعة دار الحرية،
بغداد، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

[١١٢]- حكم ابن عطاء الله السكندري: بشرح العارف بالله الشيخ أحمد
زروق، تحقيق: عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، مطبعة دار
الشعب، القاهرة، (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م).

[١١٣]- الحكمة في مخلوقات الله: لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي
(ت ٥٠٥هـ)، تحقيق: الدكتور محمد رشيد قباني، مطبعة دار إحياء التراث العربي،
بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ - ١٩٧٨م).

[١١٤]- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله
الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية،
(١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م).

[١١٥]- حواشي الشرواني وابن قاسم العبادي على تحفة المحتاج في شرح
المنهاج: دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

[١١٦]- حياة الحيوان الكبرى: لكمال الدين الدميري (ت ٨٠٨هـ)، مطبعة دار

الفكر، بيروت - لبنان، بدون تأريخ.

[١١٧]- الحيوان: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، (١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م).

[١١٨]- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب على شواهد شرح الكافية: للشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي (ت١٠٩٣هـ)، المطبعة الأميرية الكبرى، بولاق - مصر، الطبعة الأولى، بدون تأريخ.

[١١٩]- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: لشهاب الدين أبي العباس بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت٧٥٦هـ)، تحقيق: الشيخ علي محمد عوض وآخرين، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).

[١٢٠]- الدر المثور في التفسير بالمأثور: لجلال الدين السيوطي، طبع بالآوفست في المطبعة الإسلامية بطهران، (١٣٧٧هـ).

[١٢١]- الدقائق المحكمة في شرح المقدمة الجزرية: لزكريا بن محمد الأنصاري (ت٩٢٦هـ)، تحقيق: الدكتور نسيب نشاوي، مطبعة دار المكتبي، دمشق - سوريا، الطبعة الثانية، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

[١٢٢]- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: للإمام برهان الدين بن محمد بن فرحون المالكي (ت٧٩٩هـ)، مطبعة عبد السلام بن شقرون بالفحامين، مصر، الطبعة الأولى، (١٣٥١هـ).

[١٢٣]- ديوان حاتم الطائي: تحقيق كرم البستاني، مكتبة صادر، بيروت، (١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م).

[١٢٤]- ديوان مجنون ليلى: تحقيق: عبد الستار فراج، دار مصر، (١٣٨٢هـ).

[١٢٥]- روائع البيان: لمحمد علي الصابوني، نشر مكتبة الغزالي، دمشق -

سوريا، الطبعة الثانية، (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

[١٢٦]- روح البيان: لإسماعيل حقي البروسوي (ت ١١٣٧هـ)، إسطنبول، (١٩٢٦م).

[١٢٧]- روح القرآن - تفسير جزء عم - : لعفيف عبد الفتاح طيارة، مطبعة دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

[١٢٨]- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني: لأبي الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ)، مطبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.

[١٢٩]- روضة الطالبين: للإمام يحيى بن شرف الدين النووي (ت ٦٧٦هـ)، مطبعة المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.

[١٣٠]- الروضة في القراءات الاحدى عشرة: لأبي علي الحسن بن محمد المالكي (ت ٤٣٨هـ)، تحقيق: مصطفى عدنان محمد سلمان، وهي أطروحة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية الآداب في الجامعة المستنصرية بإشراف الأستاذ الدكتور نبهان ياسين الدليمي، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

[١٣١]- زاد المسير في علم التفسير: للإمام جمال الدين عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، مطبعة المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولى، (١٣٨٧هـ - ١٩٦٨م).

[١٣٢]- زاد المعاد في هدي خير العباد: لابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب وعبد القادر الارنؤوط، مطبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الرابعة عشر، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

[١٣٣]- السبعة في القراءات: لابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ)، تحقيق: الدكتور شوقي ضيف، مطبعة دار المعارف، مصر، بدون تاريخ.

[١٣٤]- سراج القارئ المبتدي وتذكار المقرئ المنتهي: لأبي القاسم المعروف

بابن القاصع (ت ٨٠١هـ)، ضبطه محمد شاهين، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

[١٣٥]- السراج المنير في الاعانة على معرفة بعض معاني كلام الحكيم الخبير: شمس الدين محمد بن محمد الشربيني (ت ٩٧٧هـ)، المطبعة الخيرية، بدون تأريخ.

[١٣٦]- سنن الترمذي المطبوع باسم الجامع الصحيح: لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثالثة، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

[١٣٧]- سنن أبي داود: للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق: عزة عبيد الدعاس وعادل السيد، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، بدون تأريخ.

[١٣٨]- السنن الكبرى: لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، دار الفكر - بيروت، طبعة حجرية.

[١٣٩]- سنن ابن ماجه: للحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، بدون تأريخ.

[١٤٠]- سنن النسائي: للإمام الحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مطبعة دار البشائر الإسلامية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).

[١٤١]- سورة النور: (دراسة وتحليل): لإسماعيل إبراهيم السامرائي، وهي أطروحة دكتوراه مقدمة إلى مجلس كلية العلوم الإسلامية جامعة بغداد، بإشراف الدكتور هاشم جميل عبدالله، سنة (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

[١٤٢]- سير أعلام النبلاء: للإمام الذهبي، حققه جماعة من العلماء بإشراف الشيخ شعيب الارناؤوط، مطبعة مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).

- [١٤٣]- السيرة النبوية: لابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار الرائد العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- [١٤٤]- السيرة النبوية: لأبي محمد عبد الملك بن هشام (ت ٣١٨هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مطبعة دار العلم، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.
- [١٤٥]- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لأبي الفلاح عبد الحي بن عماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.
- [١٤٦]- شرح ديوان الفرزدق: لعبدالله الصاوي، مصر، (١٣٤٥هـ - ١٩٢٦م).
- [١٤٧]- شرح السنة: لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٠هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشاويش، مطبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- [١٤٨]- شرح معاني الآثار: للإمام أبي جعفر الطحاوي (ت ٣٢١هـ)، تحقيق: محمد زهري النجار، مطبعة الأنوار المحمدية، القاهرة، بدون تاريخ.
- [١٤٩]- شعب الإيمان: للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، (ت ٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد سعيد البسيوني زغلول، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
- [١٥٠]- الشعبي فقيهاً: للسيد حمدي فهد محمد الكبيسي، وهي رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، بإشراف الأستاذ المساعد فرج توفيق الوليد، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).
- [١٥١]- الصحاح تاج العروس وصحاح العربية: لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
- [١٥٢]- الصحاح في اللغة والعلوم: لعبدالله العلايلي، إعداد: نديم وأسامة مرعشلي، مطبعة دار الحضارة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).

- [١٥٣]- صحيح البخاري بشرح فتح الباري: للإمام البخاري، مطبعة دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).
- [١٥٤]- صحيح البخاري بشرح الكرمانى: لمحمد بن يوسف الكرمانى (ت٧٨٦هـ)، مطبعة مؤسسة المطبوعات الإسلامية بميدان الأزهر، بدون تاريخ.
- [١٥٥]- صحيح مسلم: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، (١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م).
- [١٥٦]- صحيح مسلم بشرح النووي: للإمام النووي، المطبعة المصرية، بدون تاريخ.
- [١٥٧]- صفة الصفوة: لابن الجوزي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
- [١٥٨]- صفوة التفاسير: لمحمد بن علي الصابوني، مطبعة دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة السادسة، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- [١٥٩]- طبقات الشافعية: لجمال الدين عبد الرحمن بن الحسن بن علي الأسنوي (ت٧٧٢هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- [١٦٠]- طبقات الشافعية الكبرى: لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت٧٧١هـ)، تحقيق: محمد محمود الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م).
- [١٦١]- طبقات الفقهاء: لأبي إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (ت٤٧٦هـ)، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).
- [١٦٢]- الطبقات الكبرى: لمحمد بن سعد (ت٢٣٠هـ)، بتصحيح: ادوارد

سنحو، طبعة مصورة عن طبعة برلين، ليدن، (١٣٢٥هـ).

[١٦٣]- طبقات النحويين واللغويين: لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت٣٧٩هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة محمد سامي أمين الخانجي، مصر، الطبعة الأولى، (١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م).

[١٦٤]- الطلاق وألفاظه المعاصرة في ضوء الفقه الإسلامي: للدكتور عبد الملك عبد الرحمن السعدي، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
[١٦٥]- الظاهرة القرآنية والعقل: لعلاء الدين المدرس، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

[١٦٦]- العبر في خبر من غير: للحافظ الذهبي، تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.
[١٦٧]- عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات: للإمام زكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت٧٣٩هـ)، مطبوع بهامش حياة الحيوان الكبرى، مطبعة دار الفكر، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.

[١٦٨]- العجائب في بيان الأسباب: لابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس، وهي أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية العلوم الإسلامية، جامعة بغداد، بإشراف الأستاذ الدكتور محيي هلال السرحان، (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).

[١٦٩]- عون المعبود شرح سنن أبي داود: لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، مطبعة دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

[١٧٠]- العين: لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، الكويت، (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

[١٧١]- غاية الاختصار في قراءات العشرة أئمة الأمصار: لأبي العلاء الحسن بن أحمد الهمداني (ت٥٦٩هـ)، تحقيق: الدكتور محمد أشرف محمد فؤاد، مطبعة الجماعة الخيرية، جدة، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ - ١٩٩٤م).

- [١٧٢]- غاية النهاية في طبقات القراء: لمحمد بن محمد الجزري (ت ٨٣٣هـ)، مكتبة الخانجي، مصر، (١٣٥١هـ - ١٩٣٢م).
- [١٧٣]- غرائب القرآن ورغائب الفرقان: لنظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري (ت ٧٢٨هـ)، المطبعة الميمنية، مصر، بدون تأريخ.
- [١٧٤]- غيث النفع في القراءات السبع: لولي الدين علي النوري الصفاقسي، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).
- [١٧٥]- فتح الباري لشرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، بمصر، (١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م).
- [١٧٦]- فتح البيان في مقاصد القرآن: لصديق حسن خان (ت ١٣٠٧هـ)، مطبعة العاصمة، القاهرة، بدون تأريخ.
- [١٧٧]- فتح القدير: للإمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي المعروف بابن الهمام الحنفي (ت ٨٦١هـ)، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، (١٣١٧هـ).
- [١٧٨]- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، مطبعة دار المعرفة، بيروت - لبنان، بدون تأريخ.
- [١٧٩]- الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية: لسليمان بن عمر الشهير بالجمال (ت ١٢٠٤هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، بدون تأريخ.
- [١٨٠]- الفقه الإسلامي وأدلته: للدكتور وهبة الزحيلي، مطبعة دار الفكر، دمشق، الطبعة الرابعة، (١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).
- [١٨١]- فقه الإمام سعيد بن المسيب: إعداد الدكتور هاشم جميل عبدالله، مطبعة الارشاد، بغداد، (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).
- [١٨٢]- فوائد في مشكل القرآن: لعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، تحقيق:

الدكتور سيد رضوان علي، مطبعة دار الشروق، جدة، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

[١٨٣]- فيض القدير شرح الجامع الصغير: للعلامة محمد عبد الرؤوف المنامي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، (١٣٥٧هـ - ١٩٣٨م).

[١٨٤]- في ظلال القرآن: لسيد قطب، الطبعة السادسة، بدون تأريخ.

[١٨٥]- القاموس المحيط: لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مطبعة دار الفكر، بيروت، (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

[١٨٦]- قيس من نور القرآن الكريم: لمحمد الصابوني، مطبعة دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤١٨هـ - ١٩٩٨م).

[١٨٧]- القرآن وإعجازه العلمي: لمحمد اسماعيل ابراهيم، مطبعة دار الفكر العربي، القاهرة، (١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

[١٨٨]- القوانين الفقهية: للإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن جزيء الكلبي (ت ٧٤١هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

[١٨٩]- الكافي في القراءات السبع: لأبي عبدالله محمد بن شريح الأندلسي (ت ٤٧٦هـ)، تحقيق: أحمد محمد عبد السميع، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).

[١٩٠]- الكتاب: لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقب بسبيويه (ت ١٨٠هـ)، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، (١٣١٦هـ).

[١٩١]- الكشف عن حقائق غوامض الأقاويل في وجوه التأويل: للإمام الزمخشري، مطبعة دار الكتاب العربي، بيروت، بدون تأريخ..

[١٩٢]- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحجتها: لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: الدكتور محيي الدين رمضان، مطبعة مؤسسة الرسالة،

بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

[١٩٣]- الكليات: لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني (ت ١٠٩٤هـ)، تحقيق: الدكتور عدنان درويش ومحمد المصري، مطبعة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

[١٩٤]- الكنز في القراءات العشر: للإمام عبدالله بن عبد المؤمن الواسطي (ت ٧٤٠هـ)، تحقيق: هناء حمصي، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

[١٩٥]- لباب التأويل في معرفة التنزيل: لعلاء الدين علي بن محمد الخازن (ت ٧٢٥هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، (١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م).

[١٩٦]- اللباب في علوم الكتاب: للإمام أبي حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي (ت ٨٨٠هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، وآخرين، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

[١٩٧]- لباب النقول في أسباب النزول: لجلال الدين السيوطي، مطبعة الملاح، دمشق، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.

[١٩٨]- لسان العرب: لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت ٧١١هـ)، تحقيق: عبدالله علي الكبير وآخرين، طبعة دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.

[١٩٩]- لسان الميزان: لابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).

[٢٠٠]- لغة المنافقين في القرآن: للدكتور عبد الفتاح لاشين، مطبعة دار الرائد العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

[٢٠١]- المبسوط: لشمس الدين أبي بكر محمد بن أحمد بن أبي سهل

السرخسي (ت ٤٨٣هـ)، مطبعة دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

[٢٠٢]- المبسوط في القراءات العشر: لأبي بكر أحمد بن الحسين الأصبهاني (ت ٣٨١هـ)، تحقيق: سبعي حمزة حاكمي، مطبعة مؤسسة علوم القرآن، بيروت، بدون تأريخ.

[٢٠٣]- المجروحين من المحدثين الضعفاء المتروكين: للإمام محمد بن حبان ابن أحمد البستي (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب، (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

[٢٠٤]- مجمع الأمثال: لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري المعروف بالميداني (ت ٥١٨هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الثانية، (١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م).

[٢٠٥]- مجمع البيان من تفسير القرآن: لأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ)، تصحيح: هاشم الرسولي، مطبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، بدون تأريخ.

[٢٠٦]- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: لنور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧هـ) تحرير الحافظ العراقي والحافظ ابن حجر، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

[٢٠٧]- مجمل اللغة: لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مطبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

[٢٠٨]- محاسن التأويل: لمحمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار إحياء الكتب المصرية، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م.

[٢٠٩]- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها: لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٤هـ)، تحقيق: علي النجدي وآخرين، لجنة إحياء التراث، القاهرة، بدون تأريخ.

[٢١٠]- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي محمد بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الأنصاري وآخرين، الدوحة، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

[٢١١]- المحيط في اللغة: لإسماعيل بن عباد (ت ٣٨٥هـ)، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، مطبعة المعارف، بغداد، الطبعة الأولى، (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

[٢١٢]- محيط المحيط: للمعلم بطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت (١٨٧٠م).

[٢١٣]- مختار الصحاح: لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت ٦٦٦هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

[٢١٤]- مختصر في شواذ القراءات من كتاب البديع: لابن خالويه، غني بنشره: برجستراسر، مطبعة دار الهجرة، بدون تأريخ.

[٢١٥]- مختصر في مذاهب القراء السبعة بالأمصار: لأبي عمرو الداني، تحقيق: أحمد محمود عبد السميع الشافعي، مطبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).

[٢١٦]- المخصص: لأبي الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده (ت ٣٥٨هـ)، مطبعة دار الفكر، بدون تأريخ.

[٢١٧]- مدارك التنزيل وحقائق التأويل: لعبدالله بن أحمد بن محمود النسفي (ت ٧٠١هـ)، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، بدون تأريخ.

[٢١٨]- المستدرك على الصحيحين: للإمام أبي عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم (ت ٤٠٥هـ)، تحقيق: عبدالله عبد السلام علوش، مطبعة دار المعرفة، بيروت - لبنان، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

[٢١٩]- المستصفى من علم الأصول: للإمام الغزالي، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، (١٣٢٢هـ).

- [٢٢٠]- المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة: للدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).
- [٢٢١]- مسند الامام أحمد: للإمام الحافظ أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، مطبعة بيت الأفكار الدولية، (١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
- [٢٢٢]- مشكل إعراب القرآن: لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: الدكتور حاتم صالح الضامن، منشورات وزارة الإعلام العراقية، (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).
- [٢٢٣]- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي: لأحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي (ت٧٧٠هـ)، المطبعة الخيرية، مصر، الطبعة الأولى، (١٣٠٥هـ).
- [٢٢٤]- معالم التنزيل: للإمام البغوي، مطبوع بهامش لباب التأويل، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، (١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م).
- [٢٢٥]- مع الأنبياء في القرآن الكريم: لعفيف عبد الفتاح طبارة، مطبعة دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، الطبعة السابعة، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
- [٢٢٦]- معاني القرآن: للأخفش سعيد بن مسعدة المجاشعي (ت٢١٥هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الأمير الورد، مطبعة عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- [٢٢٧]- معاني القرآن: لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت٢٠٧هـ)، مطبعة عالم الكتب، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- [٢٢٨]- معاني القرآن وإعرابه: لأبي اسحاق إبراهيم بن السري الزجاج (ت٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبدة شلبي، مطبعة عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- [٢٢٩]- معجم البلدان: للشيخ شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، مطبعة دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، (١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م).

[٢٣٠]- معجم القراءات القرآنية مع مقدمة في القراءات وأشهر القراء: للدكتور عبد العال سالم مكرم والدكتور أحمد مختار عمر، مطبعة جامعة الكويت، الطبعة الثانية، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

[٢٣١]- معجم متن اللغة: للعلامة أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، (١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م).

[٢٣٢]- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: لمحمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، (١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م).

[٢٣٣]- المعجم الوسيط: أخرجه الدكتور إبراهيم أنيس وآخرون، دار الأمواج، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

[٢٣٤]- معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار: للإمام الذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف وغيره، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

[٢٣٥]- المغرب في ترتيب المعرب: للإمام اللغوي أبي الفتح ناصر الدين المطرزي (ت ٦١٠هـ)، تحقيق: محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، الناشر: مكتبة أسامة بن زيد، حلب - سوريا، الطبعة الأولى، (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).

[٢٣٦]- المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني: للإمام موفق الدين أبي محمد ابن قدامة (ت ٦٢٠هـ)، مطبعة دار الفكر، بيروت - لبنان، بدون تأريخ.

[٢٣٧]- مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج: للخطيب الشربيني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، (١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م).

[٢٣٨]- مفردات ألفاظ القرآن: للعلامة الراغب الأصفهاني المتوفى في حدود (٤٢٥هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).

[٢٣٩]- المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية:

للدكتور عبد الكريم زيدان، مطبعة مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).

[٢٤٠]- مقاييس اللغة: لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، إيران - قم، بدون تأريخ.

[٢٤١]- المكتفى في الوقف والابتدا: لأبي عمرو الداني، تحقيق: جايد زيدان مخلف، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، العراق، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

[٢٤٢]- منار الهدى في بيان الوقف والابتدا: لأحمد بن محمد بن عبد الكريم الأشموني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، (١٩٥٣هـ - ١٩٣٤م).

[٢٤٣]- منتخب قرة عيون النواظر في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: لابن الجوزي، تحقيق: محمد السيد الصفطاوي والدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد، الناشر: منشأة المعارف، الاسكندرية، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).

[٢٤٤]- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: لابن الجوزي، مطبعة دار المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن، الهند، الطبعة الأولى، (١٣٥٨هـ).

[٢٤٥]- المنهج الحركي للسيرة النبوية: لمحمد منير الغضبان، مطبعة مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن، الطبعة الثالثة، (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

[٢٤٦]- من هدي القرآن: للإمام الشيخ محمود شلتوت، مطبعة دار الكتاب العربي، القاهرة، بدون تأريخ.

[٢٤٧]- المذهب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيبة النشر: للدكتور محمد سالم محيسن، مطبعة مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، الطبعة الثانية، (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).

[٢٤٨]- مواهب الرحمن في تفسير القرآن: للشيخ عبد الكريم محمد المدرس، مطبعة دار الحرية للطباعة، بغداد، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

[٢٤٩]- الموسوعة الفقهية: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة

الموسوعة الفقهية، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).

[٢٥٠]- الموطأ: للإمام مالك بن أنس الأصبحي (ت ١٧٩هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة المكتبة الثقافية، بيروت - لبنان، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

[٢٥١]- ميزان الاعتدال في نقد الرجال: للإمام الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، مطبعة دار المعرفة، بيروت - لبنان، بدون تأريخ.

[٢٥٢]- الميزان في تفسير القرآن: لمحمد حسين الطباطبائي، مطبعة دار الكتب الإسلامية، طهران، الطبعة الثالثة، (١٣٩٣هـ).

[٢٥٣]- الناسخ والمنسوخ: لأبي جعفر النحاس، تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام محمد، مطبعة مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

[٢٥٤]- الناسخ والمنسوخ: لأبي القاسم هبة الله بن سلامة (ت ٤١٠هـ)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م).

[٢٥٥]- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤هـ)، المؤسسة المصرية العامة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، بدون تأريخ.

[٢٥٦]- نحو القراء الكوفيين: للسيدة خديجة أحمد مفتي، مطبعة المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

[٢٥٧]- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: لابن الجوزي، تحقيق: عبد الكريم كاظم الراضي، وهو رسالة مقدمة إلى كلية الآداب في الجامعة المستنصرية، من متطلبات درجة الدبلوم العالي المخطوطات، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

[٢٥٨]- نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن: للإمام أبي بكر محمد بن عبد العزيز السجستاني (ت ٣٣٠هـ)، مطبوع بهامش تبصير الرحمن وتيسير المنان، مطبعة

- عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- [٢٥٩]- النشر في القراءات العشر: لابن الجزري، تصحيح: محمد علي الضباع، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، بدون تأريخ.
- [٢٦٠]- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم ابن عمر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، مطبعة مكتبة ابن تيمية، القاهرة، (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م).
- [٢٦١]- النفحات الالهية في شرح متن الشاطبية: للشيخ محمد عبد المنعم خميس، مطبعة دار المنار، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).
- [٢٦٢]- النكت والعيون: لأبي الحسن علي بن حبيب الماوردي (ت ٤٥٠هـ)، تحقيق: خضر محمد خضر، مطبعة معهوي، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).
- [٢٦٣]- النهاية في غريب الحديث والأثر: للإمام أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير (ت ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الراوي ومحمود محمد الطناحي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، الطبعة الأولى، (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).
- [٢٦٤]- نواسخ القرآن: للحافظ ابن الجوزي، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- [٢٦٥]- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار: للإمام الشوكاني، مطبعة دار الفكر، بيروت - لبنان، بدون تأريخ.
- [٢٦٦]- نيل المرام من تفسير آيات الأحكام: لمحمد صديق حسن خان، الطبعة الثانية، (١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م).
- [٢٦٧]- الهجرة والنصرة في القرآن الكريم: للدكتور موسى بناي العليلي، منشورات الدار العربية للموسوعات، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

[٢٦٨]- وجوه من الاعجاز العلمي: لمصطفى الدباغ، مطبعة مكتبة المنار،

الزرقاء - الأردن، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

[٢٦٩]- الوجيز في تفسير القرآن العزيز: للإمام علي بن أحمد الواحدي، مطبوع

بهامش التفسير المنير لمعالم التنزيل، مطبعة دار الفكر، (١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م).

[٢٧٠]- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لأبي العباس شمس الدين أحمد بن

محمد بن أبي بكر بن خلّكان (ت ٦٨١هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد،

الناشر: مكتبة النهضة المصرية، مطبعة السعادة - مصر، الطبعة الأولى، (١٣٦٧هـ -

١٩٤٨م).

محتويات الرسالة

الصفحة	الموضوع
٧.....	الاهداء
٩.....	الشكر والتقدير
١١.....	المقدمة
١٩.....	التمهيد
٢٧.....	الباب الأول: بيوت الله تعالى
٢٩.....	الفصل الأول: بناء البيت الحرام
٣١.....	المبحث الأول: تعيين مكان البيت
٣٧.....	المبحث الثاني: أول البيوت
٤٧.....	المبحث الثالث: قصة اسكان أهل البيت
٥٩.....	المبحث الرابع: رفع قواعد البيت
٦٩.....	الفصل الثاني: الأمن في البيت الحرام
٧١.....	تمهيد
٧٣.....	المبحث الأول: الأمن لمكان البيت
٩٠.....	المبحث الثاني: الأمن لسكن البيت
٩٧.....	المبحث الثالث: الأمن لقاصد البيت
١١١.....	الفصل الثالث: العبادة في بيوت الله تعالى
١١٣.....	المبحث الأول: مظاهر العبادة
١٣١.....	المبحث الثاني: البدعة في العبادة
١٣٥.....	المبحث الثالث: الحج ومناسكه
١٣٥.....	المطلب الأول: تقرير فريضة الحج
١٤٣.....	المطلب الثاني: الطواف بالبيت
١٤٨.....	المطلب الثالث: الهدي الذي يهدى للبيت
١٥٢.....	المطلب الرابع: السعي بين الصفا والمروة
١٦١.....	الباب الثاني: بيوت العالمين
١٦٣.....	الفصل الأول: بيوت الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -
١٦٥.....	تمهيد
١٦٦.....	المبحث الأول: بيت النبي ﷺ
١٦٧.....	المطلب الأول: خروج النبي ﷺ من بيته للجهاد

المطلب الثاني: أمهات المؤمنين في بيت النبي ﷺ	١٧٢
المطلب الثالث: مفهوم أهل البيت	١٨٩
المطلب الرابع: الأدب مع بيت النبي ﷺ	١٩٢
المبحث الثاني: بيوت بقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام	٢٠٨
المطلب الأول: بيت سيدنا نوح وسيدنا لوط عليهما السلام	٢٠٩
المطلب الثاني: بيوت موسى وهارون عليهما السلام وقومهما	٢٢١
الفصل الثاني: بيوت الصالحين	٢٣١
المبحث الأول: نعمة البيوت	٢٣٣
المطلب الأول: نعمة السكن	٢٣٤
المطلب الثاني: كون البيت محلاً للأكل والادخار	٢٤١
المطلب الثالث: دور البيت في حماية المرأة	٢٤٥
الفرع الأول: حبس المرأة في البيت	٢٤٦
الفرع الثاني: بيت العدة	٢٥٤
المبحث الثاني: آداب البيوت	٢٦٥
المطلب الأول: الاستئذان في دخول البيوت	٢٦٧
المطلب الثاني: الأكل في البيوت	٢٨٠
المطلب الثالث: وقاية البيت المسلم من المخالفات الشرعية	٢٩٥
المطلب الرابع: اجتناب العادات الجاهلية لدخول البيوت	٣٠٢
المبحث الثالث: هجرة البيوت ابتغاء مرضات الله تعالى	٣٠٨
المبحث الرابع: إثارة بيوت الآخرة على بيوت الدنيا	٣١٨
الفصل الثالث: بيوت الطالحين	٣٢٣
المبحث الأول: بيوت الدنيا وهوانها على الله تعالى	٣٢٥
المبحث الثاني: بيوت ثمود	٣٣٣
المطلب الأول: تذكير قوم ثمود بنعمة الله تعالى في بيوتهم	٣٣٥
المطلب الثاني: تدمير بيوت ثمود عبرة لغيرهم	٣٤٤
المبحث الثالث: بيوت المنافقين	٣٤٩
المبحث الرابع: الانتقام من اليهود وتخريب بيوتهم	٣٥٧
الفصل الرابع: بيوت بقية المخلوقات	٣٦٧
تمهيد	٣٦٩
المبحث الأول: بيوت النحل	٣٧٠
المبحث الثاني: بيت العنكبوت	٣٧٨
الخاتمة	٣٨٩
تراجم الاعلام	٣٩٤
قائمة المصادر والمراجع	٤١٠
الفهرس	٤٣٩